

18.6.2013

إليف شافاق



قواعد العشق الأربعون

(رواية عن جلال الدين الرومي)

ترجمة: خالد الجبيلي



إليف شافاق

قواعد العشق الأربعون

(رواية عن جلال الدين الرومي)

ترجمة: خالد الجبيلي



طوى
للنشر والإعلام



إليف شافاق: قواعد العشق الأربعون

ولدت إليف شافاق في ستراسبورغ، فرنسا، العام ١٩٧١. وقد حازت جوائز أدبية عدة، وتعد من أكثر الروائيات في تركيا قراءة. وقد أطلق عليها أحد النقاد أنها «واحدة من أكثر الأصوات تميّزاً في الأدب التركي والعالمي المعاصر». ترجمت أعمالها إلى أكثر من ثلاثين لغة، ومنحت وسام فارس التميّز الفخري للفنون والآداب.

أصدرت إليف شفق ١١ كتاباً، منها ثماني روايات. وكتبت الرواية باللغتين التركية والإنكليزية، وهي تمزج التقاليد الغربية والشرقية، وتحكي عن النساء والأقليات والمهاجرات، والثقافات الفرعية، والشباب والأرواح العالمية. وتستمد رواياتها من مختلف الثقافات والتقاليد الأدبية، كما أنها تظهر رغبة عميقة في التاريخ والفلسفة والتصوف، والثقافة الشفوية، والسياسات الثقافية. وتمتاز شفق أيضاً بعينها الثاقبة في الكوميديا السوداء. وكانت روايتها الثانية التي كتبتها باللغة الإنكليزية «لقيطة إسطنبول»، أكثر الروايات مبيعاً في العام ٢٠٠٦ في تركيا، ورشحت لنيل جائزة أورانج. ونتيجة لهذه الرواية التي تروي قصة أسرة أرمنية وأسرة تركية من خلال عيون النساء في هاتين الأسرتين، حكم على شفق بالسجن، لكن الحكم أسقط عنها. وتتناول رواية «قواعد العشق الأربعون» مواضيع العشق، والحب بين الشرق والغرب، والماضي والحاضر، والروحي والدنيوي، كل ذلك من خلال رواية قصة جلال الدين الرومي وشمس التبريزي. وقد بيع من هذه الرواية أكثر من ٦٠٠٠٠٠ نسخة.

«خالد الجبيلي» حائز إجازة في اللغة الإنكليزية وآدابها من جامعة حلب، بسورية، ومن معهد اللغويين في لندن. يعمل حالياً مترجماً ومراجعاً في الأمم المتحدة في نيويورك. لديه عشرات الترجمات في التاريخ والرواية.

Book: Elif Shafak: The Forty Rules of Love

الكتاب: قواعد العشق الاربعون

Author: Elef Shafak

المؤلفة: إليف شافاق

First Edition 2012

الطبعة الاولى ٢٠١٢



طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE,LONDON,NW2,UNITED KINGDOM

Email: tuwa@london.com

TEL: 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع: منشورات الجمل ـ بغداد

باب المعظم، مجاور كلية الهندسة ـ الجامعة المستنصرية

تلفون: ٠٧٨٠٦٢٣٤٥١٤

عندما كنت طفلاً، رأيت الله،
رأيت ملائكة؛
رأيت أسرار العالمَين العلوي والسفلي. ظننت أن جميع الرجال رأوا ما رأيته. لكنّي سرعان ما أدركت أنهم لم يروا. . .

شمس التبريزي

استهلال

تمسك قطعة من الحجر بين أصابعك، ترفعها ثم تلقيها في مياه دافقة. قد لا يكون من السهل رؤية ذلك. إذ ستتشكل مويجة على سطح الماء الذي سقط فيه الحجر، ويتناثر رذاذ الماء، لكن ماء النهر المتدفق يكبحها. هذا كلّ ما في الأمر.

ارمِ حجراً في بحيرة، ولن يكون تأثيره مرئياً فقط، بل سيدوم فترة أطولَ بكثير. إذ سيعكّر الحجر صفو المياه الراكدة، وسيشكّل دائرة في البقعة التي سقط فيها، وبلمح البصر، ستتسع تلك الدائرة، وتتشكّل دائرة إثر دائرة. وسرعان ما تتوسع المويجات التي أحدثها صوت سقوط الحجر حتى تظهر على سطح الماء الذي يشبه المرآة، ولن تتوقف هذه الدائرة وتتلاشى، إلا عندما تبلغ الدوائر الشاطئ.

إذا ألقيت حجراً في النهر، فإن النهر سيعتبره مجرد حركة أخرى من الفوضى في مجراه الصاخب المضطرب. لا شيء غير عادي. لا شيء لا يمكن السيطرة عليه.

أما إذا سقط الحجر في بحيرة، فلن تعود البحيرة ذاتها مرة أخرى.

طوال أربعين عاماً، كانت حياة إيلا روبنشتاين مثل مياه راكدة ـ سلسلة من العادات والاحتياجات والتفضيلات المتوقّعة. ومع أنها

كانت حياة رتيبة وعادية من نواحٍ عدة، فإن إيلا لم تكن تجدها متعبة ومملة. وخلال العشرين السنة الأخيرة، كانت كلّ رغبة تعتريها، وكلّ شخص تصادفه، وكلّ قرار تتخذه، يحدّق من خلال منظار زواجها.

وكان زوجها، ديفيد، طبيب أسنان ناجحاً، يعمل ساعات طويلة، فجمع الكثير من المال. كانت تعرف أن علاقتهما لم تكن عميقة، لكنها كانت تقول لنفسها ليس من الضروري أن يحتل الارتباط العاطفي أولوية في قائمة حياة المتزوجين، ولا سيما بالنسبة لزوجين مضت فترة طويلة على زواجهما. ففي الزواج أشياء أهم بكثير من العاطفة والعشق، كالتفاهم والمودّة والرحمة، وأن أكثر الأشياء الإلهية التي قد يقدم عليها أي زوج، هو الصفح. أما الحبّ فهو ثانوي مقارنة بكلّ هذه الأشياء. إلا إذا كان المرء يعيش في ثنايا الروايات أو الأفلام الرومانسية، حيث يصوَّر الأبطال دائماً أشخاصاً أضخم من الحياة، ولا يعدو حبّهم أن يكون سوى أسطورة.

وكان أطفال إيلا يتصدرون قائمة أولوياتها. فلديهما فتاة جميلة في الجامعة، جانيت، ومراهقان توأمان، أورلي وآفي؛ ولديهما أيضاً سبيريت، الكلب الذهبي اللون البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة، الذي يرافق إيلا في جولاتها الصباحية، والذي كان أشدّ رفاقها سعادة عندما كان جرواً، لكنه كبر الآن، وازداد وزنه، ولم يعد يسمع، وكاد أن يصبح أعمى. لا بد أن حياة سبيريت قد شارفت على نهايتها، لكن إيلا تريد أن تعتقد بأنه سيعيش إلى الأبد. فلم تصادف في حياتها موت أيّ شيء، سواء أكان عادة، أم مرحلة، أم زواجاً، حتى لو برزت أمامها النهاية، جلية وحتمية.

تعيش أسرة روبنشتاين في نورثامبتون، بولاية ماساشوستس، في منزل كبير مشيّد على الطراز الفيكتوري. ومع أن البيت بحاجة إلى بعض الترميم، فهو لا يزال بيتاً رائعاً، وهو يتألف من خمس غرف نوم، وثلاثة حمّامات، تكسوه أرضية خشبية صلبة لامعة، وفيه مرأب يتسع لثلاث سيارات، وله أبواب زجاجية واسعة، كما يوجد جاكوزي في الحديقة. ولدى الأسرة تأمين على الحياة، وتأمين على السيارات، وبرامج للتقاعد، وخطط توفير في الجامعة، ولديها حساب مصرفي مشترك. بالإضافة إلى المنزل الذي يقيمون فيه، لدى الأسرة شقّتان فاخرتان أخريان: شقّة في بوسطن، وأخرى في رود آيلاند. لقد بذلت هي وديفيد جهداً كبيراً للحصول على كل ذلك. بيت واسع يضجُّ بالأطفال، أثاث رائع؛ ومع أن رائحة الفطائر المخبوزة التي تملأ البيت قد تبدو للبعض شيئاً مكرراً، فهي تشكل لهما صورة لحياة مثالية. لقد أقاما زواجهما على هذه الرؤية المشتركة فحققا الكثير من أحلامهما، إن لم يكن كلّها.

في عيد فالانتاين الأخير، أهداها زوجها قلادة ماسية على شكل قلب، مرفقة ببطاقة كُتب فيها:

إلى عزيزتي إيلا،

المرأة الهادئة الطباع، ذات القلب الطيب، التي تتحلى بصبر قديسة، أشكرك لأنك تقبلينني كما أنا. أشكرك لأنك زوجتي.

حبيبك

ديفيد

لم تعترف إيلا لديفيد بذلك من قبل، لكنها عندما قرأت بطاقته،

أحست بأنها تقرأ نعياً. قالت لنفسها: هذا ما سيكتبونه عني عندما أموت، وإن كانوا مخلصين، يمكنهم إضافة هذه العبارة أيضاً:

مع أن إيلا كانت قد ركزت جلّ حياتها على زوجها وأطفالها، فهي تفتقر إلى أساليب الحياة التي قد تساعدها على التغلّب على مشاق الحياة وحدها. فهي ليست من النوع الذي يحب المجازفة، إذ إن تغيير نوع القهوة التي تحتسيها كلّ يوم، يعتبر جهداً كبيراً بالنسبة لها.

ولهذه الأسباب جميعها، لم يستطع أحد، بمن فيهم إيلا نفسها، تفسير حقيقة ما يجري عندما تقدمت بطلب للطلاق في خريف العام ٢٠٠٨، بعد مضي عشرين سنة على زواجها.

* * *

لكن، كان هناك سبب. إنه الحبّ.

لم يكونا يعيشان في المدينة نفسها، ولا حتى في القارة ذاتها. ولم تكن تفصلهما أميال كثيرة فقط، بل كانا كذلك مختلفين اختلاف الليل والنهار. وكان أسلوبا حياتهما مختلفين إلى درجة استحالة أن يتحمّل أحدهما وجود الآخر، فما بالك بأن يحبّ أحدهما الآخر. لكنّ ذلك حدث فعلاً. وقد حدث ذلك بسرعة، بسرعة كبيرة لم يتح لإيلا فيه وقت لتدرك حقيقة ما يجري، ولكي تحذر من الحبّ.

دهم الحبّ إيلا بغتة وبعنف كما لو أن أحداً ألقى حجراً من مكان ما في بركة حياتها الساكنة.

إيلا

نورثامبتون، ١٧ أيار (مايو) ٢٠٠٨

كانت الطيور تغرد خارج نافذة المطبخ في ذلك اليوم الربيعي المعتدل. وبعد أن استرجعت إيلا المشهد في ذاكرتها، ليس ذلك الجزء من الماضي فقط، خيّل إليها أن لحظة مستمرة لا تزال تجري في مكان آخر في الكون.

كان جميع أفراد الأسرة متحلقين حول المائدة، يتناولون طعام الغداء في عصر يوم السبت. كان زوجها يملأ صحنه بأفخاذ الدجاج المقلي، طبقه المفضّل؛ وكان آفي يعبث بسكينه وشوكته كأنهما عَصَوان يقرع بهما طبلاً، بينما كانت أخته التوأم أورلي تحاول أن تعدّ كم لقمة يمكن أن تتناول لتحصل على ٦٥٠ سعرة حرارية يومياً كي لا تفسد نظام حميتها؛ وبدت جانيت، التي كانت لا تزال في سنتها الأولى في جامعة ماونت هوليوك القريبة، سارحة في أفكارها وهي تدهن كريمة الجبنة البيضاء الطرية على شريحة خبز أخرى. كما كانت تشاركهم الطعام العمّة إستر التي جاءت لتحضّر لهم قالب الكاتو الذي تشتهر بصنعه، ومكثت لتشاركهم طعام الغداء. ومع أنه كانت لدى إيلا

أعمال منزلية كثيرة، فقد فضّلت مشاركتهم، لأنهم غالباً لم يعودوا مؤخراً يتناولون طعامهم معاً، واعتبرت أن هذه فرصة ذهبية ليجتمعوا معاً من جديد إلى المائدة.

«إستر، هل أخبرتك إيلا بالأخبار الجيدة؟». سأل ديفيد فجأة، «لقد وجدت عملاً مهماً».

مع أن إيلا كانت قد تخرّجت في الجامعة وحازت على الإجازة في الأدب الإنكليزي، ومع أنها تحبّ قراءة الروايات، فإنها لم تعمل في مجال اختصاصها بعد تخرجها، سوى عملها على تحرير بعض المقالات القصيرة لبعض المجلات النسائية، ومشاركتها في عدد من نوادي الكتب، وكتابتها بين الحين والآخر مقالات لعدة صحف محلية. كان ذلك كلّ ما في الأمر. وكانت تطمح أحياناً إلى أن تصبح ناقدة كتب مشهورة، لكنها تقبّلت، بعد ذلك، الواقع بأن الحياة قد أخذتها إلى مكان آخر، وجعلتها ربّة منزل مجدّة، تعتني بأطفالها الثلاثة، وتضطلع بمسؤوليات منزلية لا نهاية لها.

لم تكن تتذمّر. فهي الأمّ والزوجة، المنهمكة غالباً في أعمالها المنزلية، وكانت ترافق الكلب في النزهة الصباحية، ولم تكن مسؤولة عن إعالة الأسرة. ومع أن صديقاتها الأخريات في جامعة سميث من أنصار المساواة بين الرجل والمرأة، لم يوافقنها على اختيارها هذا، فقد رضيت بأن تكون أمّاً لا تبرح البيت، وشعرت بالامتنان لأنها تمكنت هي وزوجها من تحمّل ذلك. لكنها لم تتخل عن شغفها بالقراءة، ولم تزل تعتبر نفسها قارئة نهمة.

لكن الأمور بدأت تتغير منذ سنوات قليلة. فقد كبر الأطفال، وبدأوا

يظهرون لها أنهم لم يعودوا بحاجة إليها كما كانوا من قبل. وعندما أدركت إيلا أنه أصبح لديها متسع من وقت الفراغ، ولم يعد يوجد من تنشغل به أو تمضي معه وقتها، بدأت تفكّر بالبحث عن عمل، وقد شجّعها ديفيد على ذلك. وبالرغم من أنهما ظلاّ يتحدّثان عن هذا الأمر، فإنها نادراً ما سعت إلى اغتنام الفرص التي وجدتها، فعندما كانت تجد عملاً، كان ربّ العمل يقول لها إنهم يبحثون عن شخص أصغر سناً، أو شخص ذي خبرة أوسع. وخشية من أن تُرفض باستمرار، تجاهلت الأمر.

وفي أيار (مايو) ٢٠٠٨، زالت جميع العوائق التي كانت تحول دون عثورها على عمل طوال هذه السنوات. فقبل قرابة أسبوعين من عيد ميلادها الأربعين، وجدت نفسها تعمل لصالح وكالة أدبية يقع مقرّها في بوسطن. فقد عثر لها زوجها على هذه الوظيفة بواسطة أحد زبائنه ـ أو ربما عن طريق إحدى عشيقاته ـ.

فقالت إيلا: «إنه ليس عملاً مهماً، فأنا لست سوى قارئة غير متفرغة لأعمال أدبية لصالح وكالة أدبية».

لكن ديفيد بدا عازماً على ألاّ يدعها تقلل من أهمية عملها الجديد، فقال يحثّها: «هيا، قولي لهم إنها وكالة أدبية معروفة»، وعندما لم تفعل، قال موافقاً: «إنها وكالة أدبية مرموقة يا إستر. يجب أن تري المساعدين الآخرين! الفتيات والفتيان المتخرجون حديثاً من أفضل الجامعات. وإيلا هي المرأة الوحيدة التي عادت إلى العمل بعد أن كانت ربّة منزل لسنوات طويلة. أليس هذا شيئاً مهماً؟».

تساءلت إيلا هل يشعر زوجها في أعماقه بالذنب لأنه أبعدها عن

العمل طوال تلك السنوات، أم لأنه كان يخونها. لم تتمالك نفسها عن التفكير بهذين الاحتمالين، بسبب حماسته الشديدة في أن تعمل الآن.

كان ديفيد لا يزال مبتسماً، عندما اختتم حديثه: «وهذا ما أسميه الثقة المطلقة بالنفس. إننا نفتخر بها جميعاً».

«إنها مكافأة. إنها تستحقها حقاً»، قالت العمّة إستر بصوت عاطفي رقيق وكأن إيلا ستترك المائدة إلى الأبد.

راحوا يحدّقون جميعاً بها بحبّ ومودّة. ولم يبد آفي ملاحظة متهكمة كعادته، وبدا أن أورلي بدأت تهتم لأول مرة بشيء غير مظهرها. وأرغمت إيلا نفسها على تقدير هذه اللحظة من المودة والرقة، لكنها أحست بإعياء شديد لم يعترها من قبل. وتمنّت لو أن أحدهم يغيّر الموضوع.

لا بد أن جانيت، ابنتها الكبرى، قد سمعت أمنيتها، لأنها قالت فجأة: «وأنا أيضاً لديّ خبر جيّد».

التفتت الرؤوس جميعها نحوها، وجوه تشع بابتسامة متوقعة.

«لقد قررنا أنا وسكوت أن نتزوج»، أعلنت جانيت، «أعرف ماذا ستقولون! إننا لم ننه دراستنا وما إلى ذلك، لكنكم يجب أن تفهموا أننا مستعدّان لاتخاذ الخطوة الكبيرة التالية».

خيّم صمت يشي بالحرج على المائدة بعد أن تلاشى الدفء الذي كان يحيط بهم منذ لحظة. تبادلت أورلي وآفي نظرات ساهمة، وتسمّرت العمّة إستر، ويدها مشدودة حول كأس عصير التفاح. وضع ديفيد شوكته جانباً، كأن شهيته للطعام قد تلاشت فجأة، وحدّق في

جانيت بعينيه البنيتين الفاتحتين. توقف عن الابتسام، وزمّ شفتيه، كأنه تناول جرعة من الخلّ.

«عظيم! كنت أتوقّع أن تشاركوني سعادتي، لكنّي لم أحصل منكم إلا على هذه المعاملة الباردة»، قالت جانيت، وبدأت تنتحب.

«هل قلتِ إنكما ستتزوّجان؟»، سأل ديفيد وكأنه يريد أن يتأكد مما قالته جانيت.

«بابا، أعرف أن هذا قد يبدو مبكراً جداً، لكن سكوت اقترح عليّ الزواج منذ عدة أيام وقد وافقت على ذلك».

«لكن لماذا؟»، سألت إيلا.

من نظرة جانيت إليها، عرفت إيلا أن ابنتها لم تكن تتوقع سماع هذا السؤال منها، بل ربما كان عليها أن تسألها: «متى؟» أو: «كيف؟». وفي كلتا الحالتين، فإن ذلك يعني البدء في البحث عن ثوب الزفاف، أما سؤالها «لماذا؟» فقد فاجأها تماماً.

«لأني أظن أني أحبّه»، قالت جانيت بنبرة تشي بشيء من الاستسلام.

«حبيبتي، إن ما أقصده لم العجلة؟»، أصرّت إيلا، «هل أنت حامل مثلاً؟».

انتفضت العمّة إستر في كرسيها، وتجهّم وجهها، وغزته تعابير تشي بالألم. تناولت من جيبها قرصاً لإزالة الحموضة، وراحت تمضغه.

«سأصبح خالاً»، قال آفي، ضاحكاً.

أمسكت إيلا يد جانيت وضغطت عليها برفق، وقالت: «يمكنك أن تقولي لنا الحقيقة دائماً. إنك تعرفين ذلك. سندعمك مهما كان الأمر».

«ماما، أرجوك كفيّ عن ذلك؟»، انتفضت جانيت، وسحبت يدها قائلة: «لا علاقة لهذا بالحمل. إنك تحرجينني».

«أحاول أن أساعدك فقط»، ردّت إيلا بهدوء. الهدوء الذي بدأت تكتشف مؤخراً أنه أمر يصعب تحقيقه.

«إنك تريدين إهانتي. من الواضح أنك لا ترين في زواجي من سكوت إلا أن أحمل منه! هل خطر لك أنني قد أكون أحبّه، وأنني أريد أن أتزوج هذا الرجل لأنني أحبّه؟ إننا نلتقي منذ ثمانية أشهر».

فردت إيلا ساخرة: «آه، نعم، وكأنك تستطيعين أن تتعرفي على شخصية رجل خلال ثمانية أشهر! لقد مرّ على زواجي أنا ووالدك عشرون سنة، ومع ذلك، لا يمكننا أن ندّعي أن أحدنا يعرف كلّ شيء عن الآخر. إن ثمانية أشهر لا تعتبر شيئاً في أي علاقة».

«خلق الله الكون في ستة أيام»، قال آفي، مبتسماً، لكن النظرات الباردة التي رمقه بها جميع الجالسين إلى المائدة أعادته إلى صمته.

وعندما خيّم شعور متزايد بالتوتّر، تدخّل ديفيد، مثبّتاً عينيه على ابنته الكبرى، عاقداً حاجبيه، وقال: «حبيبتي، إن ما تحاول أمّك أن تقوله لك هو أن التواعد شيء، والزواج شيء آخر».

فسألته جانيت: «لكن بابا، هل تظن أننا سنتواعد إلى الأبد؟».

أخذت إيلا نفساً عميقاً، وقالت: «بصراحة، كنا نتوقّع أن تجدي شاباً أفضل منه. إنك لا تزالين صغيرة على إقامة أيّ علاقة جدّية».

«أتعرفين يا أمّي؟» قالت جانيت بصوت منخفض، يكاد لا يسمع، «أظن أنك تسقطين علاقتك على علاقتي. فبما أنك تزوجتِ في سن

صغيرة، وحملتِ عندما كنتِ في عمري، لا يعني أنني سأرتكب الخطأ نفسه».

احمرّ وجه إيلا، وكأن أحداً صفعها على وجهها. فقد تذكّرت في أعماقها فترة حملها الصعبة التي أفضت إلى ولادة جانيت خديجاً. وقد استنزفت وليدتها كلّ طاقتها، مما اضطرها إلى الانتظار ست سنوات أخرى حتى تحمل ثانية.

«حبيبتي، كنا سعداء للغاية عندما بدأت تلتقين بسكوت»، قال ديفيد حذراً، محاولاً أسلوباً مختلفاً، «فهو شاب لطيف، لكن من يعرف كيف ستتغير آراؤك بعد تخرجك من الجامعة؟ فقد تختلف اختلافاً تاماً».

هزّت جانيت رأسها قليلاً، وأبدت شيئاً من الإذعان المفتعل، ثمّ سألت: «هل هذا كله لأن سكوت ليس يهودياً؟».

حملق فيها ديفيد غير مصدق ما سمعته أذناه. فقد كان يفتخر بأنه أب منفتح ومثقّف، ولم يبد قط آراء ولا ملاحظات سلبية تتعلق بالعرق أو الدين أو الجنس في البيت.

بدت جانيت متشبثة برأيها، فالتفتت إلى أمّها، وسألتها: «هل يمكنك أن تنظري في عينيّ مباشرة، وتقولي لي إنك كنت ستعترضين لو كان سكوت شاباً يهودياً اسمه هارون؟»، وتخلل صوت جانيت شيء من المرارة والتهكّم، مما جعل إيلا تخشى وجود أشياء كثيرة تعتمل في صدرها.

«حبيبتي، سأكون صادقة تماماً معك، حتى لو لم يعجبك ما سأقوله. أعرف كم هو رائع أن يكون المرء شاباً وعاشقاً. صدقيني.

لكن الزواج من شخص ينتمي إلى خلفية مختلفة مقامرة كبيرة، وأنا وأبوك نريد أن نتأكد من أنك اخترت الرجل المناسب».

«وكيف تعرفين أن الاختيار المناسب لك هو الاختيار المناسب لي؟».

أصاب السؤال إيلا بالذهول بعض الشيء. فأطلقت تنهيدة، وفركت جبينها، كأن داء الشقيقة سيدهمها.

«أنا أحبّه يا أمّي. هل يعني هذا لك شيئاً؟ هل تتذكّرين هذه الكلمة من مكان ما؟ إنها تجعل قلبي يخفق بقوة. لا يمكنني أن أعيش من دونه».

سمعت إيلا نفسها تضحك ضحكة مكتومة. لم يكن في نيتها أن تسخر من مشاعر ابنتها، أبداً، لكن ربما بدت ضحكتها المكتومة، ولأسباب تجهلها تماماً، متوترة للغاية. فقد تشاجرت كثيراً هي وجانيت، مئات المرات، لكنها أحسّت اليوم كأنها تتشاجر مع شيء آخر، شيء أكبر.

«ماما، ألم تحبّي أحداً في حياتك؟»، ردّت جانيت، وفي نبرتها شيء ينم عن قلة احترام.

«توقفي قليلاً! ألن تكفّي عن الاستغراق في أحلام اليقظة وتعودي إلى أرض الواقع؟ لقد أصبحت....»، واتجهت عينا إيلا نحو النافذة، تبحث عن كلمة مثيرة، حتى خطرت لها أخيراً كلمة «رومانسية!».

«وما الضير في أن أكون رومانسية؟»، سألت جانيت، وفي صوتها نبرة تشي بأنها أهينت.

حقاً ما الضير في أن تكون رومانسية؟ تساءلت إيلا. منذ متى تزعجها كلمة رومانسية؟ وعندما لم تتمكن من الإجابة عن الأسئلة القابعة عند حواف دماغها، واصلت كلامها، «هيا، يا حبيبتي. في أيّ قرن تعيشين؟ ضعي هذا في رأسك، إن النساء لا يتزوّجن من يحببن، بل يخترن الرجل الذي سيكون أباً جيداً، وزوجاً يمكنهن الاعتماد عليه. فالحبّ إحساس جميل يأتي لكنه سرعان ما يتلاشى».

عندما أنهت إيلا كلامها، التفتت نحو زوجها. عقد ديفيد يديه أمامه، ببطء، كأنه يعقدهما عبر الماء، وراح ينظر إليها كأنه يراها الآن لأول مرة في حياته.

فقالت جانيت: «أعرف لماذا تفعلين ذلك، لأنك تغارين لأنني سعيدة وشابة. إنك ترغبين في أن تجعلي مني ربّة بيت حزينة. إنك تريدين أن أكون مثلك يا أمّي».

اعترى إيلا شعور غريب يحفر في تجويف معدتها، كأن صخرة عملاقة تقبع فيها. فهل هي ربّة منزل غير سعيدة؟ أمّ في منتصف العمر عالقة في شباك زواج فاشل؟ أهكذا يراها أطفالها؟ وزوجها أيضاً؟ وماذا عن الأصدقاء والجيران؟ وفجأة تملكها شعور بأن جميع من حولها يرثي لها. كان شكّها هذا مؤلماً للغاية، فانطلقت من فمها تنهيدة.

«يجب أن تعتذري من أمّك»، قال ديفيد، ملتفتاً إلى جانيت متجهّماً.

«لا يهمّ. إني لا أنتظر منها أي اعتذار»، قالت إيلا باكتئاب.

ألقت جانيت نظرة خبيثة على أمّها، ودفعت كرسيها إلى الخلف، وألقت بمنديلها جانباً، وخرجت من المطبخ محتدمة. وبعد لحظات،

تبعتها أورلي وآفي بصمت. هل كان سلوكهما هذا نابعاً من تضامنهما غير العادي مع أختهما الكبرى، أم لأنهما شعرا بالملل من كلام الكبار هذا؛ ثم غادرت العمّة إستر، ملتمسة عذراً غير مقنع، وهي تمضغ آخر حبة مضادة للحموضة.

ظل ديفيد وإيلا جالسين إلى المائدة، وخيّم إحساس بارتباك شديد بينهما. كان الشيء الذي يؤلم إيلا أنها تواجه هذا الفراغ، الذي لم يكن له علاقة، كما يعرفان، بجانيت أو بأيّ طفل من أطفالهما.

أمسك ديفيد الشوكة التي وضعها جانباً وحدّق فيها لوهلة، وقال: «إذاً هل يمكنني أن أستنتج أنك لم تتزوجي الرجل الذي أحببته؟».

«أرجوك، لم يكن هذا ما قصدته».

«ماذا كنت تقصدين؟»، سأل ديفيد، وهو لا يزال يتحدث إلى الشوكة، «كنت أظن أنك كنت تحبينني عندما تزوّجنا».

«كنت أحبّك»، قالت إيلا، لكنها أضافت، «آنذاك».

«ومتى توقّفت عن حبي؟»، سأل ديفيد بصوت يخلو من أي تعبير.

نظرت إيلا إلى زوجها بدهشة، مثل امرأة لم تر انعكاس صورتها قط، لكنها امرأة أمسكت الآن مرآة ورفعتها إلى وجهها. هل توقّفت عن حبّه؟ كان سؤالاً لم تطرحه على نفسها من قبل. كانت تريد أن تجيب عن سؤالها هذا، لكن الشيء الذي كان يعوزها هو الكلمات. وكانت تعرف في أعماقها أنهما هما اللذان يجب أن يعالجا الأمر، لا أطفالهما. لكنهما بدلاً من ذلك، كانا يبذلان أفضل ما بوسعهما: وهو أن يدعا الأيام تمضي، وأن يهيمن الروتين على حياتهما، وأن يسير الزمن في مجراه من الفتور الحتمي.

أجهشت في البكاء، غير قادرة على إيقاف هذا الحزن الدائم الذي أضحى، من دون علمها، جزءاً من كيانها. أشاح ديفيد بوجهه المتجهم. فقد كانا يعرفان أنه لا يحب أن يراها تبكي، بقدر ما كانت تكره أن تبكي أمامه. ولحسن حظهما، أنقذهما رنين جرس الهاتف.

رفع ديفيد سماعة الهاتف، وقال: «ألو... نعم، إنها هنا. انتظري قليلاً من فضلك».

استجمعت إيلا نفسها وبدأت تتكلم، باذلة كل ما بوسعها لكي تبدو في حالة نفسية جيدة، وقالت: «نعم، إيلا تتكلم».

«ألو، هذه ميشيل. آسفة لإزعاجك في عطلة نهاية الأسبوع»، جاءها صوت امرأة شابّة، «البارحة طلب مني ستيف أن أتصل بك، لكني نسيت. هل بدأت قراءة المخطوط؟».

«آه»، تنهّدت إيلا، بعد أن تذكّرت المهمة التي تنتظرها. أول عمل ترسله لها الوكالة الأدبية، وهو قراءة رواية كتبها مؤلف أوروبي غير معروف. وكتابة تقرير شامل عنها. «أخبريه ألا يقلق. فقد بدأت قراءتها»، قالت إيلا كاذبة. فهي المرأة الطموحة والعنيدة، لم تشأ أن تزعج ميشيل من أول عمل طلب منها إنجازه.

«حسناً! كيف تسير الأمور؟».

صمتت إيلا قليلاً، لم تعرف ماذا تقول. فلم تكن تعرف شيئاً عن المخطوط، سوى أنه مخطوط رواية تاريخية عن حياة الشاعر الصوفي المعروف الرومي، الذي عرفت أيضاً أنه يعتبر «شكسبير العالم الإسلامي».

«إنها رواية صوفية»، ضحكت إيلا، آملة أن تغطي كلامها بمزحة.

لكن ميشيل كانت مشغولة، وقالت على نحو قاطع: «حسناً، اسمعي، أظن أن كتابة تقرير عن رواية كهذه يحتاج إلى وقت أطول مما تتوقعين...».

سمعت همهمة بعيدة على الهاتف عندما خفت صوت ميشيل. تخيّلت إيلا أنها تقوم بعدة أعمال في آن واحد ـ تقرأ رسائلها الإلكترونية، تقرأ مراجعة لأحد المؤلفين، تقضم سندويشة سلطة التونا، وتطلي أظافرها ـ كل ذلك خلال حديثها على الهاتف.

«ألا تزالين هناك؟»، سألت ميشيل بعد دقيقة.

«نعم».

«حسناً. اسمعي، إن الوضع محتدم هنا. يجب أن أذهب. تذكري فقط أن الموعد النهائي لتسليم العمل هو بعد ثلاثة أسابيع».

«أعرف»، قالت إيلا بغتة، محاولة أن تبدو أكثر تصميماً، «سيكون العمل جاهزاً في الموعد المحدد».

لكن الحقيقة هي أن إيلا لم تكن واثقة من رغبتها في تقييم هذا المخطوط؛ فقد كانت في البداية شديدة الحماسة والثقة. وكانت سعيدة لأنها أول شخص يقرأ رواية لكاتب مغمور لم تنشر بعد، وأن يكون لها دور، مهما كان صغيراً، في تقرير مصير هذا الكاتب. لكنها لم تعد واثقة الآن من أنها ستتمكن من التركيز على موضوع لا علاقة له بحياتها مثل موضوع الصوفية، تدور أحداثه في زمن يعود إلى القرن الثالث عشر.

لا بد أن ميشيل قد تبينت ترددها، فسألتها: «هل هناك مشكلة؟».

عندما لم تسمع جواباً، ازدادت إصراراً وقالت: «اسمعي، يمكنك أن تقولي لي ما ترغبين في قوله».

بعد برهة من الصمت، قرّرت إيلا أن تقول الحقيقة.

«أظن أنني لست في أفضل حالاتي الذهنية هذه الأيام حتى أركّز على رواية تاريخية. أقصد أنني لست مهتمّة بالرومي وما إلى ذلك، لكن الموضوع لا يزال غريباً عليّ. ليتك تعطيني رواية أخرى ـ شيئاً أكثر ارتباطاً بي».

«يا لها من نظرة غريبة»، قالت ميشيل، «أتظنين أنه يمكنك أن تعملي أفضل لو قرأتِ شيئاً تعرفينه جيداً؟ لا أبداً! أفلأنك تقيمين في هذه الولاية، يخيّل إليك أنك تستطيعين تحرير روايات تدور أحداثها في ولاية ماساشوستس، هل هذا صحيح؟».

«ليس هذا ما أقصده...»، قالت إيلا، وأدركت على الفور أنها لفظت الجملة ذاتها عدة مرات بعد ظهر اليوم، وألقت نظرة على زوجها لترى هل لاحظ هو أيضاً ذلك، لكن كان من الصعب عليها أن تفسّر قسمات وجه ديفيد.

«في معظم الأحيان، يتعين علينا أن نقرأ كتباً لا علاقة لها بحياتنا. هذا جزء من عملنا. فخلال هذا الأسبوع، قرأت كتاباً كتبته امرأة إيرانية كانت تدير بيت دعارة في طهران، فاضطرت إلى الهروب من البلد. فهل أطلب منها أن ترسل المخطوط إلى ناشر إيراني بدلاً من ذلك؟».

«طبعاً لا»، همهمت إيلا، وأحست بأنها سخيفة ومذنبة.

«ألا يعتبر ربط الناس بأراضٍ وثقافات بعيدة مواطن قوة في الأدب الجيد؟».

«بالتأكيد. اسمعي، انسي ما قلته لك. ستجدين تقريراً على طاولتك

قبل الموعد المحدد»، قالت إيلا. أحست بالكراهية تجاه ميشيل لأنها تعاملها كما لو كانت أشد الأشخاص ضجراً وتبلداً، وكرهت نفسها لأنها تركت ذلك يحدث.

«رائع، هذه هي الروح المطلوبة»، قالت ميشيل كأنها تغني، «لا تسيئي فهمي، لكني أظن أنك يجب أن تتذكري أن العشرات يتمنون الحصول على عملك هذا، وجلهم في نصف عمرك تقريباً. إن هذا سيبقيك متحمسة للعمل».

عندما أغلقت إيلا السماعة، وجدت ديفيد ينظر إليها، وقد بدت على وجهه أمارات الجدّ والتحفظ. كان يبدو أنه ينتظر أن يبدأ من حيث انتهيا، لكنها لم تعد تريد أن تتحدث عن مستقبل ابنتها، إذا كان ذلك ما كان يقلقهما في المقام الأول.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، وجدت نفسها تجلس وحيدة على الشرفة، في كرسيها الهزاز الذي تحب الجلوس عليه، تحدّق في الغروب بلونه الأحمر المائل إلى البرتقالي في نورثامبتون، وبدت لها السماء قريبة جداً منها، ومكشوفة إلى درجة أنها تكاد تستطيع أن تلمسها. هدأ عقلها الذي بدا أنه تعب من الضجيج الذي كان يدور في داخله: تسديد فواتير بطاقة الائتمان هذا الشهر، وعادات أورلي السيئة في تناول الطعام، ودرجات آفي المتدنية في المدرسة، والعمّة إستر وكعكاتها الحزينة، وصحة كلبها «سبيريت» الآخذة في التدهور، ومخططات زواج جانيت، وعلاقات زوجها الغرامية السرية، وغياب الحبّ من حياتها... والواحدة تلو الأخرى، أقفلت عليها جميعها في صناديق عقلية صغيرة. وفي حالتها النفسية تلك، أخرجت إيلا

المخطوط ورفعته بيدها كأنها تريد أن تزنه. كان عنوان الرواية مكتوباً على الغلاف بحبر أزرق غامق: «الكفر الحلو».

عرفت إيلا أن أحداً لا يعرف الكثير عن المؤلف ـ الذي يدعى أ. ز. زاهارا، ويعيش في هولندا. وكان مخطوطه قد أرسل إلى الوكالة الأدبية من آمستردام، ووجدت في المغلف بطاقة بريدية، عليها صورة حقول أزهار الزنبق بألوان صفراء وأرجوانية رائعة، وقد كتبت على جانبها الخلفي ملاحظة بخط جميل:

سيدي/ سيدتي،

تحيات من آمستردام. تدور أحداث الرواية المرسلة طيه، في القرن الثالث عشر في قونية بآسيا الصغرى، لكنني أظن بصدق أن أحداثها تسري على جميع البلدان والثقافات والقرون.

أرجو أن يتاح لكم الوقت لقراءة رواية «الكفر الحلو»، وهي رواية باطنية تاريخية، عن العلاقة الرائعة التي تربط بين الرومي، أفضل شاعر وأعظم زعيم روحي مبجّل في التاريخ الإسلامي، وشمس التبريزي، الدرويش المميز، المجهول، المليء بالفضائح والمفاجآت.

أرجو أن يرافقكم الحبّ دائماً، وأن يحيط بكم على الدوام.

أ. ز. زاهارا

أحسّت إيلا بأن هذه البطاقة البريدية أثارت فضول الوكيل الأدبي، لكن ليس لدى ستيف الوقت الكافي لقراءة رواية كتبها كاتب هاوٍ، فأعطى المغلف لمساعدته ميشيل التي أعطتها لمساعدتها الجديدة.

وبهذه الطريقة أضحت رواية «الكفر الحلو» بين يدي إيلا. لم تكن تعرف أن هذا الكتاب لن يكون مجرد كتاب عادي، بل كتاب سيغيّر حياتها، وأنه عندما تقرأه، سيعيد كتابة قصة حياتها.

قلّبت إيلا الصفحة الأولى. كانت هناك ملاحظة عن الكاتب.

أ. ز. زاهارا يعيش في آمستردام مع كتبه، وقططه، وسلاحفه، هذا عندما لا يكون مسافراً في أصقاع الأرض. إن رواية «الكفر الحلو» هي روايته الأولى، وربما كانت روايته الأخيرة. فليست لديه النية في أن يصبح روائيًا، إذ كتب هذه الرواية من باب الإعجاب المحض، وبدافع من حبه الشديد للشاعر العظيم، الصوفي، الرومي وشمسه العزيزة، شمس التبريزي.

انتقلت عيناها نحو أسفل الصفحة إلى السطر التالي. وقرأت إيلا شيئاً بدا مألوفاً على نحو غريب:

لأنه على الرغم مما يقوله البعض، فإن العشق ليس مجرد شعور حلو مقدّر له أن يأتي ويذهب بسرعة.

فغرت إيلا فمها عندما أدركت أن هذه العبارة نقيض العبارة التي قالتها لابنتها في المطبخ في ذلك اليوم. لبثت واقفة للحظة، ترتعش عندما خطرت لها فكرة أن قوة غامضة أو قوة أخرى في هذا الكون، بأنّ هذا الكاتب، أو أي شخص آخر، يتجسّس عليها. لعله كتب هذا الكتاب وهو يعرف سلفاً من هو أول شخص سيقرأه. لا بد أن الكاتب يعرف أنها ستكون أول قارئة له. ولسبب مجهول لا تعرفه، وجدت إيلا الفكرة مزعجة ومثيرة في آن معاً.

بأشكال عدة، لا يختلف القرن الحادي والعشرون كثيراً عن القرن الثالث عشر. وسيدوّن في التاريخ أن هذين القرنين كانا عصر صراعات دينية إلى حد لم يسبق له مثيل، وعصر ساد فيه سوء التفاهم الثقافي، والشعور العام بعدم الأمان والخوف من الآخر. وفي أوقات كهذه، تكون الحاجة إلى الحبّ أشد من أي وقت مضى.

هبّت ريح مفاجئة نحوها، باردة وقوية، فبعثرت الأوراق على الشرفة: تحوّل جمال الغروب نحو الأفق الغربي، وبدا الهواء كليلاً كئيباً.

ولمّا كان العشق جوهر الحياة وهدفها السامي، كما يذكّرنا الرومي، فإنه يقرع أبواب الجميع، بمن فيهم الذين يتحاشون الحبّ ـ حتى الذين يستخدمون كلمة «رومانسية» كإشارة إلى الرفض والاستهجان.

شعرت إيلا بدهشة كما لو أنها قرأت: «إنه يقرع أبواب الجميع، حتى باب ربّة بيت في منتصف العمر، تعيش في نورثامبتون، تدعى إيلا روبنشتاين».

دفعتها غريزتها إلى وضع المخطوط جانباً، والدخول إلى البيت، ومخابرة ميشيل، لتقول لها إنها لا تستطيع أن تكتب تقريراً عن هذه الرواية. لكنها بدلاً من ذلك، أخذت نفساً عميقاً، وقلبت الصفحة، وراحت تقرأ.

الكفر الحلو

رواية

أ. ز. زاهارا

يقول الصوفيون إن سرّ القرآن يكمن في

سورة الفاتحة،

وسر الفاتحة يكمن في عبارة

بسم الله الرحمن الرحيم

ويكمن جوهر بسم الله الرحمن الرحيم في حرف الباء

حيث توجد نقطة تحت هذا الحرف. . . .

وتجسّد النقطة تحت حرف الباء الكون

برمته. . . .

ب

كما يبدأ المثنوي بحرف الباء

مقدمة

كان القرن الثالث عشر، المفعم بالصراعات الدينية، والنزاعات السياسية، والصراعات اللانهائية على السلطة، فترة مضطربة في منطقة الأناضول. ففي الغرب، احتل الصليبيون القسطنطينية وعاثوا فيها فساداً وهم في طريقهم لاحتلال القدس، فقسمت الامبراطورية البيزنطية. وفي الشرق، انتشرت جيوش المغول بسرعة كبيرة بقيادة القائد العسكري العبقري جنكيزخان. وفي الوسط، كانت القبائل التركية المختلفة تتحارب في ما بينها، بينما كان البيزنطيون يحاولون استرجاع أرضهم وثروتهم وقوتهم التي فقدوها. كانت فترة من الفوضى لم يسبق لها مثيل، حيث كان المسيحيون يقاتلون المسيحيين، والمسيحيون يقاتلون المسلمين، والمسلمون يقاتلون المسلمين. فحيثما ولّى المرء وجهه، كان هناك اقتتال وألم وخوف شديد لما يمكن أن يحدث بعد ذلك. وفي خضم هذه الفوضى، عاش عالم إسلامي جليل، يعرف باسم جلال الدين الرومي، ويُلقّب «بمولانا»، يحيط به آلاف المريدين والمعجبين من المنطقة كلها وما وراءها، وكان يُعتبر منارة للمسلمين جميعاً.

وفي العام ١٢٤٤ ميلادي، التقى الرومي بشمس ـ الدرويش الجوّال

ذي التصرفات الغريبة والآراء الهرطقية. وقد غيّر لقاؤهما هذا حياة كلّ منهما. وكان هذا اللقاء بداية لصداقة فريدة متينة شبّهها الصوفيون في القرون التالية باتحاد محيطين اثنين. وبعد لقاء الرومي بهذا الرفيق الاستثنائي، تحوّل من رجل دين عادي إلى شاعر يجيش بالعاطفة، وصوفي ملتزم، وداعية إلى الحبّ، فابتدع رقصة الدراويش، وتحرر من جميع القيود والقواعد التقليدية. وفي عصر سادته روح التعصب والنزاعات الدينية، دعا إلى روحانية عالمية شاملة، مشرعاً أبوابه أمام جميع البشر من مختلف المشارب والخلفيات. وبدلاً من أن يدعو إلى الجهاد الخارجي، الذي يعرّف «بالحرب على الكفّار»، الذي دعا إليه الكثيرون في ذلك الزمان، تماماً كما يجري في يومنا هذا ـ دعا الرومي إلى الجهاد الداخلي، وتمثّل هدفه في جهاد «الأنا»، وجهاد «النفس» وقهرها في نهاية الأمر.

لكن أفكاره لم تلق ترحيباً من جميع الناس، ولم يفتحوا جميعهم قلوبهم للمحبّة. وأصبحت الرابطة الروحية القوية بين شمس التبريزي والرومي نهباً للشائعات والافتراءات والتهجمات. وأسيء فهمهما، وأصبحا موضع حسد، وذمّ، وحطّ الناس من قدرهما، وخانهما أقرب المقربين إليهما. وبعد مضي ثلاث سنوات على لقائهما، انفصلا على نحو مأساوي.

لكن القصّة لم تنته هناك.

في واقع الحال، لم تكن هناك نهاية. فبعد مضي زهاء ثمانمائة سنة، لا تزال روح شمس وروح الرومي تنبضان بالحياة حتى يومنا هذا، تدوران في وسطنا في مكان ما...

القاتل

الإسكندرية، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٥٢

تحت مياه داكنة في إحدى الآبار، يرقد ميتاً الآن. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت عيناه تتبعانني حيثما ولّيت، براقتان، مهيبتان، مثل نجمتين داكنتين، معلقتين على نحو ينذر بالشؤم في أعالي السماء. فقد أتيت إلى الإسكندرية بأمل أن أستطيع، إن أنا سافرت إلى مكان بعيد، أن أهرب من هذه الذاكرة الثاقبة وأن أوقف ذلك العويل الذي يتردّد صداه في رأسي، تلك الصيحة الأخيرة التي انطلقت منه قبل أن يصفى دمه، وتجحظ عيناه، وتغلق حنجرته في لهاث غير منته، وداع رجل مطعون بالسكين. عواء ذئب وقع في مصيدة.

عندما تقتل أحداً، فإن شيئاً منه ينتقل إليك ـ تنهيدة، أو رائحة، أو إيماءة. وأنا أدعوها «لعنة الضحيّة». تلتصق بجسمك وتتغلغل في جلدك، وتسري مباشرة إلى قلبك، وتظل تنغل في داخلك. ولا يملك أحد ممن يراني في الشارع وسيلة معرفة ذلك، لكني أحمل معي آثار جميع الرجال الذين قتلتهم. أعلّقهم حول رقبتي مثل قلائد خفية، أحسّ بوجودهم فوق لحمي، بإحكام وبثقل. ومع أنني لا

أشعر بالراحة، فقد اعتدت العيش مع هذا العبء، وقبلته كجزء من عملي. ومنذ أن قتل قايين هابيل، ففي كلّ قاتل، يتنفّس الرجل الذي قتله، هذا ما أعرفه، وهو أمر لا يزعجني. لم يعد يزعجني. لكن، لماذا اعترتني تلك الرجفة القوية بعد تلك الحادثة السريعة؟

كان كلّ شيء مختلفاً هذه المرة، منذ البداية. فهاكم الطريقة التي وجدت العمل فيها مثلاً، أم هل عليّ أن أقول الطريقة التي وجدني فيها العمل؟ ففي بداية ربيع سنة ١٢٤٨، كنت أعمل لدى صاحبة مبغى في قونية، خنثى معروفة بشدّة غضبها، وكنت أساعدها في مراقبة العاهرات، وبث الرعب في نفوس الزبائن الذين لا يحسنون التصرف.

أذكر ذلك اليوم بجلاء. فقد كنت أطارد عاهرة هربت من المبغى بحثاً عن الله. كانت شابّة جميلة، كادت تحطم قلبي، لأنني إذا ما لحقت بها، كنت أنوي أن أشوّه وجهها بحيث لا يعود رجل يرغب بالنظر إليه. كنت على وشك الإمساك بهذه المرأة الغبية عندما وجدت رسالة غامضة ملقاة عند عتبة باب بيتي. ولمّا كنت أمياً لا أجيد القراءة، فقد أخذتها إلى المدرسة، وأعطيتها لأحد الطلاب ليقرأها لي ودفعت له مبلغاً لقاء ذلك.

ثم تبين لي أنها رسالة من مجهول وقّع عليها «عدد من المؤمنين المخلصين».

تقول الرسالة: «لقد عرفنا من مصدر موثوق من أنت ومن أين أتيت وأين تعمل. عضو سابق في فرقة الحشاشين! ونعرف كذلك أن الفرقة لم تعد قوية كما كانت بعد أن مات حسن الصباح وسجن زعماؤك.

ونعرف أنك جئت إلى قونية هرباً من القصاص، وأنك تعيش متنكّراً منذ ذلك الحين».

وذكرت الرسالة أنهم في حاجة ماسة إلى خدماتي، وأنهم سيدفعون لي مبلغاً جيداً من المال. وقالوا إن عليّ، إن كنت مهتمّاً بالأمر، أن أتوجه إلى حانة مشهورة في ذلك المساء بعد حلول الظلام. وعندما أصل إلى تلك الحانة، أجلس إلى أقرب طاولة إلى النافذة، مولياً ظهري للباب، مطرق الرأس، وأن أثبّت عينيّ في الأرض. ثمّ سيأتي إليّ الشخص أو الأشخاص الذين سيستخدمونني، ويقدمون لي كلّ المعلومات التي أحتاج إلى معرفتها. ويجب عليّ ألاّ أرفع رأسي وأنظر إلى وجوههم عندما يصلون أو عندما يغادرون، أو خلال حديثنا.

كانت رسالة غريبة. لكنني كنت معتاداً على التعامل مع نزوات الزبائن. فعلى مرّ السنين، استخدمني أشخاص من جميع الأنواع، وكان معظمهم يرغب في الاحتفاظ بسرية أسمائهم. وعلّمتني التجربة، أنه في أحيان كثيرة، كلما بذل الزبون جهداً لإخفاء هويته، كان أقرب إلى ضحيّته، لكن لا شأن لي بذلك. إذ تنحصر مهمّتي في تنفيذ عملية قتل. وألاّ أسأل عن الأسباب الكامنة وراء مهمتي. ومنذ أن غادرت «ألموت» منذ عدة سنوات، كانت تلك هي الحياة التي اخترتها لنفسي.

وفي جميع الأحوال، نادراً ما كنت أطرح أسئلة. فلماذا أسأل؟ فمعظم الذين أعرفهم لدى كل واحد منهم على الأقل شخص يريد التخلّص منه. وعندما لا يفعلون شيئاً إزاء ذلك، فهذا لا يعني أنهم

محصّنون من الرغبة في قتلهم. في الواقع، توجد في داخل كلّ شخص رغبة دفينة في قتل أحدهم ذات يوم. والناس لا يدركون ذلك، إلا بعد أن تحدث لهم. فهم يظنون أنهم عاجزون عن القتل. لكن المسألة مسألة ضمير فحسب. ففي بعض الأحيان، تكفي مجرد إيماءة لتأجيج سورة غضبهم. سوء فهم متعمّد، شجار على شيء تافه، أو أن يتواجد المرء في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ، إذ يمكن أن تظهر نزعة تدميرية لدى الأشخاص الذين يكونون أشخاصاً طيبين ومحترمين في الأحوال العادية. إذ يمكن لأي شخص أن يقتل أي شخص. لكن ليس بإمكان أي شخص أن يقتل شخصاً غريباً عامداً متعمداً، وهنا أدخل إلى الصورة.

كنت أنفذ الأعمال القذرة لصالح الآخرين. حتى الله أدرك الحاجة إلى شخص مثلي في خطته المقدّسة عندما عيّن عزرائيل، ملاك الموت، لإنهاء حياة الناس. وهكذا يخاف الناس الملاك ويلعنونه ويمقتونه، بينما تظل يدا الله نظيفتين، ويظل اسمه نقياً. وفي ذلك جور على هذا الملاك. لكن للمرة الثانية أقول إن العالم كله يسوده الظلم، أليس كذلك؟

عندما هبط الليل، توجهت إلى الحانة. وشاءت الصدف أن يجلس رجل في وجهه ندبة، إلى الطاولة بالقرب من النافذة، ويغطّ في النوم. خطر لي أن أوقظه وأطلب منه الانتقال إلى طاولة أخرى، لكنك لا تعرف ماذا يمكن أن تكون عليه ردة فعل السكارى، لذلك كان عليّ أن أتوخى الحذر، وألاّ ألفت الانتباه إليّ. لذلك، جلست إلى الطاولة الفارغة التالية، قبالة النافذة.

وبعد قليل وصل رجلان، وجلسا إلى جانبيّ لكي لا أرى وجهيهما. لم أكن بحاجة لأن أنظر إليهما، لأدرك أنهما شابان، وأنهما غير مستعدين لاتخاذ الخطوة التي كانا على وشك اتخاذها.

«لقد جاءتنا توصية عالية بك»، قال أحدهم، لم تكن نبرته حذرة بقدر ما كانت متردّدة، «قيل لنا إنك الأفضل».

بدت طريقة قوله مضحكة، لكنني كتمت ابتسامتي. لاحظت أنهما كانا خائفين، وهو أمر جيد. فعندما يكونان خائفين، لن يجرآ على ارتكاب أي خطأ معي.

لذلك قلت: «نعم، أنا الأفضل، لذلك يطلقون عليّ اسم «رأس الواوي». لم أخذل زبائني قط، مهما بلغت صعوبة تلك المهمّة».

«جيد»، قال متنهّداً، «لأن هذه المهمة قد لا تكون سهلة».

وهنا تحدّث الشاب الآخر وقال: «انظر، لقد كسب هذا الرجل لنفسه أعداء كثيرين. فمنذ أن جاء إلى هذه البلدة، لم يجلب شيئاً سوى المشاكل. حذّرناه عدة مرات، لكنه لم يستمع إلى قولنا له، وأصبح مشاكساً ومثيراً للمشاكل. لم يدع أمامنا أي خيار آخر».

كانت الأمور تسير على هذا المنوال باستمرار. ففي كلّ مرة، يحاول الزبائن تفسير ما سيقدمون عليه، قبل أن نتوصل إلى اتفاق، وكأن موافقتي قد تقلّل من خطورة ما سيقدمون على عمله.

فسألتهما: «فهمت قصدكما. قولا لي، من هو هذا الشخص؟». ترددا في ذكر الاسم، وقدما أوصافاً غامضة.

«إنه رجل زنديق لا يمت بصلة إلى الإسلام. إنه عنيد، جامح، يكتنفه الرجس والكفر. إنه درويش مارق».

ما إن سمعت الكلمة الأخيرة، حتى سرى في ذراعيَّ إحساس مخيف. وأخذ عقلي يفكّر بسرعة. لقد قتلت جميع أنواع البشر، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساء، لكنني لم أقتل قط درويشاً، رجلاً مؤمناً. فأنا أؤمن بالخرافات ولم أكن أرغب في أن أجلب عليّ غضب الله، لأنني على الرغم من كلّ شيء، أؤمن به.

«أظن أني سأرفض طلبكما. لا أظن أني أريد أن أقتل رجل دين. ابحثا عن شخص آخر».

وبنهاية قولي هذا، استويت واقفاً متهيئاً للمغادرة. لكن أحد الرجلين أمسكني من يدي، وقال متوسلاً: «انتظر أرجوك: سيتناسب المبلغ مع الجهد الذي ستبذله. ومهما بلغ الأجر الذي تتقاضاه، فإننا على استعداد لمضاعفة المبلغ».

«ماذا عن ثلاثة أضعاف؟»، سألتهما، مقتنعاً بأنهما لن يزيدا المبلغ كثيراً.

لكن لدهشتي، وبعد تردد، وقف كلاهما. عدت وجلست في مقعدي، متوتراً. فبهذا المبلغ يمكنني أن أسدد مهر عروس وأن أتزوّج أخيراً، ولن يساورني قلق بشأن تدبير أمور معيشتي. درويشاً أم غير درويش، فأي شخص جدير بأن يقتل لقاء هذا المبلغ.

كيف كان لي أن أعرف أنني ارتكبت في تلك اللحظة أكبر خطأ في حياتي، وأنني سأمضي بقية حياتي نادماً على ما اقترفته يداي؟ كيف يمكنني معرفة أن قتل الدرويش سيكون أمراً في غاية الصعوبة، وأنه حتى بعد مرور فترة طويلة على وفاته، ستتعقبني نظرته الحادة كالسكين في كل مكان؟

مضت الآن أربع سنوات منذ أن طعنته في ذلك الفناء، وألقيت بجسده في بئر، ورحت أنتظر سماع صوت سقوطه في الماء، وهو ما لم أسمعه أبداً. لم يصدر أي صوت. فبدل أن يسقط في الماء، يبدو أنه صعد إلى السماء. وما زلت لا يغمض لي جفن من دون أن تنتابني كوابيس، وعندما أنظر إلى الماء، أيّ مصدر ماء، لبضع ثوان، يتملك جسدي كله رعب بارد، فأتقيأ.

الجزء الأول

الأرض الأشياء التي تكون صلبة، متشربة، وساكنة

شمس

حانة في ظاهر سمرقند، آذار (مارس) ١٢٤٢

ارتعش أمام عينيّ ضوء الشموع المصنوعة من شمع النحل والمنتصبة فوق المنضدة الخشبية المتشققة. وغمرتني هذا المساء رؤية شديدة الإشراق.

رأيت بيتاً كبيراً ذا فناء تكسوه الورود الصفر المتبرعمة، وفي وسط الفناء بئر بقبع فيها أبرد ماء في الدنيا. كانت ليلة صافية في أواخر الخريف، وقد تكبد البدر صفحة السماء الصافية. تناهت إليّ من بعيد أصوات نعيق وعواء حيوانات ليلية. وبعد قليل، خرج من البيت رجل في منتصف العمر، لطيف الوجه، له كتفان عريضتان، وعينان عميقتان بندقيتا اللون، يبحث عني. كانت قسمات وجهه متوترة، وعيناه تشيان بحزن شديد.

«شمس، شمس، أين أنت؟»، صاح وهو يتلفت يميناً ويساراً.

هبّت ريح عاصفة، وتوارى القمر وراء غيمة، كأنه لا يريد أن يشهد ما سيحدث. وتوقّف البوم عن النعيب، ولم يعد الخفاش يصفق بجناحيه، وحتى النار في الموقد داخل البيت، لم تعد تصطفق.

وأطبق سكون تام على العالم.

ببطء، اقترب الرجل من البئر، وانحنى، وراح ينظر إلى الأسفل. وهمس، «شمس، يا أعزّ أعزائي، هل أنتَ هنا؟».

فتحت فمي لأجيب، لكن لم ينبعث من بين شفتيّ أي صوت.

انحنى الرجل أكثر، وحدّق في البئر ثانية. في البداية لم ير شيئاً سوى سواد الماء. لكنه بعد ذلك، وفي أعماق البئر، رأى يدي تطوف بلا هدف فوق الماء المترقرق، مثل طوافة زعزعتها الريح الشديدة. ثم تبيّن عينين ـ حدقتان سوداوان تلمعان ـ، تحدِّقان في البدر الذي بدأ ينسلّ الآن من وراء الغيوم الداكنة الكثيفة. تسمّرت عيناي على القمر كأنهما تنتظران تفسيراً من السماء عن سبب قتلي.

خرّ الرجل ساجداً، وراح يجهش في البكاء ويخبط على صدره بقبضتيه ويصرخ: «لقد قتلوه! لقد قتلوا شمساً».

عندئذ انبثق ظلّ من وراء أجمة، وبحركات سريعة خفية قفز فوق جدار الحديقة، مثل قطّ بري. لكن الرجل لم ير القاتل. كان يعتصر ألماً، ولم يكفّ عن الصراخ والعويل حتى تهشم صوته كما يتهشم الزجاج، وتناثر في أرجاء الليل شظايا دقيقة واخزة.

«هيه، أنت! كفّ عن الصراخ كالمجنون».

«. . . .».

«كفّ عن هذا الصراخ وإلا طردتك خارجاً».

«. . .».

«قلت اخرس! هل تسمعني؟ اسكت».

كان صوت الرجل الذي صدرت عنه هذه الكلمات، يزداد قرباً مني

على نحو مخيف. تظاهرت أنني لم أسمعه، مفضّلاً البقاء داخل رؤياي لأطول فترة من الزمن. كنت أريد أن أعرف المزيد عن موتي، كما كنت أريد أن أرى الرجل صاحب أشدّ العيون حزناً. من هو؟ ما علاقته بي، ولماذا كان يبحث عنّي باستماتة في ليلة من ليالي الخريف؟

لكن قبل أن أتمكن من اختلاس نظرة أخرى، أمسكني أحدهم من ذراعي من عالم آخر وراح يهزني بقوة حتى أحسست بأسناني تصطك في فمي. وجرتني قبضته إلى هذا العالم.

ببطء، وبتردّد، فتحت عينيّ ورأيت الرجل يقف بجانبي. كان رجلاً مربوع القامة، له لحية وَخَطَها الشيب، وله شاربان كثان، معقوفان ومفتولان عند الطرفين. أدركت أنه صاحب الحانة. وعلى الفور لاحظتِ أمرين اثنين فيه وهما: إنه الرجل الذي يزرع الخوف في نفوس الناس بكلامه الفظ وسلوكه العنيف؛ وأنه الآن في حالة غضب شديد.

سألته: «ماذا تريد؟ لماذا تشدّ ذراعي؟».

«ماذا أريد؟»، قال صاحب الحانة هادراً، متجهماً، «أريد أن تكفّ عن الصراخ، هذا ما أريد. إنك تبث الخوف في زبائني».

«حقاً؟ هل كنت أصرخ؟»، دمدمت بعد أن حررت يدي من قبضته.

«أراهن على أنك كنت تصرخ! كنت تصرخ مثل دب انغرزت في كفّه شوكة. ماذا دهاك؟ هل غفوت أثناء العشاء؟ لا بدّ أنك رأيت كابوساً أو شيئاً من هذا القبيل».

أعرف أن هذا هو التفسير المعقول الوحيد، وأنني لو قبلته، لقبل صاحب الحانة وتركني أغادر بسلام. لكني لم أرد أن أكذب».

فقلت: «لا، يا أخي، فأنا لم أنم ولم أر كابوساً. بل إنني لا أرى أحلاماً قط».

«إذاً كيف تفسر صراخك هذا؟»، أراد صاحب الحانة أن يعرف.

فقلت: «لقد جاءتني رؤيا. وهذا أمر مختلف».

رمقني بنظرة ملؤها الحيرة ولعق طرفي شاربيه، ثم قال: «أنتم الدراويش مجانين كالجرذان في مخزن المؤن، ولا سيما الدراويش الجوالون. فأنتم تصومون النهار كلّه، وتصلّون وتمشون تحت أشعة الشمس الحارقة. لا عجب أنك بدأت تهلوس ـ ثمة لوثة في عقلك».

ابتسمتُ. قد يكون محقّاً في القول إن هناك خيطاً رفيعاً بين أن تستغرق في الله وأن تفقد عقلك.

في تلك اللحظة، ظهر صبيّان خادمان، يحملان بينهما صينية ضخمة كدّست فوقها أطباق كثيرة: عنزة مشوية، سمك مجفّف مملّح، لحم ضأن متبّل، وكعك مصنوع من الحنطة، وحمص مع قطع من كرات اللحم، وشوربة عدس طهيت بإلية خروف. وأخذا يطوفان في أرجاء القاعة، يوزعان الطعام على الحاضرين، مالئين الهواء بروائح البصل والثوم والتوابل. وعندما توقّفا عند طرفيّ المائدة، أخذت زبدية من الحساء كان البخار يتصاعد منها وقليلاً من الخبز الأسمر الغامق.

«هل لديك نقود تدفع ثمنها؟»، سأل صاحب الحانة، بشيء من العجرفة.

فقلت: «لا، لا نقود لديّ، لكن يمكنني أن أقدم لك شيئاً مقابل ذلك. مقابل الطعام والإقامة. إذ يمكنني أن أفسّر لك أحلامك».

فرد باحتقار، واضعاً ذراعيه على خصره: «لقد قلت للتو إنك لا ترى أحلاماً».

«صحيح. فأنا مفسّر أحلام ولكن لا أرى أحلاماً».

«يجب أن ألقي بك إلى الخارج. كما قلت، إنكم معشر الدراويش مجانين»، قال صاحب الحانة.

«ها هي نصيحة أقدمها لك. فأنا لا أعرف كم عمرك، لكنني واثق من أنك صلّيت بما يكفي لكلا العالمين. جد امرأة جميلة واستقرّ. انجب أطفالاً. فهذا سيساعدك على أن تبقي قدميك على الأرض. فما فائدة التجوال في العالم والبؤس والتعاسة منتشران في كل مكان؟ صدقني. لا شيء جديداً. عندي زبائن من أقصى أصقاع العالم، وبعد أن يجرعوا بعض الكؤوس، أسمع القصص نفسها منهم جميعاً. فالبشر هم أنفسهم في كل مكان. والطعام نفسه، والماء نفسه، والحماقة القديمة نفسها».

فقلت: «إني لا أبحث عن شيء مختلف. إني أبحث عن الله. إن مسعاي هو البحث عن الله».

فردّ وقد غلظ صوته فجأة، «إذاً فإنك تبحث عنه في المكان الخطأ. لقد هجر الله هذا المكان! ولا نعرف متى سيعود».

عندما سمعت هذه الكلمات، سقط قلبي فوق جدار صدري، وقلت: «عندما يذكر المرء الله بسوء، فإنه يسيء التكلّم عن نفسه».

ارتسمت على فم صاحب الحانة ابتسامة خبيثة؛ ورأيت في وجهه مرارة واستياء، وشيئاً آخر يشبه الألم المرتسم على وجه طفل.

ثم سألته: «ألا يقول الله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾؟ فالله لا يقبع بعيداً في السموات العالية، بل يقبع في داخل كلّ منا. لذلك فهو لا يتخلّى عنا، فكيف له أن يتخلّى عن نفسه؟».

«لكنه لا يتخلى عنا»، ردد صاحب الحانة، عيناه باردتان ومتحدّيتان: «إن كان الله هنا فهو لا يحرك ساكناً، ونحن نعاني من أسوأ النهايات، فماذا يعني ذلك؟».

فقلت: «إنها القاعدة الأولى يا أخي: *إن الطريقة التي نرى فيها الله ما هي إلا انعكاس للطريقة التي نرى فيها أنفسنا. فإذا لم يكن الله يجلب إلى عقولنا سوى الخوف والملامة، فهذا يعني أن قدراً كبيراً من الخوف والملامة يتدفّق في نفوسنا. أما إذا رأينا الله مفعماً بالمحبة والرحمة، فإننا نكون كذلك*».

فأجاب صاحب الحانة معترضاً، لأن كلماتي فاجأته: «كيف يختلف ذلك عن القول بأن الله هو صورة من نسج خيالنا؟ لم أفهم».

لكن جلبة صاخبة انبعثت من خلف قاعة الطعام، جعلتني أتوقف عن إجابته. وعندما التفتنا نحو مصدر الصوت، رأينا رجلين فظين ثملين يهذران بصوت عال بكلام غير مفهوم. وقد أطلقا العنان للإهانات والشتائم، وأدخلا الرعب في نفوس الزبائن الآخرين، وراحا يختلسان الطعام من طاساتهم، ويشربان من أكوابهم، فإذا أبدى أحد احتجاجاً، كانا يسخران منه مثل صبيين شقيين في «كُتّاب».

«ألا تظن أنه يجب أن يكبح أحد جماح هذين الغوغائيين؟»، همس صاحب الحانة بين أسنانه المطبقة، وأضاف: «انظر ماذا سأفعل الآن».

وبلمح البصر بلغ نهاية القاعة، فشدّ أحد الزبونين الثملين من مقعده، ولطمه على وجهه. لا بد أن الرجل لم يكن يتوقّع ذلك قط، فتهاوى على الأرض مثل كيس فارغ. وسوى آهة خفيفة انبعثت من بين شفتيه، لم يندَّ عنه أي صوت.

وتبين أن الرجل الآخر أقوى من الأول، فقد قاوم بعنف، لكن صاحب الحانة سرعان ما ألقى به أرضاً، وبدأ يركل زبونه الحرون على أضلاعه، ثم داس على يده، وسحقها تحت حذائه الثقيل. وسمعنا صوتِ طقطقة إصبع، أو أكثر ينكسر.

فصحت: «توقّف عن ذلك. إنك ستقتله. أهذا ما تنوي عمله؟».

ولمّا كنت صوفياً، فقد أقسمت على أن أحمي حياة الناس وألاّ ألحق أذى بأحد. ففي عالم الأوهام الذي نحياه، يوجد الكثير من الناس المستعدين للتشاجر دونما سبب، وآخرون يتشاجرون لسبب ما. أما الصوفي فلا يتشاجر مع أحد حتى لو كان لديه سبب يدعوه إلى ذلك. فلا يوجد ثمة داع يجعلني ألجأ إلى العنف. لكن بإمكاني أن ألقي بنفسي مثل بطانية ناعمة بين صاحب الحانة والزبونين لأفصلهم عن بعضهم.

«ابتعد أيها الدرويش، وإلا ضربتك أنت أيضاً ضرباً مبرحاً»، صاح صاحب الحانة، مع أننا كنا نعرف أنه لن يفعل ذلك.

بعد دقيقة حمل الخادمان الزبونين اللذين كُسر إصبع أحدهما، وكُسر أنف الآخر، وتناثر الدم في كل مكان. وخيّم على قاعة الطعام صمت مفعم بالخوف. ثم رمقني صاحب الحانة، الذي كان فخوراً بالرعب الذي أشاعه، بنظرة جانبية. وعندما تكلم ثانية، بدا وكأنه يخاطب الحاضرين جميعاً، وارتفع صوته وأصبح مسعوراً، مثل طير من الجوارح يحوم بخيلاء في السماء.

«كما ترى أيها الدرويش، فالأمور لا تسير هكذا على الدوام. فلم يكن العنف من شيمي، لكنه أصبح الآن. فعندما ينسانا الله ويتركنا

وحيدين هنا، يقع على عاتقنا، نحن الناس العاديين، أن نصبح أشداء أو نحقق العدل بأيدينا. لذلك عندما تكلمه في المرة القادمة، أرجو أن تخبره ذلك. وسأقول له إنه عندما يتخلى عن حملانه، فلن تنتظر هذه الحملان بوداعة وخنوع حتى تُذبح. بل ستتحول إلى ذئاب».

هززت كتفي وأشرت نحو الباب، وقلت: «إنك مخطئ».

«هل أخطأت في القول بأنني كنت حملاً ذات يوم وأصبحت ذئباً اليوم؟».

«لا، إنك محق. فأنا أرى أنك أصبحت ذئباً حقاً، لكنك أخطأت عندما قلت إنك تحقق العدالة».

«انتظر، لم أفرغ منك بعد». صاح صاحب الحانة ورائي: «إنك مدين لي. مقابل الطعام والمأوى، كنت ستفسّر لي أحلامي».

«سأفعل شيئاً أفضل»، اقترحت: «سأقرأ لك كفّك».

استدرت وسرت نحوه، وأنا أحدّق في عينيه الملتهبتين. وبشكل غريزي، ومرتاب، أجفل. لكنني عندما أمسكت بيده اليمنى، ورفعت راحتيْ يديه إلى الأعلى، لم يدفعني جانباً. وأمعنت النظر في خطوط راحته، فوجدتها عميقة، مشققة، تشير إلى دروب وممرات متقطعة غير مستقيمة. وشيئاً فشيئاً، بدت لي الألوان في هالته: بنياً بلون الصدأ، وأزرق شاحباً أقرب إلى الرمادي. وأصبحت طاقته الروحية جوفاء مقعّرة، ورقّت حول الحافات، كما لو خلت منه أي قوة للدفاع عن نفسه من العالم الخارجي. وفي أعماقه، لم يعد في الرجل حياة أكثر مما في نبتة ذابلة. وللتعويض عن فقدان طاقته الروحية، ضاعف من طاقته الجسدية، التي أفرط في استخدامها.

بدأ قلبي يخفق بسرعة، لأنني بدأت أرى شيئاً. في البداية على نحو باهت، كما لو كان من وراء حجاب، ثمّ بدأ يتضح أكثر، ثمّ برز أمام عينيّ مشهد.

شابّة ذات شعر كستنائي، وقدمين حافيتين رسم عليهما وشم أسود، وحول كتفيها التف شال أحمر مطرّز.

قلت: «لقد فقدت حبيبة»، وأمسكت راحة يده اليسرى بيدي.

كان ثدياها يطفحان بالحليب، وبطنها ضخمة جداً وكأنها ستتمزّق إرباً إرباً. كانت عالقة في كوخ يحترق. وكان محاربون يدورون حول البيت، ممتطين خيولاً عليها سروج من الفضة والذهب. وكانت تفوح رائحة واخزة من احتراق القشّ واللحم البشري.

فرسان مغول، أنوفهم مفلطحة وعريضة، رقابهم غليظة وقصيرة، وقلوبهم قاسية كالصوان. جيش جنكيزخان القوي.

«لقد فقدتَ حبيبين»، قلت مصحّحاً نفسي: «فقد كانت زوجتك حاملاً بطفلك الأول».

قوّس صاحب الحانة حاجبيه، وثبّت عينيه على حذائه الجلدي الطويل، وزمّ شفتيه بشدة، وتغضّن وجهه مثل خريطة لا يمكن تبين معالمها. وفجأة بدت عليه ملامح الشيخوخة أكثر من عمره الحقيقي.

قلت: «أعرف أن هذا ليس تعزية لك، بل أظن أن هناك شيئاً يجب أن تعرفه. فلم تقتلها النار أو الدخان. بل انهار لوح خشبي من السقف وسقط على رأسها، وماتت على الفور، من دون ألم. كنت تظن دائماً أنها عانت كثيراً، لكنها في الحقيقة، لم تتألم على الإطلاق».

قطّب صاحب الحانة حاجبيه، وانحنى بتأثير ضغط لا يفهمه أحد

سواه؛ وازداد صوته خشونة عندما سأل: «كيف عرفت كل ذلك؟».

تجاهلت سؤاله، وقلت: «إنك تلوم نفسك لأنك لم تقم لها جنازة لائقة. إنها لا تزال تظهر في أحلامك، تخرج زاحفة من الحفرة التي دفنت فيها، لكن عقلك يتلاعب بك. في الحقيقة، إن زوجتك وابنك بخير، وهما يتنقلان في العالم اللانهائي، حرّان مثل نقطتي نور».

ثمّ أضفت، وأنا أدرس كلّ كلمة أقولها بعناية: «يمكنك أن تصبح حملاً ثانية، لأنك لا تزال تحتفظ بالحمل في داخلك».

عندما سمع ذلك، سحب صاحب الحانة يده من يدي، كما لو أنه لمس مقلاة ساخنة، وقال: «لا أحبّك، أيها الدرويش. سأسمح لك بالمكوث هنا الليلة، لكنك يجب أن تغادر في الصباح الباكر. لا أريد أن أرى وجهك هنا ثانية».

هكذا هي الحياة. فعندما تخبر أحدهم الحقيقة، فإنه يكرهك. وكلما تحدّثت عن الحبّ، ازدادت كراهيته لك.

إيلا

نورثامبتون، ١٨ أيار (مايو) ٢٠٠٨

بعد التوتّر الشديد الذي أعقب الجدال الذي دار بين ديفيد وجانيت، شعرت إيلا بالإرهاق وقررت أن تتوقّف عن قراءة رواية «الكفر الحلو» لفترة من الوقت. وأحسّت كما لو أنّ غطاء قدر فيها ماء يغلي قد ارتفع فجأة، وأخذ يبعث نزاعات قديمة، وغضباً جديداً في البخار المتصاعد. ولسوء الحظ، لم يرفع أحد ذلك الغطاء غيرها. وقد فعلت ذلك عندما اتصلت برقم هاتف سكوت، وطلبت منه عدم الزواج من ابنتها.

وفي وقت لاحق من حياتها، ستأسف كثيراً على كلّ كلمة تفوهت بها خلال هذه المحادثة الهاتفية. أما في هذا اليوم من شهر أيار (مايو)، فقد كانت واثقة من نفسها تمام الثقة ولم تستطع أن تفهم جيداً العواقب المريعة التي قد تنجم عن تدخلها هذا.

«مرحباً، سكوت. أنا إيلا، والدة جانيت»، قالت، وهي تحاول أن تبدو سعيدة، كما لو كان الاتصال بصديق ابنتها شيئاً تفعله كل يوم، «هل لديك دقيقة لنتحدث؟».

«سيدة روبنشتاين، كيف لي أن أساعدك؟»، قال سكوت متلعثماً، متفاجئاً، لكن بأسلوب متحضّر جداً.

وبنبرة لا تقل تحضراً، قالت له إيلا إنه ليس لديها شيء ضده شخصياً، فهو شاب صغير وغرّ على الزواج من ابنتها. وقد انزعج من هذه المكالمة التي قالت له فيها إنه سيفهمها حق الفهم ذات يوم في المستقبل القريب، بل سيشكرها لأنها حذرته في الوقت المناسب. وحتى ذلك الحين، طلبت منه أن ينسى موضوع الزواج من ابنتها، وأن يبقي على هذه المكالمة سراً بينهما.

خيّم صمت كثيف ثقيل.

«سيدة روبنشتاين، لا أظن أنك تفهمين»، قال سكوت عندما عاد إليه صوته أخيراً، «فأنا وجانيت يحبّ أحدنا الآخر».

مرة أخرى! كيف يمكن أن يكون الناس بهذه الدرجة من السذاجة ويتوقّعون أن الحبّ سيفتح لهم جميع الأبواب؟ إنهم يظنون أن الحبّ عصا سحرية يمكنها إصلاح كلّ شيء بلمسة خارقة واحدة.

لكن إيلا لم تقل ذلك، بل قالت: «إني أفهم مشاعرك، صدّقني. لكنك لا تزال شاباً صغيراً ولا تزال أمامك حياة مديدة. من يعرف؟ فمن الممكن أن تحبّ غداً فتاة أخرى».

«سيدة روبنشتاين، لا أريد أن أتواقح معك، لكن ألا تظنين أن هذا الأمر ينطبق على الجميع، بمن فيهم أنت؟ من يعرف؟ فمن الممكن أن تحبي أنت أيضاً شخصاً آخر».

أطلقت إيلا ضحكة مكتومة، أعلى وأطول مما كانت تنوي.

وقالت: «إنني امرأة متزوجة. وقد اخترت اختيار عمري، وكذلك

زوجي. وهذه هي تماماً النقطة التي أريد أن أشرحها لك. إن الزواج قرار جدّي، تجب دراسته بعناية شديدة قبل الإقدام عليه».

فسألها سكوت: «هل هذا يعني أنك تطلبين مني ألاّ أتزوج ابنتك التي أحبّها، لأنني قد أحبّ فتاة أخرى مجهولة في مستقبل غير محدد؟».

من هذه النقطة بدأ الحديث بينهما يتهاوى، ذلك الحديث الذي كان مليئاً بالضيق وخيبة الأمل. وعندما وضعت إيلا سماعة الهاتف أخيراً، توجّهت إلى المطبخ، وراحت تفعل ما كانت تفعله دائماً عندما كان ينتابها قلق عاطفي: طهو الطعام.

* * *

بعد نصف ساعة، تلقّت مكالمة من زوجها.

«أكاد لا أصدّق أنكِ خابرتِ سكوت وطلبتِ منه ألاّ يتزوج ابنتنا. أخبريني ماذا فعلتِ؟».

فوجئت إيلا بكلامه، وقالت لاهثة: «يا إلهي، إن الكلمة تنتقل بسرعة كبيرة. حبيبي، دعني أشرح لك».

لكن ديفيد قاطعها بتوتر، وقال: «لا داعي لشرح أي شيء. إن ما فعلته خطأ. فقد اتصل سكوت بجانيت وهي منزعجة للغاية. إنها ستمكث مع صديقاتها لبضعة أيام، فهي لا تريد أن تراك الآن»، وصمت برهة ثم أضاف: «وأنا لا ألومها على ذلك».

في ذلك المساء، لم تكن جانيت الوحيدة التي لم تعد إلى البيت؛ فقد أرسل ديفيد إلى إيلا رسالة نصّية قال فيها إن طارئاً طرأ فجأة، ولم يوضح طبيعة هذه الحالة الطارئة.

لم يكن ذلك من عادته، بل كان ذلك مخالفاً لروح زواجهما. فعلى

الرغم من أنه ربما كان يغازل امرأة بعد أخرى، ولعله كان ينام معهن وينفق نقوده عليهن، فقد كان يعود إلى البيت دائماً ويأخذ مكانه إلى المائدة عندما يعود في المساء. ومهما ازدادت شقة الخلاف بينهما، فقد كانت هي تطهو دائماً، وكان هو يتناول الطعام دائماً، بغبطة وامتنان، مهما كانت كمية الطعام التي تضعها في طبقه. وفي نهاية كلّ عشاء، لم يكن ديفيد ينسى أن يشكرها ـ شكر من قلبه ـ كانت إيلا تعتبره دائماً اعتذاراً مبطناً على خياناته لها، وكانت تغفر له باستمرار.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتصرف فيها زوجها بهذه الطريقة الصفيقة، ولامت إيلا نفسها على هذا التغيير، لكن الشعور «بالذنب» هو الاسم الثالث لإيلا روبنشتاين.

* * *

ما إن جلست إيلا إلى المائدة مع ابنتها وابنيها التوأمين، حتى تحوّل إحساسها بالذنب إلى كآبة. فقد قاومت توسلات آفي لطلب بيتزا، ومحاولات أورلي بألا تأكل شيئاً، فأرغمتهما على تناول الرزّ البري مع البازلاء الخضراء ولحم البقر المشوي المضاف إليه قليل من الخردل. ومع أنها كانت تبدو في الظاهر، تلك الأمّ العملية القلقة، كانت تشعر في داخلها بدفق من اليأس، وأحسّت بطعم حادّ في فمها، مر كالعلقم.

بعد انتهاء طعام العشاء، جلست إيلا إلى المائدة في المطبخ وحدها، فغمرها سكون ثقيل. وفجأة، بدا لها أن الطعام الذي طهته، والساعات الطويلة من العمل الشاق التي أمضتها، مملاً بليداً وشعرت بالأسى على نفسها. واعتراها شعور بالأسى لأنها شارفت على

الأربعين، من دون أن تحقق أشياء مهمة في حياتها. فقد منحت أسرتها الكثير من الحب بالرغم من أن أحداً لم يكن يطلبه منها.

وانتقلت أفكارها فجأة إلى رواية «الكفر الحلو»، التي فتنتها فيها شخصية شمس التبريزي.

«ما أجمل أن يكون شخص مثله هنا»، قالت لنفسها مازحة: «فلا يمكن أن يمر يوم مملّ برفقة رجل مثله».

وكانت الصورة التي انبثقت في مخيلتها صورة رجل طويل، أسمر، غامض، يرتدي بنطالاً جلدياً، وسترة كالتي يرتديها راكبو الدراجات النارية، وله شعر أسود ينسدل حتى كتفيه، ويركب دراجة هارلي ديفيدسن حمراء لمّاعة تتدلى من مقبضيها شرابيب متعددة الألوان. ابتسمت لهذه الصورة. راكب دراجة وسيم، جذاب، صوفي يقود دراجته بسرعة على طريق سريع خاوٍ. ألا يحسن أن تركب معه، وتطلب توصيلة من رجل كهذا؟

ثمّ تساءلت إيلا: يا ترى ماذا كان شمس سيرى لو قرأ كفّها؛ هل سيشرح لها سبب تحوّل تفكيرها بين الحين والآخر إلى كهف من الأفكار المظلمة؟ أو لماذا تشعر بالوحدة مع أن لديها أسرة محبّة كبيرة؟ وماذا عن ألوان هالتها؟ هل هي براقة ومشرقة؟ وهل سيكون هناك شيء براق وواضح في حياتها؟

وبينما كانت إيلا جالسة وحدها إلى طاولة المطبخ ووميض ضعيف من الضوء ينبعث من الفرن، أدركت أنه على الرغم من كلماتها الناجحة التي تنكرها؛ وعلى الرغم من قدرتها على البقاء حازمة وصلبة في مواجهة الشدائد، كانت تهفو إلى الحبّ في أعماقها.

شمس

حانة في ظاهر سمرقند، آذار (مارس) ١٢٤٢

كان جميع المسافرين المرهقين الذين يزيد عددهم على عشرة يغطّون في النوم في الطابق العلوي للحانة، وكان كلّ واحد منهم يرى حلماً منفصلاً عن الآخر. رحت أتقدم فوق الأقدام الحافية والأيدي العارية حتى وصلت إلى حشيتي التي تفوح منها رائحة العرق والعفن. استلقيت في العتمة، ورحت استرجع أحداث اليوم، متمعناً في أيّ إشارة إلهية ربما أكون قد رأيتها، لكنني، في عجلتي أو جهلي، لم أدرك أياً منها.

ومنذ طفولتي، كنت أرى رؤى وأسمع أصواتاً، وكنت أكلّم الله، وكان يرد عليّ على الدوام. وفي بعض الأيام، كنت أصعد إلى السماء السابعة، بخفة شديدة، ثمّ أهبط في أعمق حفرة في الأرض، تفوح منها رائحة التراب، مخفية مثل صخرة مدفونة تحت أشجار البلوط الضخمة وأشجار الكستناء الحلو. وبين الحين والآخر، كنت أفقد شهيتي للطعام، وكانت تمرّ أيام عدة لا أتناول فيها طعاماً. ولم تكن هذه الأشياء تخيفني، وتعلّمت، على مدى الأيام، ألاّ أذكرها لأحد.

فالبشر يميلون إلى الاستخفاف بما لا يمكنهم فهمه. لقد تعلّمت ذلك من تجربتي الشخصية.

فقد كان أبي أول من أساء تقدير الرؤى التي كانت تنتابني. ولا بد أنني كنت لا أزال في العاشرة من عمري عندما بدأت أرى ملاكي الحارس كلّ يوم، وكنت على شيء من السذاجة عندما كان يخيّل إليّ أنه كان يزور الآخرين أيضاً. وذات يوم، عندما كان أبي يعلّمني كيف أصنع صندوقاً من خشب الأرز لأصبح نجاراً مثله، أخبرته عن الملاك الحارس الذي يزورني في منامي.

«لديك خيال جامح يا بني»، قال أبي بجفاء، «والأفضل لك أن تحتفظ بذلك لنفسك. فلا نريد أن نزعج القرويين بهذه الأشياء».

ومنذ أيام قلائل، شكاني بعض الجيران إلى والديّ، واتهموني بأنه تبدر مني تصرفات غريبة، وأني أبث الخوف في نفوس أبنائهم.

وقال أبي: «أنا لا أفهم تصرفاتك يا بنيَّ. لماذا لا تقبل فكرة أنك لست أكثر تميزاً من والديك؟ فكلّ طفل يسير على خطا والديه ويحذو حذوهم، ويجب أن تفعل أنت ذلك».

عندها أدركت أنه على الرغم من حبّي لوالديّ وتوقي إلى التعلق بهما، فقد كانا غريبين عني.

«أبتي، لقد جئت من بيضة تختلف عن البيضة التي جاء منها أطفالك الآخرون. أرجو أن تعتبرني بطّة تعيش مع دجاجات. فلست طيراً داجناً كتب عليه أن يمضي حياته في خمّ للدجاج. فالماء الذي يخيفك، يبثّ الحياة فيّ. لأني لست مثلك، فأنا أعرف السباحة، لذلك سأسبح. إن المحيط هو موطني، فإذا كنت معي، تعال إلى

المحيط. وإذا لم تأتِ، فكفّ عن التدخل في حياتي، وعد إلى خمّ الدجاج».

اتسعت عينا أبي، ثمّ صغرتا، وقال متجهماً: «إذا كنت تكلّم أباك بهذه الطريقة الآن، فكيف يا ترى ستخاطب أعداءك عندما تكبر».

على الرغم من الحزن الذي اعترى والديّ، لم تتوقف الرؤى، بل ازدادت كثيراً. وازداد والدايَ عصبية وتوتراً، واعتراني شعور بالذنب لأن ذلك كان يزعجهما، لكنني لم أكن أعرف كيف يمكنني أن أضع حداً لهذه الرؤى، وحتى لو كان في مقدوري ذلك، فلا أظنني سأقدم عليه. ولم تمض فترة طويلة، حتى غادرت البيت ولم أعد إليه. ومنذ ذلك الحين، أضحت كلمة تبريز حلوة ورقيقة، رائعة ورهيفة، إلى حد أنها كانت تذوب في لساني. وترافق ذكرياتي لهذا المكان ثلاث روائح هي: الخشب المقطوع، والخبز المصنوع من بذور الخشخاش، ورائحة الثلج الناعم النضر.

هكذا أصبحت درويشاً أتنقل من مكان إلى آخر، ولم أعد أنام في مكان واحد أكثر من مرة، ولم أعد أتناول الطعام من نفس الزبدية مرّتين متتاليتين، وأصبحت أرى حولي وجوهاً مختلفة في كلّ يوم. وعندما كنت أشعر بالجوع، كنت أكسب بعض النقود من تفسير الأحلام. لذلك، كنت أطوف شرقاً وغرباً، بحثاً عن الله في كل مكان. أبحث عن حياة جديرة بالحياة، وأبحث عن معلومات جديدة جديرة بالمعرفة. ولمّا لم تكن لديّ جذور في أي مكان، أصبح لديّ العالم كلّه أطوف في أرجائه.

وخلال جولاتي، سلكت جميع أنواع الطرق، من الطرق التجارية

الشعبية إلى الدروب المنسية حيث لا يمكنك أن ترى روحاً لأيام عدة.
ومن سواحل البحر الأسود إلى مدن بلاد فارس، ومن بوادي آسيا الوسطى الشاسعة، إلى كثبان الجزيرة العربية، اجتزت غابات كثيفة، ومراعي منبسطة، وصحارى، وأقمت في خانات ونزل عدة، وناقشت رجالاً من أهل العلم في مكتبات عامة قديمة، وأنصتُّ إلى معلمين يعلّمون أطفالاً صغاراً في الكتّاب، وناقشت علم التفسير وعلم المنطق مع الطلاب في المدارس، وزرت معابد ومزارات وأديرة وأضرحة؛ ومارست التأمل مع ناسكين في كهوفهم، وشاركت مع دراويش آخرين في جلسات الذكر، ولذت بالصمت في وجود عقلاء، وتعشّيت مع زنادقة، ورقصت مع كهنة سحرة تحت البدر، وتعرّفت على أشخاص من جميع الملل والنحل، ومن جميع الأعمار والحرف، ورأيت نوائب ومعجزات.

ورأيت قرى فقيرة، وحقولاً سوّدتها الحرائق، ومدناً وبلدات سلبت ونهبت وأصبحت الأنهار فيها حمراء، ولم يبق فيها رجال أحياء يزيد عمرهم على عشر سنوات. لقد رأيت أسوأ وأفضل ما في الإنسانية. لذلك لم يعد فيها ما يفاجئني.

وخلال هذه الرحلات والتجارب، رحت أجمع قائمة لم تُدوَّن في أيّ كتاب، بل حفرت في روحي فقط. وقد أطلقت على هذه القائمة الشخصية «المبادئ الأساسية للصوفيين الجوالين في الإسلام»؛ وإني أعتبرها قائمة شاملة وموثوقة وثابتة كما هي قوانين الطبيعة.

وهي تشكّل مدوَّنة «القواعد الأربعون لدين العشق»، التي لا يمكن تحقيقها إلا من خلال العشق، والعشق وحده. وتقول إحدى تلك

القواعد: *«إن الطريق إلى الحقيقة يمر من القلب، لا من الرأس. فاجعل قلبك، لا عقلك، دليلك الرئيسي. واجه، تحدَّ، وتغلب في نهاية المطاف على «النفس» بقلبك. إن معرفتك بنفسك ستقودك إلى معرفة الله»*.

استغرق الأمر سنوات عدة حتى تمكنت من وضع هذه القواعد الأربعين. والآن، بعد أن فرغت منها، فإني أعرف بأنني أقترب من المرحلة النهائية من زمني في هذا الكون، وبدأت أرى مؤخراً رؤى كثيرة تدلّ على ذلك. ولم يكن الموت هو الذي يقلقني، لأنني لم أكن أعتبره نهاية؛ بل ما كان يقلقني هو أن أموت من دون أن أخلّف تراثاً. إذ يتكدس في صدري حشد من الكلمات، وقصص كثيرة تنتظر أن أحكيها. كنت أريد أن أنقل المعارف التي توصلت إليها إلى شخص آخر، سواء كان أستاذاً أم تلميذاً. إني أبحث عن نظير - رفيق.

«يا الله»، همست في الغرفة الرطبة المظلمة، «لقد أمضيت حياتي وأنا أطوف في أرجاء العالم، وتبعت صراطك؛ ورأيت الجميع مثل كتاب مفتوح، قرآناً متنقّلاً. وابتعدت عن أبراج العلماء العاجية، وفضلت قضاء وقتي مع المنبوذين والمهجرين والمنفيين. لقد امتلأت بكل ذلك، لذلك ساعدني على أن أنقل حكمتك إلى الشخص المناسب، وبعدها افعل بي ما شئت».

وبغتة هبط أمام عينيّ في الغرفة نور شديد السطوع، فأصبحت وجوه المسافرين النائمين في فراشهم زرقاء متوهجة. وأصبح الهواء نقياً وحيّاً، كأن جميع النوافذ قد فتحت، واندفعت عبرها ريح عاصفة حملت معها رائحة الزنبق والياسمين من حدائق بعيدة.

«اذهب إلى بغداد»، قال ملاكي الحارس بصوت رخيم كالناي.

فسألته: «وما الذي ينتظرني في بغداد؟».

«لقد طلبت رفيقاً، وستُعطى رفيقاً. ستجد في بغداد السيّد الذي سيوجّهك إلى الطريق القويم».

اغرورقت عيناي بدموع الامتنان. وعندها عرفت أن الذي ظهر في رؤياي، لم يكن إلا رفيقي الروحي. وعاجلاً أم آجلاً، فقد كتب علينا أن نلتقي، وعندما نلتقي، سأعرف لماذا كانت عيناه البندقيتان اللطيفتان حزينتين إلى الأبد، وكيف قُتلت في ليلة من ليالي مطلع الربيع.

إيلا

نورثامبتون، ١٩ أيار (مايو) ٢٠٠٨

قبل غروب الشمس وعودة الأطفال إلى البيت، علّمت إيلا الصفحة التي وصلت إليها في مخطوط رواية «الكفر الحلو»، ووضعتها جانباً. وبدافع الفضول لمعرفة الرجل الذي كتب الرواية، فتحت إيلا الإنترنت وراحت تبحث في محرك غوغل عن اسم «ع. ز. زاهارا»، وراحت تتساءل عمّا يظهر لها، لكنها لم تكن تتوقّع الكثير.

ولمفاجأتها، ظهرت لها مدوّنة شخصية. كان اللونان الرئيسيان اللذان يزينان الصفحة هما اللون البنفسجي والفيروزي؛ وبدت في أعلى الصفحة صورة رجل يرتدي عباءة بيضاء طويلة وهو يدور ببطء حول نفسه. وبما أن إيلا لم تر في حياتها أحداً يرقص رقصة الدراويش، فقد ألقت نظرة حذرة على الصورة. وكان عنوان المدوَّنة «قشرة بيض تدعى الحياة»، وقد كتبت تحته قصيدة تحمل العنوان نفسه:

ليختر أحدنا الآخر رفيقاً له!

وليجلس أحدنا عند قدمي الآخر!

ففي داخلنا الكثير من الانسجام ـ ولا تظنّن

أننا ما نراه فحسب

كانت الصفحة تعجّ ببطاقات بريدية لمدن ومواقع من أرجاء العالم. وقد كتب تحت كلّ بطاقة بريدية تعليق عن ذلك المكان بالذات. وبينما راحت إيلا تقرأها، لفتت انتباهها ثلاث معلومات على الفور: الأولى أن حرف «ع» هو اختصار لحرف عزيز. والثانية، أن عزيز يعتبر نفسه صوفياً. والثالثة، أنه مسافر حالياً إلى غواتيمالا.

وفي زاوية أخرى، رأت نماذج من الصور التي التقطها، تصوّر معظمها أناساً من شتى الألوان والمشارب. وعلى الرغم من اختلافاتهم الشديدة، فقد كانوا يشبهون بعضهم بعضاً شبهاً غريباً: كان من الواضح أن شيئاً مفقوداً يجمع بين الصور جميعاً. فقد كان العنصر المفقود بالنسبة لبعضهم شيئاً بسيطاً، مثل قرط، أو حذاء، أو زرّ، ولبعضهم الآخر أهم من ذلك بكثير، مثل سنّ، أو إصبع، أو ساق أحياناً. وقرأتْ تحت الصور:

مهما كنا أو حيثما كنا نعيش، فإننا نشعر في قرارة أنفسنا بأننا غير كاملين. كما لو كنا فقدنا شيئاً ويجب أن نستعيده. لكن معظمنا لا يعثر على ذلك الشيء أبداً. أما الذين بإمكانهم العثور عليه، فلا يجرؤ إلا قلة قليلة على الخروج والبحث عنه.

حرّكت إيلا الصفحة إلى الأعلى وإلى الأسفل، ونقرت على البطاقات البريدية، واحدة تلو الأخرى، لتكبيرها، وقرأت جميع

التعليقات التي كتبها عزيز. ووجدت في أسفل الصفحة، عنوان بريده الإلكتروني: azizzzaharagmail.com، فدوّنته على قصاصة من الورق، ووجدت إلى جانبه إحدى قصائد الرومي:

اختر الحبّ، الحبّ! فمن دون حياة الحبّ العذبة،

تمسي الحياة عبئاً ثقيلاً ـ كما ترى

بينما كانت إيلا تقرأ هذه القصيدة، لمعت في رأسها فكرة غريبة. وللحظة عابرة، اعتراها إحساس بأن كلّ شيء وضعه عزيز ز. زاهارا في مدوّنته الشخصية ـ الصور والتعليقات والاقتباسات والقصائد ـ قد كتبت كرمى لعينيها فقط. كانت فكرة غريبة ومتعالية بعض الشيء، لكن كان معناها رائعاً لها.

* * *

وفي عصر ذلك اليوم، جلست إيلا بالقرب من النافذة، متعبة وكئيبة قليلاً، حيث كانت أشعة الشمس ثقيلة على ظهرها، وكان الهواء في المطبخ مفعماً بروائح الكعك الذي تخبزه. وكانت رواية «الكفر الحلو» مفتوحة أمامها، لكن عقلها كان مشغولاً فلم تستطع التركيز عليها. وخطر لها أن تكتب هي أيضاً مجموعة من القواعد الأساسية الخاصة بها، التي يمكن أن تطلق عليها «القواعد الأربعون لربّة بيت عملية غير جوّالة تعيش في الضواحي».

دمدمت قائلة: «القاعدة الأولى: كفّي عن البحث عن الحبّ. توقّفي عن الجري وراء أحلام مستحيلة! فمن المؤكد أن في الحياة أموراً أهم بالنسبة لامرأة متزوجة شارفت على الأربعين».

لكن مزحتها هذه أحدثت ضيقاً غامضاً في نفسها، وذكّرتها بهموم

أكبر. ولما لم تعد تستطيع أن تتمالك نفسها، اتصلت بابنتها الكبرى، فسمعت جهاز تسجيل مكالماتها.

«جانيت، عزيزتي، أعرف أنني أخطأت بالاتصال بسكوت. لكنني لم أكن أنوي سوءاً. أردت أن أؤكد لك ذلك...».

توقّفت قليلاً، وشعرت بأسف شديد لأنها لم تحضّر هذه الرسالة سلفاً. تناهى إليها صوت الحفيف الناعم لجهاز تسجيل المكالمات وهو يسجّل في الخلفية. وعندما خيّل إليها أن الشريط يدور والزمن يجري بسرعة، شعرت بالتوتر.

«جانيت، أنا آسفة على ما بدر مني. أعرف أنني يجب ألاّ أتذمر من النعمة التي أعيش في كنفها. لكنّ ذلك كلّه لأنني... لست سعيدة».

صوت طقطقة. فقد أوشكت فترة جهاز تسجيل المكالمات على التوقف. انقبض قلب إيلا بصدمة ما قالته للتو. ماذا دهاها. لم تكن تعرف أنها حزينة. هل يمكن أن تكون مصابة بالاكتئاب، وهي لا تعرف ذلك؟ وعلى نحو غريب، بدا أنها لم تشعر بالحزن لأنها اعترفت بأنها ليست سعيدة.

تسللت نظرتها إلى قصاصة الورق التي دونت عليها عنوان بريد عزيز زاهارا الإلكتروني. كان العنوان بسيطاً، متواضعاً، وجذاباً نوعاً ما. ومن دون أن تفكر كثيراً في الأمر، توجهت إلى حاسوبها، وكتبت الرسالة التالية:

السيد عزيز ز. زاهارا،

اسمي إيلا. وأنا أقرأ روايتك «الكفر الحلو»، بعد أن كلفتني الوكالة الأدبية بذلك. لقد بدأت بقراءتها منذ فترة وجيزة، وقد وجدت متعة

كبيرة فيها. على أي حال، هذا رأيي الشخصي، وهو لا يعكس رأي صاحب الوكالة الأدبية. وسواء أحببت روايتك أم لا، فلا تأثير لرأيي على القرار النهائي بالموافقة على نشر روايتك.

يبدو أنك تؤمن بأن العشق هو جوهر الحياة، وأن لا شيء آخر يهم. وليس في نيتي أن أدخل معك الآن في نقاش عقيم حول هذه المسألة. ويكفي أن أقول إنني لا أوافقك الرأي تماماً.

لكنني لا أكتب لك الآن لهذا السبب.

بل أكتب إليك لأن «توقيت» قراءتي لرواية «الكفر الحلو» لا يمكن أن يكون أكثر غرابة. فأنا أحاول إقناع ابنتي الكبرى بعدم الزواج لأنها لا تزال صغيرة. وقد طلبتُ البارحة من صديقها أن يلغي مشروع زواجهما. فأصبحت ابنتي تكرهني ورفضت أن تكلمني. أشعر أن الأمور تسير معك على ما يرام، لأنه يبدو أنك تحمل آراء مشابهة حول الحبّ.

إني آسفة لأنني أحدثك عن مشاكلي الشخصية. لم أكن أنوي ذلك. وتقول مدوّنتك الشخصية (حيث وجدت عنوانك الإلكتروني) إنك موجود الآن في غواتيمالا. لا بد أن الترحال في أرجاء الأرض أمر مثير. وإذا صادف أن زرت بوسطن، فربما التقينا شخصياً وتحدثنا حول فنجان قهوة.

أطيب التمنيات

إيلا

كانت رسالتها الإلكترونية الأولى إلى عزيز، دعوة أكثر منها رسالة، صيحة استغاثة. لكن إيلا لم تدرك ذلك عندما جلست بصمت في

مطبخها، وكتبت رسالة إلى كاتب مجهول لم تتوقّع أن تلتقي به لا الآن، ولا في أي وقت في المستقبل.

السيّد

بغداد، نيسان (أبريل) ١٢٤٢

لم تعرف بغداد بوصول شمس التبريزي، لكني لن أنسى ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى تكية الدراويش البسيطة التي نمكث فيها. وقد جاء لزيارتنا عدد من كبار الزوار في عصر ذلك اليوم. فعندما جاء كبير القضاة يصحبه عدد من رجاله لزيارتي، ساورني الشك في أن شيئاً أكثر من المودة يكمن وراء زيارته هذه. فقد كان القاضي معروفاً بشدة كراهيته للصوفية، وأظن أنه يريد أن يذكّرني بأننا تحت مراقبته، كما كان يراقب جميع الصوفيين في المنطقة.

كان القاضي رجلاً طموحاً، ذا وجه عريض، وبطن متهدلة، وأصابع قصيرة مكتنزة، في كل منها خاتم ثمين. وأظن أن عليه أن يتوقف عن تناول كميات كبيرة من الطعام، لكني أشك في أن أحداً يملك الشجاعة لأن يطلب منه ذلك، فحتى طبيبه لا يستطيع أن يقدم له مثل هذه النصيحة. وكان القاضي يتحدّر من أسرة أنجبت عدداً من العلماء، وأصحاب النفوذ في المنطقة. وبقرار منه يستطيع إرسال رجل إلى المشنقة، أو العفو بسهولة عن مجرم، ويخرجه من أشدّ الزنزانات

ظلمة. وكان من عادته ارتداء معاطف من الفراء وثياب غالية الثمن. وكانت تبدو عليه سيماء شخص شديد الثقة بسلطته. ومع أنني لم أكن أوافق على أساليبه المبهرجة المرائية، فقد كنت أبذل ما بوسعي للحفاظ على علاقات طيبة مع هذا الرجل، صاحب النفوذ، لصالح تكيتنا.

«إننا نعيش في أروع مدينة في العالم»، قال القاضي وهو يلقي ثمرة تين في فمه، «لكن بغداد تعجّ الآن باللاجئين الذين هربوا من بطش جيش المغول، ونحن نوفّر لهم ملاذاً آمناً. إنها مركز العالم، ألا ترى ذلك يا بابا زمان؟».

«لا ريب في أن هذه المدينة جوهرة»، قلت بحرص، «لكن يجب ألاّ ننسى أن المدن تشبه البشر. فهي تولد، وتمرّ بمرحلتي الطفولة والمراهقة، ثم تشيخ، وفي النهاية تموت. وأظن أن بغداد قد بلغت الآن أواخر شبابها. إذ لم نعد أثرياء كما كنا في عهد الخليفة هارون الرشيد، لكن بالرغم من ذلك، يحق لنا أن نفتخر بأننا لا نزال مركز التجارة والحرف والشعر. لكن من يعرف كيف سيكون حال المدينة بعد ألف سنة؟ فقد يختلف كلّ شيء».

«يا للتشاؤم!»، هزّ القاضي رأسه ومدّ يده إلى زبدية أخرى وتناول ثمرة تمر، وأضاف: «وستسود الخلافة العباسية، وستزداد ازدهاراً. هذا طبعاً ما لم يعكّر الخونة المندسون بيننا صفو الوضع الحالي. فهم يدّعون أنهم مسلمون، لكن تفسيرهم للإسلام أخطر بكثير من تهديد الكفّار».

فضلت أن ألوذ بالصمت. وليس خافياً على أحد أن القاضي يعتبر

الصوفيين وتفسيراتهم الفردية والباطنية للإسلام، مسيئة ومثيرة للمشاكل. فقد اتّهمنا بأننا نضرب بأحكام الشريعة عرض الحائط، وهذا يعني ازدراء برجال السلطة ـ رجال من أمثاله. وكنت أشعر أحياناً بأنه يريد أن يطرد جميع الصوفيين من بغداد.

«إن أخويّتك ليست ضارة، لكن ألا تظن أن بعض الصوفيين يتجاوزون حدود المقبول؟»، سأل القاضي، ممسّداً لحيته.

لم أعرف بماذا أجيبه على سؤاله. لكننا سمعنا في تلك اللحظة، ولله الحمد، قرعاً على الباب. دخل التلميذ الأحمر الشعر، وتقدم نحوي مباشرة، وهمس في أذني بأن زائراً يقف بالباب، وهو درويش جوّال يلحّ على رؤيتي، ويرفض أن يكلّم شخصاً آخر.

كان من عادتي أن أطلب من التلميذ اصطحاب الزائر الجديد إلى غرفة هادئة للترحيب به، وتقديم طعام ساخن له، والانتظار حتى يغادر الزوار. لكن أما وقد أشاع القاضي أجواء متوترة، فقد خطر لي أن الدرويش الجوّال قد يبدّد هذا التوتّر برواية قصص متعددة من أراض بعيدة. لذلك طلبت من التلميذ إدخال الدرويش.

بعد لحظات، فُتح الباب، ودخل رجل متشح بالسواد من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. كان ضامراً، نحيفاً، يصعب تحديد عمره، له أنف مدبب، وعينان سوداوان غائرتان، وشعر أسود يتهدل فوق عينيه في ضفائر سميكة. كان يرتدي عباءة طويلة ذات قلنسوة، وثوباً صوفياً، وينتعل حذاء طويلاً من جلد الغنم، وكانت تتدلى من رقبته تعاويذ ورقى عدة. وكان يحمل بيده زبدية خشبية من النوع الذي يحمله الدراويش المتسولون لتحطيم كبريائهم الشخصي، وزهوهم بأنفسهم عن طريق قبول صدقات الآخرين. وأدركت أنني أمام رجل

لا يعير اهتماماً كبيراً للأحكام التي يطلقها المجتمع؛ فقد يظنه الناس متشرّداً أو متسولاً، وبدا أن ذلك لم يكن يزعجه على الإطلاق.

عندما رأيته واقفاً هناك، ينتظر حتى يُسمح له بأن يقدّم نفسه، أحسست بأنه رجل مختلف. كان ذلك جلياً في عينيه، في حركاته وإيماءاته الأنيقة، البادية على جسده. كان أشبه بثمرة بلوط تبدو متواضعة ولا تعيرها العيون الجاهلة أي اهتمام، لكنها تبشّر بشجرة بلوط زاهية ستنمو في المستقبل، نظر إليّ بعينيه الثاقبتين السوداوين وهز رأسه بصمت.

«أهلاً بك في تكيتنا أيها الدرويش»، قلت وأشرت له بأن يجلس على الوسادات قبالتي.

بعد أن حيّا الدرويش الجميع، جلس، وراح يمعن النظر في الحاضرين في الغرفة، يتفحصهم بأدق التفاصيل. وتوقفت نظرته أخيراً على القاضي. رمق الرجلان أحدهما الآخر دقيقة كاملة، من دون أن ينبس أي منهما بكلمة، وتساءلتُ ماذا كان كل منهما يظن بالآخر، لأنهما ظهرا شخصين متناقضين.

قدمت للدرويش حليب ماعز دافئ، وثمرات من التين المحلّى، وتمرات محشوة، رفضها جميعاً بأدب جم. وعندما سألته عن اسمه، عرّف عن نفسه بالتبريزي، وقال إنه درويش جوّال يبحث عن الله في أرض الله الواسعة.

«وهل وجدته؟»، سألته.

غمر وجه الدرويش ظلّ عندما هزّ رأسه، وقال: «نعم، إنه معي طوال الوقت».

تدخّل القاضي بابتسامة متكلفة وقال: «لا يمكنني أن أفهم لماذا تعقّدون، أنتم معشر الدراويش الحياة بهذا الشكل. وإذا كان الله معك طوال الوقت، فلماذا تبحث عنه؟».

أطرق شمس التبريزي رأسه مفكراً، ولبث صامتاً للحظة. وعندما رفع رأسه ثانية، كان وجهه هادئاً، وصوته متزناً، وقال: «مع أنه لا يمكن العثور عليه بالبحث عنه، فإن الذين يبحثون عنه هم فقط الذين يستطيعون إيجاده».

«يا له من تلاعب بالكلمات»، قال القاضي هازئاً، «هل تريد أن تقول لنا إننا لا نستطيع أن نجد الله إذا مكثنا في المكان نفسه طوال حياتنا؟ هذا هراء. فليس على المرء أن يلبس ثياباً رثة، ويجوب الطرقات مثلك!».

أعقبت ذلك موجة من الضحك لأن جميع الحاضرين كانوا حريصين على إبداء موافقتهم على آراء القاضي، ضحكات عالية النبرة، غير واثقة، تنبعث من أشخاص اعتادوا على تملّق من يعلونهم مرتبة. شعرت بالضيق. من الواضح أن فكرة الجمع بين القاضي والدرويش لم تكن فكرة جيدة.

فقال الدرويش: «لعلك أسأت فهمي. فأنا لم أقصد القول إن المرء لا يستطيع أن يجد الله إذا مكث في مسقط رأسه. فمن المؤكد أن هذا ممكن. فهناك أناس لم يسافروا قط، ومع ذلك فقد رأوا العالم».

«تماماً!»، قال القاضي، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة تشي بالانتصار، لكنها سرعان ما تلاشت عندما سمع ما قاله الدرويش بعد ذلك.

«ما قصدت قوله، أيها القاضي، هو أن المرء لا يستطيع أن يجد الله إذا ظل يرتدي معاطف فراء، وملابس حريرية، ومجوهرات غالية كالتي ترتديها اليوم».

خيَّم صمت مرعب على الغرفة، وذابت الأصوات والتنهدات من حولنا واستحالت غباراً. حبسنا جميعاً أنفاسنا، كأننا ننتظر حدوث شيء أعظم، صادم أكثر، لا أعرفه.

فقال القاضي: «إن لسانك سليط لا يليق بدرويش».

«عندما أشعر بأنني يجب أن أقول شيئاً، فسأقوله حتى لو أمسكني العالم كله من رقبتي وطلب مني أن أسكت».

عندما سمع القاضي ذلك، تجهّم وجهه، لكنه هزّ كتفيه باستخفاف، وقال: «كما تشاء. في جميع الأحوال، فأنت هو الرجل الذي نحتاج إليه. كنا نتحدّث عن روعة مدينتنا. لا بدّ أنك رأيت الكثير من الأماكن. هل هناك مكان أجمل من بغداد؟».

راح شمس ينقل نظراته من رجل إلى آخر بهدوء، ثم قال: «لا يجادل أحد في أن بغداد مدينة رائعة، لكن لا يوجد جمال على وجه الأرض يدوم إلى الأبد. إذ إن المدن تنتصب فوق أعمدة روحية، كالمرايا العملاقة، وهي تعكس قلوب سكّانها، فإذا أظلمت هذه القلوب، وفقدت إيمانها، فإنها ستفقد بريقها وبهاءها. لقد حدث ذلك لمدن كثيرة، وهو يحدث دائماً».

لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً سوى أن أهزّ رأسي. التفت شمس التبريزي نحوي، وشرد قليلاً بأفكاره، ورمش بعينيه بطريقة ودّية. وقد أحسست بأنهما لاهبتان مثل شمس حارقة. كان ذلك عندما اتضح لي

كيف أنه يستحق الاسم الذي يحمله بجدارة. كان هذا الرجل يشعّ حماسة وحيوية، ويحترق في داخله مثل كرة من نار. كان شمس هو «الشمس» حقاً.

لكن كان رأي القاضي مختلفاً، فقد قال: «أنتم معشر الصوفيين تعقدّون الأمور كثيراً. شأنكم شأن الفلاسفة والشعراء! فما الحاجة إلى كل هذه الكلمات؟ إن البشر مخلوقات بسيطة ذات حاجات بسيطة. ويقع على عاتق الزعماء تلبية احتياجاتهم والحرص على ألاّ يضلوا سواء السبيل. وهذا يقتضي تطبيق الشريعة بحذافيرها».

فقال شمس التبريزي: «إن الشريعة كالشمعة، توفر لنا نوراً لا يقدّر بثمن. لكن يجب ألاّ ننسى أن الشمعة تساعدنا على الانتقال من مكان إلى آخر في الظلام، وإذا نسينا إلى أين نحن ذاهبون، وركزنا على الشمعة، فما النفع من ذلك؟».

ابتسم القاضي ابتسامة عريضة، وانكمش وجهه. سرت في جسدي موجة من القلق. فالدخول في نقاش حول أهمية الشريعة مع رجل تكمن وظيفته في الحكم على الناس ومعاقبتهم في غالب الأحيان وفق الشريعة، سباحة في مياه خطيرة. ألا يعرف شمس ذلك؟

وبينما كنت أبحث عن عذر ملائم لأُخرج الدرويش من الغرفة، سمعته يقول: «توجد قاعدة تنطبق على هذه الحالة».

«أي قاعدة؟»، سأل القاضي مرتاباً.

اعتدل شمس التبريزي في وقفته، وعيناه ثابتتان كما لو أنه كان يقرأ من كتاب غير مرئي، وقال:

«إن كلّ قارئ للقرآن الكريم يفهمه بمستوى مختلف بحسب عمق

فهمه. وهناك أربعة مستويات من البصيرة: يتمثل المستوى الأول في المعنى الخارجي، وهو المعنى الذي يقتنع به معظم الناس؛ ثم يأتي المستوى الباطني. وفي المستوى الثالث، يأتي باطن الباطن؛ أما المستوى الرابع، فهو العمق ولا يمكن الإعراب عنه بالكلمات، لذلك يتعذر وصفه».

وبعينين متألقتين تابع شمس قوله: «أما العلماء الذين يركّزون على الشريعة فهم يعرفون المعنى الخارجي؛ في حين يعرف الصوفيون المعنى الباطني. أما الأولياء فهم الذين يعرفون باطن الباطن. بينما لا يعرف المستوى الرابع إلا الأنبياء والأولياء الصالحون والمقربون من الله».

«هل تقصد أن الصوفي العادي يفهم القرآن أكثر مما يفهمه عالم الشريعة؟»، سأل القاضي وهو ينقر بأصابعه على الزبدية.

ارتسمت ابتسامة خفيفة تهكمية على فم الدرويش، لكنه لم يحر جواباً.

«انتبه، يا صديقي»، قال القاضي، «يوجد خطّ رفيع بين ما تقوله وبين الكفر المحض».

إن كان في هذه الكلمات تهديد مبطن، فإن الدرويش يبدو أنه لم ينتبه إليها، وسأل: «ما هو الكفر المحض على وجه التحديد؟»، وبعد أن أخذ نفساً عميقاً أضاف: «دعني أحكي لك قصّة».

وفي ما يلي القصة التي حكاها لنا:

في أحد الأيام، كان موسى يسير في الجبال وحيداً عندما رأى من بعيد راعياً. كان الرجل جاثياً على ركبتيه، ويداه ممدودتين نحو

السماء، يصلّي. غمرت موسى السعادة. لكنه عندما اقترب منه، دهش عندما سمع الراعي يصلّي.

«يا إلهي الحبيب، إني أحبّك أكثر مما قد تعرف. سأفعل أيّ شيء من أجلك، فقط قل لي ماذا تريد. حتى لو طلبت مني أن أذبح من أجلك أسمن خروف في قطيعي، فلن أتردد في عمل ذلك. أشويهِ، وأضع دهن إليته في الرزّ ليصبح لذيذ الطعم».

اقترب موسى من الراعي، لينصت إليه أكثر.

«ثم سأغسل قدميك وأنظّف أذنيك وأفلّيك من القمل. هذا هو مقدار محبتي لك».

عندما سمع موسى ذلك، صاح مقاطعاً الراعي وقال: «توقّف، أيها الرجل الجاهل! ماذا تظن نفسك فاعلاً؟ هل تظن أن الله يأكل الرزّ؟ هل تظن أن لله قدمين لكي تغسلهما؟ هذه ليست صلاة. هذا كفر محض».

كرر الراعي الذي أحسّ بالذهول والخجل اعتذاره، ووعده بأن يصلي كما يصلي الأتقياء. فعلّمه موسى الصلاة في عصر ذلك اليوم. ثمّ مضى في طريقه، راضياً عن نفسه كلّ الرضا.

لكن في تلك الليلة، سمع موسى صوتاً. كان صوت الله.

«ماذا فعلت يا موسى؟ لقد أنّبت ذلك الراعي المسكين، ولم تدرك معزّتي له. لعله لم يكن يصلي بالطريقة الصحيحة، لكنه مخلص في ما يقوله. إن قلبه صاف، ونياته طيبة. إني راض عنه. قد تكون كلماته لأذنيك بمثابة كفر، لكنها كانت، بالنسبة لي، كفراً حلواً».

فهم موسى خطأه في الحال. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي،

عاد إلى الجبال ليبحث عن الراعي، فوجده يصلّي، لكنه، في هذه المرة، كان يصلّي له بالطريقة التي علّمه إياها. ولكي يؤدي صلاته بشكل صحيح، كان يتلعثم، وكان يفتقد إلى الحماسة والعاطفة كما كان يفعل سابقاً. نادماً على ما فعله له، ربّت موسى على ظهر الراعي وقال: «يا صديقي، لقد أخطأت. أرجو أن تغفر لي. أرجو أن تصلّي كما كنت تصلّي من قبل، فقد كانت صلاتك ثمينة ونفيسة في عيني الله».

تملكت الراعي الدهشه عندما سمع ذلك، لكن إحساسه بالارتياح كان أعمق. بيد أنه لم يشأ العودة إلى صلاته القديمة. ولم يلتزم بالصلاة الرسمية التي علّمه إياها موسى. فقد اكتشف طريقة جديدة الآن يتواصل بها مع الله. وبالرغم من أنه كان راضياً وسعيداً بإيمانه الساذج، فقد تجاوز الآن تلك المرحلة ـ ما بعد كفره الحلو.

اختتم شمس قصته قائلاً: «فكما ترى، لا تحكم على الطريقة التي يتواصل بها الناس مع الله، فلكلّ امرئ طريقته وصلاته الخاصة. إن الله لا يأخذنا بكلمتنا، بل ينظر في أعماق قلوبنا. وليست المناسك أو الطقوس هي التي تجعلنا مؤمنين، بل إن كانت قلوبنا صافية أم لا».

تمعنت في وجه القاضي. رأيت تحت قناعه المتسم بالثقة والهدوء المطلقين انزعاجاً شديداً. ولمّا كان رجلاً فطناً، فقد أحسّ بأنه في وضع صعب ودقيق. فلو ردّ على قصّة شمس التبريزي، سيتعين عليه أن يتخذ الخطوة التالية ويعاقبه على وقاحته، وفي هذه الحالة، لأصبحت الأمور خطيرة، وسمع الجميع أن درويشاً بسيطاً تجاسر

على مواجهة كبير القضاة. لذلك آثر أن يتظاهر بأن شيئاً لم يزعجه ويترك الأمر.

في الخارج، كانت الشمس تميل نحو الغروب، ولوّنت السماء بظلال قرمزية، تتخللها بين الحين والآخر غيوم رمادية داكنة. وبعد قليل، استوى القاضي واقفاً، وقال إن لديه أعمالاً مهمة يجب أن ينجزها.

بعد أن أومأ لي إيماءة طفيفة، ورمق شمس التبريزي بنظرة باردة، خرج وتبعه رجاله من دون أن ينبس ببنت شفة.

«أظن أن القاضي لم يحبّك كثيراً»، قلت له بعد أن غادر الجميع.

أبعد شمس التبريزي شعره عن وجهه، وقال مبتسماً: «لا يهم. فأنا معتاد على الأشخاص الذين لا يكنّون لي حباً».

اعتراني شعور بالإثارة. ولما كنت المسؤول عن هذه التكية منذ فترة طويلة، فإني أعرف أنه لا يزورنا في هذه التكية زائر كهذا كثيراً.

قلت له: «قل لي أيها الدرويش، ما الذي أتى بشخص مثلك إلى بغداد؟».

كنت متلهفاً لسماع ردّه، لكني شعرت أيضاً بالخشية منه على نحو غريب.

إيلا

نورثامبتون، ٢٠ أيار (مايو) ٢٠٠٨

في الليلة التي لم يعد فيها زوجها إلى البيت، رأت إيلا في منامها راقصات شرقيات يرقصن، ودراويش يدورون حول أنفسهم، بينما كان عدد من المحاربين الأشداء يتناولون طعامهم في أحد الخانات على الطريق، وأطباقهم مليئة بالفطائر والحلويات اللذيذة.

ثمّ رأت نفسها وهي تبحث عن شخص في سوق يعجّ بالحركة والحيوية في إحدى القلاع في بلد أجنبي؛ يتحرك الأشخاص حولها ببطء، وكأنهم يرقصون على نغمات لحن لا تسمعه. أوقفت رجلاً بديناً ذا شاربين معقوفين إلى الأسفل لتسأله عن شيء، لكنها لم تتذكر ماذا سألته. نظر إليها الرجل ساهماً، وسار بعيداً. حاولت أن تتكلم مع عدد من الباعة وروّاد السوق، لكن أحداً لم يرد عليها. في البداية، خيّل إليها أن ذلك لأنها لم تكن تتكلّم بلغتهم. ثمّ وضعت يدها على فمها، وأدركت بفزع أن لسانها مقطوع؛ وبفزع أشدّ راحت تتطلع حولها تبحث عن مرآة لترى صورتها فيها، لتتأكد من أنها لا تزال هي نفسها، على الرغم من عدم وجود مرآة في السوق. بدأت تبكي

واستيقظت على صوت مزعج، وهي لا تعرف هل لا يزال لها لسان أم لا.

عندما فتحت إيلا عينيها، وجدت «سبيريت» يخدش الباب الخلفي بشكل مسعور. لعل حيواناً ما قد دخل إلى الشرفة، مما جعل الكلب ينبح بجنون. إذ كانت الظرابين تجعله في حالة توتر شديدة. ولا يزال عراكه مع أحد الظرابين في الشتاء الماضي ماثلاً في مخيلته. ولم تتمكن إيلا من إزالة تلك الرائحة الكريهة من الكلب إلا بعد أسابيع عدة. ومع أنها غمرته في أحواض مليئة بعصير البندورة (الطماطم)، لم تفارقه الرائحة التي تشبه رائحة مطاط محروق.

نظرت إيلا إلى الساعة المعلّقة على الجدار. كانت الساعة الثالثة إلا ربعاً صباحاً. لم يكن ديفيد قد عاد، ولعله لن يعود أبداً؛ ولم تردّ جانيت على مكالمتها، وفي حالتها المتشائمة، لم تكن إيلا متأكدة من أنها سترّد عليها. تملكها رعب من أن زوجها وابنتها هجراها. فتحت الثلاجة ونظرت فيها بضع دقائق. وحذّرتها الرغبة من تناول كمية قليلة من بوظة فانيلا الكرز كي لا يزداد وزنها، إذا لم تبذل قليلاً من الجهد، فابتعدت عن الثلاجة وصفقت بابها صفقة أقوى بقليل مما يلزم.

ثمّ فتحت إيلا قنينة نبيذ أحمر، وصبّت منها كأساً لنفسها. كان نبيذاً جيداً، خفيفاً ومنعشاً، فيه لذعة من المرارة والحلاوة التي كانت تحبها. وبينما كانت تملأ كأسها الثانية، خطر لها أنها ربما تكون قد فتحت إحدى قناني نبيذ البوردو الغالية التي يجلبها ديفيد. قرأت الملصق على القنينة ـ شاتو مارغو ١٩٩٦. لم تعرف ماذا تصنع حيال ذلك، فرمقت القنينة بتجهم.

كانت مرهقة وتشعر بالنعاس، ولم يعد بإمكانها قراءة المزيد. لذلك قرّرت أن تقرأ بريدها الإلكتروني، «توجد ست رسائل إلكترونية عديمة القيمة، ورسالة من ميشيل تسألها كيف تسير أمورها بشأن المخطوط، ووجدت رسالة إلكترونية موجهة من عزيز ز. زاهارا.

العزيزة إيلا (إذا كان يحق لي أن أقول ذلك)،

قرأت رسالتك الإلكترونية وأنا في قرية من قرى غواتيمالا تدعى مومو ستينانغو. وهي أحد الأماكن القليلة المتبقية التي لا يزال يستخدم سكانها تقويم شعب المايا. وقبالة الفندق الذي أمكث فيه، تنتصب شجرة أمنيات مزخرفة بمئات من قصاصات الأقمشة من جميع الألوان والأشكال التي يمكنك تخيّلها. وهم يطلقون عليها «شجرة أصحاب القلوب الكسيرة». والناس يكتبون أسماءهم على قصاصات من الورق، ويربطونها بأغصان الشجرة، ويتضرعون إلى الله من أجل شفاء قلوبهم المحطمة.

أرجو ألاّ تجدي قولي هذا نوعاً من الوقاحة، لكن بعد أن قرأت رسالتك الإلكترونية توجهت إلى شجرة الأماني وصلّيت من أجلك حتى تتوصلي إلى حلّ لسوء التفاهم بينك وبين ابنتك. فحتى ذرة من الحبّ يجب أن تحظى بالتقدير، لأن الحبّ، كما قال الرومي، هو ماء الحياة.

ودعيني أقول لك إن أحد الأمور التي ساعدتني شخصياً في الماضي على الكفّ عن التدخّل في شؤون الآخرين من حولي، هو عندما كنت أشعر بالإحباط بأنني لن أتمكن من تغييرهم. فبدلاً من التطفل أو السلبية، هل يمكنني أن أقترح الإذعان؟

يخطئ البعض عندما يخلطون بين «الإذعان» و «الضعف». فالإذعان شكل من أشكال القبول السلمي بشروط الكون، ومن بينها الأمور التي لا نستطيع تغييرها أو فهمها حالياً.

وبحسب تقويم شعب المايا، فإن اليوم يعتبر يوماً ميموناً. سيحدث فيه تغيير فلكي رئيسي، يبشر بوعي إنساني جديد. يجب أن أسرع بإرسال هذه الرسالة الإلكترونية إليك قبل غروب الشمس وانتهاء النهار.

أرجو أن يجدك الحبّ عندما لا تتوقعينه.

المخلص

عزيز

أغلقت إيلا حاسوبها المحمول، وقد غمرها شعور بالسعادة عندما علمت أن شخصاً غريباً يمكث في بقعة بعيدة في العالم يصلّي من أجلها ومن أجل سعادتها. أغمضت عينيها وتخيّلت اسمها مكتوباً على قصاصة ورق تتدلى من غصن شجرة الأمنيات مثل طائرة ورقية تسبح في الهواء، حرة وسعيدة.

وبعد دقائق قليلة، فتحت باب المطبخ وخرجت إلى الفناء الخلفي، لتستمتع ببرودة الهواء العليل، وإلى جانبها وقف «سبيريت»، مضطرباً وهو ينبح. صغرت عينا الكلب، ثمّ أصبحتا كبيرتين وقلقتين، وشنّف أذنيه، كأنه أدرك شيئاً مخيفاً من بعيد. وقفت إيلا وكلبها بجانب بعضهما بعضاً، تحت قمر أواخر الربيع، يحدّقان في الظلام الكثيف الرحب، خائفين من الأشياء التي تتحرّك في الظلام، خائفين من المجهول.

التلميذ

بغداد، نيسان (أبريل) ١٢٤٢

بكثير من الانحناءات، أوصلتُ القاضي إلى الباب، وعدت بسرعة إلى الغرفة الرئيسية لأجمع الصحون الوسخة. لكني فوجئت برؤية بابا زمان والدرويش كما تركتهما صامتين، لا ينبس أحدهما بكلمة. وبطرف عيني، رحت أراقبهما، متسائلاً هل يمكن أن يتحادث اثنان من دون أن ينبسا ببنت شفة. رحت أتحرك ببطء، أرتّب المساند، أنظف الغرفة، ألتقط الفتات من على السجادة، ثم شعرت بأنه لم يعد هناك سبب يجعلني أبقى.

بتراخ وبتباطؤ، جررت قدميّ عائداً إلى المطبخ. وما إن رآني الطاهي، حتى بدأ ينهال عليّ بأوامره: «نظّف الطاولة، نظّف الأرضية! اغسل الصحون! افرك الموقد والجدران حول المشواة. وعندما تنهي ذلك، لا تنس أن تتفحص مصائد الفئران». إذ إن الطاهي يعاملني معاملة سيئة منذ أن وطأت قدماي هذه التكية منذ حوالى ستة أشهر. وكان يرغمني كلّ يوم على العمل مثل الكلب، وقال إن تعذيبي بهذه الطريقة جزء من التدريب الروحي، وكأن غسل الصحون

المكسوة بطبقة من الدهون تدريب روحي.

كان الطاهي رجلاً قليل الكلام، ولم يكن يكفّ عن ترديد عبارته المفضّلة التالية: «التنظيف صلاة، والصلاة تنظيف».

«لو صح ذلك، لأضحت جميع ربّات البيوت في بغداد من السادة الروحيين»، قلت له بجرأة ذات مرة.

فرماني بالملعقة فأصابتني في رأسي، وهو يصرخ بأعلى صوته: «إن الرد على ما أقوله لا يجديك نفعاً يا بني. فإذا أردت أن تصبح درويشاً، يجب أن تصمت مثل هذه الملعقة الخشبية. إن العناد والتمرد ليسا من صفات التلميذ الجيدة. كلما قل كلامك، نضجت بسرعة أكبر».

كنت أكره الطاهي، لكن الأهم من ذلك أنني كنت أخشاه. لم أرفض أوامره قط. كان ذلك حتى هذا المساء.

ما إن أدار الطاهي ظهره، حتى تسللت وخرجت من المطبخ وعدت أدراجي على أطراف أصابعي إلى الغرفة الرئيسية، متلهفاً لمعرفة المزيد عن هذا الدرويش الجوّال. من هو؟ ماذا يفعل هنا؟ فهو لا يشبه الدراويش الآخرين في التكية. كانت عيناه تبدوان قاسيتين وجامحتين، وحتى عندما كان يحني رأسه تواضعاً. كان فيه شيء غير عادي، لا يمكن التنبؤ به. شيء يكاد يكون مخيفاً.

استرقت النظر عبر شقّ في الباب. في البداية، لم أتمكن من رؤية شيء، لكن سرعان ما تأقلمت عيناي مع شبه العتمة داخل الغرفة، وتبيّنت وجهيهما.

سمعت السيد يسأله: «أخبرني، يا شمس التبريزي، ما الذي أتى بشخص مثلك إلى بغداد؟ هل رأيت هذا المكان في أحد أحلامك؟».

هزّ الدرويش رأسه وقال: «لا، إن ما جاء بي إلى بغداد لم يكن حلماً، بل رؤية. فأنا لا أرى أحلاماً».

«الجميع يرون أحلاماً»، قال بابا زمان، بلطف، «ولعلك لا تتذكّرها دائماً. لكن هذا لا يعني أنك لا تحلم».

فقال الدرويش بإصرار: «لكني لا أرى أحلاماً. إن هذا جزء من عهد بيني وبين الله. فعندما كنت صغيراً، كنت أرى الملائكة وأسرار الكون تتراءى أمام عينيّ. وعندما أخبرت والديّ بذلك، انزعجا وطلبا مني أن أتوقف عن الأحلام. وعندما أخبرت أصدقائي، قالوا أيضاً إنني حالم يائس. حاولت أن أخبر أساتذتي، لكن ردّهم لم يكن مختلفاً. وأخيراً أدركت أنه عندما يسمع الناس شيئاً غير عادي، فهم يسمونه حلماً. لذلك بدأت أكره الكلمة وكلّ ما تعبّر عنه».

ثمّ توقف الدرويش عن الكلام كما لو أنه سمع صوتاً ما فجأة؛ ثمّ حدث أمر غريب. إذ استوى واقفاً، وسار بتؤدة وبتأنٍ نحو الباب، وهو ينظر باتجاهي. بدا وكأنه يعرف أنني أتلصص عليهما.

لقد بدا كأنه يستطيع أن يرى من خلال الباب الخشبي.

بدأ قلبي يخفق بجنون. أردت أن أجري وأعود إلى المطبخ لكني لم أعرف كيف أفعل ذلك. فقد تجمّدت ذراعاي، وساقاي، وجسمي كله. ومن وراء الباب وعبره، كانت عينا شمس التبريزي الداكنتان مسمّرتين عليّ.

استولى عليّ رعب شديد، وأحسست بطاقة هائلة تسري في جسدي. اقترب، ووضع يده على مقبض الباب، لكن عندما خيّل إليّ أنه سيفتح الباب ويمسك بي، توقّف. لم أر وجهه من هذه المسافة

القريبة، ولم أعرف ما الذي غيّر رأيه. انتظرنا دقيقتين طويلتين على نحو لا يطاق. ثمّ أدار ظهره؛ وعندما ابتعد عن الباب، تابع رواية قصّته:

«عندما كبرت قليلاً، طلبت من الله أن يحرمني من رؤية الأحلام، لكي أعرف، كلّما صادفته، بأنني لا أحلم. ووافقني على ذلك. فأبعد عني الأحلام، وهكذا فلم أعد أرى أحلاماً».

وقف شمس التبريزي بجانب النوافذ المشرعة عبر الغرفة. كان رذاذ خفيف يهمي، وكان يراقبه مستغرقاً في التفكير، قبل أن يقول: «لقد أخذ الله قدرتي على الحلم. لكن، عوضني عن ذلك بأن منحني القدرة على تفسير أحلام الآخرين. فأنا مفسّر أحلام».

توقّعت ألاّ يصدق بابا زمان هذا الهراء، وأن يوبّخه، كما دأب على توبيخي.

لكن السيد هزّ رأسه باحترام وقال: «يبدو أنك شخص غير عادي. قل لي، كيف لي ان أخدمك؟».

«لا أعرف. في الواقع، كنت آمل أن تتمكن أنت من إخباري كيف يمكنك أن تساعدني».

«ماذا تقصد؟»، سأل السيّد، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الحيرة.

«إني درويش أطوف البلاد منذ حوالى أربعين عاماً. وإني أجيد أساليب الطبيعة، مع أن أساليب المجتمع لا تزال غريبة عنيّ. وإذا دعت الضرورة، يمكنني أن أقاتل بشراسة حيوان بري، لكني لا أستطيع إيذاء أحد. أستطيع أن أعدّد أسماء الأبراج في السماء، وأميّز

الأشجار في الغابات، وأقرأ مثل كتاب مفتوح أنواع الناس الذين خلقهم الله على صورته».

توقّف شمس قليلاً، وانتظر حتى أشعل السيد فانوساً، ثمّ واصل كلامه، «تقول إحدى القواعد إنه يمكنك أن تدرس الله من خلال كلّ شيء وكلّ شخص في هذا الكون، لأن وجود الله لا ينحصر في المسجد، أو في الكنيسة أو في الكنيس. لكنك إذا كنت لا تزال تريد أن تعرف أين يقع عرشه بالتحديد، يوجد مكان واحد فقط تستطيع أن تبحث فيه عنه، وهو قلب عاشق حقيقي. فلم يعش أحد بعد رؤيته، ولم يمت أحد بعد رؤيته. فمن يجده يبقى معه إلى الأبد».

في ذلك الضوء الخافت، المرتعش، بدا شمس التبريزي أطول قامة، وقد انسدل شعره على كتفيه في موجات غير مرتّبة.

«لكن المعرفة أشبه بماء قليل الملوحة في قعر مزهرية قديمة، إذا لم يتدفّق في مكان ما. ومنذ سنوات، فإني أطلب من الله أن يأتيني برفيق أشاطره المعرفة التي جمعتها في داخلي. وأخيراً، سمعت في الرؤية التي أتتني عندما كنت في سمرقند، بأنني يجب أن آتي إلى بغداد ليتحقق قَدَري. إني أعرف أنك تعرف اسم رفيقي، وأين يوجد، وأعرف أنك ستخبرني، إن لم يكن الآن، ففي وقت لاحق».

في الخارج، بدأ الليل يرخي سدوله، وتسلل شعاع من أشعة ضوء القمر من خلال النوافذ المفتوحة. أدركت أن الوقت قد أصبح متأخراً. لا بد أن الطاهي يبحث عني، لكني لم أعبأ بذلك. ولمرة واحدة، شعرت بالسعادة لأنني خرقت القواعد.

«لا أعرف ما نوع الردود التي تطلبها مني»، غمغم السيّد، «لكن لو

كانت هناك أي معلومات كتب عليّ أن أكشفها، فأنا أعرف أن ذلك سيحدث في الوقت المناسب. وحتى ذلك الحين، يمكنك أن تمكث معنا. فكن ضيفنا».

عندما سمع الدرويش الجوّال ذلك، انحنى بتواضع وامتنان ليقبّل يد بابا زمان. وفي تلك اللحظة سأل السيّد سؤالاً غريباً: «قلت إنك مستعدّ لتقدّم كل ما تعرفه إلى شخص آخر. تريد أن تقبض على الحقيقة في راحة يدك كما لو كانت لؤلؤة ثمينة وتقدمها إلى شخص معيّن. إلا أن فتح قلب شخص لكي يستقبل النور الروحي ليس بالمهمّة اليسيرة على أي إنسان. إنك تسرق رعد الله. وما هو الشيء الذي تستطيع تسديده لقاء ذلك؟».

لن أنسى ما حييت جواب الدرويش آنذاك. فقد رفع حاجبيه، وقال بحزم: «إني مستعد لتقديم رأسي».

أجفلت، وسرت رعدة باردة أسفل عمودي الفقري. عندما عدت ووضعت عيني على شقّ الباب، لاحظت أن السيّد قد فوجئ بالجواب أيضاً.

«لعلنا تحدثنا اليوم بما يكفي»، وانطلقت من فم بابا زمان تنهيدة، وأضاف: «لا بد أنك متعب. دعني أنادي التلميذ الشاب، ليريك الطريق إلى فراشك، ويقدم لك ملاءات نظيفة وكوباً من الحليب».

استدار شمس التبريزي نحو الباب، وخالجني إحساس عميق بأنه عاد يحدّق بي. بدا كأن نظراته تخترق الباب وهو ينظر إليّ، يدقق في تجاويف روحي وقممها، يفتّش عن الأسرار التي خفيت حتى عني. لعله يمارس السحر الأسود، أو أنه تدرّب على أيدي هاروت

وماروت، الملاكان البابليان اللذان حذّرنا القرآن منهما؛ أو أنه يمتلك مواهب خارقة تمكّنه من الرؤية عبر الأبواب والجدران، ومهما كان الأمر فقد أثار الذعر في نفسي.

«لا داعي لمناداة التلميذ»، قال، وأخذت نبرة صوته تعلو: «أشعر بأنه في مكان قريب وقد سمعنا».

أطلقت شهقة عالية ربما أيقظت الموتى في قبورهم. وفي رعب تام وثبت ووقفت على قدمي، وركضت نحو الحديقة، أبحث عن ملاذ في الظلام؛ لكن مفاجأة غير سارة كانت تنتظرني هناك.

«إذاً أنت هناك أيها الوغد الصغير»، صاح الطاهي وجرى نحوي ملوحاً بمكنسة في يده: «إنك في ورطة كبيرة يا بني، في مشكلة كبيرة».

وثبت جانباً، وتمكنت من تفادي المكنسة في آخر لحظة.

«تعال إلى هنا وإلا كسرت ساقيك»، صاح الطاهي، لاهثاً.

لكني لم آت، بل اندفعت خارجاً من الحديقة بسرعة السهم. وبينما شعّ وجه شمس التبريزي أمام عينيّ، رحت أجري وأجري على طول الدرب المتعرّج الذي يصل التكية بالطريق الرئيسي، وحتى بعد أن ابتعدت كثيراً، لم أتوقف عن الجري. كان قلبي يخفق بشدة، وقد جفّ حلقي، وظللت أجري حتى أحسست بوهن في ركبتيّ ولم أعد أقوى على الجري.

إيلا

نورثامبتون، ٢١ أيار (مايو) ٢٠٠٨

عاد ديفيد، الذي كان مهيأً للشجار، إلى البيت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، لكنه وجد إيلا تغط في النوم في سريرها، ومخطوط رواية «الكفر الحلو» يرقد على حضنها، وكأس نبيذ فارغ يقبع إلى جانبها. سار نحوها ليسحب بطانيتها الصغيرة ويتأكّد من أنها مغطاة بشكل مريح، لكنه سرعان ما غيّر رأيه.

استيقظت إيلا بعد عشر دقائق. لم تفاجأ عندما سمعته وهو يأخذ دوشاً في الحمّام. فعلى الرغم من أنه يغازل نساء أخريات، بل كان من الواضح أنه يمضي الليل معهن، فلم يكن يستحمّ إلا في حمّام بيته. عندما أنهى ديفيد الحمّام، وعاد إلى الغرفة، تظاهرت إيلا بالنوم، لتجنّبه تفسير سبب غيابه.

بعد أقل من ساعة، غادر زوجها وطفلاها، فجلست إيلا وحدها في المطبخ. بدا أن الحياة قد عادت إلى مسارها المعتاد. فتحت إيلا كتاب الطهو الذي تفضله «كيف تجعل فن الطهو سهلاً وممتعاً»، وبعد أن درست عدّة خيارات، اختارت طبقاً تحضيره

صعب بعض الشيء لكي يشغلها فترة بعد الظهر كلها:

شوربة الصدف مع الزعفران، جوز الهند، وباستا البرتقال المخبوز بالفطر، وأعشاب طازجة، وجبن روزماري، وضلوع لحم العجل الرقيقة المنقوعة بالخلّ، وفاصولياء خضراء منقوعة بالثوم والليمون، وسلطة القنبيط. ثمّ أخذت قرارها بشأن الحلوى: كيك الشوكولاتة.

توجد أسباب عدة جعلت إيلا تحبّ الطهو. إذ لم يكن إعداد وجبة طعام لذيذة مصنوعة من مواد عادية يثلج صدرها ويسعدها فقط، بل كان كذلك يدخل سعادة حسّية غريبة إلى نفسها. والأهم من ذلك، أنها كانت تستمتع بالطهو، لأنها تحبه وتجيده إجادة تامة، كما أنه يريح أعصابها. وكان المطبخ في حياتها المكان الوحيد الذي يمكنها أن تتحاشى فيه العالم الخارجي كله، والذي كان يوقف جريان الزمن في داخلها. قالت لنفسها قد يكون للجنس نفس التأثير على بعض الأشخاص، لكنه دائماً يحتاج إلى شخصين، أما الطهو، فكل ما يحتاجة المرء هو الوقت والاهتمام، وشراء مجموعة من مواد البقالة.

إن الأشخاص الذين يقدمون برامج الطهو في التلفزيون يوحون بأن الطهو ينطوي على الإلهام والأصالة والإبداع. وكانت كلمتهم المفضّلة «التجريب». لكن إيلا لم تكن توافق على ذلك. فلماذا لا يُترك «التجريب» للعلماء ونزوات الفنانين! إن الطهو يتعلق بتعلّم الأساسيات، باتباع التعليمات، ومراعاة حكمة العصور. وكلّ ما يتعين عليك عمله هو اتباع التقاليد العريقة واستخدامها، لا تجريبها. إذ إن مهارات الطهو مستمدة من العادات والتقاليد، مع أن العصر الحديث

قلّل من شأن هذه الأشياء، لكن لا ضير في أن يكون المرء تقليدياً في المطبخ.

كما طوّرت إيلا عملها الروتيني اليومي. ففي صباح كلّ يوم، وفي الوقت نفسه تقريباً، يتناول أفراد الأسرة طعام الفطور؛ وفي عطلة نهاية الأسبوع يذهبون إلى مركز التسوّق نفسه؛ وفي أول يوم أحد من كلّ شهر، يدعون جيرانهم إلى العشاء. ولمّا كان ديفيد مشغولاً في عمله، ولا وقت لديه، كانت مسؤولية البيت تقع على كاهل إيلا: إدارة البيت المالية ورعايته، وإعادة تنجيد الأثاث، والذهاب إلى السوق وتلبية احتياجات البيت، وترتيب جداول الأطفال ومساعدتهم في واجباتهم المدرسية، وما إلى ذلك. وفي أيام الخميس، كانت تذهب إلى «نادي مزج الطهو»، حيث تقوم أعضاء النادي بمزج الأطباق والأطعمة من مختلف البلدان، وتجديد الوصفات القديمة بتوابل ومكونات جديدة. وفي كلّ يوم جمعة، كانت تمضي بضع ساعات في سوق المزارعين، تتحدث مع المزارعين عن محاصيلهم، وتتفحّص مرطبان مربّى الخوخ العضوي المنخفض السكّر، أو تشرح لمتسوقة أخرى أفضل طريقة لطهو فطر بورتابيلا الصغير الحجم. وكانت تشتري من سلسلة محلات «سوق الأطعمة الكاملة» كل ما لا تجده وهي في طريقها إلى البيت.

وفي مساء أيام السبت، كان ديفيد يصطحب إيلا إلى مطعم (عادة ما يكون تايلاندياً أو يابانياً)، وإذا لم يكونا متعبين أو ثملين، أو إذا كانا في مزاج جيد عندما يعودان إلى البيت، كانا يمارسان الجنس. قبلات قصيرة سريعة، وحركات رقيقة تنضح بشعور من العطف أكثر من

الحبّ. فقد انطفأت جذوة الجنس فيهما منذ فترة طويلة. وكانت تمر أحياناً أسابيع من دون أن يمارسا الجنس. والغريب أن إيلا كانت تعتبر الجنس أمراً له أهمية كبيرة في حياتها، لكنها أحسّت الآن، بعد أن خفت بريقه، بالارتياح، وشعرت بأنها تكاد تكون قد تحرّرت. وبشكل عام، كانت تشعر بالرضا عن فكرة أن زوجاً وزوجة مضى على زواجهما فترة طويلة، بدآ يفقدان شيئاً فشيئاً الجاذبية الطبيعية، ليحل محلها أسلوب ارتباط وعلاقة أكثر ثقة واستقراراً.

لكن المشكلة الوحيدة هي أن ديفيد لم يهجر الجنس بقدر ما هجره مع زوجته التي لم تواجهه مباشرة في أمر علاقاته الغرامية، بل إنها لم تلمّح له عن شكوكها. وبما أن أحداً من أصدقائهما المقرّبين لم يكن يعرف ما يدور بينهما، فقد سهّل ذلك الأمر عليها للتظاهر بالجهل. ولم تكن هناك فضائح، ولا مصادفات محرجة، لا شيء يجعل الألسنة تتكلم. ولم تعرف كيف كان يتدبر زوجها أمره، بسبب عدد علاقاته مع النساء الأخريات، وخاصة مع مساعداته الشابات، لكنه كان يعالج الأمر بهدوء وحنكة. بيد أن للخيانة رائحة. وبهذه الطريقة كانت إيلا تعرف أشياء كثيرة.

وإن حدثت سلسلة من الأحداث، فلم يكن بوسع إيلا أن تعرف أيّها يأتي أولاً، وما الذي يأتي لاحقاً. فهل سبب فقدانها اهتمامها بالجنس هو خيانة زوجها؟ أم العكس؟ فهل خانها ديفيد أولاً، ثمّ أهملت هي جسدها وفقدت رغبتها الجنسية؟

وفي كلتا الحالتين، ظل الأمر على حاله: فلم يعد الوهج موجوداً بينهما، النور الذي ساعدهما على الإبحار في مياه الزواج المجهولة،

والإبقاء على رغبتيهما عائمتين، حتى بعد إنجابهما ثلاثة أطفال ومضي عشرين سنة.

وخلال الساعات الثلاث التالية، كانت الأفكار تحتدم في عقلها، بينما كانت يداها قلقتين. قطّعت البندورة شرائح، وهرست الثوم، وقلت البصل، وأعدت الصلصة، وبرشت قشور البرتقال، وعجنت عجينة لخبز رغيف من الخبز المصنوع من الحنطة، بحسب النصيحة الذهبية التي قدمتها لها والدة ديفيد عندما كانا مخطوبين.

«ما من شيء يذكّر الرجل ببيته مثل رائحة خبز مخبوز طازج»، قالت ذات يوم، «لا تشتري خبزك مطلقاً. إخبزيه بنفسك يا عزيزتي. سيكون له فعل العجائب».

عملت إيلا فترة بعد الظهر كلها، وأعدّت مائدة رائعة وضعت عليها مناديل متطابقة، وشموعاً معطرة، وباقة من الأزهار الصفر والبرتقالية البراقة بحيث بدت اصطناعية تقريباً. وكلمسة نهائية، أضافت حلقات من المناديل البرّاقة. وعندما انتهت، كانت المائدة تشبه الموائد التي ترى في مجلات البيوت الأنيقة.

كانت متعبة لكنها كانت راضية، فتحت التلفزيون في المطبخ على الأخبار المحلية: طعن اختصاصية معالجة شابة في شقّتها، وتسبب مسّ كهربائي في إشعال حريق في أحد المستشفيات، وإلقاء القبض على أربعة طلاب ثانوية بتهمة تخريب متعمد للممتلكات. شاهدت الأخبار، وهزّت رأسها إزاء الأخطار اللانهائية التي تلوح في العالم. كيف يمكن أن يجد أشخاص مثل عزيز ز. زاهارا الرغبة والشجاعة في السفر إلى أصقاع أقلّ تقدماً على سطح الكرة الأرضية، في وقت لم تعد فيه الضواحي في أمريكا آمنة؟

وجدت إيلا أن ما يثير الحيرة هو كيف أن عالماً غامضاً لا يمكن التنبؤ به يمكن أن يعيد الناس إلى بيوتهم، ويكون تأثيره مختلفاً على شخص مثل عزيز، يلهمه الانطلاق في مغامرات بعيداً عن الدرب المطروق.

جلست أسرة روبنشتاين إلى مائدة مثالية لالتقاط صورة عند الساعة السابعة والنصف مساء، وكانت الشموع المشتعلة تمنح غرفة الطعام شكلاً مقدّساً. قد يخيّل لشخص غريب يراهم أنهم يشكلون أسرة مثالية، لطيفة، مثل خيوط الدخان التي تذوب وتتلاشى ببطء في الهواء؛ حتى إن غياب جانيت لم يشوّه الصورة. تناولوا طعامهم بينما راحت أورلي وآفي يثرثران عن الأحداث التي جرت خلال يومهما في المدرسة. ولأول مرة أحست إيلا بالامتنان لهما لأنهما كانا ثرثارين وصاخبين يغطيان على الصمت الذي كان سيخيم بثقل عليها وعلى زوجها.

بطرف عينها، راحت إيلا تراقب ديفيد وهو يغرز شوكته في قطعة القنبيط، ثم يمضغها ببطء. وهبطت نظرتها على شفتيه الرقيقتين الشاحبتين وأسنانه اللؤلؤية البيضاء ـ الفم الذي تعرفه جيداً والذي طالما قبّلته. تصوّرته وهو يقبّل امرأة أخرى. ولسبب ما، لم تكن المنافسة التي تخيلتها سكرتيرة ديفيد الشابة، بل نسخة من سوزان ساراندون لكن بصدر كبير، تعرض ثدييها في فستان ضيّق بحيوية وثقة، وتنتعل حذاء جلدياً طويلاً أحمر يصل حتى ركبتيها، ذا كعب عال، ووجهها برّاق، قزحي الألوان من المكياج المفرط. وتخيّلت إيلا ديفيد وهو يقبّل هذه المرأة بسرعة ونهم، لا كما يمضغ القنبيط على مائدة الأسرة.

في ذلك المكان وفي تلك اللحظة بالذات، بينما كانت إيلا تعد طعام العشاء من كتاب الطهو «جعل فن الطهو بسيطاً وسهلاً» وتتخيّل المرأة التي يعاشرها زوجها، خطر في بالها أمر. فقد فهمت بوضوح شديد وهدوء، أنها على الرغم من قلة خبرتها وخجلها، ستتخلى عن كل شيء ذات يوم: مطبخها، وكلبها، وأطفالها، وجيرانها، وزوجها، وكتب الطهو، ووصفات صنع الخبز في البيت، إذ ستخرج ببساطة إلى العالم الذي تحدث فيه باستمرار أشياء خطيرة.

السيّد

بغداد، ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٢٤٣

عندما يكون المرء فرداً في تكية للدراويش، فإن ذلك يتطلّب منه قدرة على الصبر تفوق قدرة شمس التبريزي. لكن على الرغم من مضي تسعة أشهر، فهو لا يزال يقيم بين ظهرانينا.

في البداية، توقّعت أن يحزم أمتعته ويغادر في أي لحظة، لأنه يكره أن يعيش حياة منظمة بدقة شديدة. فقد لاحظت أن النوم والاستيقاظ في أوقات محددة، وتناول وجبات طعام منتظمة، وأداء أعمال روتينية كالآخرين، أمور تسبب له كثيراً من الضجر. فقد اعتاد على أن يطير وحيداً، بجموح وحرية. وقد ساورتني الشكوك عدة مرات بأنه سيهرب. لكن بقدر ما كانت حاجته إلى الخلوة عظيمة، كان سعيه للعثور على رفيقه أعظم. وكان شمس يعتقد بأنني سأتوصل إلى معرفة المعلومات التي يحتاجها، وأن أخبره إلى أين يجب أن يذهب، ومن يكون ذلك الشخص. وقد مكث في التكية بسبب هذا الاعتقاد.

خلال الشهور التسعة تلك، كنت أراقبه عن كثب، متسائلاً هل كان الزمن يتدفّق بصورة مختلفة بالنسبة له، أسرع وأكثر حدّة. فالشيء

الذي يستغرق شهوراً وأحياناً سنوات حتى يتعلمه الدراويش الآخرون، كان شمس يتعلمه في أسابيع، لا بل في أيام. فقد كان لديه فضول شديد لكلّ ما هو جديد وغير عادي، وكان مراقباً دقيقاً للطبيعة. ففي أيام كثيرة، كنت أراه يقف في البستان مبدياً إعجابه بتناظر شبكة عنكبوت، أو قطرات الندى المتلألئة على زهرة تتفتح ليلاً. وقد بدا لي أن الحشرات والنباتات والحيوانات تثير اهتمامه وتشكل مصدر إلهام له أكثر من الكتب والمخطوطات. وما إن يخطر لي أنه فقد اهتمامه بالقراءة، حتى أجده غارقاً في قراءة كتاب قديم. ثمّ تمر أسابيع عدة أخرى من دون أن يقرأ أو يدرس شيئاً.

وعندما سألته عن ذلك، قال إنه يجب على المرء أن يشبع فكره، لكنه يجب أن يحرص على ألاّ يفسده. وتقول إحدى قواعده: «*يتكون الفكر والحبّ من مواد مختلفة. فالفكر يربط البشر في عقد، لكن الحبّ يذيب جميع العقد. إن الفكر حذر على الدوام وهو يقول ناصحاً: «احذر الكثير من النشوة»، بينما الحبّ يقول: «لا تكترث! أقدِم على هذه المجازفة». وفي حين أن الفكر لا يمكن أن يتلاشى بسهولة، فإن الحبّ يتهدم بسهولة ويصبح ركاماً من تلقاء نفسه. لكن الكنوز تتوارى بين الأنقاض. والقلب الكسير يخبئ كنوزاً*».

وكلما ازدادت معرفتي به، ازداد إعجابي بجرأته وفطنته. لكني كنت أشكّ أيضاً في وجود جانب سلبي في براعة شمس التي لا تضاهى وفي أصالته. فقد كان صريحاً ومستقيماً إلى حدّ الفظاظة، في حين كنت أعلّم الدراويش في تكيتي ألاّ ينظروا إلى عيوب الآخرين، وإذا رأوها، أن يتسامحوا معها ويغضوا الطرف عنها. أما شمس فلم يكن يدع أي

خطأ يمرّ من دون أن يُبدي ملاحظة. فكان كلما رأى خطأ، تحدث عنه على الفور، ولم يكن يراوغ في الموضوع أبداً. كان صدقه يثير حنق الآخرين، ويجعلهم يشعرون بالإهانة، لكنه كان يحبّ استفزاز الآخرين ليرى ما يمكن أن يبدر منهم في لحظات الغضب.

كان يصعب إجباره على أداء أعمال عادية؛ ولم يكن لديه صبر كبير على أداء هذه الأعمال، وكان يفقد اهتمامه بأي شيء ما إن يتعلّمه. وعندما يصبح العمل روتينياً، كان ينتابه اليأس، مثل نمر محبوس في قفص. وإذا ما أضجره حديث، أو أبدى أحدهم ملاحظة تشي بالحمق، كان ينهض ويغادر من فوره، ولا يضيع وقته في المجاملات. أما القيم التي يحرص عليها معظم البشر، كالأمن والراحة والسعادة، فلم تكن تعني له الكثير. وكان شديد الارتياب بالكلمات إلى حد أنه كان يمضي أياماً من دون أن ينبس بكلمة. وها هي قاعدة أخرى من قواعده: *تنبع معظم مشاكل العالم من أخطاء لغوية ومن سوء فهم بسيط. لا تأخذ الكلمات بمعناها الظاهري مطلقاً. وعندما تلج دائرة الحبّ، تكون اللغة التي نعرفها قد عفّى عليها الزمن، فالشيء الذي لا يمكن التعبير عنه بكلمات، لا يمكن إدراكه إلا بالصمت.*

ومع مرور الوقت، ازداد قلقي عليه. فقد أحسست في أعماقي بأن المرء الذي يمكن أن يشتعل باتقاد شديد قد يعرّض نفسه للخطر.

وفي نهاية المطاف، يصبح قدرنا بين يدي الله، الذي يعلم هو وحده كيف سيغادر كلّ منا هذه الدنيا ومتى. ومن جهتي قرّرت أن أبذل ما بوسعي لأجعل شمس أكثر هدوءاً وبطئاً، وأعوّده، بقدر ما يمكنني،

على أسلوب حياة أكثر اطمئناناً. وقد خيّل إليّ أنني قد أنجح، لكن عندما حلّ الشتاء، قدم رسول يحمل رسالة من بعيد.

لقد غيّرت هذه الرسالة كلّ شيء.

الرسالة

من القيصرية إلى بغداد، شباط (فبراير) ١٢٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز بابا زمان،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مضى وقت طويل على لقائنا الأخير، وأرجو أن تصلك رسالتي هذه وأنت بخير. لقد سمعت أشياء عدة رائعة عن الخانقاه التي أقمتها على أطراف بغداد، التي تعلّم فيها الدراويش الحكمة وحبّ الله. إني أكتب إليك هذه الرسالة سراً لآخذ رأيك في أمر يشغل بالي. اسمح لي أن أبدأ من البداية.

كما تعرف، كان السلطان الراحل علاء الدين كيقباذ رجلاً فذاً برع في القيادة خلال الأوقات العصيبة. وكان يحلم ببناء مدينة يعيش فيها الشعراء والحرفيون والفلاسفة ويعملون بسلام. حلم قال الكثيرون إنه يستحيل تحقيقه بسبب الفوضى والحروب في العالم، لا سيما بسبب قيام المغول والصليبيين بشنّ هجماتهم من كلا الجانبين. لقد رأينا كلّ ذلك. مسيحيون يقتلون مسلمين، ومسيحيون يقتلون مسيحيين،

ومسلمون يقتلون مسيحيين، ومسلمون يقتلون مسلمين. أديان وطوائف وقبائل، بل حتى الإخوة يتحاربون. لكن كيقباذ كان زعيماً ذا عزيمة، فاختار مدينة قونية ـ أول مكان يبرز بعد الطوفان العظيم ـ لتحقيق حلمه الكبير.

يعيش حالياً في قونية عالم لعلك سمعت به. يدعى مولانا جلال الدين، لكنه غالباً ما يعرف باسم الرومي. لقد تشرّفت بلقائه، لا بل كان لي شرف الدراسة معه، أولاً كمعلّم له، ثمّ، بعد وفاة أبيه، كمعلّم وناصح له، وبعد سنوات، كتلميذ له. نعم، يا صديقي، لقد أصبحت تلميذاً لتلميذي. ولمّا كان الرومي يتمتع بقدر كبير من الموهبة والحكمة، لم يعد لديّ ما أعلّمه إياه، فبدأت أتعلّم منه. كان أبوه عالماً بارزاً أيضًا. لكن الرومي يتصف بسمة لا تتوفر إلا لقلة قليلة من العلماء وهي: القدرة على الغوص تحت قشرة الدين واستخراج الجوهرة العالمية والأبدية من جوهره.

أريدك أن تعرف أن هذه ليست آرائي الشخصية فقط. فعندما التقى الرومي الشاب، بالشيخ الصوفي الجليل فريد الدين العطّار، الذي يعمل عطّاراً، يبيع أدوية شعبية وتوابل وعطوراً، قال العطار عنه: «إن هذا الفتى سيفتح باباً في قلب العشق ويضرم النار في قلوب جميع العشاق الصوفيين». وعندما رأى ابن عربي، الفيلسوف البارز، والكاتب والصوفي المعروف، الرومي الشاب وهو يسير وراء أبيه ذات يوم، قال: «سبحان الله، محيط يمشي وراء بحيرة».

أصبح الرومي، وهو لما يزل في الرابعة والعشرين من عمره، زعيماً روحياً. أما اليوم، وبعد مضي ثلاث عشرة سنة، فيعتبره سكان قونية

قدوة لهم، وفي كلّ يوم جمعة، يتوجّه الناس من جميع أرجاء المنطقة إلى تلك المدينة للاستماع إلى خطبه. فقد برع في الفقه والفلسفة واللاهوت وعلم الفلك والتاريخ والكيمياء والجبر. ويقال إن لديه حالياً أكثر من عشرة آلاف مريد. ويتعلق مريدوه بكلّ كلمة يقولها، ويرون أنه سيحدث تغييراً إيجابياً مهماً في تاريخ الإسلام، إن لم يكن في تاريخ العالم.

أما بالنسبة لي، فيظل الرومي على الدوام مثل ابن لي؛ وقد وعدت أباه الراحل بأن أحوطه بالرعاية على الدوام. والآن، بعد أن هرمت، وبدأت أقترب من أيامي الأخيرة، فإني أريد أن أحرص على أن يكون في أيد أمينة.

كما ترى، وعلى الرغم من نجاحه وروعته، فقد أسرّ إليّ الرومي نفسه عدّة مرات بأنه لا يشعر بالرضا في قرارة نفسه. إذ ينقصه في حياته شيء ما ـ وهو فراغ لا تستطيع أسرته ولا مريدوه أن يملأوه. وقلت له ذات مرة، مع أنه كان لا يزال غراً، بأنه لم يحترق أيضاً. كانت كأسه مترعة حتى الحافة، وعلى الرغم من ذلك، يجب أن يفتح باب روحه لكي تتدفّق مياه الحبّ إلى الداخل والخارج. وعندما سألني كيف يمكن أن يتم ذلك، قلت له إنه بحاجة إلى صديق، رفيق درب، وذكّرته بالحديث الشريف، «المؤمن مرآة المؤمن».

ولو لم يثر الموضوع ثانية، لربما كنت نسيته تماماً، لكن عندما غادرت قونية، جاء إليّ الرومي يسألني عن رأيي بحلم يراه باستمرار ويضايقه. وقال لي إنه يبحث في حلمه عن شخص يعيش في مدينة كبيرة تعجّ بالناس في أرض بعيدة. كلمات بالعربية. غروب شمس

مثيرة للبهجة. أشجار توت ودود قز تنتظر بأناة في شرانق سرّية لحظة وصولها. ثمّ رأى نفسه في فناء بيته، جالساً بالقرب من البئر، يحمل فانوساً بيده، وهو يبكي.

في البداية لم أعرف إلى ماذا تشير شذرات أحلامه. فهي لم تكن مألوفة. لكن بعد ذلك، في أحد الأيام، بعد أن تلقيت وشاحاً حريرياً كهدية، جاءني الجواب وحُلّ اللغز. تذكّرت كم كنت مولعاً بالحرير ودود القز. تذكّرت الأشياء الرائعة التي سمعتها عن «الطريقة» التي تتبعها. وخطر لي أن المكان الذي رآه الرومي في أحلامه ليس سوى تكية الدراويش التي أنشأتها أنت. باختصار، يا أخي، فإني أتساءل هل يعيش رفيق الرومي تحت سقفك. هذا ما دعاني إلى كتابة هذه الرسالة لك.

لا أعرف هل يقيم هذا الشخص في تكيّتك. فإذا كان الأمر كذلك، فإني أترك الأمر لك لإبلاغه بالقدر الذي ينتظره. وإذا كان بإمكاننا، أنا وأنت، أن نؤدي دوراً، ولو كان ضئيلاً، في المساعدة على التقاء نهرين ليصبّا في محيط العشق الإلهي وليكوّنا مجرى ماء واحداً، وإذا كان بوسعنا مساعدة صديقين طيبين من أصدقاء الله على الالتقاء، فإني سأعتبر أن بركات الله قد حلت عليّ.

لكن يوجد شيء ينبغي ألا تنساه. فقد يكون الرومي رجلاً مؤثرًا يحظى بحبّ الكثيرين واحترامهم، لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد منتقدون له. بالطبع لديه منتقدون. كما أن هذا التدفّق معاً، قد يولّد السخط والمعارضة ويسبب خصومات يستعصي علينا فهمها، وقد تفوق إدراكنا. كما أن ولعه برفيقه قد يسبّب مشاكل في محيط أسرته

ومحيطه الداخلي. فالشخص الذي يحبه علانية ويحظى بإعجاب واحترام أناس كثيرين، لا بد أن يكون مثار حسد وكراهية الآخرين.

قد يعرّض كلّ ذلك رفيق الرومي إلى خطر لا يمكن لأحد معرفته. بمعنى آخر، يا أخي، قد لا يتمكن الشخص الذي ترسله إلى قونية من العودة ثانية. لذلك، قبل أن تتخذ قراراً بالكشف عن هذه الرسالة إلى رفيق الرومي، فإني أطلب منك أن تعطي المسألة فترة أطول من التفكير.

إني آسف لأنني وضعتك في موقف صعب، لكن كما يعرفه كلانا، لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها. أنتظر ردك، وإني على ثقة بأنه مهما كانت النتيجة، فإنك ستتخذ الخطوات الصحيحة في الاتجاه الصحيح.

أدعو الله ألا يتوقف نور الإيمان عن الضياء عليك وعلى دراويشك.

السيّد

سعيد برهان الدين

شمس

بغداد، ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٣

وراء ندف الثلج الهاطلة، والدروب المكسوة بالثلوج، ظهر رسول من بعيد. قال إنه قادم من القيصرية، وأثار لغطاً بين الدراويش الذين يعرفون أن الزوّار أندر من العنب الصيفي الحلو في هذا الوقت من السنة. فقدوم رسول يحمل رسالة عاجلة في هذه العواصف الثلجية يعني أحد أمرين: إما أن يكون قد حدث شيء، أو أن شيئاً مهماً على وشك الحدوث.

إن وصول الرسول جعل الألسنة تتحدث في تكية الدراويش، وذلك لأن الجميع متلهف لمعرفة فحوى الرسالة التي سلّمت إلى السيّد. ومتدثراً في عباءة أسراره، لم يقدم السيّد أي إشارة عن محتواها. وبطبعه البارد والعنيد، وحذره الشديد، ظل لأيام عدة يحمل قسمات رجل يكافح بضميره، ويجد صعوبة في التوصل إلى القرار الصحيح.

خلال تلك الفترة، لم يكن الفضول هو الذي دفعني لمراقبة بابا زمان. ففي أعماقي، أحسست بأن الرسالة تخصني شخصياً، لكني لم

أعرف كيف. أمضيت عدة أمسيات مختلياً بنفسي في غرفة الصلاة أردد أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين لعلها ترشدني. وفي كل مرة كان يبرز لي اسم ـ الجبّار ـ الذي لا يمكن أن يجري في سلطانه شيء إلا بإرادته.

خلال الأيام التالية، بينما كان الدراويش يضربون أخماساً بأسداس، كنت أمضي وقتي وحيداً في البستان، أتأمل أمّنا الطبيعة الراقدة حالياً تحت ملاءة ثقيلة من الثلج. وبعد أيام عدة، سمعنا الجرس النحاسي في حلقة المطبخ يقرع عدة مرات، داعياً إيانا جميعاً إلى اجتماع عاجل. عندما دخلنا الغرفة الرئيسية في الخانقاه، كان الجميع حاضرين، التلاميذ المبتدئين وكبار الدراويش، وكانوا جالسين في دائرة عريضة. وكان السيّد يجلس في وسط الدائرة، زامّاً شفتيه، وكانت عيناه غائرتين.

بعد أن تنحنح، قال: «بسم الله، لا بد أنكم تتساءلون عن سبب دعوتي لكم إلى هذا الاجتماع اليوم. إنه حول الرسالة التي تلقيتها. لا يهمّ من أين جاءت، لكن يكفي القول إنها جذبت انتباهي إلى موضوع ينطوي على أهمية كبيرة».

توقّف بابا زمان قليلاً، وراح يحدّق خارج النافذة. كان يبدو مرهقاً، نحيفاً، شاحباً، كما لو أنه كبر عدة سنوات خلال هذه الأيام الماضية. لكنه عندما تابع كلامه، امتلأ صوته بتصميم غير متوقع.

«يعيش عالم متبحّر في مدينة غير بعيدة، وهو يجيد استخدام الكلمات، لكنه لا يستخدم استعارات كثيرة، لأنه ليس شاعراً. ويحبّه ويبجله آلاف الأشخاص ويحترمونه ويكنون له إعجاباً شديداً، وهو

ليس عاشقاً. ولأسباب تتجاوزني وتتجاوزكم، يجب على أحد الدراويش من تكيتنا أن يذهب للقائه ومرافقته».

انقبض قلبي في صدري. وبدأت أتنفس ببطء، ببطء شديد. ليس بوسعي إلاّ أن أتذكر إحدى القواعد، التي تقول: *الوحدة والخلوة شيئان مختلفان. فعندما تكون وحيداً، من السهل أن تخدع نفسك ويخيّل إليك أنك تسير على الطريق القويم. أما الخلوة فهي أفضل لنا، لأنها تعني أن تكون وحدك من دون أن تشعر بأنك وحيد. لكن في نهاية الأمر، من الأفضل لك أن تبحث عن شخص، شخص يكون بمثابة مرآة لك. تذكّر أنك لا تستطيع أن ترى نفسك حقًا، إلا في قلب شخص آخر، وبوجود الله في داخلك.*

تابع السيّد كلامه وقال: «لقد جمعتكم هنا لأسألكم هل يرغب أحد منكم في التطوّع للقيام بهذه الرحلة الروحية. يمكنني أن أعيّن واحداً، لكن هذه ليست مهمّة يمكن القيام بها بدافع الواجب؛ لأنه لا يمكن القيام بها إلا بدافع الحبّ، وباسم الحبّ».

طلب درويش شاب إذناً للتكلم، وسأل: «من هو هذا العالم، يا سيدنا؟».

«لا أستطيع أن أكشف عن اسمه إلا للشخص الذي يريد أن يذهب إليه».

عند ذلك، رفع عدد من الدراويش أيديهم، بحماسة شديدة. كان هناك تسعة دراويش. انضممت إليهم، فأصبح عددنا عشرة. لوّح بابا زمان بيده، وأشار أن ننتظر حتى ينهي كلامه، وقال: «هناك شيء آخر يجب أن تعرفوه قبل أن تتخذوا قراركم».

وأخبرنا السيّد أيضاً بأن الرحلة محفوفة بمشاق ومخاطر كبيرة، ولا شيء يضمن عودة الشخص الذي سيذهب. فأنزل الجميع أيديهم، إلاّ أنا.

نظر بابا زمان في عينيّ مباشرة لأول مرة منذ فترة طويلة، وعندما التقت عيناه بعينيَّ، فهمت أنه كان يعرف منذ البداية بأنني سأكون المتطوّع الوحيد.

«شمس التبريزي»، قال السيّد ببطء وحزم، كأن اسمي ترك طعماً ثقيلاً في فمه، «إني أحترم إصرارك، لكنك عضو مهم في طريقتنا، بالإضافة إلى أنك ضيفنا».

فقلت: «لا أرى كيف يمكن أن يكون ذلك مشكلة».

لاذ السيّد بالصمت طويلاً، لحظات من التفكير بإمعان. ثمّ، وعلى نحو مفاجئ، استوى واقفاً وقال: لنضع هذا الموضوع جانباً الآن؛ فعندما يحلّ الربيع سنتكلّم فيه مرة أخرى».

هاج قلبي وماج. وبالرغم من أنه كان يعرف أن هذه المهمّة هي السبب الوحيد الذي جاء بي إلى بغداد في المقام الأول، فقد كان بابا زمان يريد أن ينزع مني الفرصة لتحقيق قدري.

فقلت: «لماذا يا سيّدي؟ ولمَ الانتظار في حين أنني جاهز للذهاب من فوري؟ أخبرني ما هي المدينة وما اسم العالم، لأنطلق على الفور».

لكن السيّد ردّ بصوت حازم بارد لم أتعوّد على سماعه منه: «لا يوجد شيء يمكن مناقشته. انتهى الاجتماع».

* * *

كان شتاء طويلاً، قاسياً؛ وكان البستان متجمّداً مثل جثّة، كما كانت شفتاي. وخلال الشهور الثلاثة التالية، لم أكلّم أحداً. ودأبت على السير كلّ يوم لمسافات طويلة في الريف، آملاً بأن أرى شجرة مزهرة. لكن بعد الثلج، هطل مزيد من الثلج. لم يكن الربيع قريباً. وبالرغم من تعكر مزاجي كما هو الحال في الخارج، ظللت ممتناً ومتفائلاً في داخلي، وهنا تذكرت قاعدة أخرى، وهي قاعدة تلائم مزاجي: مهما حدث في حياتك، ومهما بدت الأشياء مزعجة، فلا تدخل ربوع اليأس. وحتى لو ظلت جميع الأبواب موصدة، فإن الله سيفتح درباً جديداً لك. احمد ربك! من السهل عليك أن تحمد الله عندما يكون كلّ شيء على ما يرام. فالصوفي لا يحمد الله على ما منحه الله إياه فحسب، بل يحمده أيضاً على كلّ ما حرمه منه.

وفي صباح أحد الأيام، رأيت لوناً مبهراً، بهيجاً مثل أغنية جميلة، ينبعث من تحت أكوام الثلج. كانت أجمة مزروعة بالفصة تتناثر فيها أزهار خزامى صغيرة. امتلأ قلبي بالبهجة. وعندما عدت إلى التكية، صادفت التلميذ ذا الشعر الأحمر، فحيّيته مبتهجاً. لقد اعتاد على رؤيتي غارقاً في صمت غاضب، حتى إنه فغر فاه دهشة.

«ابتسم يا فتى»، صرخت، «ألا ترى الربيع في الهواء؟».

ومنذ ذلك اليوم، تغيّر المشهد الطبيعي بسرعة. فقد ذابت الثلوج المتبقية، وتبرعمت أزهار الأشجار، وعادت العصافير وطيور النمنمة، وسرعان ما ملأت الهواء رائحة توابل خفيفة.

وفي صباح أحد الأيام، سمعنا الجرس النحاسي يقرع ثانية. كنت أول الواصلين إلى الغرفة الرئيسية هذه المرة. ومرة أخرى، جلسنا في

دائرة عريضة حول السيّد، ورحنا نستمع إليه وهو يتحدّث عن هذا العالِم المسلم الجليل الذي يعرف كلّ شيء؛ ما عدا علامات الحبّ.

ومرة أخرى، لم يتطوّع أحد غيري.

«أرى أن شمس هو الدرويش الوحيد الذي تطوّع»، قال بابا زمان، وقد ارتفعت حدّة صوته، ثم أصبح رقيقاً مثل عواء الريح، «لكنني سأنتظر الخريف حتى أتوصل إلى قرار».

صُعقت. لم أصدّق أن هذا يمكن أن يحدث. فقد كنت مستعداً للمغادرة بعد ثلاثة شهور طويلة من التأجيل، وها هو ذا السيّد يطلب مني الآن تأجيل رحلتي ستّة أشهر أخرى. وبقلب هابط، احتججت، واشتكيت، وتوسلت للسيّد أن يخبرني باسم المدينة واسم العالم، لكنه أصرّ على رفضه.

لكنني هذه المرة عرفت أن الانتظار سيكون أسهل، لأنه لن يكون هناك تأجيل آخر. فبعد أن تحمّلت الانتظار من الشتاء إلى الربيع، يمكنني أن أتحمّل النار المستعرة فيّ من الربيع إلى الخريف. ولم يثبط رفض بابا زمان من عزيمتي، بل رفع معنوياتي، وزادني تصميماً على تصميم. وتقول قاعدة أخرى: لا يعني الصبر أن تتحمّل المصاعب سلباً، بل يعني أن تكون بعيد النظر بحيث تثق بالنتيجة النهائية التي ستتمخض عن أي عملية. ماذا يعني الصبر؟ إنه يعني أن تنظر إلى الشوكة وترى الوردة، أن تنظر إلى الليل وترى الفجر. أما نفاد الصبر فيعني أن تكون قصير النظر ولا تتمكن من رؤية النتيجة. إن عشاق الله لا ينفد صبرهم مطلقاً، لأنهم يعرفون أنه لكي يصبح الهلال بدراً، فهو يحتاج إلى وقت.

عندما قرع الجرس النحاسي للمرّة الثالثة في الخريف، سرت بخطى وئيدة واثقة. كنت على ثقة من أن الأمور ستحلّ أخيراً. وبدا السيّد أكثر شحوباً ونحولاً من أي وقت مضى، وكأن طاقته قد نفدت. لكنه عندما رآني أرفع يدي ثانية، لم يبعد نظره، ولم يتجاهل الأمر، بل هزّ لي رأسه بحزم.

«حسناً يا شمس، لا ريب في أنك الشخص الذي سينطلق في هذه الرحلة. إن شاء الله ستنطلق غداً صباحاً».

قبّلت يد السيّد. وأخيراً سألتقي برفيقي.

ابتسم لي بابا زمان بدفء، كما يبتسم الأب لابنه الوحيد قبل أن يرسله إلى ساحة المعركة. ثمّ أخرج من عباءته الطويلة رسالة مختومة، وبعد أن قدمها لي غادر الغرفة صامتاً، وتبعه الآخرون. عندما أصبحت وحدي في الغرفة، فضضت الختم الشمعي.

كان في داخلها معلومتان دونتا بخط جميل. اسم المدينة واسم العالِم. سأذهب إلى قونية للقاء عالِم يدعى الرومي.

بدأ قلبي يخفق بقوة. لم أسمع باسمه من قبل. لا بد أنه عالم مشهور، لكنه كان بالنسبة لي لغزاً تاماً. ورحت أردد حروف اسمه، حرفاً حرفاً: حرف الراء القوي المشرق، حرف الواو المخملي، وحرف الميم الجسور المتسم بالثقة بالنفس، وحرف الياء الغامض الذي يجب حلّه.

جمعت الحروف معاً، ورحت أردد اسمه مراراً وتكراراً حتى ذابت الكلمة على لساني بحلاوة قطعة حلوى وأصبح الأمر مألوفاً مثل «الماء» أو «الخبز»، أو «الحليب».

إيلا

نورثامبتون، ٢٢ أيار (مايو) ٢٠٠٨

تحت لحافها الأبيض، ابتلعت إيلا ريقها بصعوبة بسبب إصابتها بالتهاب في حنجرتها، وكان جسدها مرهقاً. فقد أثّر عليها السهر إلى ساعة متأخرة من الليل، واحتساؤها كمية زادت على الحد الذي تحتسيه عادة في الليالي السابقة. وبالرغم من ذلك، فقد هبطت إلى الطابق الأرضي لتعدّ طعام الفطور، وجلست إلى المائدة مع طفليها التوأمين وزوجها، وبذلت كل ما بوسعها لكي تبدو مهتمة بما يتحدثون به عن أجمل السيارات في المدرسة، وكان كلّ ما تريده هو أن تعود إلى سريرها لكي تنام.

فجأة، التفتت أورلي إلى أمّها وسألتها: «يقول آفي إن أختنا لن تعود إلى البيت ثانية. هل هذا صحيح، يا أمّي؟». كان صوتها يشي بالشكّ والاتهام.

فقالت إيلا: «بالطبع هذا غير صحيح. فقد تشاجرت مع أختك، كما تعرفين، لكنها تحبني وأحبها».

«هل صحيح أنك اتصلت بسكوت وطلبتِ منه أن يترك جانيت؟»،

سأل آفي وعلى وجهه ابتسامة عريضة، إذ إنه كان يجد متعة في إثارة هذا الموضوع على ما يبدو.

نظرت إيلا إلى زوجها بعينين واسعتين، لكن ديفيد رفع حاجبيه وفتح راحتي يديه للإشارة إلى أنه لم يخبرهما بذلك.

منحت إيلا صوتها نبرة تشي بالسلطة، كانت تستخدمها عندما تعطي أطفالها تعليماتها، وقالت: «هذا غير صحيح مطلقاً. لقد تحدثت مع سكوت، لكنني لم أطلب منه أن يهجر أختك. كلّ ما قلته له هو ألاّ يستعجلا في الزواج».

«لن أتزوّج أبداً»، أعلنت أورلي وهي على يقين.

«نعم، تقولين ذلك وكأنه يوجد رجل يرغب في الزواج منك»، قال آفي.

بينما كانت إيلا تنصت إلى طفليها التوأمين يستثير أحدهما الآخر، ارتسمت على وجهها ابتسامة متوترة، لم تفهم سببها. ومع أنها كبتت ابتسامتها، فقد ظلت الابتسامة هناك، محفورة تحت جلدها، عندما أوصلت طفليها وزوجها إلى الباب، وتمنّت لهم يوماً جميلاً.

لم تتخلص إيلا من ابتسامتها إلا بعد أن عادت وجلست على كرسيها إلى المائدة، وقطّبت جبينها. شعرت كأن جيشاً من الجرذان قد اجتاح مطبخها. بقايا البيض المقلي، صحون غير فارغة تماماً من الحبوب، وأكواب وسخة متناثرة فوق الطاولة. وكان الكلب يذرع أرجاء المطبخ، متلهّفاً للخروج ليتمشى قليلاً، لكن حتى بعد أن تناولت كوبين من القهوة وجرعت قليلاً من الفيتامينات، كان كلّ ما بوسعها أن تفعله هو أن تخرجه إلى الحديقة لبضع دقائق.

* * *

عندما عادت إيلا من الحديقة، وجدت الضوء الأحمر يومض في جهاز تسجيل المكالمات. ضغطت الزرّ، ويا لبهجتها، ملأ صوت جانيت الرقيق الغرفة.

«ماما، هل أنت هناك...؟ حسناً، أظن أنك لست في البيت، وإلا لرفعت سماعة الهاتف»، ضحكت ضحكة مكتومة، ومضت تقول: «حسناً، لقد غضبت منك كثيراً إلى درجة أنني لم أشأ أن أرى وجهك ثانية. لكني لست غاضبة الآن. أقصد، إن ما فعلته كان خطأ، هذا شيء مؤكد. ما كان يتعين عليكِ أن تخابري سكوت. لكني أتفهم السبب الذي جعلك تفعلين ذلك. اسمعي، لا يتعين عليكِ أن تحيطيني بحمايتك ورعايتك طوال الوقت. فلم أعد تلك الطفلة الخديج التي يجب أن تظلّ في الحاضنة. توقّفي عن هذه الحماية المفرطة، ودعيني أتصرف من تلقاء نفسي، اتفقنا؟».

اغرورقت عينا إيلا بالدموع. وبرقت في رأسها صورة جانيت عندما كانت رضيعة. كانت بشرتها حمراء بصورة تثير الحزن، وكانت أصابعها الصغيرة متغضنة، تكاد تكون شفّافة، وقد تم وصل رئتيها بأنبوب للتنفّس ـ لم تكن مهيأة بعد للقدوم إلى هذا العالم. أمضت إيلا عدة ليالٍ مؤرقة وهي تنصت إلى تنفّسها لتتأكد من أنها لا تزال على قيد الحياة.

«ماما، هناك شيء آخر»، استدركت جانيت قائلة: «أنا أحبّك».

عندما سمعت إيلا ذلك، أصدرت نفساً عميقاً، وانتقل عقلها مباشرة إلى رسالة عزيز الإلكترونية، فقد استجابت شجرة الأمنيات لدعواته. على الأقل الجزء الأول منها. فبهذا الاتصال، تكون جانيت قد فعلت

ما يتوجب عليها، وأمسى ما تبقى على عاتق إيلا. اتصلت بهاتف ابنتها الخلوي ووجدتها في طريقها إلى مكتبة الجامعة.

«لقد سمعت رسالتك يا حبيبتي. اسمعي، إني آسفة جداً. أريد أن أعتذر منك».

سادت فترة صمت، قصيرة لكنها مشحونة، «لا توجد مشكلة ياأمّي».

«لا، ليس الأمر كذلك. كان عليّ أن أبدي احتراماً أكبر لمشاعرك».

«لننس الأمر»، قالت جانيت، كما لو كانت هي الأمّ، وإيلا هي ابنتها المتمردة.

«نعم، يا عزيزتي».

خفضت جانيت صوتها ليصبح دمدمة سرّية، كأنها تخشى مما ستسأله بعد ذلك، «لقد أقلقني ما قلته قبل أيام. أقصد، هل هذا صحيح؟ هل أنت حزينة جداً؟».

«طبعاً لا»، أجابت إيلا بسرعة، وأضافت، «لقد ربّيت ثلاثة أطفال جميلين، فكيف يمكنني أن أكون حزينة؟».

لكن بدا أن جانيت لم تكن مقتنعة، وقالت: «أقصد مع بابا».

لم تعرف إيلا ماذا تقول إلا الحقيقة، «لقد مضى وقت طويل على زواجنا أنا ووالدك. ويصعب أن نظل عاشقين بعد كلّ هذه السنوات».

«فهمت»، قالت جانيت، وعلى نحو غريب، اعترى إيلا شعور بأنها فهمت.

بعد أن أغلقت إيلا الهاتف، تركت نفسها تستغرق في التفكير بالحبّ. جلست وتكوّرت في كرسيها الهزاز، وتساءلت كيف يمكنها، وهي

المجروحة والمتأذية، أن تدخل في تجربة الحبّ مرة أخرى. فالحبّ هو للذين يبحثون عن هدف أو سبب في هذا العالم الذي يجري بسرعة كبيرة. لكن ماذا عن الذين تخلّوا عن ذلك منذ أمد بعيد؟

وقبل انتهاء اليوم، أجابت على رسالة عزيز.

عزيزي عزيز (إذا كان يحق لي أن أدعوك هكذا)

شكراً على ردك اللطيف والحميم الذي ساعدني على تجاوز الأزمة العائلية. فقد تمكنت أنا وابنتي من تجاوز سوء التفاهم الفظيع ذاك، كما أطلقت عليه بتهذيب.

كنت محقاً في شيء واحد. إني أتأرجح باستمرار بين متناقضين: العدواني والسلبي. فإنني إما أتدخّل كثيراً في شؤون الأشخاص الذين أحبّهم، أو إنني أشعر بالعجز تجاه تصرفاتهم.

أما بالنسبة للإذعان، فلم أمارس في حياتي هذا النوع من الخنوع السلمي الذي كتبت لي عنه. صدقاً، لا أظن أن لديّ القدرة على أن أكون صوفية، لكن يجب أن أقول لك هذا: فقد تحولت الأشياء بيني وبينها، على نحو مدهش، كما كنت أريد بعد أن توقفت عن التدخّل في شؤونها. إني أدين لك بشكر كبير. وكنت كذلك، سأصلي من أجلك، لكنني لم أقرع باب الله منذ وقت طويل، ولم أعد متأكّدة هل لا يزال يقيم في المكان نفسه. ويحي، هل أتكلّم كما يتكلّم صاحب الحانة في قصّتك؟ لا تقلق، فأنا أكفر بالقيم بمرارة. لم أكفر بها بعد. ليس بعد.

صديقتك في
نورثامبتون،
إيلا

الرسالة

من بغداد إلى قيصرية، ٢٩ أيلول(سبتمبر) ١٢٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ سيد برهان الدين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

غمرتني السعادة عندما تلقيت رسالتك وعلمت أنك وفيّ لطريق العشق كما عهدتك دائماً؛ وقد وضعتني رسالتك في ورطة، لأنني ما إن علمت أنك تبحث عن رفيق للرومي، حتى عرفت عمن تتحدّث، لكن ما لم أعلمه هو ماذا أفعل بعد ذلك.

كما ترى، يوجد درويش جوّال تحت سقف تكيتي، يدعى شمس التبريزي، ينطبق عليه وصف الشخص الذي تبحث عنه تماماً. وهو يؤمن أنه يحمل رسالة خاصة إلى هذا العالم، ولكي يحقق غايته، فهو يبحث عن شخص متنوّر لينقل له رسالته وينوّره. وأنه لا يبحث عن مريد أو تلميذ، بل يسأل الله أن يعثر على رفيق. وقد أخبرني ذات مرة أنه لم يأت من أجل الناس العاديين، بل أتى ليضع إصبعه على نبض شخص يرشد العالم إلى الحقيقة.

عندما تلقيت رسالتك، عرفت أنه مقدّر على شمس التبريزي أن يلتقي الرومي. ولكي يحظى جميع الدراويش في تكيتي بفرص متساوية، فقد جمعتهم، ومن دون الدخول في أيّ تفاصيل، حدثتهم عن عالِم يريد أن يفتح قلبه. وبالرغم من وجود عدد قليل من المرشحين، كان شمس هو الوحيد الذي أصرّ على قبول ذلك، حتى بعد أن سمع عن أخطار المهمّة. كان ذلك في الشتاء الماضي، وقد تكرر المشهد نفسه في الربيع وثم في الخريف.

لعلك تتساءل لماذا انتظرت طوال هذه المدة. فكرت بذلك كثيراً وبصراحة، لا يمكنني أن أقدم إلا سبباً واحداً فقط: فقد بدأت أحبّ شمس كثيراً، وقد آلمني كثيراً أن أرسله في رحلة خطيرة.

وكما ترى، فإن شمساً ليس شخصاً سهل المعشر؛ فبما أنه عاش حياة بداوة، فهو يستطيع أداء هذه المهمة، لكنه إذا أقام في مدينة واختلط بأهلها، فإني أخشى أنه سيزعج البعض، لذلك حاولت تأجيل رحلته بقدر ما بوسعي.

في المساء الذي سبق مغادرة شمس، تمشينا طويلاً حول أشجار التوت حيث أربّي دود القز. إن العادات القديمة قلما تموت. إن الحبّ رهيف على نحو ممض، وقوي على نحو مدهش، أشبه بالحرير. وقد شرحت لشمس كيف أن دودة القز تتلف الحرير الذي تنتجه بعد أن تنبثق من شرنقتها. لذلك يتعين على المزارعين الاختيار بين الحرير ودودة القز. وفي أحيان كثيرة، فهم يقتلون دودة القز وهي لا تزال داخل الشرنقة لإخراج الحرير سليماً؛ ولصنع وشاح حريري واحد، تُستخدم المئات من دود القز.

كان المساء على وشك الانتهاء. هبّت علينا ريح باردة، وبدأت أرتعش. ففي شيخوختي، أصبحت أبرد بسهولة، لكني عرفت أن هذه الرعشة ليس سببها شيخوختي، بل لأنني أدركت أن هذه هي المرة الأخيرة التي يقف فيها شمس في بستاني؛ وأن أحدنا لن يرى الآخر مرة أخرى. ليس في هذا العالم. ولا بدّ أنه هو أيضاً قد أحسّ بذلك، لأنني رأيت حزناً في عينيه.

عندما بزغ الفجر هذا الصباح، جاء ليقبّل يدي، ويطلب مباركتي. فوجئت عندما رأيته قد قصّ شعره الأسود الطويل وحلق لحيته، لكنه لم يقدم تفسيراً وأنا لم أسأله. وقبل أن يغادر، قال إن دوره في هذه القصّة يشبه دودة القز. وسينسحب هو والرومي إلى شرنقة العشق الإلهي، ولن يخرجا منها إلا عندما يحين الوقت ويُنسج الحرير الثمين. لكن في النهاية، لكي يعيش الحرير، يجب أن تموت دودة القز.

ثم غادر إلى قونية. حفظه الله. أعرف أنني فعلت ما كان عليّ فعله، وكذلك أنت، لكن قلبي مثقل بالحزن، وقد بدأت أشتاق إلى أكثر الدراويش الذين رأيتهم في تكيتي غرابة وجموحاً.

في النهاية إنا لله وإنا إليه راجعون.

كفاك الله،

بابا زمان

التلميذ

بغداد، ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٢٤٣

ليس من السهل أن تكون درويشاً؛ هكذا حذّرني الجميع، لكن الشيء الذي نسوا أن يذكروه لي هو أنني سأعاني الأمرّين إن أنا أصبحت درويشاً. فأنا أعمل كالكلب منذ أن وصلت إلى هذه التكية. ففي معظم الأيام، أعمل كثيراً إلى درجة أنني عندما آوي أخيراً إلى فراشي، لا يغمض لي جفن من التشنج الذي يصيب عضلاتي والألم الذي يعتري قدميَّ. وأتساءل هل لاحظ أحد المعاملة السيئة التي أتعرض لها. وحتى لو لاحظ أحد ذلك، فمن المؤكد ألاّ يبدي أحد أي اهتمام. وكلما عملت أكثر، ازداد الأمر سوءاً. حتى إنهم لا يعرفون اسمي، وكانوا يتهامسون ويطلقون عليّ من وراء ظهري اسم «التلميذ الجديد المجهول ذي الشعر الأحمر».

وكان أسوأ شيء بالنسبة لي هو العمل في المطبخ تحت إشراف الطاهي. فلا يملك هذا الرجل بين جنبيه قلباً، بل قطعة من صخر. وكان الأجدر به أن يكون قائداً متوحشاً، متعطشاً للدماء في جيش المغول، لا طاهياً في تكية للدراويش. فلا أذكر أني سمعته يقول

كلاماً لطيفاً لأحد، ولا أظن أنه يعرف حتى كيف يبتسم.

وفي أحد الأيام، سألت أحد كبار الدراويش هل يجب على التلميذ أن يخضع لمحنة العمل مع طاه في المطبخ، فابتسم ابتسامة غامضة وأجاب: «ليس كلّ التلاميذ، بل بعضهم فقط».

إذاً لماذا أنا؟ لماذا يريدني السيّد أن أعاني أكثر من التلاميذ الآخرين؟ هل لأن «نفسي» أعظم من «نفوسهم» لذلك فإنني بحاجة إلى معاملة أقسى لتأديبي؟

ففي كلّ يوم، أكون أول المستيقظين، فأجلب الماء من الجدول القريب، ثمّ أوقد النار في الموقد، وأخبز خبز السمسم المرقق. وأعدّ الحساء للفطور. فليس من السهل توفير الطعام لخمسين شخصاً، إذ يجب طهو كلّ شيء في قدور لا يقلّ حجم كلّ منها عن حجم أحواض الحمّامات. واحزروا من يكشطها ويغسلها بعد ذلك؟ وإني أمضي كلّ وقتي، من الفجر حتى المغرب، في تنظيف الأرضيات، والأسطح، والدرج، وأكنس الفناء، وأقطع الحطب، وأقضي ساعات عدة جاثياً على يديّ وركبتي في كشط وتنظيف ألواح الأرضيات القديمة التي تصدر صريراً. وكنت أعدّ مربى البرتقال والأطعمة الحارة، وأخلّل الجزر والقرع، وأحرص على إضافة الكمية الملائمة من الملح، إلى حد يكفي لجعل بيضة تطفو. فإذا أضفت قدراً أكثر أو أقل من الملح، تنتاب الطاهي نوبة غضب، فيكسر جميع المرطبانات، ويصبح لزاماً عليّ إعداد كلّ شيء من جديد.

والأنكى من كل ذلك، كان يطلب مني ترديد أدعية باللغة العربية أثناء قيامي بكلّ عمل من هذه الأعمال. ويطلب مني أن أردد هذه

الأدعية بصوت عال لكي يتأكد من أنني لم أنس كلمة منها أو أخطئ بلفظها. لذلك فإني أصلّي وأعمل، وأعمل وأصلّي. وكان معذّبي يدّعي: «كلما تحملت المشاق في المطبخ، نضجت أكثر يا بني، ومع تعلّم الطهو، ستنضج روحك ببطء».

«لكن إلى متى ستدوم هذه التجربة؟»، سألته ذات مرة.

فأجاب، «ألف يوم ويوم، فإذا كان بإمكان شهرزاد الحكواتية أن تختلق حكاية جديدة كلّ ليلة طوال هذه المدة، فبوسعك أنت أن تتحمّل ذلك أيضاً».

هذا جنون! هل بيني وبين شهرزاد أي شبه؟ فكلّ ما كانت تفعله هو أن تضجع على وسائد مخملية، وتحرك أصابع قدميها، وتختلق قصصاً خيالية وهي تلقم الملك الفظ حبات العنب الحلو، وما تتفتق عنها مخيلتها. ولا أظن أنها قامت بعمل شاق، ولا أظن أنها ستتحمل أسبوعاً واحداً لو طلب منها أن تفعل نصف ما أفعله. ولا أعرف هل يحصي أحد الأيام؛ لكن من المؤكد أنني أحصيها، فلا يزال أمامي ٦٢٤ يوماً.

أمضيت الأيام الأربعين الأولى من تجربتي في حجرة صغيرة واطئة ولم يكن بإمكاني الاستلقاء أو الوقوف، لذلك كنت أضطر إلى الجلوس على ركبتيَّ طوال الوقت. وإذا رغبت في تناول طعام ملائم، أو الحصول على قليل من الراحة، أو إذا خفت من العتمة أو الوحدة، أو لا سمح الله، احتلمت بجسد امرأة، كان يطلب مني أن أقرع الأجراس الفضية المدلاة من السقف لتساعدني روحياً. لكني لم أفعل ذلك قط. لكن هذا لا يعني أنه لم تراودني أفكار مشتتة تلهي المرء،

لكن ما الخطأ في أن تخطر للمرء أفكار مشتتة وهو سجين فاقد الحركة؟

عند انتهاء الخلوة، كنت أعود إلى المطبخ لتبدأ معاناتي على يد الطاهي، وقد عانيت من ذلك بالفعل. لكن الحقيقة المرّة بقدر مرارتي هي أنني لم أخرق قواعد الطاهي قط ـ حتى المساء الذي وصل فيه شمس التبريزي. ففي تلك الليلة، عندما لحق بي الطاهي أخيراً، أوسعني ضرباً، وكسر قضيب شجرة صفصاف تلو آخر على ظهري. ثمّ وضع حذائي أمام الباب، مقدمته باتجاه الخارج، دلالة على أن الأوان قد حان لأغادر. ففي تكية الدراويش، لا يطردونك ولا يقولون لك صراحة أنك أخفقت، بل يجعلونك تغادر بصمت.

«لا نستطيع أن نجعل منك درويشاً رغماً عنك»، أعلن الطاهي، «إذ يمكن للمرء أن يجلب حماراً إلى الماء، لكنه لا يستطيع أن يرغمه على الشرب. فيجب أن يكون لدى الحمار الاستعداد لذلك. لا توجد وسيلة أخرى».

بالطبع فهو يقصد أني أنا الحمار. بصراحة، كنت أنوي مغادرة هذا المكان منذ زمن بعيد لولا وجود شمس التبريزي. إذاً إن فضولي بمعرفته أكثر جعلني أتسمّر في هذا المكان. فأنا لم ألتق بشخص مثله من قبل. إذ إنه لم يكن يخشى أحداً، ولم يكن يطيع أحداً. حتى الطاهي كان يكنّ له احتراماً كبيراً. وإن كان من قدوة يحتذى بها في هذه التكية، فهي شمس بكل سحره، وكرامته، وتمرده، لا المعلّم الشيخ المتواضع.

نعم، كان شمس التبريزي بطلاً في نظري. فبعد أن رأيته، عرفت أنني لست بحاجة لأن أصبح درويشاً وديعاً. فلو أمضيت وقتاً كافياً

معه، لأصبحت شخصاً مقداماً، حازماً، متمرداً. لذلك عندما حلّ الخريف، وأدركت أن شمساً سيغادر ولن يعود، قررت أن أغادر معه.

بعد أن حسمت أمري، ذهبت لرؤية بابا زمان، فوجدته جالساً، يقرأ في كتاب قديم على ضوء فانوس.

«ماذا تريد أيها التلميذ؟»، سأل متعباً، وكأن رؤيتي أتعبته.

وقلت بقدر ما أمكنني من الصراحة: «لقد علمت أن شمس التبريزي سيغادر قريباً، يا سيدي. أريد أن أذهب معه، فقد يحتاج إلى رفيق في رحلته».

«لم أكن أعرف أنك مهتم به إلى هذه الدرجة»، قال السيّد مرتاباً، «أم أنك تقول ذلك لتتهرب من عملك في المطبخ؟ فلم تنته فترة تدريبك بعد؛ ولا يمكن القول إنك أصبحت درويشاً».

«لعل مرافقة شخص مثل شمس في رحلته هي أفضل تدريب لي»، قلت عارفاً إن قول ذلك يعد جرأة، ومع ذلك فقد قلته.

أطرق السيّد مفكراً، وكلما طال صمته، ازددت اقتناعاً بأنه سيوبّخني على وقاحتي، وينادي الطاهي لمعاقبتي. لكنه لم يفعل ذلك، بل نظر إليّ بيأس وهزّ رأسه.

«لعلك لم تخلق للعيش في تكية يا بني. فمن بين كلّ سبعة تلاميذ يبدأون هذا الطريق، لا يبقى إلا واحد. وإحساسي يقول لي إنك لا تصلح لأن تكون درويشاً، لذلك يجب أن تبحث عن قسمتك في مكان آخر. أما بالنسبة لمرافقة شمس في رحلته، فيجب أن تسأله هو». وبإنهاء حديثنا هكذا، اختتم بابا زمان هذا الموضوع بإيماءة مؤدّبة وحازمة برأسه، وعاد إلى كتابه. أحسست بأنني حزين وصغير، لكني شعرت بأنني أصبحت حراً على نحو غريب.

شمس

بغداد، ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٢٤٣

في مواجهة الريح، انطلقت ممتطياً فرسي عند بزوغ الفجر. توقفت مرة واحدة فقط لألقي نظرة إلى الوراء، فرأيت تكية الدراويش وكأنها عشّ طيور تتوارى بين أشجار التوت وشجيرات أخرى. وللحظات عدة، ظلّ وجه بابا زمان المرهق يتراءى أمامي. فقد كنت أعرف أنه كان قلقاً عليّ، لكني لم أر سبباً حقيقياً يدعوه لأن يقلق. فقد انطلقت في رحلة حبّ داخلية، فكيف يمكن أن يفضي ذلك إلى وقوع أيّ ضرر؟ ها هي قاعدتي العاشرة: *لا يوجد فرق كبير بين الشرق والغرب، والجنوب والشمال. فمهما كانت وجهتك، يجب أن تجعل الرحلة التي تقوم بها رحلة في داخلك. فإذا سافرت في داخلك، فسيكون بوسعك اجتياز العالم الشاسع وما وراءه.*

بالرغم من أنني كنت أتوقع مواجهة بعض المشاق، فلم يساورني القلق. ورحّبت بالقدر الذي كان بانتظاري في قونية. وبما أنني صوفي، فقد تعلّمت أن أتقبّل الشوكة والوردة معاً، مساوئ الحياة ومحاسنها. وها هي قاعدة أخرى: *عندما تجد القابلة أن الحبلى لا*

تتألم أثناء المخاض، فإنها تعرف أن الطريق ليس سالكاً بعد لوليدها، فلن تضع وليدها إذاً؛ ولكي تولد نفس جديدة، يجب أن يكون ألم.

وكما يحتاج الصلصال إلى حرارة عالية ليشتدّ، فالحبّ لا يكتمل إلاّ بالألم.

* * *

قبل أن أغادر تكية الدراويش بليلة واحدة، أشرعت جميع النوافذ في غرفتي كي تهبّ عليها أصوات وروائح الظلام. وعلى ضوء الشمعة المتراقص، قصصت شعري الطويل، وسقطت خصلات سميكة منه على الأرض. ثمّ حلقت لحيتي وشاربي، ونزعت حاجبيَّ. وعندما أنهيت ذلك، أمعنت النظر في الوجه المنعكس في المرآة الذي ازداد بريقاً وشباباً. فبعد أن أزلت الشعر، أصبح وجهي مجرداً من أي اسم أو عمر أو جنس، ولم يعد له ماض ولا مستقبل، وأصبح مغلقاً إلى الأبد في هذه اللحظة.

«بدأت رحلتك تغيّرك»، قال السيّد عندما ذهبت إلى غرفته لتوديعه، «وهي لمّا تبدأ بعد».

فقلت بهدوء: «نعم، إني أدرك ذلك». وها هي قاعدة أخرى من القواعد الأربعين: «*إن السعي وراء الحبّ يغيّرنا. فما من أحد يسعى وراء الحبّ إلا وينضج أثناء رحلته. فما إن تبدأ رحلة البحث عن الحبّ، حتى تبدأ تتغيّر من الداخل ومن الخارج*».

بابتسامة طفيفة، أخرج بابا زمان صندوقاً مخملياً وقدمه لي، فوجدت في داخله ثلاثة أشياء هي: مرآة فضّية، ومنديل حريري، وقارورة زجاج فيها بلسم.

«ستساعدك هذه الأشياء في رحلتك. استخدمها عندما تحتاج إليها. فإذا فقدت الثقة بنفسك، ستريك المرآة جمالك الداخلي، وإذا أحسست بأن سمعتك قد شابتها شائبة، سيذكّرك المنديل بشدة نقاء قلبك. أما البلسم، فإنه سيشفي جراحك، الداخلية والخارجية».

تلمست كلّ واحدة منها، ثم أغلقت الصندوق، وشكرت بابا زمان وقلت: «أظن أنك لا تريد أن تقول شيئاً آخر».

ومع خيوط الفجر الأولى للصباح، وعندما بدأت العصافير تغرّد، وعندما بدأت قطرات ندى صغيرة تتساقط من الأغصان، امتطيت فرسي، وانطلقت باتجاه قونية، لا أعرف ماذا بانتظاري، لكني كنت واثقاً من القدر الذي كتبه الله لي.

التلميذ

بغداد، ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٢٤٣

امتطيت الحصان الذي سرقته، وانطلقت وراء شمس التبريزي. ومع أنني بذلت ما بوسعي للحفاظ على مسافة أمان بيننا، تبين لي أنه يستحيل عليّ اللحاق به ومتابعته من دون أن يراني.

عندما توقّف شمس في أحد أسواق بغداد لينال قسطاً من الراحة ويشتري بضعة أشياء يحتاج إليها في رحلته، قرّرت أن أظهر نفسي له، فارتميت أمام حصانه.

«أيها الشاب المجهول ذو الشعر الأحمر، ماذا تفعل عندك ممدداً على الأرض؟»، صاح شمس من فوق حصانه، وقد بدا نصف مبتهج، نصف مندهش.

جثوت أمامه، وشبكت يديَّ، ومططت رقبتي، كما يفعل الشحاذون، وقلت متوسلاً: «أريد أن أرافقك. أرجوك دعني أرافقك».

«هل تعرف إلى أين أنا ذاهب؟».

لذت بالصمت. لم يخطر لي هذا السؤال من قبل، فقلت: «لا، لكن ذلك لا يهمّ. أريد أن أكون مريداً لك. إنك قدوتي».

فقال شمس: «لقد اعتدتُ على الترحال وحيداً، ولا أرغب في أن يكون لي مريدون أو تلاميذ، شكراً لك! ومن المؤكد أنني لست قدوة لأحد، وخاصة لك، فامضِ في طريقك. لكن إذا ظللت تبحث عن معلّم في المستقبل، فأرجو أن تتذكّر قاعدة ذهبية تقول: *يوجد معلّمون مزيفون وأساتذة مزيفون في هذا العالم أكثر عدداً من النجوم في الكون المرئي. فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيين الذين يعملون بدافع السلطة وبين المعلّمين الحقيقيين. فالمعلّم الروحي الصادق لا يوجّه انتباهك إليه ولا يتوقّع طاعة مطلقة، أو إعجاباً تاماً منك، بل يساعدك على أن تقدّر نفسك الداخلية وتحترمها. إن المعلّمين الحقيقيين شفّافون كالبلور، يعبر نور الله من خلالهم*».

«أرجوك امنحني فرصة»، قلت متوسلاً، «فلدى جميع الرحالة المشهورين من يساعدهم في حلّهم وترحالهم، كمريد أو خادم».

حكّ شمس ذقنه مفكراً، وكأنه يقرّ بصحة كلماتي، وسأل: «هل تقدر على مرافقتي؟».

وثبت واقفاً على قدميّ، وهززت رأسي بمجامع قلبي وقلت: «طبعاً. وقوتي تنبع من داخلي».

«حسناً إذاً. ها هي مهمّتك الأولى: أريدك أن تتوجه إلى أقرب حانة وتطلب إبريقاً مليئاً بالخمر، وتأتي به وتشربه هنا في السوق».

كنت أقوم بتنظيف الأرضيات بعباءتي، وتلميع القدور حتى تصبح براقة كالزجاج الفينيسي (نسبة إلى البندقية) الجميل الذي رأيته مع أحد الحرفيين كان قد هرب من القسطنطينية منذ أمد بعيد عندما اجتاح الصليبيون المدينة؛ وأستطيع أن أفرم مائة بصلة بجلسة واحدة، أو أقشّر

وأهرس فصوص الثوم، كلّ ذلك باسم النماء الروحي. لكن احتساء خمرة بين جمع من الناس في السوق يفوق طاقتي. فنظرت إليه برعب.

«لا يمكنني أن أفعل ذلك. فلو عرف أبي، لكسر ساقيّ. فقد أرسلني إلى تكية الدراويش لأصبح مسلماً صالحاً، لا لأصبح كافراً من عبدة الأوثان. ماذا ستقول عني عائلتي وأصدقائي؟».

أحسست بنظرة شمس الحارقة التي وجّهها إليّ، فارتعش جسدي كله كما ارتعش عندما تجسّست عليه خلف الأبواب المغلقة.

«كما ترى لا يمكن أن تصبح مرافقاً لي»، قال بنبرة تشي بالاتهام، «فأنت تهتم كثيراً برأي الناس فيك. لكن أتعرف؟ لأنك شديد الحرص على نيل موافقة الآخرين، فلن تتخلّص من نقدهم، مهما حاولت».

أدركت أن فرصتي لمرافقته بدأت تبتعد، فانبريت للدفاع عن نفسي، «كيف يمكنني أن أعرف أنك لا تختبرني بهذا السؤال؟ فالإسلام يحرّم الخمر».

«لكن هذا لعب بالله. فليس من مهمتنا أن يحكم أحدنا على إيمان الآخر»، أجاب شمس.

تطلعت حولي بيأس، لا أعرف ماذا أفعل بكلماته، فقد أخذ عقلي يتخبط مثل عجينة فطيرة.

واصل شمس كلامه وقال: «إنك تقول إنك تريد أن تجتاز الطريق، لكنك لا تريد أن تضحي بأيّ شيء في سبيل تحقيق هذه الغاية. المال، أو القوة، أو الشهرة، أو الإسراف، أو المتعة الجسدية ـ أي شيء يعتبره المرء عزيزاً عليه في الحياة، يجب عليه أن يتخلّص منه أولاً».

ربّت شمس على حصانه، وأنهى كلامه بقوله: «أظن أنك يجب أن تعود إلى أسرتك في بغداد. ابحث عن حرفي صادق وتتلمذ عليه. لديّ شعور بأنك يمكن أن تصبح تاجراً جيداً ذات يوم. لكن لا تكن جشعاً! والآن، اسمح لي، يجب أن أنطلق».

بذلك، حيّاني للمرّة الأخيرة، ولكز حصانه، وانطلق مبتعداً، وأخذ العالم ينزلق تحت حوافره الهادرة. قفزت على فرسي ولحقت به نحو أطراف بغداد، لكن المسافة بيننا بدأت تتسع، حتى أصبح مجرد بقعة داكنة من بعيد. وحتى بعد مضي فترة طويلة من اختفاء تلك البقعة في الأفق، شعرت بوطأة نظرة شمس عليّ.

إيلا

نورثامبتون، ٢٤ أيار (مايو) ٢٠٠٨

كانت إيلا ترى أن وجبة الفطور هي أهم وجبة في اليوم. وفي صباح كلّ يوم، سواء أكان عطلة نهاية الأسبوع، أم خلال الأسبوع، كانت تتوجه إلى المطبخ، وكانت تقول لنفسها إن وجبة الفطور الجيدة تحدّد مسار بقية اليوم. فقد قرأتْ في إحدى المجلات النسائية أن أفراد الأسرة الذين يتناولون وجبة الفطور معاً بانتظام يكونون أكثر انسجاماً وتماسكاً من أفراد الأسرة الذين يخرجون من البيت نصف جائعين. ومع أنها كانت تؤمن بذلك، كان عليها أن تستمتع بتناول الفطور الذي تحدثت عنه المجلات. لكن تجربتها مع وجبة الفطور كانت أشبه باصطدام المجرات، لأن لكلّ فرد من أفراد أسرتها رغبة مختلفة في الطعام. فقد كان كلّ واحد منهم يرغب في تناول شيء مختلف، وكان ذلك يناقض فكرة إيلا عن تناول الطعام معاً. فكيف يمكن أن توجد وحدة على المائدة بينما يقضم أحدهم شريحة خبز محمّص مع المربّى (جانيت)، ويتناول آخر رقائق الحبوب المحلاة بالعسل (آفي)، وثالث ينتظر أن يقدم له طبق البيض المقلي (ديفيد)، ورابع يرفض

تناول أيّ شيء (أورلي)؟ وعلى الرغم من كل ذلك، فقد كانت وجبة الفطور مهمة، وكانت تجهّزها صباح كلّ يوم، عازمة على ألا يبدأ أي من أولادها يومه بتناول قطع البسكويت، أو تناول طعام رخيص آخر.

لكن إيلا عندما دخلت المطبخ هذا الصباح، كان أول شيء فعلته هو أنها جلست إلى طاولة المطبخ وفتحت حاسوبها النقال، بدلاً من أن تعدّ القهوة، أو عصير البرتقال، أو تحمّص شرائح الخبز. وفتحت الإنترنت لرؤية هل أرسل لها عزيز رسالة إلكترونية. ويا لبهجتها، فقد وجدت رسالة.

العزيزة إيلا،

غمرتني السعادة عندما علمت أن الأمور تحسّنت بينك وبين ابنتك. أما أنا، فقد غادرت قرية مومستينانغو البارحة عند الفجر. والغريب في الأمر مع أنني لم أمكث هنا سوى بضعة أيام، فإنني حزنت كثيراً عندما حان الوقت لتوديعها، بل كدت أشعر بالكآبة. وتساءلت هل سأتمكن من رؤية هذه القرية الصغيرة في غواتيمالا ثانية؟ لا أظن.

وكلّما ودّعت مكاناً أحبّه، أحسّ بأني أترك فيه جزءاً مني. ويخيّل إليّ أننا سواء اخترنا الترحال كما فعل ماركو بولو، أو ظللنا في البقعة نفسها من المهد إلى اللحد، فإن الحياة عبارة عن سلسلة من الولادات والوفيّات. إذ تولد لحظات وتموت أخرى، ولكي تبرز التجارب الجديدة، تذوي التجارب القديمة. ألا تظنين ذلك؟

وعندما كنت في مومستينانغو، رحت أتأمّل محاولاً تخيّل هالتك، وسرعان ما برزت لي ثلاثة ألوان هي: الأصفر الدافئ، والبرتقالي

الخجول، والأرجواني. أحسست بأن هذه هي ألوانك، وخيّل إليّ أنها ألوان جميلة، سواء أكانت منفصلة أم مجتمعة.

كانت تشاغول محطتي النهائية في غواتيمالا ـ وهي بلدة صغيرة تتناثر فيها بيوت مشيدة بالطين، وفي عيون أطفالها حكمة تتجاوز أعمارهم. ونساؤها من مختلف الأعمار ينسجن في بيوتهن سجاجيد جدارية مزخرفة رائعة. وقد طلبت من امرأة عجوز أن تختار سجادة جدارية، وقلت لها إنني سأرسلها إلى سيدة تعيش في نورثامبتون. وبعد أن فكرت قليلاً، سحبت سجادة من بين كومة كبيرة من ورائها. وأقسم بالله، كان فيها أكثر من خمسين سجادة من جميع الألوان. لكن السجادة التي اختارتها لك كانت منسوجة بثلاثة ألوان فقط: أصفر وبرتقالي وأرجواني. أظن أنك ترغبين في معرفة هذه الصدفة، إن كان من شيء كهذا في كون الله.

هل خطر في بالك أن تبادلنا الرسائل قد لا يكون ناجماً عن الصدفة؟

مع أحرّ التحيات،

عزيز

ملاحظة: إذا أردتِ، يمكنني أن أرسل إليك السجادة الجدارية بالبريد، أو يمكنني أن أنتظر حتى يأتي اليوم الذي نلتقي فيه ونحتسي كوباً من القهوة وأقدمها لك بنفسي.

أغمضت إيلا عينيها وحاولت أن تتخيّل كيف تحيط ألوان هالتها بوجهها. ومن الغريب أن الصورة التي برزت في عقلها، لم تكن

صورتها وهي امرأة في عمرها، بل صورتها عندما كانت طفلة، في حوالى السابعة من عمرها.

عادت تتدفق إليها ذكريات كثيرة، ذكريات خيّل إليها أنها نسيتها منذ زمن بعيد. صورة أمّها وهي واقفة وقد وضعت مئزراً أخضر بلون الفستق حول خصرها، تمسك بيدها كوباً للقياس، وعلى وجهها قناع رمادي من الألم؛ وقلوب ورقية معلقة على الجدران، لامعة وبرّاقة؛ وجسد والدها يتدلى من السقف كأنه يريد أن يمتزج بزينة عيد الميلاد، ويضفي على البيت شكلاً بهيجاً. تذكّرت كيف أمضت سنوات مراهقتها، وكيف أنها حمّلت أمّها مسؤولية انتحار أبيها. وعندما كانت إيلا فتاة صغيرة، وعدت نفسها بأنها عندما تتزوّج، فإنها ستسعد زوجها وألا تفشل في زواجها، مثل أمّها. وفي سعيها لجعل زواجها مختلفاً عن زواج أمّها بقدر ما تستطيع، لم تتزوّج رجلاً مسيحياً، بل فضّلت أن تتزوج رجلاً من دينها.

ومنذ سنوات قليلة فقط، توقّفت إيلا عن كراهية أمّها العجوز، وبالرغم من أنهما أصبحتا على وفاق مؤخراً، كان القلق في أعماقها لا يزال يعتريها عندما تتذكّر الماضي.

«ماما!... الأرض لأمّنا! الأرض لأمّنا».

سمعت إيلا موجة من الضحك والهمسات وراء كتفها. عندما التفتت، رأت أربعة أزواج من العيون تراقبها. فللمرة الأولى، جاءت أورلي وآفي وجانيت وديفيد لتناول طعام الفطور، ووقفوا بجانب بعضهم بعضاً يتأملونها كما لو كانت مخلوقة غريبة. ومن الطريقة التي كانوا ينظرون إليها، بدا كأنهم يقفون هناك منذ فترة، محاولين لفت انتباهها.

«صباح الخير، لكم جميعاً»، قالت إيلا بابتسامة.

«كيف لم تسمعينا؟»، سألتها أورلي، والدهشة ترتسم على وجهها.

«كنتِ مستغرقة تماماً في تلك الشاشة»، قال ديفيد من دون أن ينظر إليها.

تبعت إيلا نظرة زوجها، ورأت على الشاشة المفتوحة أمامها، رسالة عزيز ز. زاهارا وهي تومض بشكل باهت، فأغلقت حاسوبها النقال بسرعة من دون أن تطفئه.

«توجد رسائل عدة من الوكالة الأدبية يجب أن أقرأها»، قالت إيلا، «كنت أكتب تقريري».

«لا، كنت تقرأين رسائلك الإلكترونية»، قال آفي، بوجه متجهّم.

ما الذي يجعل الفتيان المراهقين يتحمسون لأن يكشف أحدهم عيوب الآخر وأكاذيبه؟ تساءلت إيلا. لكنها أحست بالارتياح، عندما لم يبد الآخرون اهتماماً بالموضوع. بل راحوا جميعاً ينظرون إلى مكان آخر، موجّهين نظراتهم إلى طاولة المطبخ.

التفتت أورلي نحو إيلا، وسألت بالنيابة عنهم جميعاً: «ماما، لماذا لم تحضّري وجبة الفطور هذا الصباح؟».

التفتت إيلا نحو الطاولة ورأت ما كانوا ينظرون إليه. فلم تكن هناك قهوة، ولا بيض مقلي مخفوق على الموقد، ولا خبز محمص بمربى العنّاب. هزّت رأسها عدة مرات، كما لو أنها توافق على صوت داخلي يقول حقيقة لا يمكن نكرانها.

صحيح، قالت لنفسها، كيف نسيتِ أن تعدّي طعام الفطور؟

الجزء الثاني

الماء
الأشياء السائلة تتغيَّر، ولا يمكن التنبؤ بها

الرومي

قونية، ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

كان البدر المتلألئ المكتمل يشبه لؤلؤة رائعة معلقة في السماء. نهضتُ من السرير ونظرتُ من النافذة إلى الفناء الذي يغمره ضوء القمر. لكن حتى رؤية هذا الجمال الرائع، لم تخفف شدّة ضربات قلبي أو ارتعاش يدي.

«أفندي، إنك تبدو شاحباً. هل رأيت الحلم ذاته ثانية؟»، همست زوجتي، «هل أجلب لك كوباً من الماء؟».

طمأنتها وطلبت منها أن تعود إلى فراشها. فليس بإمكانها أن تفعل شيئاً. لأن أحلامنا جزء من قدرنا، فهي تأخذ مسارها كما يشاء الله. وقلت لنفسي لا بدّ من وجود سبب يجعلني أرى الحلم ذاته في كل ليلة من الليالي الأربعين الماضية. وكانت بداية الحلم تختلف قليلاً في كلّ مرة، أو لعلها كانت هي نفسها دائماً، لكني أنا الذي كنت ألجه من باب مختلف في كلّ ليلة.

هذه المرة، رأيت نفسي أقرأ القرآن في غرفة مفروشة بالسجاد بدت مألوفة لي، لكنها لم تكن تشبه أي مكان ذهبت إليه من قبل. قبالتي

جلس درويش، طويل، نحيف، منتصب القامة، على وجهه حجاب، يحمل شمعداناً فيه خمس شموع متوهّجة تمدني بالضوء، لأتمكن من القراءة.

بعد قليل رفعت رأسي لأطلع الدرويش على القصيدة التي كنت أقرأها، وعندها فقط أدركت، ويا لرهبتي، أن ما خلته شمعداناً، كان في الحقيقة اليد اليمنى لرجل. كان الدرويش يمدّ يده إليّ، وكل أصبع من أصابعه يشتعل.

وبرعب، تطلعت حولي بحثاً عن الماء، لكن لم يكن هناك ماء على مرمى البصر. فخلعت عباءتي ورميتها على الدرويش لأطفئ اللهب.

لكن عندما رفعت العباءة، كان قد اختفى، مخلّفاً وراءه شمعة مشتعلة.

ومنذئذ، أصبحت أرى الحلم نفسه على الدوام. بدأت أبحث عنه في البيت، وأفتّش في كلّ زاوية وركن. ثم عدوت إلى الفناء، الذي تفتّحت فيه الورود في بحر من اللون الأصفر البراق، ورحت أصيح يمنة ويسرة، لكني لم أر الرجل في أي مكان.

«عد أيها الحبيب. أين أنت؟».

وأخيراً، كما لو أنّ حدساً مشؤوماً يقودني، اقتربت من البئر ونظرت في المياه الداكنة المتماوجة في القعر. في البداية لم أر شيئاً، لكن بعد قليل، غمرني القمر بنوره المتلألئ وأضاء الفناء بلمعان نادر. عندها فقط لاحظت عينين سوداوين تحدّقان فيّ بحزن غير مسبوق من قاع البئر.

«لقد قتلوه»، صاح أحدهم. ربما كان ذلك أنا نفسي. ربما بدا صوتي هكذا في حالة من العذاب اللامتناهي.

ورحت أصرخ وأصرخ حتى أمسكتني زوجتي بقوة، وضمتني إلى صدرها، وسألتني برقة، «أفندي، هل راودك الحلم نفسه ثانية؟».

* * *

بعد أن نامت كيرا ثانية، تسللت إلى الفناء. في تلك اللحظة، تحصّل لديّ انطباع بأن الحلم لا يزال معي، واضحاً ومخيفاً. وفي هدأة الليل، أحدثت رؤية البئر رعشة سرت في أوصالي، لكنني لم أتمالك نفسي من الجلوس بجانبه، ورحت أنصت إلى حفيف النسيم الليلي بين الأشجار.

في أوقات كهذه، كانت تغمرني موجة من الحزن المفاجئ، لا أعرف سببها. لقد اكتملت حياتي وحققت ما كنت أصبو إليه، فقد أنعم الله عليّ بالأشياء الثلاثة العزيزة عليّ وهي: المعرفة، والفضيلة، والقدرة على مساعدة الآخرين في البحث عن الله.

وبعد أن بلغت الثامنة والثلاثين من العمر، منحني الله أكثر مما كنت أطلبه. فقد درست حتى أصبحت خطيباً وفقيهاً وعالماً شرعياً، ودرست العلوم العرفانية، وهي المعرفة التي توهب للأنبياء والأولياء وعلماء الدين بدرجات متفاوتة. وبتوجيه من أبي رحمه الله، درست على يد أفضل الأساتذة في عصرنا، وبذلت جهداً كبيراً لتعميق إيماني بأنّ هذا هو الواجب الذي خصّني به الله.

وكان أستاذي القديم سيد برهان الدين يقول إني من الناس الذين يحبهم الله كثيراً، لأنني كُلِّفتُ بهذه المهمّة الشريفة لإبلاغ رسالته إلى عباده ومساعدتهم على التمييز بين الحق والباطل.

ولسنوات عدة درّست في المدرسة، وناقشت اللاهوت مع علماء

الشريعة الآخرين، وعلّمت تلاميذي، ودرّست الفقه والحديث، وألقيت خطب الجمعة في أكبر مساجد المدينة. وطالما نسيت عدد التلاميذ الذين درّستهم. وأشعر بالإطراء عندما أسمع الآخرين يمتدحون الخطب التي ألقيها، ويقولون إن كلماتي غيّرت حياتهم في وقت كانوا في أمس الحاجة إلى الإرشاد والتوجيه.

لقد أكرمني الله بأسرة محبّة، وأصدقاء طيبين، ومريدين مخلصين. ولم أعاني في حياتي الفاقة أو الشح، مع أن فقداني لزوجتي الأولى كان شديد الوطأة عليّ. وظننت أني لن أتزوّج ثانية، لكني تزوجت، وبفضل كيرا، عشت حياة مفعمة بالحبّ والبهجة. وكبر ولداي، مع أنني لا أكفّ عن التساؤل بدهشة كيف أن أحدهما يختلف عن الآخر. فهما مثل بذرتين، بالرغم من أنهما زرعتا جنباً إلى جنب وفي التربة نفسها، وغذّتهما الشمس ذاتها، وسقتهما نفس الماء، فقد انتشتا فأعطتا نبتتين مختلفتين تماماً. إني فخور بهما، وفخور أيضاً بابنتنا المتبناة ذات المواهب الفريدة. إني رجل سعيد، قانع وراض بحياتي وبالمجتمع الذي أعيش فيه.

لماذا إذاً يعتريني شعور بالفراغ في داخلي، يزداد عمقاً واتساعاً يوماً بعد يوم؟ إنه ينغل في روحي كالمرض ويرافقني حيثما ذهبت، هادئاً كالفأر لكنه مفترس.

شمس

قونية، ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

قبل أن أدخل أبواب أي مدينة لم أزرها من قبل، كنت أتوقف قليلاً لألقي تحية على الأولياء والقديسين، الأحياء منهم والأموات، المعروفين منهم والمخفيين. فكنت كلما أصل مكاناً جديداً، فإن أول شيء أفعله هو أن أتلقى بركة الأولياء الصالحين، سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً. لأنني أؤمن بأن الأولياء الصالحين يترفّعون عن هذه الفروق الاسمية التافهة، وهم ينتمون إلى سائر البشرية.

لذلك، ما إن لاحت لي قونية لأول مرة من مسافة بعيدة، حتى فعلت ما كنت أقوم به، لكن شيئاً غير عادي حدث. فبدلاً من الردّ على تحيتي، ومنحي بركاتهم، صمت الأولياء صمت شواهد القبور المحطمة. حيّيتهم ثانية، هذه المرة بصوت أعلى وأشدّ حزماً، فلعلهم لم يسمعوني. لكن الصمت خيّم مرة أخرى. عندها أدركت أنهم سمعوني جيداً، لكنهم لم يمنحوني بركاتهم.

«قولي لي ماذا في الأمر؟»، طلبت من الريح أن تحمل كلماتي إلى الأولياء والقديسين في طول البلاد وعرضها.

وبعد قليل، عادت الريح بالرد، وقالت: «أيها الدرويش، لن تجد في هذه المدينة سوى نقيضين، ولا شيء بينهما. فإمّا الحبّ الخالص، وإمّا الكره المحض. إننا نحذّرك. ادخل المدينة على مسؤوليتك الخاصة».

فقلت: «في هذه الحالة، لا داعي للقلق، فما دمت سأجد الحبّ الخالص، فإن هذا يكفيني».

عندما سمع أولياء قونية ذلك، منحوني بركاتهم. لكنني قررت أن أتأنى في دخول المدينة، فجلست تحت شجرة بلوط. وبينما أخذ حصاني يرعى الأعشاب المتناثرة، رحت أجيل النظر في المدينة التي لاحت أمامي من بعيد. فقد كانت مآذن قونية تلمع تحت أشعة الشمس مثل قطع البلور. وكانت تتناهى إليّ، بين الحين والآخر، أصوات نباح كلاب، ونهيق حمير، وضحكات أطفال، وأصوات باعة يصيحون بأعلى أصواتهم ـ أصوات عادية تنم عن أصوات مدينة تضجّ بالحياة. تساءلت ما هي أنواع البهجة والحزن التي تدور الآن وراء الأبواب الموصدة والنوافذ المغطاة بستائر من الشبك؟ ولمّا كنت معتاداً على حياة الترحال، كان المكوث في المدينة يزعجني قليلاً، لكني تذكّرت قاعدة أساسية أخرى تقول: لا تحاول أن تقاوم التغييرات التي تعترض سبيلك، بل دع الحياة تعيش فيك. ولا تقلق إذا قلبت حياتك رأساً على عقب. فكيف يمكنك أن تعرف أن الجانب الذي اعتدت عليه أفضل من الجانب الذي سيأتي؟

أخرجني صوت رقيق من حلم يقظتي، وقال: «السلام عليك أيها الدرويش».

عندما التفتُّ، رأيت فلاحاً أسمر البشرة، مفتول العضلات، ذا شاربين متهدلين. كان يركب عربة يجرها ثور ضامر وكأن هذا الحيوان المسكين على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في أي لحظة.

فأجبته: «وعليك السلام، بارك الله فيك!».

«لماذا تجلس هنا وحدك؟ إن كنت قد تعبت من امتطاء حصانك، فيمكنني أن أوصلك بنفسي».

فقلت له مبتسماً: «شكراً لك، أظن أنني أستطيع أن أكمل رحلتي مشياً على القدمين أسرع من ثورك».

«لا تبخس ثوري قدره»، قال الفلاح، وقد أحسّ بالإهانة، «ربما كان عجوزاً وضعيفاً، لكنه أعزّ صديق لي».

أذهلتني هذه الكلمات، فوثبت واقفاً على قدمي، وانحنيت أمام الفلاح. فكيف لي، أنا ذلك العنصر البسيط في دائرة خلق الله الواسعة، أن أبخس من قدر عنصر آخر في هذه الدائرة، سواء أكان حيواناً أم إنساناً؟

فقلت: «إني أعتذر منك ومن ثورك. أرجوك سامحني».

ارتسم ظلّ من عدم التصديق على وجه الفلاح. تسمّر واقفاً للحظة، وخيّل إليه أنني أسخر منه، وقال: «لم يفعل ذلك أحد قط»، وابتسم لي ابتسامة دافئة.

«أتعني الاعتذار من ثورك؟».

«وهذا أيضاً. لكن أحداً لم يعتذر لي قط، بل إن ما يحدث هو العكس تماماً، فأنا الذي أعتذر دائماً. حتى عندما يخطئ الناس بحقي، فأنا من أعتذر لهم».

تأثرت من سماع ذلك، وقلت بهدوء: «يقول القرآن الكريم (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)، وهي قاعدة من القواعد».

فسأل: «أي قواعد؟».

«إن الله منهمك في إكمال صنعك، من الخارج ومن الداخل. إنه منهمك بك تماماً. فكلّ إنسان هو عمل متواصل يتحرّك ببطء لكن بثبات نحو الكمال. فكلّ واحد منا هو عبارة عن عمل فني غير مكتمل يسعى جاهداً للاكتمال. إن الله يتعامل مع كلّ واحد منّا على حدة لأن البشرية لوحة جميلة رسمها خطاط ماهر تتساوى فيها جميع النقاط من حيث الأهمية لإكمال الصورة».

«هل أتيت لتسمع الخطبة أيضاً؟»، سأل الفلاح باهتمام مجدداً، وأضاف: «يبدو أن المكان سيزدحم بالناس. إنه رجل عظيم».

خفق قلبي بشدة عندما أدركت من يقصد، فسألته: «قل لي ما الذي يميّز خطب الرومي؟».

صمت الفلاح وحدّق في الأفق الواسع. فقد بدا أن عقله يجول في كل مكان، من دون أن يكون في أي مكان محدد.

ثمّ قال: «لقد أتيت من قرية رزئت بالنكبات. ففي البدء حلّت المجاعة، ثمّ جاء المغول الذين حرقوا ونهبوا كلّ قرية مرّوا بها. لكن ما فعلوه في المدن الكبيرة، كان أسوأ. إذ استولوا على أرضروم وسيواس وقيصرية، وذبحوا جميع سكانها من الذكور، وسبوا نساءها. لم أفقد أحداً من أحبائي أو أخسر بيتي، لكني فقدت شيئاً مهماً، وهو بهجتي».

فسألته: «وما علاقة ذلك بالرومي؟».

حدّق الفلاح ثانية بثوره، ودمدم بكلام يخلو من أي نبرة: «يقول الجميع إنك إذا استمعت إلى خطب الرومي، فإن حزنك يزول».

من الناحية الشخصية، لا أظن أن هناك مشكلة مع الحزن. بل على العكس تماماً ـ فالنفاق هو الذي يجعل الناس سعداء، أما الحقيقة فتجعلهم يشعرون بالحزن. لكنني لم أقل ذلك للفلاح، بل قلت: «لماذا لا أرافقك حتى قونية، وتحدّثني المزيد عن الرومي؟».

ربطت رسن حصاني بالعربة، وصعدت إليها وجلست بجانب الفلاح، وأحسست بالسعادة عندما رأيت أن الثور لم يعبأ بالحمل الإضافي. وبشكل أو بآخر، راح يسير ببطء شديد على نحو لا يطاق. وقدم لي الفلاح قطعة من الخبز وجبن الماعز، فرحت أتناولها. ثمّ دخلنا قونية، تحت الشمس المتوهجة في سماء زرقاء صافية، وتحت عيون أولياء المدينة الساهرة.

«رعاك الله يا صديقي»، قلت له وقفزت من العربة، وحللت رسن حصاني.

«احرص على حضور الخطبة»، صاح الفلاح بلهفة. هززت رأسي وودعته ملوّحاً بيدي، وقلت: «إن شاء الله».

وبالرغم من أنني كنت أتلهف لسماع الخطبة وأترقب لقاء الرومي، فقد أردت في البداية أن أمضي بعض الوقت في المدينة، لأتعرف أولاً على آراء سكان المدينة بهذا الخطيب العظيم. فقد أردت أن أراه بعيون أجنبية، اللطيفة منها وغير اللطيفة، المحبّة وغير المحبّة، قبل أن أراه بعينيّ رأسي.

حسن المتسوّل

قونية، ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

صدّق أو لا تصدّق، إنهم يطلقون على هذا المطهر[١] الأرضيّ «العذاب المقدّس». أنا الأبرص العالق في اليمبوس[٢]، الذي لا يريد كثرٌ، سواء أكانوا أمواتاً أم أحياء، أن أكون بين ظهرانيهم. وتشير إليّ الأمهات في الشارع لإخافة أطفالهن المشاكسين، ويرجمني الأطفال بالحجارة، ويطردني أصحاب الحوانيت من أمام محلاتهم كي لا أجلب عليهم سوء الحظّ الذي يلازمني حيثما ذهبت، وتشيح النساء الحبالى بوجوههن عني عندما تقع أعينهن في عينيّ، خشية أن يلدن أطفالاً مشوهين. ولم يكن يعرف هؤلاء أنهم يريدون تحاشيّ بنفس القدر الذي أرغب في تحاشيهم وتجنب نظراتهم المحدقة التافهة.

كان جلدي يتغيّر ويصبح داكناً وغليظاً، وتظهر بقع بأحجام متباينة، بلون البيض المتعفّن، على كتفيّ وركبتيّ وذراعيّ ووجهي، عندها أشعر بوخز واحتراق، لكن سرعان ما كان الألم يتلاشى بطريقة ما.

---

(١) حاجز بين الجنة والنار.

(٢) دهليز في جهنم.

ثم تكبر هذه البقع وتنتفخ، وتتحوّل إلى بصيلات قبيحة الشكل؛ وتتحوّل الأيدي إلى مخالب، ويتشوّه الوجه إلى حدّ يستحيل التعرف عليه. وبعد أن أبدأ ببلوغ المراحل النهائية، لا أعود أستطيع إغلاق جفنيّ، ويسيل لعابي وتنهمر دموعي من تلقاء نفسها؛ وقد سقطت ستة أظافر من أصابعي، وهناك ظفر آخر على وشك السقوط. ومن الغريب أنه لا يزال لديّ شعر، لذلك يجب أن أعتبر نفسي محظوظاً في هذا الأمر.

كنت قد سمعت أنهم يلقون بالمجذومين خارج أسوار المدينة؛ أما في هذه المدينة فهم يتركون المجذوم يعيش فيها، طالما أنه يحمل جرساً لتحذير الآخرين من الاقتراب منه. كما يُسمح لنا بالتسوّل، وهو أمر جيد، لأننا ما لم نفعل ذلك، فإننا سنتضور جوعاً. فالتسوّل هو إحدى الوسيلتين الوحيدتين لكي نعيش، أما الوسيلة الأخرى فهي الصلاة. لا لأن الله يحيط المجذومين برعاية خاصة، بل لأن البعض يعتقد، لسبب غريب، أنه يفعل ذلك. لذلك، فبقدر ما كان سكان المدينة يحتقروننا، فهم يحترموننا أيضاً. ويطلبون منا أن نصلّي من أجلهم لشفاء المرضى والمشلولين والمسنين. وينفحوننا مبلغاً من المال، ويقدمون لنا الطعام، بأمل أن يستخرجوا بضعة أدعية إضافية من أفواهنا. وقد يعامل المجذومون في الشارع معاملة أسوأ من الكلاب، أما في الأماكن التي يلوح فيها شبح الموت واليأس، فإننا نصبح فيها سلاطين.

وعندما يطلب مني أن أصلي لشخص لقاء مبلغ من المال، كنت أطرق رأسي وأدمدم بالعربية بكلمات غير مفهومة، وأدّعي أنني

مستغرق في الصلاة. فكل ما يمكنني عمله هو الادعاء والتصنّع لأنني أعتقد بأن الله لا يسمعني، ولا يوجد لديّ سبب يجعلني أؤمن بأنه يسمعني.

بالرغم من أن التسوّل ليس عملية مربحة، فإني أجده أسهل من الصلاة بكثير. فعلى الأقل أنا لا أخدع أحداً. ويعتبر يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع للتسوّل، أما رمضان فكل أيامه مربحة. وعادة ما يكون آخر يوم في رمضان أفضل الأيام للتسوّل، عندما يتسابق الناس، حتى المعدمون الذين لا يملكون شروى نقير، لدفع الزكاة، ليغفر الله لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر. لذلك نجد الناس مرة واحدة في السنة لا يهربون من المتسوّلين، بل يبحثون عن متسوّل، وكلما ازداد بؤساً، كان أفضل، ويتباهون بأنهم أسخياء ومحبون للخير، فهم لا يتسابقون لمنحنا مال الزكاة فقط، بل ليشعرونا كذلك بأنهم يحبوننا في ذلك اليوم.

لعل اليوم هو أكثر الأيام ربحاً أيضاً، لأن الرومي سيلقي خطبة يوم الجمعة. فقد عجّ المسجد بالمصلين، واصطف الذين لم يجدوا مكاناً داخل المسجد في الباحة. إن صلاة العصر هي أفضل فترة للشحاذين والنشّالين؛ ومثلي تماماً، فهم موجودون جميعاً هنا، يتناثرون في صفوف المصلين.

جلست قبالة مدخل المسجد مسنداً ظهري إلى شجرة قيقب. وكان الهواء يعبق برائحة الرطوبة التي تنبعث بعد هطول الأمطار، ممزوجة برائحة جميلة تهبّ من البساتين البعيدة. وضعت طاسة التسوّل أمامي. ولم أكن مثل المتسولين الآخرين، أطلب بصراحة منحي

صدقة. فلا يحتاج المجذوم إلى أن يئنّ ولا أن ينتحب أو يتوسل، ويختلق قصصاً تظهر شدة تعاسته أو مرضه. إذ إن لرؤية وجهي تأثير ألف كلمة، لذلك كشفت عن وجهي وجلست.

وبعد ساعة، بدأت تتساقط في طاستي قطع معدنية كانت جميعها قطعاً نحاسية مكسورة. وكنت أتوق للحصول على قطعة ذهبية محفور عليها رمز الشمس والأسد والهلال. فمنذ أن خفف المرحوم علاء الدين كيقباذ القواعد المفروضة على العملات، أُعلن أن جميع العملات المعدنية الصادرة عن ولاة حلب، والحكّام الفاطميين في القاهرة، والخليفة في بغداد، فضلاً عن الفلورين الإيطالي، صالحة للتداول، وكان حكّام قونية، بالإضافة إلى الشحاذين في المدينة، يقبلون استخدامها جميعاً.

وتساقطت في حضني نقود معدنية وبضع أوراق جافة. فقد كانت أوراق شجرة القيقب الذهبية المائلة إلى الأحمر تتساقط أيضاً، وعندما هبّت ريح شديدة، سقط عدد من أوراقها في طاستي، وكأن الشجرة تريد أن تتصدّق عَلَيَّ هي أيضاً. وفجأة أدركت أن شيئاً مشتركاً يجمع بيني وبين شجرة القيقب. فالشجرة التي تتساقط أوراقها في الخريف تشبه رجلاً تتساقط أطرافه عندما يبلغ المراحل الأخيرة من داء الجذام.

كنت مثل شجرة عارية. فقد كان يتساقط جلدي وأعضائي ووجهي؛ وفي كلّ يوم، كان جزء آخر من جسمي يتخلى عني. ولكن لم يكن لديّ، كما هو حال شجرة القيقب، فصل ربيع، تتفتح أزهاري فيه، فما أفقده، أفقده إلى الأبد. وعندما يرمقني الناس، فهم لا يرون من أنا، بل يرون ما أفتقده. وكانوا عندما يلقون قطعة من النقود في

طاستي، يفعلون ذلك بسرعة كبيرة، ويتحاشون النظر في عينيّ، وكأن المرض سينتقل إليهم إذا نظروا إليّ. فقد كنت في نظرهم أسوأ من لصّ أو قاتل. وبالرغم من أنهم يبغضون هؤلاء المجرمين ويرفضونهم، لم يكونوا يعاملونهم باعتبارهم أشخاصاً غير مرئيين. أما أنا، فكلّ ما كانوا يرونه فيّ، هو الموت يحدّق في وجوههم. وهذا ما كان يرعبهم، رؤية أن الموت قد يكون قريباً وبشعاً إلى هذه الدرجة.

وفجأة حدث هرج ومرج في الخلف، وسمعت أحدهم يصرخ: «إنه قادم! إنه قادم!».

وكما هو متوقع، جاء الرومي، ممتطياً حصاناً أبيض كالحليب، مرتدياً قفطاناً عنبرياً رائعاً مطرّزاً بأوراق ذهبية ولآلئ صغيرة، منتصباً بفخر، حكيماً ونبيلاً، يتبعه حشد من المعجبين والمريدين. كان يشعّ بهاء وثقة، وكان يبدو حاكماً أكثر منه عالم دين ـ سلطان الريح والنار والماء والتراب ـ حتى حصانه المهيب كان ينتصب بثبات، وكأنه يدرك أهمية الرجل الذي يمتطيه.

دسست النقود في جيبي، ولففت رأسي، وتركت نصف وجهي مكشوفاً، ودخلت المسجد. كان المسجد يعجّ بالناس إلى حد أنه يستحيل معه على المرء أن يتنفّس، ناهيك عن أن يعثر على مكان يجلس فيه. لكن الشيء الجيد هو أن المجذوم يستطيع أن يجد مكاناً، مهما كان المكان مكتظاً، لأن أحداً لا يريد أن يجلس بجانبه.

«إخوتي»، قال الرومي الذي بدأ صوته يعلو وينخفض، «إن رحابة الكون تجعلنا نشعر بضآلتنا، بل بعدم أهميتنا. وقد يتساءل البعض: «ما المعنى الذي يمكن أن يتحصّل لديّ، في معرفتي المحدودة، عن

الله؟»، ويخيّل إليّ أن هذا السؤال يخطر في بال الكثيرين منكم، بين الحين والآخر. وفي خطبة اليوم، أريد أن أجد بعض الأجوبة المحددة عن هذا السؤال».

كان ولدا الرومي يجلسان في الصفّ الأمامي، الوسيم منهما، سلطان ولد، الذي يقول الجميع عنه إنه يشبه أمّه المرحومة، والابن الأصغر، علاء الدين، بوجهه المفعم بالحيوية وعينيه الماكرتين. ويمكنني أن أرى أنهما كانا فخورين بأبيهما.

وتابع الرومي كلامه قائلاً: «لقد كُرِّم بنو آدم بمعارف عظيمة لا تقوى على حملها حتى الجبال أو السماوات، لذلك يقول سبحانه (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان). فبعد أن رفع البشر إلى هذه المكانة المشرفة، يجب ألا يكون هدفهم أدنى مما شرّفهم به الله».

كان الرومي يتحدث عن الله، ويلفظ حروف العلة بأسلوبه الغريب الذي لا يستطيع أن يلفظه إلا المتعلمون، مؤكداً أنه لا يجلس على عرش بعيد في السماء، بل إنه قريب من كل واحد منا. وقال إن لا شيء يقرّبنا من الله إلا الألم والمعاناة.

«إن يدك تفتح وتغلق باستمرار، وما لم تفعل ذلك، فإنك تصاب بالشلل. إن أعمق وجود بالنسبة لك يقبع في كلّ انقباض وتوسّع مهما كانا صغيرين، وكلاهما متوازن ومنسق على نحو جميل مثل جناحيْ طائر».

في البداية، أعجبني ما قاله، وما أدفأ قلبي هو التفكير بأن المتعة والحزن يعتمد أحدهما على الآخر مثل جناحي طير. لكني أحسست

في اللحظة ذاتها، بموجة من الاستياء تصعد إلى حنجرتي. فما الذي يعرفه الرومي عن المعاناة والألم؟ فهو ابن رجل مرموق، ووريث عائلة مشهورة ثرية، ويعيش حياة رغيدة. ومع أنني علمت أن زوجته الأولى قد ماتت، فلا أظن أنه تعرّض لمحنة حقيقية. فقد ولد وفي فمه ملعقة من فضة، وتتلمذ على أفضل العلماء، وكان محبوباً ومدلّلاً ومحترماً على الدوام، فكيف يجرؤ على أن يلقي خطبة عن الألم والمعاناة؟

بقلب حزين، أدركت أن المقارنة بيني وبين الرومي مقارنة غير مجدية. وتساءلت عن السبب الذي يجعل الله غير عادل؟ فقد منحني الفقر والمرض والتعاسة، ومنح الرومي الثروة والنجاح والحكمة. وبسمعته النقية وسلوكه الراقي، فهو نادراً ما ينتمي إلى هذا العالم، على الأقل، إلى هذه المدينة. أما أنا فيتعين عليّ أن أستر وجهي حتى لا ينفر الناس من رؤيتي، بينما يشرق الرومي ويتلألأ مثل حجر كريم ثمين. وتساءلت كيف كان سيتصرف لو كان في مكاني؟ هل خطر في باله قط أن شخصاً مثالياً وصاحب امتيازات مثله قد يتعثّر ويسقط ذات يوم؟ هل فكّر يوماً كيف يشعر المرء عندما يكون منبوذاً، حتى ليوم واحد؟ هل سيظل الرومي العظيم يرغب بالحياة لو عاش الحياة التي أعيشها؟

ومع كلّ سؤال جديد، كان استيائي يزداد، جارفاً كل إعجاب أكنّه له. وبشعور من المرارة والمشاكسة، نهضت وشققت طريقي إلى الخارج، ورمقني عدد من المصلين بفضول، متسائلين لماذا أغادر خطبة يتلهف الكثيرون لحضورها.

شمس

قونية، ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

بفضل الفلاح الذي أوصلني إلى وسط المدينة، وجدت مكاناً للإقامة لي ولحصاني. وبدا لي أن خان تجار السكّر يلائمني. فمن بين الغرف الأربع التي عرضوها عليّ، اخترت الغرفة التي يوجد فيها أقل قدر من الأثاث، فقد كانت مفروشة بحصيرة للنوم، وبطانية متعفنة، وفانوس على وشك أن ينطفئ، وقطعة طوب مجفّفة بالشمس لاستخدامها كوسادة، ومشهد للبلدة كلها حتى سفوح التلال المحيطة.

بعد أن استقر بي المقام في الخان، خرجت ورحت أطوف في الشوارع، مبدياً دهشتي من هذا المزيج من الأديان والعادات واللغات الذي يملأ الهواء. إذ صادفت في طريقي غجراً يعزفون موسيقى، ومسافرين عرباً، وحجاجاً مسيحيين، وتجاراً يهوداً، وكهنة بوذيين، وشعراء متجولين من الإفرنجة، وفنانين فرساً، وبهلوانات صينيين، وسحرة أفاعٍ هنوداً، وسحرة زرادشتيين، وفلاسفة يونانيين. وفي سوق الجواري، رأيت محظيات ذوات بشرة بيضاء كالحليب، ومخصيّين زنوجاً فقدوا القدرة على الكلام من شدّة الأهوال التي

كابدوها. وصادفت في السوق حلاقين جوّالين يحملون أدوات حجامة، وبصارات يحملن كرات بلورية، وسحرة يبتلعون النار. وكان هناك حجاج في طريقهم إلى القدس، ومشرّدون شككت في أنهم جنود هاربون من الحملات الصليبية الأخيرة. وسمعت أشخاصاً يتكلمون اللغات الإيطالية، والفرنسية، والسكسونية، واليونانية، والفارسية، والتركية، والكردية، والأرمنية، والعبرية، ولهجات عدة أخرى لم أتمكن من معرفتها. وعلى الرغم من اختلافاتهم الظاهرة اللانهائية، كان جميع هؤلاء يبدون شيئاً متشابهاً من النقص وعدم الاكتمال، وهو أن كل واحد منهم يشكل تحفة فنية غير مكتملة.

كانت المدينة أشبه ببرج بابل. وكان كلّ شيء فيها يتحوّل باستمرار، يتشعّب، يبرز إلى الضوء، ينتشر، يزدهر، ثم يذوب ويتفسّخ، ويموت. وفي خضم هذه الفوضى وقفت في مكان يسوده الصمت والصفاء، غير مبال بالعالم حولي، لكني أحسست، في الوقت نفسه، بحبّ جارف لجميع الذين يكافحون ويعانون فيه. وبينما كنت أراقب الناس من حولي، تذكّرت قاعدة ذهبية أخرى وهي: *من السهل أن تحبّ إلهاً يتصف بالكمال، والنقاء، والعصمة. لكن الأصعب من ذلك أن تحبّ إخوانك البشر بكلّ نقائصهم وعيوبهم. تذكّر، أن المرء لا يعرف إلا ما هو قادر على أن يحبّ. فلا حكمة من دون حبّ. وما لم نتعلّم كيف نحبّ خلق الله، فلن نستطيع أن نحبّ حقاً ولن نعرف الله حقاً.*

رحت أجوب الأزقة الضيّقة حيث يكدح حرفيون من مختلف الأعمار في محلاتهم الصغيرة الحقيرة. وكنت في كلّ مكان أرتاده،

أسمع أهالي المدينة يتحدّثون عن الرومي. تساءلت كيف يكون شعور المرء عندما يكون مشهوراً ويحظى بشعبية كبيرة؟ وكيف يؤثّر ذلك على النفس؟ وبينما كان عقلي يعجّ بهذه الأسئلة، سرت في الطريق المعاكس للمسجد الذي يلقي فيه الرومي خطبته؛ وشيئاً فشيئاً بدأ المكان المحيط بي يتغيّر. وكلما اتجهت شمالاً، صارت تظهر البيوت المهلهلة الآيلة للسقوط، وجدران البساتين المتساقطة، والأطفال الأكثر صخباً وشغباً. وتغيّرت الروائح أيضاً، فأصبحت لاذعة أكثر، مفعمة بروائح التوابل والثوم. وأخيراً، ولجت شارعاً فاحت منه ثلاث روائح: العرق، والعطر، والشهوة. وهنا عرفت أنني وصلت إلى الشطر الفقير من المدينة.

كان هناك بيت متداع في أعلى الشارع الشديد الانحدار، تسند جدرانه أعمدة من الخيزران، وسقفه مغطى بالعشب. وكانت تجلس أمام البيت ثلة من النساء يتجاذبن أطراف الحديث. وعندما رأينني أقترب، نظرن إليّ بأعين فضولية، وبدا أنهن قليلات السمع، وكنّ يجلسن بالقرب من بستان مكسو بورود ملونة بجميع الألوان، وتتضوع منه أروع روائح يمكن تنشقها، وتساءلت ترى من يقوم برعاية هذا البستان؟

لم أنتظر طويلاً حتى عرفت الجواب. فما إن بلغت البستان، حتى فُتح باب المدخل إلى البيت وخرجت منه امرأة بدينة، مزدانة بالجواهر، فارعة الطول. وعندما كانت تغمض عينيها نصف إغماضة، كما فعلت الآن، كانت عيناها تضيعان في طيات لحمها. وكان لها شارب رفيع أسود وسالفان سميكان. ومضت فترة من الوقت قبل أن أدرك أنها رجل وامرأة في آن معاً.

«ماذا تريد؟»، سألتني الخنثى بارتياب. كانت تعابير وجهها تتغيّر باستمرار: ففي لحظة، كان يبدو مثل وجه امرأة، ثمّ يعود المدّ، ليحّل محله وجه رجل.

عرّفتها على نفسي، وسألتها عن اسمها، لكنها تجاهلت سؤالي.

«لا مكان لك هنا»، قالت، ملوّحة بيديها كما لو كانت تنشّ ذبابة عنها.

«لم لا؟».

«ألا ترى أن هذا المكان هو مبغى؟ ألم تقسموا، يا معشر الدراويش، بأن تتحاشوا الرغبات الجنسية؟ ومع أن الناس يعتقدون بأنني ألغ في الإثم هنا، فإني أتصدّق وأوصد أبوابي في شهر رمضان. والآن، أريد أن أنقذك. هيا ابتعد عنا. فهذا أقذر ركن في المدينة».

فقلت معترضاً: «إن القذارة تقبع في الداخل، لا في الخارج. هكذا تقول القاعدة».

«عمَّ تتحدّث؟»، قالت بصوت أجش.

«هذه إحدى القواعد الأربعين»، حاولت أن أوضح: «*إن القذارة الحقيقية تقبع في الداخل، أما القذارة الأخرى فهي تزول بغسلها. ويوجد نوع واحد من القذارة لا يمكن تطهيرها بالماء النقي، وهو لوثة الكراهية والتعصب التي تلوّث الروح. نستطيع أن نطهّر أجسامنا بالزهد والصيام، لكن الحبّ وحده هو الذي يطهّر قلوبنا*».

لكن الخنثى لم تعبأ بما قلت، وقالت: «لقد فقدتم عقولكم يا معشر الدراويش. فلديّ هنا زبائن من جميع الأنواع. لكن درويشاً؟ عندما

تنبت للضفادع لحى! لو تركتك تدخل، لهدم الله هذا المكان على رؤوسنا ولعننا لأننا أغوينا مؤمناً».

لم أتمالك نفسي من الضحك، وقلت: «من أين تأتين بهذه الأفكار السخيفة؟ هل تظنين أن الله أب متقلب المزاج يراقبنا من السماء ويمطر فوق رؤوسنا أحجاراً وضفادع كلما ارتكبنا خطأ؟».

أمسكت صاحبة المبغى طرف شاربها الرفيع وشدّته قليلاً، ورمقتني بنظرة مفعمة بالانزعاج تشي بالخسة.

«لا تقلقي، فأنا لم آت إلى هنا لزيارة مبغاك»، قلت أطمئنها، «بل كنت أستمتع برؤية الورود في حديقتك».

«آه، هكذا إذاً»، وهزّت الخنثى كتفيها باستهجان، «لقد زرعتها فتاة تعمل لديّ تدعى وردة الصحراء».

وأومأت الخنثى إلى فتاة شابّة تجلس أمامنا بين العاهرات. كان لها ذقن ناعمة، رقيقة، وبشرة تشعّ كاللؤلؤ، وعينان لوزيتان غامقتان يغشاهما القلق. كانت رائعة الجمال. عندما نظرت إليها، أحسست بأنها لن تمكث في هذا المكان طويلاً.

أخفضت صوتي ليصبح همساً كي لا يسمعني أحد إلا صاحبة المبغى، وقلت: «إن تلك الفتاة طيبة. ستنطلق ذات يوم في رحلة روحية بحثاً عن الله. إنها ستهجر هذا المكان ولن تعود إليه أبداً. وعندما يحلّ ذلك اليوم، لا تحاولي منعها».

نظرت الخنثى إليّ بدهشة، قبل أن تنفجر قائلة: «ماذا تقول بحقّ الجحيم؟ لا أحد يأمرني ماذا أفعل مع فتياتي! هيا اخرج من هنا. وإلاّ ناديت رأس الواوي».

«من هو ذاك؟»، سألتها.

«صدّقني، لا أظن أنك تريد أن تعرف»، قالت الخنثى، وهي تهزّ إصبعها لتأكيد النقطة التي تريد أن تؤكدها.

جعلني سماع هذا الاسم الغريب أرتعش قليلاً، لكني لم أكترث للأمر، فقلت: «سأغادر الآن، لكني سأعود، ولا تتفاجئي برؤيتي ثانية. فأنا لست واحداً من أولئك الأتقياء الذين يمضون حياتهم كلها وهم جاثون على سجادة الصلاة، بينما يغلقون عيونهم وقلوبهم عن العالم الخارجي، ولا يقرأون القرآن إلا قراءة سطحية. أما أنا فأقرأ القرآن من خلال الأزهار المتفتحة والطيور المهاجرة. إني أقرأ أنفاس القرآن التي تتخلل البشر».

«هل هذا يعني أنك تقرأ الأشخاص؟»، ضحكت صاحبة المبغى بفتور، «ما هذه السخافة؟».

«إن كلّ إنسان عبارة عن كتاب مفتوح، وكلّ واحد منا قرآن متنقّل. إن البحث عن الله متأصل في قلوب الجميع، سواء أكان ولياً أم قديساً أم مومساً. فالحبّ يقبع في داخل كلّ منّا منذ اللحظة التي نولد فيها، وينتظر الفرصة التي يظهر فيها منذ تلك اللحظة. وهذا ما تقوله إحدى القواعد الأربعين: *يقبع الكون كله داخل كلّ إنسان ـ في داخلك. كلّ شيء ترينه حولك، بما في ذلك الأشياء التي قد لا تحبينها، حتى الأشخاص الذين تحتقرينهم أو تمقتينهم، يقبعون في داخلك بدرجات متفاوتة. لذلك، لا تبحثي عن الشيطان خارج نفسك ـ أيضاً. فالشيطان ليس قوة خارقة تهاجمك من الخارج، بل هو صوت عادي ينبعث من داخلك. فإذا تعرّفت على نفسك تماماً، وواجهت بصدق*

وقسوة جانبيك المظلم والمشرق، عندها تبلغين أرقى أشكال الوعي.
وعندما تعرفين نفسك، فإنك ستعرفين الله».

عقدت الخنثى ذراعيها فوق صدرها، وانحنت إلى الأمام ورمقتني بنظرة تشي بالتهديد.

ثم قالت: «درويش يعظ عاهرات! إني أحذّرك، فلن أسمح لك بأن تزعج أحداً هنا بأفكارك السخيفة. من الأفضل لك أن تبتعد عن هذا المبغى! لأنك إن لم تفعل ذلك، فإني أقسم بالله أن «رأس الواوي» سيقطع ذلك اللسان السليط وسآكله بكل متعة».

إيلا

نورثامبتون، ٢٨ أيار (مايو) ٢٠٠٨

استيقظت إيلا حزينة. لا لأنها كانت تبكي أو لأنها لم تكن سعيدة، بل كانت حزينة لأنها لم تكن تشعر بالرغبة في الابتسام وأخذ الأمور بخفة. أحست كأنها وصلت إلى نقطة مهمة لم تكن مستعدة لها. وبينما كانت تعدّ القهوة في المطبخ، أخرجت من الدرج قائمة القرارات التي كانت قد دوّنتها وراحت تقرأها.

عشرة أشياء يجب القيام بها قبل أن تبلغي الأربعين من العمر:

١ ـ نظّمي وقتك جيداً. كوني أفضل تنظيماً، وصمّمي على استغلال وقتك إلى أقصى درجة. اشتري دفتر ملاحظات لتدوين مخططاتك اليومية. (أُنجز)؛

٢ ـ أضيفي فيتامينات ومكمّلات معدنية ومضادات أكسدة إلى غذائك. (أُنجز)؛

٣ ـ اعملي شيئاً لإزالة التجاعيد. جربي منتجات ألفا هيدروكسي، واستعملي كريمات لوريال الجديدة. (أُنجز)؛

٤ ـ غيّري قماش الأثاث، اشتري نباتات جديدة، اجلبي وسادات جديدة. (أُنجز)؛

٥ ـ قيّمي حياتك وقيمك ومعتقداتك. (لم ينجز بالكامل)؛

٦ ـ أزيلي اللحم من قائمة طعامك، ضعي قائمة صحّية كلّ أسبوع، وابدأي بمنح جسمك الاحترام الذي يستحقه. (لم ينجز بالكامل)؛

٧ ـ باشري قراءة أشعار الرومي. (أُنجز)؛

٨ ـ خذي الأطفال إلى مسرحية موسيقية في برودواي. (أنجز)؛

٩ ـ ابدأي بكتابة كتاب الطهو. (لم ينجز)؛

١٠ ـ افتحي قلبك للحبّ.

وقفت إيلا في مكانها، وثبتت عينيها على البند العاشر في قائمتها، غير عارفة أكان عليها أن تضع بجانبه علامة أم لا. حتى إنها لم تعرف ما قصدته حقاً عندما كتبته. بماذا كانت تفكر؟ لا بد أن ذلك كان بتأثير رواية «الكفر الحلو»، همهمت لنفسها. فقد ألفت نفسها أنها تفكّر مؤخراً بالحبّ كثيراً.

* * *

السيد عزيز،

يصادف اليوم عيد ميلادي! أشعر بأنني وصلت إلى نقطة أساسية في حياتي. يقال إن بلوغ الأربعين يشكل لحظة حاسمة وخاصة بالنسبة للمرأة. كما يقال إن الأربعين هي ثلاثون جديدة (وأن الستين هي أربعون جديدة)، لكن بقدر رغبتي في تصديق ذلك، يبدو الأمر بعيد المنال بالنسبة لي. أقصد على من تضحكون؟ فالأربعون هي أربعون! أظن أنني سأحصل الآن على المزيد من كلّ شيء ـ المزيد من

المعرفة، المزيد من الحكمة، وبالطبع المزيد من التجاعيد وابيضاض الشعر.

كانت أعياد الميلاد تدخل السعادة على قلبي باستمرار، لكنني استيقظت هذا الصباح وأنا أشعر بثقل في صدري، وأطرح أسئلة كبيرة جداً على امرأة لم تحتس قهوتها الصباحية بعد. ورحت أتساءل هل الطريقة التي عشتها في حياتي هي الطريقة التي أريد أن أستمرّ بها؟

ثم اعتراني شعور بالخوف. ماذا لو أسفرت كلمتا نعم ولا عن نتائج سيئة؟ لذلك وجدت جواباً آخر وهو: ربما. أمنياتي الحارة،

إيلا

ملاحظة: آسفة لأنني لم أتمكن من كتابة رسالة أكثر تفاؤلاً. لا أعرف لماذا أشعر بالاكتئاب اليوم. لا يمكنني أن أهتدي إلى أي سبب. (أعني غير سبب بلوغي الأربعين. أظن أن هذا هو ما يطلقون عليه أزمة منتصف العمر).

* * *

العزيزة إيلا،

عيد ميلاد سعيد! إن الأربعين هي أجمل عمر للرجال والنساء على حد سواء. هل تعرفين أن الأربعين في الفكر الصوفي ترمز إلى الصعود من مستوى إلى مستوى أعلى، وإلى يقظة روحية؟ فعندما نحزن نحزن لمدة أربعين يوماً. وعندما يولد طفل فهو يستغرق أربعين يوماً حتى يتهيأ لبدء الحياة على الأرض. وعندما نعشق يجب أن ننتظر أربعين يوماً حتى نتأكد من حقيقة مشاعرنا.

لقد استمر طوفان نوح أربعين يوماً، وفي حين دمّر الماء الحياة، فقد جرف أيضاً جميع الشوائب، ومكّن البشر من بدء حياة جديدة. وفي الصوفية الإسلامية أربعون درجة تفصل بين الانسان والله. بالإضافة إلى ذلك، هناك أربع مراحل أساسية من الوعي في كلّ منها عشر درجات، فيصبح مجموعها أربعين. وقد خرج المسيح إلى القفر أربعين يوماً وليلة. وكان محمد في الأربعين من عمره عندما نزل عليه الوحي. وتأمّل بوذا تحت شجرة زيزفون أربعين يوماً. بالإضافة إلى قواعد شمس الأربعين.

إنك تتلقين مهمّة جديدة في الأربعين، حياة جديدة! لقد بلغت الرقم الميمون وأكثر الأرقام التي تبشر بالخير. مبروك! لا تقلقي لأنك كبرت سنة. فلا يمكن لقوة التجاعيد ولا الشعر الشائب أن تتحدى قوة الأربعين!

أمنياتي الحارة،

عزيز

البغي وردة الصحراء

قونية، ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

إن بيوت البغاء التي تضم نساء مثلي موجودة منذ بداية الزمن. إلا أن هناك شيئاً يدهشني وهو لماذا يقول البعض إنهم يكرهون رؤية البغايا، وفي الوقت نفسه يصعّبون الحياة على البغي التي تريد أن تتوب وتبدأ حياة جديدة؟ وكأنهم يقولون لنا إنهم يرثون لحالنا لأننا سقطنا إلى الدرك الأسفل، لكن يجب علينا أن نبقى في المكان الذي سقطنا فيه إلى الأبد. لا أستطيع أن أفهم سبب ذلك؛ لكن كلّ ما أعرفه هو أن بعض الناس يتغذّون على تعاسات الآخرين، ولا يحبّون رؤية أن ينخفض عدد البؤساء على وجه الأرض. لكنهم مهما قالوا أو فعلوا، فإني سأخرج من هذا المكان ذات يوم.

استيقظت هذا الصباح وقد غمرتني رغبة جامحة في الاستماع إلى خطبة الرومي العظيم. ولو أنني أخبرت صاحبة المبغى بالحقيقة وطلبت منها أن تسمح لي بالذهاب، لسخرت مني، وقالت: «منذ متى تؤمُّ العاهرات المسجد؟» ولانفجرت في الضحك، واحمرَّ وجهها المستدير وأصبح قرمزي اللون.

لذلك كذبت عليها. فبعد أن غادر ذلك الدرويش الأمرد، بدت مشغولة البال، فشعرت بأن الوقت ملائم الآن لأذهب وأكلّمها، لأنه لا يمكن التحدّث إليها إلا عندما تكون مشغولة البال. قلت لها إنني أريد أن أذهب إلى السوق لشراء بعض الحاجيات. صدقتني. صدقتني بعد تسع سنوات من العمل عندها مثل كلبة.

فقالت: «بشرط واحد فقط، وهو أن يرافقك سمسم».

لا مشكلة في ذلك. فقد كنت أحبّ سمسم، الرجل البدين اللحيم الذي له عقل طفل، والذي كان صادقاً وموضع ثقة إلى درجة السذاجة. كيف استطاع العيش في هذا العالم القاسي؟ كان لغزاً بالنسبة لي. لم يكن أحد يعرف اسمه الحقيقي، وربما لم يكن هو نفسه يعرفه. وقد أطلقنا عليه هذا الاسم لأنه كان مولعاً بتناول الحلاوة بالسمسم. وعندما كانت إحدى البغايا تخرج من المبغى، كان يرافقها مثل ظلّ صامت. كان أفضل حارس أرغب في أن يرافقني.

سلكنا الدرب المترب الذي يخترق البساتين، وعندما وصلنا إلى أول تقاطع، طلبت من سمسم أن ينتظرني، واختفيت وراء أجمة خبأت فيها حقيبة مليئة بثياب الرجال.

كان ارتداء ثياب رجالية أصعب مما كنت أظن. فقد لففت أوشحة طويلة حول نهديّ حتى يبدو صدري مسطحاً، ثمّ ارتديت سروالاً عريضاً، وصدرية قطنية، وعباءة حمراء غامقة طويلة، وعمامة. وأخيراً، غطّيت نصف وجهي بوشاح، لكي أبدو مثل رحّالة عربي.

عندما عدت إلى سمسم، أجفل وبدت على وجهه علائم الحيرة.

«هيا بنا»، قلت أحثّه، وعندما لم يتزحزح من مكانه، كشفت عن وجهي وقلت له: «عزيزي، ألم تعرفني؟».

«وردة الصحراء، هل هذا أنتِ؟»، صاح سمسم، ووضع يده على فمه مثل طفل خائف، «لماذا لبست هذه الثياب؟».

«هل تستطيع أن تكتم سرّاً؟».

فهزّ سمسم رأسه، واتسعت عيناه.

فهمست: «هيا لنذهب إلى المسجد، لكن لا تخبر صاحبة المبغى».

ارتعشت شفة سمسم السفلى، وقال: «لا، لا. إننا ذاهبان إلى السوق».

«نعم يا عزيزي. لكننا سنذهب أولاً إلى المسجد لنستمع إلى خطبة الرومي العظيم».

اعترت سمسم رعدة، كما كنت أتوقع، بسبب تغيير الخطة. قلت له بتوسل: «أرجوك، إن هذا أمر مهم بالنسبة لي؛ فإذا وافقت ووعدتني بألاّ تخبر أحداً بالأمر، فسأشتري لك قطعة كبيرة من الحلاوة». طقطق سمسم بلسانه ببهجة، وكأن الكلمة وحدها خلّفت مذاقاً حلواً في فمه.

وبانتظار قطعة الحلوى، انطلقنا صوب المسجد الذي سيلقي فيه الرومي خطبته.

* * *

كنت قد ولدت في قرية صغيرة بالقرب من نيقية، وكانت أمّي تقول لي دائماً: «لقد ولدتِ في المكان الملائم، لكني أخشى أن تكوني قد ولدتِ تحت نجم سيئ». كان الزمن آنذاك متقلّباً وسيئاً. وسنة بعد أخرى، تغيّر كلّ شيء. ففي البداية، انتشرت شائعات تقول إن الصليبيين سيعودون، وسمعنا قصصاً فظيعة عن المجازر الوحشية التي

ارتكبوها في القسطنطينية، حيث سلبوا القصور ونهبوها، وحطموا الأيقونات في الكنائس. ثم سمعنا عن هجمات السلاجقة. وقبل أن ينسى الناس الحكايات المرعبة عن الجرائم التي ارتكبها جيش السلاجقة، جاء المغول الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة. ومع أن اسم العدو ووجهه يتغيّران، فقد ظل الخوف من الدمار على يد غزاة خارجيين ثابتاً كالثلج فوق قمة جبل إدا.

كان والدايَ خبازين وكانا مسيحيين مؤمنين. وكانت رائحة الخبز المنبعث من الفرن إحدى الذكريات التي لا تزال تلازمني حتى الآن. لم نكن أسرة غنية. وكنت أعرف ذلك عندما كنت طفلة، لكنّنا لم نكن مدقعي الفقر. وكنت أرى النظرات المحدقة في عيون الفقراء الذين يأتون إلى المخبز ويستجدون للحصول على الفتات. وكنت أشكر الله قبل أن آوي إلى الفراش كلّ ليلة، لأنه لم يرسلني إلى السرير وأنا جائعة. كنت أشعر بأنني أكلّم صديقاً. لأن الله كان صديقي آنذاك.

عندما كنت في السابعة من عمري، حملت أمّي. وأظن أنها أجهضت عدّة مرات قبل أن تحمل بي، لكني لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك. كنت آنذاك فتاة بريئة جداً، فإذا سألني أحدهم كيف يصنع الأطفال، كنت أقول إن الله يصنعهم من عجينة حلوة طرية.

لكن لا بد أن الجنين الذي عجنه الله لأمّي كان ضخماً، لأن بطنها سرعان ما انتفخت وكبرت. وأصبحت أمّي ضخمة، فلم تعد تستطيع الحراك. قالت القابلة إنها تعاني من استسقاء، لكن ذلك لم يكن يبدو أمراً سيئاً بالنسبة لي.

لكن الشيء الذي لم تكن تعرفه أمّي ولا القابلة، أنه لم يكن في بطنها طفل واحد، بل ثلاثة أطفال. وكانوا جميعاً صبياناً. وبدأ إخوتي عراكاً داخل رحم أمّي؛ فقد خنق أحدهم شقيقه بحبله السرّي، وكما لو كان يريد الانتقام، سدّ الرضيع الميت المنفذ، فمنع الطفلين الآخرين من الخروج. وظلت أمّي في المخاض طوال أربعة أيام. وكنا نسمع صياحها ليلاً ونهاراً، حتى لم نكن نسمع شيئاً سوى صياحها.

وبذلت القابلة كلّ ما بوسعها لإنقاذ حياة إخوتي، عندما لم تتمكن من إنقاذ أمّي. فأخذت مقصاً، وشقت بطن أمّي، وفي النهاية، لم ينج إلا طفل واحد. هكذا ولد أخي، الذي لم يغفر له أبي، ولم يحضر مراسم عماده.

بعد أن ماتت أمّي، أصبح أبي دائم التجهم والعبوس، ولم تعد حياتنا كما كانت في الماضي؛ فقد تدهورت الأمور بسرعة كبيرة في المخبز، وفقدنا زبائننا. وعندما بدأت أخشى الفقر، وأن أضطر إلى التسوّل ذات يوم، بدأت أخبئ لفائف الخبز تحت سريري، حيث كانت تجفّ. لكن أخي هو الذي عانى أشد المعاناة. فعلى الأقل، كنت قد أحطت بالمحبة والرعاية في الماضي، أما هو فلم يحظ بشيء منهما. وكنت أتألم كثيراً عندما أرى أبي يسيء معاملته، لكن على الرغم من ذلك، كان هناك جزء مني يجعلني أشعر بالارتياح، بل حتى بالامتنان، لأني لم أكن هدفاً لغضب أبي. وكنت أرجو أن أتمكن من حماية أخي؛ ولو كانت الأمور غير ذلك، لما أصبحت أعمل اليوم في مبغى في قونية. يا لغرابة الحياة!

وبعد سنة من وفاة أمي تزوّج أبي. وأصبح الفرق الوحيد في حياة أخي هو انضمام زوجة أبي إلى أبي في إساءة معاملته. فبدأ يهرب من البيت، ليعود وقد اكتسب أسوأ العادات، ويصاحب رفاق السوء. وفي أحد الأيام، أوسعه أبي ضرباً حتى كاد أن يقتله. ثمّ تغيّر الفتى، وظهرت في عينيه نظرة قاسية باردة جديدة. كنت أعرف أنه كان يفكّر بشيء ما، لكني لم أكن أعرف ما هي الخطة الرهيبة التي تدور في رأسه. لشدّ ما كنت أتمنّى أن أعرف. لشدّ ما كنت أتمنّى أن أمنع وقوع المأساة.

وذات صباح يوم ربيعي، وجد أبي وزوجته ميتين، مقتولين بسمّ الجرذان. وعندما شاع الخبر، ارتاب الجميع في أن القاتل هو أخي. وعندما بدأ الحرّاس يبحثون عنه، هرب مرعوباً، ولم أره منذ ذلك الحين. وهكذا أضحيت وحيدة في هذا العالم، ولم أعد أحتمل البقاء في البيت حيث كنت لا أزال أشم رائحة أمّي، ولم يعد بإمكاني العمل في المخبز حيث كانت ذكريات مزعجة تحوم في هوائه، فقرّرت أن أتوجّه إلى القسطنطينية لأعيش مع عمّة عانس عجوز أصبحت الآن القريبة الوحيدة لي. كنت آنذاك في الثالثة عشرة من عمري.

رحلت في عربة إلى القسطنطينية. كنت أصغر المسافرين في العربة، والأنثى الوحيدة المسافرة وحدها. وبعد مضي بضع ساعات في الطريق، اعترضت طريقنا عصابة من اللصوص، فسلبوا كلّ شيء: الحقائب، والملابس، والأحذية، والأحزمة، والمجوهرات، حتى النقانق التي كانت بحوزة السائق. ولما كنت لا أملك شيئاً أقدمه لهم، وقفت جانباً بهدوء، وكنت واثقة من أنهم لن يلحقوا بي أي أذى. لكن

عندما أنهوا عملهم وهمّوا بالمغادرة، التفت زعيمهم إليّ وسألني، «هل أنت عذراء، أيتها الجميلة؟».

احمرّ وجهي خجلاً، ولم أجب عن هذا السؤال غير المحتشم. لكني لم أكن أعرف أن خجلي كان الرد الذي كان ينتظره.

«هيا بنا»، صاح زعيم العصابة، وأضاف: «خذوا الخيول والفتاة».

عندما رحت أقاومهم وأنا أجهش في البكاء، لم يحاول أحد من المسافرين مساعدتي. وقادني اللصوص إلى غابة كثيفة، حيث فوجئت بأنهم أقاموا فيها قرية كاملة، فيها نساء وأطفال، وفيها بط وماعز وخنازير. كانت تبدو مثل قرية شاعرية، سوى أنها كانت ملاذاً للمجرمين.

وسرعان ما عرفت لماذا سألني زعيم العصابة عن عذريتي. فقد كان زعيم القرية مريضاً مصاباً بحمّى عصبية. وكان طريح الفراش منذ فترة طويلة، وكانت تنتشر في جسده بقع حمراء. وكان قد جرّب أدوية كثيرة لكن من دون جدوى. وكان قد أقنعه أحدهم بأنه إذا نام مع عذراء، فإن مرضه سينتقل إليها ويشفى.

هناك أشياء في حياتي لا أريد أن أتذكّرها، من بينها الفترة التي أمضيتها في الغابة. فحتى اليوم، عندما أتذكر الغابة، لا أتذكّر منها إلا أشجار الصنوبر. فقد كنت أفضّل أن أجلس تحت تلك الأشجار مع عدد من نساء القرية، اللاتي كان معظمهن زوجات أو بنات اللصوص. وكانت توجد كذلك عاهرات أتين من تلقاء أنفسهن، لكني لم أفهم لماذا لم يهربن، في حين صمّمت أنا على الهرب.

كانت تعبر الغابة عربات عدة، معظم أصحابها من النبلاء. وكان

عدم تعرضها للسرقة يشكل لغزاً بالنسبة لي، حتى علمت أنّ بعض الحوذيين يرشون اللصوص قبل عبورهم الغابة ليسافروا بأمان. وعندما فهمت كيف تسير الأمور، اتخذت ترتيباتي الخاصة. فبعد أن أوقفت عربة متوجّهة إلى المدينة الكبيرة، توسلت إلى السائق أن يأخذني معه، فطلب مني مبلغاً كبيراً من المال، مع علمه بأني لا أملك شيئاً؛ فدفعت له بالطريقة الوحيدة التي أعرفها.

بعد انقضاء فترة طويلة على وصولي إلى القسطنطينية، عرفت السبب الذي جعل العاهرات لا يهربن من القرية في الغابة. لأن المدينة كانت أسوأ حالاً. فهي مكان لا يعرف الرحمة، ولم أبحث عن عمتي العجوز، لأنني أدركت أن سيدة محترمة مثلها لن تقبل بالعيش مع ساقطة مثلي. وهكذا أصبحت وحيدة، ولم يمض وقت طويل على مكوثي في المدينة حتى تحطّمت معنوياتي وأُتلف جسدي. وفجأة وجدت نفسي في عالم آخر تماماً ـ عالم مفعم بالحقد، والاغتصاب، والوحشية، والمرض. وأجهضت مرات متعاقبة حتى تضرر جسدي وضعفت، وتوقّفت دورتي الشهرية ولم يعد بإمكاني الحمل.

رأيت أشياء في تلك الشوارع لا أستطيع وصفها بمجرد كلمات. فبعد أن غادرت المدينة، سافرت مع جنود ومهرجين وغجر، وكنت ألبي احتياجاتهم جميعاً. ثمّ وجدني رجل يدعى «رأس الواوي» وأحضرني إلى هذا المبغى في قونية. ولم يكن يهمّ صاحبة المبغى معرفة من أين أتيت طالما أنني كنت في صحة جيدة. وسعدت كثيراً عندما عرفت أنني لا أنجب، لأنه لن تعترضني أيّ مشاكل في عملي.

وبسبب عقمي، سمتني «صحراء»، ولكي تضيف رونقاً على هذا الاسم، أضافت كلمة «وردة»، التي أعجبتني لأنني أعشق الورود.

إنني أعتبر الإيمان بهذه الطريقة، مثل بستان فيه ورود مخفية كنت أطوف فيه ذات يوم وأستنشق الروائح العطرة التي تعبق منه، لكن لم يعد بإمكاني أن أدخله. أريد أن يعود الله صديقاً لي كما كان ذات مرة، وبهذا الشوق أدور حول تلك الحديقة، أبحث عن مدخل، لعلي أجد بوابة تمكنني من الدخول.

* * *

عندما وصلت إلى المسجد برفقة سمسم، لم أصدّق عينيّ. فقد جلس رجال من مختلف الأعمار والحرف في زوايا المسجد، حتى في المكان المخصص للنساء في الخلف. كنت على وشك أن أستسلم وأغادر عندما لاحظت متسولاً يترك مكانه ويخرج. شكرت حسن طالعي، وشققت طريقي بين الجموع إلى المكان الذي تركه، وطلبت من سمسم أن ينتظرني في الخارج.

هكذا وجدت نفسي أنصت إلى الرومي العظيم في مسجد مليء بالرجال. حتى إنني لم أشأ أن أفكر بما يمكن أن يحدث لو اكتشفوا وجود امرأة في وسطهم، ناهيك عن أنها عاهرة. وبعد أن طردت جميع الأفكار الكئيبة من رأسي، وجّهت كل اهتمامي إلى الخطبة.

قال الرومي: «لقد خلق الله المعاناة حتى تظهر السعادة من خلال نقيضها. فالأشياء تظهر من خلال أضدادها. وبما أنه لا يوجد نقيض لله، فإنه يظل مخفياً».

بينما كان الخطيب يتحدث، ارتفع صوته وتضخم مثل جدول جبلي

تغذيه الثلوج الذائبة: «انظروا إلى حقارة الأرض ومجد السماء. اعلموا أن جميع الأشياء التي تحدث في العالم هي هكذا: الفيضانات والجفاف والسلام والحرب. فمهما حدث، لا تنسوا، أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً، سواء أكان الغضب أم الحلم أو الصدق أم الدهاء».

بجلوسي هناك، بدأت أفهم أن لكل شيء هدفاً في الحياة. حبل أمّي والاقتتال بين أخوتي في رحمها، والوحدة التي عاشها أخي، بل حتى جريمة قتل أبي وزوجته، والأيام المرعبة التي عشتها في الغابة، وكلّ الأشياء المتوحشة التي تعرضت لها في شوارع القسطنطينية، التي ساهم كلّ منها، بطريقته الخاصة، في قصتي. فوراء كلّ هذه المشاق والمصاعب، يقبع مخطط أكبر. لم أكن أفهمه بوضوح، لكني كنت أستطيع أن أشعر به بكلّ جوارحي. وبعد الاستماع إلى الرومي في مسجد مكتظ بالناس في عصر ذلك اليوم، أحسست بسحابة من السكينة تهبط عليّ، وببهجة وراحة مثل رؤية أمّي وهي تخبز الخبز.

حسن الشحاذ

قونية، ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

جلست تحت شجرة القيقب وأنا أتميّز من الغيظ. غضبي من الرومي على خطبته المنمقة عن الألم والمعاناة، وهو أمر يبدو أنه لا يعرف عنه الشيء الكثير. اقترب ظلّ المئذنة عبر الشارع. كنت نصف نائم، نصف مراقب لعابري السبيل، وعلى وشك أن أغفو، عندما رأيت درويشاً لم يسبق لي أن صادفته من قبل. كان يرتدي ثوباً أسود بالياً، ويحمل بيده عصا كبيرة، وكان أمرد، وكان يضع قرطاً صغيراً فضّياً في إحدى أذنيه، وبدا مختلفاً إلى درجة أنني لم أتمكن من تركيز بصري عليه.

وبينما كانت عيناه تتطلعان يمنة ويسرة، سرعان ما رآني. وبدلاً من تجاهل وجودي كما يفعل الناس عادة عندما يرونني في الطريق لأول مرة، وضع يده اليمنى على قلبه وحيّاني كما لو كنا صديقين قديمين. دهشت ورحت أتطلع حولي لأتثبّت من أنه لم يكن يحيّي شخصاً آخر. لكن لم يكن هناك أحد سواي وشجرة القيقب. بذهول وحيرة، وضعت يدي على قلبي ورددت له التحية.

توجّه الدرويش بخطاً وئيدة نحوي. أطرقت عينيّ، متوقعاً أن يلقي في طاستي قطعة نحاسية، أو يعطيني قطعة خبز، لكنه لم يفعل ذلك، جثا على ركبتيه فأصبح على مستوى عينيّ.

قال: «السلام عليك أيها الشحاذ».

فرددت قائلاً: «وعليك السلام أيها الدرويش»، وبدا صوتي أجش غريباً عليّ. مضى زمن طويل لم أتحدث فيه إلى أي أحد، حتى كدت أنسى كيف كانت رنّة صوتي.

عرّف على نفسه وقال إن اسمه شمس التبريزي، وسألني عن اسمي.

ضحكت وقلت: «وما حاجة رجل مثلي إلى اسم؟».

فقال معترضاً: «لكلّ شخص اسم. لله عدد لا يحصى من الأسماء، ولا نعرف منها إلا تسعة وتسعين اسماً. فإذا كان لله أسماء، فكيف يمكن لإنسان وهو صورة الله أن يجول من دون اسم؟».

لم أعرف كيف أردّ عليه، بل لم أحاول ذلك، ثم قلت: «كانت لديّ زوجة وأمّ ذات يوم. كانتا تطلقان عليّ اسم حسن».

«إذاً اسمك حسن»، هزّ الدرويش رأسه، ثمّ قدّم إليّ مرآة فضّية، وقال: «احتفظ بها. لقد قدّمها لي رجل طيب في بغداد، لكنك تحتاجها أكثر مما أحتاجها أنا. إنها ستذكّرك بأنك تحمل الله في داخلك».

قبل أن تتاح لي فرصة الردّ عليه، سمعنا هرجاً ومرجاً في الخلف. كان أول شيء خطر في بالي هو أنهم قبضوا على نشّال في المسجد، لكن عندما تعالت الأصوات وازدادت عنفاً وصخباً، قلت لا بد أن

الأمر أكبر من ذلك، فالقبض على نشّال لا يحدث عادة مثل هذه الجلبة.

وسرعان ما تبيّنا الأمر. فقد اكتشفوا وجود امرأة، عاهرة معروفة، في المسجد متنكرة في زيّ رجل. وكان هناك عدد من الرجال يدفعونها خارج المسجد، ويهتفون: «اجلدوا هذه المرأة المخادعة بالسوط! اجلدوا العاهرة بالسوط».

في هذه الأثناء، وصل الرعاع الغاضبون إلى الشارع. رأيت الشابّة وهي ترتدي زي رجل. كان وجهها شاحباً كالموت، وكانت عيناها اللوزيتان مذعورتين. كنت قد شاهدت أعمال قتل كثيرة من قبل، ولم أعد أدهش لرؤية كيف يتغيّر بعض الناس عندما ينضمون إلى الغوغاء. إذ سرعان ما يتحوّل الرجال العاديون الذين لا يوجد لديهم ماض عنيف - أصحاب حرف أو باعة أو باعة متجولون - إلى أشخاص عدوانيين، حتى إنهم يصبحون قتلة عندما يجتمعون. فقد كانت أعمال القتل شائعة، وتنتهي بعرض الجثث في الشوارع لردع الآخرين.

«يا لها من امرأة مسكينة»، دمدمت لشمس التبريزي، لكني عندما التفتّ إليه لأسمع ردّه، لم أجده. بل رأيت الدرويش يندفع بقوة نحو الغوغاء، مثل سهم مشتعل قُذف به إلى السماء. وثبت واقفاً وهرعت للحاق به.

عندما وصل إلى بداية الموكب، رفع شمس عصاه مثل راية، وصاح بأعلى صوته: «توقفوا، أيها الناس! توقفوا».

ارتبكوا وحلّ عليهم صمت مطبق، وراح الرجال يحدّقون فيه بدهشة.

«يجب أن تخجلوا من أنفسكم!»، صاح شمس التبريزي، وراح يضرب الأرض بعصاه: «ثلاثون رجلاً يهاجمون امرأة واحدة. هل هذا عدل؟».

«إنها لا تستحقّ العدل»، قال رجل ضخم له وجه مربع، وعينان خمولتان، يبدو أنه نصّب نفسه زعيماً على هذه المجموعة التي تشكلت تلقائياً. عرفته في الحال. كان حارساً يدعى بيبرس، وهو رجل يعرفه جميع الشحاذين في المدينة لوحشيّته وجشعه.

«وجدنا هذه المرأة متنكرة في ثياب رجل بعد أن انسلّت إلى المسجد لتخدع المسلمين المؤمنين»، قال بيبرس.

«هل تقصد أنكم تريدون معاقبة شخص لأنه ارتاد المسجد؟ هل هذه جريمة؟»، سأل شمس التبريزي، بصوت يقطر احتقاراً.

أحدث هذا السؤال هدوءاً موقتاً، فقد بدا أن أحداً لم يفكّر بهذا الأمر.

«إنها عاهرة!»، هتف رجل آخر. كان يتقد غضباً وأصبح وجهه قرمزياً داكناً: «لا مكان لها في مسجد طاهر».

بدا ذلك كافياً لإلهاب مشاعر المجموعة ثانية. إذ بدأ أشخاص آخرون يرددون: «إنها عاهرة! زانية! لنقتل العاهرة».

قفز فتى شاب إلى الأمام وأمسك عمامة المرأة، وشدّها بقوة. انحلّت العمامة، وتهدّل شعر المرأة الطويل الأشقر، اللامع مثل نبات عبّاد الشمس، في مويجات جميلة. حبسنا أنفاسنا جميعاً، مشدوهين من شدة جمال المرأة وشبابها.

لا بد أن شمس أدرك وجود هذه المشاعر المتباينة، لأنه انتقدهم

بحدّة: «يجب أن تقرروا يا إخوتي. هل تحتقرون هذه المرأة حقاً، أم أنكم تشتهونها؟».

ثم أمسك الدرويش بيد البغي وشدّها نحوه، بعيداً عن الفتى الشاب والغوغاء. اختبأت وراءه كما تختبئ فتاة صغيرة وراء ثوب أمّها.

«إنك ترتكب خطأً فادحاً»، قال زعيم الجماعة، رافعاً عقيرته فوق همهمة الحشد: «إنك غريب في هذه البلدة ولا تعرف عاداتنا فلا تحشر نفسك في هذا الأمر».

ثم تدخل شخص آخر وقال: «من أيّ نوع من الدراويش أنت؟ ألا يوجد لديك شيء أفضل من الدفاع عن عاهرة؟».

صمت شمس التبريزي للحظة، وكأنه يمعن التفكير في هذه الأسئلة. لم تظهر عليه أي علامة من علامات الغضب، وظل محافظاً على هدوئه، ثمّ قال: «لكن بربكم كيف لاحظتم وجودها؟ فعلى الرغم من أنكم تؤمّون المسجد، فإنكم تولون انتباهكم لمن حولكم أكثر مما تولونه لله؟ فلو كنتم مؤمنين حقاً كما تدّعون، لما لاحظتم وجود هذه المرأة حتى لو كانت عارية. هيا، عودوا إلى الخطبة، واعملوا شيئاً أفضل هذه المرة».

حلّ صمت أخرق على الشارع برمته، وتناثرت أوراق الأشجار على طول الرصيف، وللحظة كانت هي الأشياء الوحيدة التي تتحرّك.

«هيّا، أيها الناس! هيّا عودوا لسماع الخطبة»، قال شمس التبريزي، ملوّحاً بعصاه، وراح يهشّ الرجال كالذباب.

لم يستديروا جميعهم وينصرفوا، لكنهم رجعوا بضع خطوات، مترنحين، لا يعرفون ماذا سيفعلون بعد ذلك. وكان عدد قليل منهم

ينظر نحو المسجد كأنهم يترددون في العودة إليه، وهنا استجمعت البغي شجاعتها لتخرج من وراء الدرويش، وبسرعة أرنب، ولّت الأدبار، وراح شعرها الطويل يتطاير في جميع الاتجاهات وهي تجري نحو أقرب شارع فرعي.

حاول رجلان مطاردتها، لكن شمس التبريزي اعترض طريقهما، وألقى بعصاه تحت قدميهما فتعثرا وسقطا. وضحك عدد من عابري السبيل عندما رؤوا ذلك، كما ضحكت أنا.

بحرج وذهول، نهض الرجلان ثانية، لكن البغي كانت قد اختفت، وسار الدرويش مبتعداً، بعد أن أنجز مهمته هنا.

سليمان السكران

قونية، ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

قبل حدوث تلك الجلبة، كنت أغفو مسنداً ظهري إلى حائط الحانة، لكن الجلبة المنبعثة في الخارج، جعلتني أكاد أخرج من جلدي.

«ما الذي يجري هنا؟»، صحت عندما فتحت عيني، «هل هاجمنا المغول؟».

انطلقت موجة من الضحك. التفتُ فوجدت عدداً من الزبائن يسخرون مني. يا لهم من لقطاء قذرين.

«لا تقلق، أيها السكران العجوز»، صاح خريستوس، صاحب الحانة، «لا يوجد مغول يطاردونك. بل إن الرومي يمرّ بموكبه محاطاً بحشد من المعجبين والمريدين».

توجهت إلى النافذة ونظرت إلى الخارج. رأيت موكباً من المريدين والمعجبين المتحمّسين يهتفون: «الله أكبر، الله أكبر»، يتوسطهم الرومي بقامته المنتصبة، ممتطياً حصاناً أبيض، ووجهه يشعّ قوّة وثقة. فتحت النافذة، ومددت رأسي، ورحت أتفرج عليهم. اقترب الموكب الذي كان يتحرك ببطء شديد. كان عدد من الرجال في الموكب قريبين

مني كثيراً إلى درجة أنه كان بإمكاني أن ألمس بضعة رؤوس بسهولة. وفجأة خطرت لي فكرة رائعة وهي أن أختطف بعض العمائم عن رؤوس بعضهم.

أمسكت محكّة الظهر الخشبية التي تخص خريستوس. فتحت النافذة بيد، وأمسكت محكّة الظهر باليد الأخرى، وانحنيت إلى الأمام، وتمكنت من الوصول إلى عمامة أحد الرجال. كنت على وشك أن أسحب العمامة عندما رفع رجل آخر بصره إلى الأعلى بالصدفة، ورآني.

«السلام عليكم»، حيّيته، بابتسامة عريضة.

«مسلم في حانة! عار عليك»، زأر الرجل، «ألا تعرف أن الخمر رجس من عمل الشيطان؟».

فتحت فمي لأجيب، لكن قبل أن ينبعث مني أي صوت، سمعت صوت أزيز حاد يمرّ بجانب رأسي. برعب شديد عرفت أنها قطعة حجر. ولو لم أخفض رأسي في آخر لحظة، لتهشمت جمجمتي. فقد مرقت من النافذة المشرعة، وسقطت ورائي على طاولة يجلس إليها تاجر فارسي. فأمسكها التاجر الذي كان في حالة سكر شديدة، غير مدرك لما يجري حوله، وراح يتفحّصها كما لو كانت رسالة غامضة نزلت من السماء.

«سليمان، أغلق تلك النافذة وعد إلى طاولتك»، صاح خريستوس مزمجراً، بصوت أجش مفعم بالقلق.

«هل رأيت ما حدث؟»، قلت، وعدت متعثراً نحو منضدتي، «لقد قذفني أحدهم بحجر. كان من الممكن أن يقتلني».

رفع خريستوس حاجبيه، وقال: «أنا آسف، لكن ماذا كنت تتوقّع؟ ألا تعرف أن هناك أناساً لا يريدون رؤية مسلم في حانة؟ وها أنت تكشف عن نفسك، ورائحة الخمر تفوح منك، وأنفك متوهج مثل فانوس أحمر».

«وما الضير في ذلك؟»، تأتأتُ قائلاً: «ألست إنساناً؟».

ربّت خريستوس على كتفي وكأنه يقول، حسناً، حسناً.

فقلت: «لهذا السبب أكره الدين. إذ يعتقد المتدينون أن الله واقف إلى جانبهم ويظنون أنهم يتفوقون على الآخرين».

لم يحر خريستوس جواباً. فقد كان رجلاً متديناً، لكنه كان أيضاً صاحب حانة ماهراً يعرف كيف يهدئ من روع زبون غاضب. أحضر لي دورقاً آخر من النبيذ الأحمر، وراح ينظر إلي وأنا أجرعه. وفي الخارج، عصفت ريح شديدة، فصفقت النوافذ، وبعثرت أوراق الأشجار الجافة ذات اليمين وذات الشمال. لبثنا واقفين لحظة، ورحنا ننصت بعناية، كما لو كان هناك لحن يجب أن نسمعه.

قلت: «لا أفهم لماذا حرّم الله الخمر في هذه الدنيا، ووعد بها في الجنة. فإذا كانت سيئة إلى هذه الدرجة كما يدّعون، فلماذا تقدم لهم في الجنة؟».

«أسئلة، أسئلة...»، همهم خريستوس ورفع يديه، «إنك تنضح بالأسئلة دائماً. هل يجب عليك أن تسأل عن كلّ شيء؟».

«طبعاً. فلماذا مُنحنا العقل؟».

«سليمان، إني أعرفك منذ فترة طويلة. وأنت لست زبوناً عندي فحسب. إنك صديقي، وأنا قلق عليك».

«سأكون على ما يرام»، قلت، لكن خريستوس قاطعني، وقال:

«إنك رجل طيب، لكن لسانك حادّ كالخنجر، وهذا ما يثير قلقي. فهناك أناس من جميع الأنواع في قونية. وليس سراً أن بعضهم لا يحترمون مسلماً مدمناً على الشراب. يجب أن تتعلّم كيف تتوخى الحذر بين الناس. إقض أمورك سراً، وحاذر من كلّ كلمة تقولها».

ابتسمت ابتسامة عريضة، وقلت: «هل يمكننا أن نتوّج حديثنا هذا بقصيدة للخيّام؟».

أطلق خريستوس تنهيدة، لكن التاجر الفارسي الذي سمعني صاح مبتهجاً، «نعم، نريد أن نسمع قصيدة للخيّام».

وانضم إلينا زبائن آخرون، وصفقوا بقوة. بدافع من الحماسة والاستفزاز، قفزت إلى الطاولة ورحت أقرأ:

«هل تظنن أن الله خلق الكرمة،
ثمّ حرّمها وجعل شرابها إثما؟».

صاح التاجر الفارسي، «طبعاً لا! لا معنى لهذا».

«فاشكر الذي سخّرها لنا هكذا،
والذي لا بد أنه يحبّ سماع صلصلة الأقداح!».

إذا كان من شيء تعلمته خلال هذه السنوات من الشراب، فهو أن الناس يختلفون في أساليب شرابهم. فقد كنت أعرف أشخاصاً يجرعون دوارق من النبيذ كلّ ليلة، فيتحولون إلى أشخاص مرحين، يغنّون، ثم يغطون في النوم؛ في حين يستحيل آخرون إلى وحوش

على الرغم من أنهم لا يحتسون سوى قطرات قليلة. فإذا كان الشراب نفسه يجعل البعض مرحين ومنتشين، ويجعل آخرين أشراراً وعدوانيين، أفلا يجب أن نلوم الشارب، لا الشراب نفسه؟

«اشرب! لأنك لا تعرف من أين أتيت، ولماذا أتيت!
اشرب! لأنك لا تعرف لماذا تذهب، وإلى أين».

انطلقت عاصفة من التصفيق، حتى إن خريستوس شارك في التصفيق. ففي الحي اليهودي في قونية، وفي حانة يملكها رجل مسيحي، رفعنا نحن، تلك المجموعة المختلطة من محبي الخمر من جميع الأديان، أقداحنا وشربنا نخب بعضنا، مع أنه يصعب تصديق ذلك، لأن الله يحبّنا ويغفر لنا.

إيلا

نورثامبتون، ٣١ أيار (مايو) ٢٠٠٨

«خير لك أن تصل سالماً من أن تكون نادماً»، ذكر أحد المواقع على شبكة الإنترنت. «تفحّصي قمصانه للتأكد من وجود بقع أحمر الشفاه، وتأكدي هل تفوح منه رائحة عطر غريبة عندما يعود إلى البيت».

كانت تلك أول مرة تجري فيها إيلا روبنشتاين اختباراً على نفسها على الإنترنت، بعنوان: «كيف يمكنك أن تعرفي هل يخونك زوجك أم لا؟»، ومع أنها وجدت الأسئلة تافهة، فقد عرفت الآن أن الحياة نفسها قد تكون عبارة عادية تتكرر بين الحين والآخر ليس إلاّ.

وعلى الرغم من نتيجة الاختبار الذي أجرته، لم تشأ إيلا أن تواجه ديفيد. فلم تسأله أين يمضي الليالي التي يقضيها خارج البيت. وخلال هذه الفترة، كانت تمضي معظم أوقاتها في قراءة رواية «الكفر الحلو»، مستخدمة الرواية ذريعة لتغطية صمتها. ولمّا كان عقلها مشتتاً، فقد استغرقت وقتاً أطول من المعتاد في إنهاء قراءتها. لكنها كانت مستمتعة بالقصّة، وبكلّ قاعدة جديدة من قواعد شمس التي غيّرت حياتها برمتها.

كانت إيلا تتصرف بصورة طبيعية أثناء وجود الأطفال، لكن عندما تكون وحدها مع ديفيد، كان زوجها ينظر إليها بفضول، وكأنه يتساءل أي نوع من الزوجات تلك التي لا تسأل زوجها أين أمضى الليلة. لكن إيلا لم تكن تريد سماع معلومات لا تعرف كيف تتصرف إزاءها. فكانت تظن أنه كلما قلّت معرفتها بعلاقات زوجها الغرامية، قلّ تفكيرها بها. وصدق من قال إن الجهل نعمة.

كانت المرة الوحيدة التي كفرت فيها بتلك النعمة في عيد الميلاد الماضي، عندما وصل إلى صندوق بريدهم استمارة استطلاع من أحد الفنادق المحلية، موجّهة إلى ديفيد. فقد أراد قسم «خدمات الزبائن» أن يعرف هل أمضى إقامة سعيدة في الفندق الذي نزل فيه مرات عدة. تركت إيلا الرسالة على المنضدة، فوق كومة الرسائل، وراحت تراقبه في ذلك المساء عندما أخرج الرسالة من المغلف المفتوح وقرأها.

«آه، استمارة تقييم للنزلاء! هذا آخر شيء أريد أن أراه»، قال ديفيد، مبتسماً لها نصف ابتسامة، «لقد حضرت مؤتمراً لطب الأسنان في السنة الماضية. لا بد أنهم أدرجوا أسماء جميع المشاركين في قائمة الزبائن لديهم».

صدّقته. على الأقل ذلك الجزء فيها الذي لم يكن يرغب في أن يهزّ المركب، أما الجزء الآخر فكان يتسم بالتشاؤم والارتياب، وهو الجزء الذي راح يبحث في اليوم التالي عن رقم الفندق وتتصل به، وتسمع ما كانت تعرفه أصلاً، وهو أنه لم يعقد في فندقهم مؤتمر لطب الأسنان لا هذه السنة ولا في السنة الماضية.

لكن في أعماقها، لامت إيلا نفسها. فقد بدأت تتقدم في السن، وازداد وزنها خلال السنوات الستّ الماضية. ومع كلّ رطل جديد يكتسبه جسمها، كان دافعها الجنسي ينخفض. وصعّبت دروس الطهو عليها التخلص من الأرطال الزائدة، مع أنه كانت هناك نساء في مجموعتها يطهين أكثر منها وأفضل منها، لكنّ وزنهن وحجمهن ظلّ نصف وزنها وحجمها.

وعندما تذكّرت حياتها الماضية، أدركت أن التمرّد لا يلائمها. لأنها لم تدخّن الحشيش قط مع فتيان وراء أبواب مغلقة، ولم تُطرد من الحانات، ولم تستعمل حبوب منع الحمل، ولم تكن تنتابها نوبات غضب، أو تكذب على أمّها، ولم تهرب من المدرسة، ولم تمارس الجنس في فترة مراهقتها. في حين كانت الفتيات في مثل عمرها يجهضن أو يقدمن أطفالهن الذين أنجبوهن خارج إطار الزواج للتبني، وكانت تستمع إلى قصصهن كأنها تشاهد برنامجاً تلفزيونياً عن مجاعة في إثيوبيا. والأمر الذي كان يثير الحزن في نفس إيلا هو انتشار هذه المآسي في العالم، لكنها لم تكن ترى أنها تعيش في الكون نفسه مع تلك الفتيات المسكينات البائسات.

لم تكن تشارك في الحفلات التي كان الشباب يقيمونها، حتى عندما كانت في سن المراهقة، بل كانت تفضّل البقاء في البيت وقراءة كتاب جيد في ليلة الجمعة، على أن تشارك شباناً غرباء في حفلة ماجنة.

«لماذا لا تفعلن مثل إيلا؟»، كانت الأمهات في الحيّ يسألن بناتهن، «انظرن، فهي لا تورط نفسها في مشاكل».

وفي حين كانت أمهاتهن يحترمنها كثيراً، كانت الفتيات والفتيان يرون فيها فتاة جدّية معقّدة تخلو من الروح المرحة، ولا عجب أنها لم تكن فتاة محبوبة كثيراً في المدرسة الثانوية. وفي إحدى المرات، قال لها أحد زملائها: «أتعرفين ما هي مشكلتك؟ إنك تأخذين الحياة بجدية كبيرة. إنك فتاة مملة حتى الموت».

أنصتت له بعناية، وقالت إنها ستفكّر في الأمر.

حتى إنها لم تغيّر تصفيفة شعرها كثيراً طوال تلك السنوات ـ شعر طويل، مسدل، أشقر عسلي، تعقصه في شكل كعكة ـ أو تجعله في ضفائر تتدلى حتى أسفل ظهرها. لم تكن تتبرج كثيراً، بل كانت تضع مسحة من أحمر الشفاه البني اللون المائل إلى الأحمر، وتظلل عينيها باللون الأخضر، فيخفي لون عينيها الأزرق الرمادي أكثر مما يبرزه، كما كانت تقول لها ابنتها. وفي جميع الأحوال، لم تكن تستطيع أن ترسم خطين مقوسين جيداً بظل العيون، وكان الخط المرسوم على أحد الجفنين غالباً ما يخرج عن مساره فيبدو أثخن من الخط المرسوم على الجفن الآخر.

كان يخيّل إلى إيلا أن عيباً فيها. فهي إمّا فضولية ملحاحة (إزاء مخططات زواج جانيت)، أو سلبية منصاعة (إزاء علاقات زوجها الغرامية). فهناك إيلا المهووسة بالسيطرة، وهنا إيلا الوديعة على نحو يائس. لم تكن تعرف أيّ هذين الأمرين سيظهر، ومتى.

كانت هناك إيلا ثالثة، إيلا التي تلاحظ كلّ شيء بهدوء، ريثما يحين وقت انفجارها. فقد كان يقبع تحت نفس إيلا الهادئة المخنوقة، غضب وتمرد شديدان. وكانت إيلا الثالثة تحذّرها من أنها إذا

استمرّت على هذا المنوال، فلا بد أنها ستنفجر ذات يوم. إنها مسألة وقت.

وبعد التفكير في هذه المسائل في آخر يوم من أيام شهر أيار(مايو)، فعلت إيلا ما لم تفعله منذ زمن طويل. إذ صلّت، وسألت الله أن يمدّها بحبّ يغمر كيانها، أو أن يجعلها قاسية وغير مبالية بحيث لا تبالي ولا تكترث بعدم وجود الحبّ في حياتها.

«أيّ واحدة تختارين، الرجاء الإجابة بسرعة»، استدركت قائلة، «لعلك نسيت أنني بلغت الأربعين من عمري. وكما ترين، فإنني لا أجيد استخدام سنوات عمري».

البغي وردة الصحراء

قونية، ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٢٤٤

رحت أجري وأجري لاهثة في الزقاق الضيّق، غير قادرة على النظر إلى الوراء. كانت رئتاي تحترقان، وصدري يعلو ويهبط، حتى وصلت أخيراً إلى السوق المزدحم، واستندت إلى حائط آيل للسقوط. عندها استجمعت شجاعتي لأنظر خلفي. ولمفاجأتي وارتياحي الكبيرين، رأيت شخصاً واحداً يتبعني، وهو سمسم. توقّف بجانبي وهو يلهث، ويداه تتأرجحان على جانبيه، وقد ارتسمت على وجهه قسمات الحيرة والغيظ، غير قادر على فهم السبب الذي جعلني أجري فجأة كالمجنونة في أزقة قونية.

لقد حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة، ولم أتبيّن حقيقة ما جرى إلا عندما وصلت إلى السوق. فعندما كنت جالسة في المسجد، مستغرقة في سماع الخطبة، أثمل من لآلئ الحكمة التي يلقيها الرومي. وفي غمرة هذه النشوة التي تملّكتني، لم ألحظ أن الفتى الجالس بجانبي قد داس عن غير قصد على طرف الوشاح الذي يستر وجهي. وقبل أن أتبين ذلك، انحلّ الوشاح، ومالت عمامتي إلى الجانب، فانكشف

وجهي وجزء من شعري. وبسرعة أعدت تثبيت الوشاح، وتابعت الاستماع للرومي، واثقة من أن أحداً لم يلحظ شيئاً. لكن عندما رفعت بصري ثانية، رأيت شاباً في الصف الأمامي يحدّق بي. كان وجهه مربّع الشكل، له عين كسولة، وأنف حادّ، وفم يشي بالازدراء. عرفت للتو أنه بيبرس.

كان بيبرس أحد أولئك الزبائن المزعجين الذين لم تكن أي فتاة في المبغى ترغب في مضاجعته. فهناك رجال يرغبون في مضاجعة مومسات، لكنهم يحتقرونهن ولا يكفّون عن إهانتهن. وكان بيبرس من هذا النوع من الرجال. فلم يكن يكفّ عن إلقاء نكات بذيئة، وكان صاحب مزاج سيئ للغاية. ففي إحدى المرات، ضرب فتاة ضرباً مبرحاً إلى حدّ أن صاحبة المبغى، التي تعشق المال أكثر من أيّ شيء آخر، طردته وطلبت منه ألاّ يطأ بقدمه هذا المكان ثانية. لكنه ظلّ يأتي، على الأقل لبضعة شهور أخرى. ثمّ، لسبب أجهله، فجأة توقف عن القدوم إلى المبغى، ولم نعد نسمع عنه. ها هو الآن، يجلس في الصف الأمامي، بعد أن أرخى لحية طويلة مثل الرجال الورعين، لكن البريق العنيف كان لا يزال ينبعث من عينيه.

أشحت بوجهي عنه، لكن الآوان كان قد فات. فقد عرفني.

همس بيبرس شيئاً في أذن الرجل الجالس بجانبه، ثم استدارا وحدّقا بي، ثم أشارا إلى رجل آخر، وواحد تلو الآخر، راح جميع الرجال في ذلك الصفّ يحدّقون بي. احمرّ وجهي وخفق قلبي، لكني لم أستطع أن أتزحزح من مكاني، بل تعلّقت بالأمل الطفولي بأنني إذا ظللت جالسة من دون أن آتي بحركة وأغمضت عيني، فإن الظلام سيبتلعنا جميعاً، ولن يبقى شيء أقلق عليه.

عندما تجاسرت وفتحت عينيّ ثانية، رأيت بيبرس يشقّ طريقه عبر الحشد نحوي. هرعت نحو الباب، لكن استحال عليّ الهرب، فقد كنت محاطة ببحر متلاطم من الرجال. وبلمح البصر وصل إليّ بيبرس، واقترب مني كثيراً إلى حد أني شممت أنفاسه. أمسكني من ذراعي، وقال من بين أسنانه المطبقة: «ماذا تفعل عاهرة هنا؟ ألا تخجلين؟».

«أرجوك. . . أرجوك دعني أذهب»، تلعثمت، لكني لا أظن أنه سمعني.

لحق به أصدقاؤه. رجال فظون، مرعبون، متكبّرون، واثقون من أنفسهم، تفوح منهم رائحة الغضب والخلّ، وراحوا يمطرونني بالإهانات. التفت الرجال الآخرون لرؤية ما يحدث، وهمهم بعضهم مستنكرين، لكن أحداً منهم لم يتدخّل. كان جسمي مسترخياً مثل قطعة عجين، وتركتهم يدفعون بي نحو الباب، وعندما وصلنا إلى الشارع، تمنّيت أن يهبّ سمسم لمساعدتي، وقلت لنفسي إنه إذا حدث الأسوأ، فإني سأهرب. لكن ما إن وطأت قدماي أرض الشارع حتى ازداد الرجال عنفاً وعدوانية. وأدركت برعب أنهم كانوا يحرصون على ألاَ يرفعوا أصواتهم أو يدفعوني في المسجد بدافع الاحترام للخطيب والمصلين، أما في الشارع فلم يكن هناك شيء يمكن أن يوقفهم.

لقد عانيت في حياتي من أشياء أشدّ صعوبة، لكني مع ذلك أشكّ في أن شعوراً بالحزن قد انتابني كما الآن. فبعد سنوات من التردد، اقتربت اليوم خطوة باتجاه الله، وكيف أجاب على تقربي منه؟ بركلي وطردي من بيته!

«ما كان عليّ أن أذهب إلى هناك»، قلت لسمسم، وقد تصدّع صوتي مثل جليد رقيق، «إنهم محقون، لأنه ليس لعاهرة مكان في مسجد أو كنيسة، أو في أيّ بيت من بيوت الله».

«لا تقولي هذا».

عندما استدرت لرؤية من قال ذلك، لم أصدّق عينيّ. كان هو، الدرويش الأمرد الجوّال. ارتسمت على وجه سمسم ابتسامة عريضة، مبتهجاً لرؤيته مرة أخرى. اندفعت لأقبّل يديه، لكنه أوقفني عن ذلك وقال: «لا، أرجوك».

«لكن كيف يمكنني أن أشكرك؟ إني أدين لك بالشيء الكثير»، قلت راجية.

هزّ كتفيه وبدا غير مهتم، وقال: «إنك لا تدينين لي بشيء. إننا لا ندين لأحد بشيء إلا له».

عرّفني على نفسه وقال إن اسمه شمس التبريزي، ثم ذكر أغرب شيء في حياتي: «يبدأ بعض الناس حياتهم بهالة متوهجة لكنها سرعان ما تبدأ تفقد بريقها وتبهت. ويبدو أنك واحدة من هؤلاء. فقد كانت هالتك ذات يوم أنصع بياضاً من الزنابق التي تتناثر فيها نقاط صفر ووردية، لكنّها بهتت بمرور الزمن، وأصبحت بنية باهتة الآن. ألا تفتقدين ألوانك الأصلية؟ ألا تحبين أن تتحدّي جوهرك؟».

نظرت إليه، وأحسست بأنني أهيم في كلماته.

«لقد فقدت هالتك بريقها لأنك أقنعت نفسك طوال هذه السنوات بأنك قذرة من الداخل والخارج».

«لست قذرة»، قلت وعضضت شفتي، «ألا تعرف ماذا أفعل لكسب رزقي؟».

«دعيني أحكي لك حكاية»، قال شمس، وهذا ما حكاه:

في أحد الأيام، مرّت مومس بجانب كلب ضال. كان الحيوان يلهث تحت الشمس القائظة، عطشاً وعاجزاً. وعلى الفور نزعت المومس حذاءها وملأته بالماء من أقرب بئر لتسقي الكلب. ثمّ مضت في طريقها. وفي اليوم التالي صادفت صوفياً، يمتلك حكمة عظيمة. وعندما رآها، قبّل يديها. ذُهلت، لكنه قال لها إن عطفها على الكلب كان صادقاً فغفر لها الله جميع ذنوبها.

فهمت ما كان شمس التبريزي يريد أن يقوله لي، لكن شيئاً في داخلي رفض تصديقه، لذلك قلت: «دعني أؤكد لك، إنني لو أطعمت جميع الكلاب في قونية، فلن يكفي ذلك للتكفير عن ذنوبي».

«ليس بإمكانك معرفة ذلك؛ لأن الله وحده هو العليم. وما الذي يجعلك تظنين أن أحداً من الرجال الذين أخرجوك من المسجد اليوم هو أقرب إلى الله؟».

«حتى لو لم يكونوا أقرب إلى الله»، أجبت من دون اقتناع، «فمن سيقول لهم ذلك؟ أنت؟».

لكن الدرويش هزّ رأسه، وقال: «لا، لا تسير الأمور هكذا، يجب عليكِ أنتِ أن تقولي لهم».

«أتظن أنهم سينصتون إليّ؟ هؤلاء الرجال يكرهونني».

«سينصتون»، قال بتصميم، «لأنه لا يوجد شيء يدعى «هم»، كما لا يوجد شيء يدعى «أنا»، وكلّ ما يجب عليك عمله هو أن تعرفي أن كلّ شيء وكلّ شخص مرتبط ببعضه بعضًا في هذا الكون. فلسنا مئات وآلافًا من الكائنات المختلفة، بل إننا جميعاً شيء واحد».

انتظرت أن يوضح لي، لكنه تابع قائلاً: «وهذه قاعدة من القواعد الأربعين. *إذا أراد المرء أن يغيّر الطريقة التي يعامله فيها الناس، فيجب أن يغيّر أولاً الطريقة التي يعامل فيها نفسه. وإذا لم يتعلّم كيف يحبّ نفسه، حباً كاملاً صادقاً، فلا توجد وسيلة يمكنه فيها أن يحبّ. لكنه عندما يبلغ تلك المرحلة، سيشكر كلّ شوكة يلقيها عليه الآخرون. فهذا يدل على أن الورود ستنهمر عليه قريباً*»، توقف قليلاً ثم أضاف: «*كيف يمكن للمرء أن يلوم الآخرين لأنهم لا يحترمونه إذا لم يكن يعتبر نفسه جديراً بالاحترام؟*».

وقفت هناك غير قادرة على أن أنبس بكلمة عندما أحسست بأن ما في قبضتي قد بدأ ينسلّ مني. إذ تذكرت جميع الرجال الذين ضاجعتهم، رائحتهم، وملمس أيديهم ذات الجلد السميك، وتأوهاتهم عند بلوغهم لحظة الرعشة... رأيت فتياناً لطيفين استحالوا وحوشاً، ووحوشاً استحالوا فتياناً لطيفين. ففي إحدى المرات، جاءني زبون اعتاد البصق على المومسات وهو يضاجعهن، وكان يقول: «قذرة»، ويبصق في فمي وعلى وجهي ويقول: «أيتها القحبة القذرة».

بينما يقول لي هذا الدرويش إنني أنظف من ماء النبع الرقراق. خيّل إليّ أنها نكتة سمجة، وعندما أرغمت نفسي على الضحك، لم يخرج الصوت من حنجرتي، فكتمت تنهيدة.

«إن الماضي دوّامة، إذا تركته يسيطر على لحظتك الحالية، فإنه سيمتصّك ويجرفك»، قال شمس وكأنه قرأ أفكاري، «ما الزمن إلا وهم فحسب، وكلّ ما تحتاجين إليه هو أن تعيشي هذه اللحظة بالذات. هذا كل ما يهم».

عندما قال ذلك، أخرج منديلاً حريرياً من جيب عباءته، وقال: «احتفظي به. لقد أعطاني إياه رجل طيب في بغداد، لكنك بحاجة إليه أكثر مني. إنه سيذكّرك بأن قلبك نقي وأنك تحملين الله في داخلك».

وهنا أمسك الدرويش عصاه ونهض، متهيئاً للذهاب، وقال: «اتركي ذلك المبغى».

«أين؟ كيف؟ لا يوجد لديّ مكان آخر أذهب إليه».

«ليست هذه مشكلة»، قال شمس وعيناه تلمعان، «لا تهتمي إلى أين سيقودك الطريق، بل ركّزي على الخطوة الأولى. فهي أصعب خطوة يجب أن تتحملي مسؤوليتها. وما إن تتخذي تلك الخطوة دعي كلّ شيء يجري بشكل طبيعي وسيأتي ما تبقى من تلقاء نفسه. لا تسيري مع التيار، بل كوني أنتِ التيار».

هززت رأسي. لم أكن بحاجة إلى السؤال لكي أفهم ذلك أيضاً، فهي إحدى القواعد الأربعين.

سليمان السكران

قونية، ١٧ تشرين الأول (أكتوبر)١٢٤٤

قبل منتصف الليل، احتسيت آخر قدح من الشراب وغادرت الحانة.

«تذكّر ما قلته لك. انتبه لكل كلمة تقولها»، قال خريستوس محذّراً، ولوّح لي مودعاً.

هززت رأسي، وشعرت بأنني محظوظ لأن لديّ صديقاً يهتم بي. لكن ما إن وطأت قدماي الشارع الخاوي المعتم، حتى أحسست بشيء من الإعياء لم أشعر به من قبل. تمنّيت لو أنني أخذت معي قنينة نبيذ. فقد كان لا يزال في مقدوري أن أشرب.

بينما رحت أترنّح وأنا أسير، وحذائي الطويل يصدر طقطقة فوق بلاط الشارع المكسور، لمعت في رأسي صورة الرجال الذين كانوا يسيرون في موكب الرومي. وقد آلمني تذكّر نظرة البغض في عيونهم. وإن كان هناك شيء أكرهه في العالم، فهو الحشمة، وقد وبّخني الغني والفقير إلى حدّ أن تذكرهما وحده يجعل رعدة تسري في أوصالي.

بينما كانت هذه الأفكار تحتدم في رأسي، انعطفت عند الناصية ورحت أسير في زقاق فرعي. كان الزقاق أكثر عتمة بسبب الأشجار

الباسقة الضخمة التي تحفّه من الجانبين. وكأن هذا لم يكن كافياً، فقد توارى القمر فجأة وراء غيمة، فغلفني ظلام كثيف، وإلا لكنت قد لاحظت الحارسين وهما يقتربان مني.

«السلام عليكما»، قلت، وكان صوتي يشي بمرح محاولاً إخفاء شعوري بالقلق.

لكن الحارسين لم يردّا على تحيتي، بل سألاني ما الذي أفعله في الشارع في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

فهمهمت قائلاً: «إني أتمشى».

وقفنا وجهاً لوجه، وخيّم صمت ثقيل لم يخترقه سوى نباح كلاب من بعيد. تقدم أحد الرجلين خطوة وراح يشمّ الهواء، ثم قال: «تفوح رائحة نتنة هنا».

«نعم، تفوح رائحة خمرة»، أكّد الحارس الآخر.

فقرّرت أن أعالج الأمر بخفة، فقلت: «لاتزعجا نفسيكما. إن هذه الرائحة النتنة مجرد رائحة مجازية. فبما أنه لا يُسمح لنا نحن المسلمين أن نشرب إلا نبيذاً مجازياً، فلا بد أن تكون الرائحة مجازية أيضاً».

«بحقّ الجحيم، بماذا يهذر هذا الرجل؟»، دمدم الحارس الأول.

عندها فقط برز القمر من وراء الغيمة، وشملنا بضوئه الرقيق الشاحب، فتمكنت من رؤية الرجل الواقف أمامي. كان وجهه مربّع الشكل، له ذقن ناتئة، وعينان زرقاوان باردتان، وأنف حادّ. كان من الممكن أن يبدو وسيماً لولا عينه الكسولة، والتجهّم الدائم الذي يكسو وجهه.

«ماذا تفعل في الشارع في هذه الساعة؟»، كرّر الرجل سؤاله، «من أين أتيت، وإلى أين أنت ذاهب؟».

لم أتمالك نفسي، فقلت: «هذه أسئلة عميقة يا بني. فلو كنت أعرف الأجوبة، لحللت لغز سبب وجودنا في هذا العالم».

«أتسخر مني أيها القذر؟»، سأل الحارس، عابساً، وبسرعة أخرج سوطاً، ولوّح به في الهواء.

كانت في حركاته مبالغة شديدة فضحكت ضحكة مكتومة. وما تلا ذلك أنه أهوى السوط على صدري. كانت الضربة مفاجئة لي ففقدت توازني وسقطت.

«لعل ذلك يعلّمك كيف تتصرف بأدب»، ردّ الحارس، ونقل سوطه من يد إلى يد، «ألا تعرف أن شرب الخمر من الكبائر؟».

حتى عندما أحسست بحرارة دمي، وحتى عندما أخذ رأسي يدور في بحر الألم، كنت لا أزال غير مصدق أن شاباً في عمر ابني ينهال عليّ بالسوط في وسط الزقاق.

«هيا عاقبني»، رددت قائلاً، «لو كانت جنة الله مخصصة لأمثالك، لفضلت أن أحترق في نار جهنم».

في نوبة غضب شديد، راح الحارس الشاب يضربني بالسوط بكل ما أوتي من قوة. غطّيت وجهي بيدي، لكن ذلك لم يجد نفعاً. وفي تلك اللحظة خطرت لي أغنية قديمة مرحة، شقّت طريقها بالقوة بين شفتيّ اللتين يسيل منهما الدم. عازماً على ألاّ أظهر بؤسي، رحت أغنّي بصوت أعلى وأعلى مع كلّ ضربة سوط:

«قبّليني يا حبيبتي، قشّري قلبي حتى الصميم،

شفتاك حلوتان بحلاوة نبيذ الكرز، صبّي لي المزيد».

سخريتي هذه زادت الحارس حنقاً. وكلما ارتفع صوتي بالغناء، ازدادت ضرباته شدة. لم أكن أتصور وجود غضب كهذا الغضب في جوف رجل واحد.

«يكفي يا بيبرس. توقّف»، سمعت الحارس الآخر يصرخ برعب.

وفجأة توقف عن الضرب بالسوط كما بدأ. أردت أن أقول آخر كلمة، أقول شيئاً قوياً وفجاً، لكن الدم في فمي أخفى صوتي. قرقعت بطني، وتقيّأت.

«إنك شخص مريض»، قال بيبرس موبّخاً، «لا تلم إلا نفسك على ما فعلته بك».

أدارا ظهريهما لي، وسارا واختفيا في عتمة الليل.

لا أعرف إلى متى بقيت مستلقياً هناك. ربما بضع دقائق أو الليلة بطولها. إذ فقد الزمن وطأته، وكذلك كلّ شيء آخر، وتوارى القمر وراء الغيوم، ولم يتركني نوره فحسب، بل تركني وأنا لا أعرف من أنا أيضاً. وسرعان ما رحت أتخبّط في بحر النسيان بين الحياة والموت، ولم أعبأ إلى أين سينتهي بي الأمر. ثم بدأ الخدر في جسمي يتلاشى، فصارت تؤلمني كلّ كدمة، وكلّ خبطة، ويؤلمني كلّ جرح في جسمي، بجنون، تغسلني موجة بعد موجة من الألم. كان رأسي يترنح، وأطرافي تؤلمني. في تلك الحالة رحت أئن مثل حيوان جريح.

لا بد أن بصري قد كُفّ. فعندما فتحت عينيّ، كان سروالي مبللاً بالبول، وأطرافي تؤلمني بشدة. تضرعت إلى الله أن يصيب جسدي

بالخدر أو أن يمنحني الشراب، عندما سمعت وقع خطوات تقترب. أخذ قلبي يخفق بشدة، فقد يكون واحداً من أولاد الشوارع أو لعله سارق أو قاتلٌ. لكنني سألت نفسي ممَ أخاف؟ فقد بلغت مرحلة لم يعد يخيفني فيها شيء قد يجلبه لي الليل.

ومن وراء الظلال، خرج درويش طويل، نحيف، أمرد. جثا إلى جانبي وساعدني على النهوض. وعرّفني على نفسه بأن اسمه شمس التبريزي، وسألني عن اسمي.

«سليمان السكران من قونية في خدمتك»، قلت وسحبت سناً مخلخلاً من فمي، «يسرني لقاؤك».

«إنك تنزف دماً»، دمدم شمس وراح يمسح الدم عن وجهي، «ليس من الخارج فقط، بل من الداخل أيضاً».

عندما قال ذلك، أخرج قارورة فضّية من جيب عباءته، وقال: «ادهن جروحك بهذا المرهم. لقد أعطاني إياه رجل طيب في بغداد، لكنك تحتاج إليه أكثر مني. إنك تعرف أن الجرح في داخلك أعمق، وهو ما يجب أن تقلق منه. إنه سيذكّرك بأنك تحمل الله في داخلك».

«شكراً»، سمعت نفسي أدمدم. وبعد أن تأثّرت برقته وشفقته، قلت: «ذلك الحارس... لقد ضربني بالسوط. قال إني أستحق ذلك».

عندما نطقت هذه الكلمات، أدهشني الأنين الطفولي في صوتي وحاجتي إلى العطف والشفقة.

هزّ شمس التبريزي رأسه، وقال: «لا يحقّ لأحد أن يفعل ذلك. فكلّ واحد يبحث في ذاته عن الله. وهناك قاعدة في هذا الشأن: لقد

خلقنا جميعاً على صورته، ومع ذلك فإننا جميعاً مخلوقات مختلفة ومميزة. لا يوجد شخصان متشابهان، ولا يخفق قلبان لهما الإيقاع ذاته. ولو أراد الله أن نكون متشابهين، لخلقنا متشابهين. لذلك، فإن عدم احترام الاختلافات وفرض أفكارك على الآخرين، يعني عدم احترام النظام المقدس الذي أرساه الله».

«حسنٌ»، قلت، مندهشاً من نفسي بالسهولة في صوتي، «لكن أليس لديكم أنتم الصوفيون شكوك حوله؟».

ابتسم شمس التبريزي ابتسامة متعبة، وقال: «نعم. إن الشكّ شيء جيد. فهو يعني أنك حيّ ترزق ودائم البحث». قال ذلك بنبرة كما لو كان يقرأ من كتاب.

«كما أن المرء لا يصبح مؤمناً بين ليلة وضحاها. إذ يخيّل إلى المرء أنه مؤمن، ثمّ يحدث شيء في حياته فيصبح ملحداً، ثمّ يعود ويؤمن ثانية، ثمّ يصبح متشكّكاً، وهكذا دواليك، حتى يبلغ مرحلة معينة. إننا نتردّد باستمرار. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلنا نمضي إلى الأمام. ومع كلّ خطوة جديدة، نزداد قرباً من الحقيقة».

فقلت: «لو سمعك خريستوس تتحدث بهذه الطريقة، لطلب منك أن تنتبه إلى ما تقوله. فهو يقول ليس كلّ كلمة تلائم كلّ أذن».

«حسناً، لديه وجهة نظر»، قال شمس التبريزي، وأطلق ضحكة قصيرة، ووثب واقفاً، «هيا، دعني أرافقك إلى البيت. يجب أن نهتم بك، ويجب أن تحصل على قسط من النوم».

ساعدني على النهوض والوقوف على قدميّ، لكنني لم أكن أقوى على السير فرحت أترنح، فحملني الدرويش على ظهره، وكأنني خفيف الوزن.

«أريد أن أنبّهك، فرائحتي كريهة»، غمغمت بخجل.

«لا بأس يا سليمان، لا تقلق».

هكذا، من دون أن يعبأ بالدم والبول، أو بالرائحة الكريهة، حملني الدرويش عبر أزقة قونية الضيّقة. ومررنا من أمام بيوت وأكواخ خيّم عليها سبات عميق. وعوت الكلاب ونبحت علينا، بصوت عال وبشراسة، من وراء جدران البساتين، لتخبر كلّ الناس بوجودنا.

قلت: «كنت أتساءل دائماً عن ورود الخمر في أشعار الصوفيين، فهل النبيذ الذي يمتدحه الصوفيون حقيقي أم مجازي؟».

«ما أهمية ذلك يا صديقي؟»، سأل شمس التبريزي قبل أن يضعني أمام بيتي، ومضى يقول: «هناك قاعدة تفسر ذلك: *عندما يدخل عاشق حقيقي لله إلى حانة، فإنها تصبح غرفة صلاته، لكن عندما يدخل شارب الخمر إلى الغرفة نفسها، فإنها تصبح خمارته. ففي كلّ شيء نفعله، قلوبنا هي المهمة، لا مظاهرنا الخارجية. فالصوفيون لا يحكمون على الآخرين من مظهرهم أو من هم؛ وعندما يحدّق صوفي في شخص ما، فإنه يغمض عينيه ويفتح عيناً ثالثة ـ العين التي ترى العالم الداخلي* ـ».

عندما أصبحت وحيداً في بيتي بعد هذه الليلة الطويلة والمنهكة، تأملت ما حدث. ومع أنني كنت حزيناً، شعرت بطمأنينة سعيدة في أعماقي. وللحظة عابرة، لمحتها وتمنيت أن تبقى هناك إلى الأبد. وفي تلك اللحظة، عرفت أن الله موجود، وأنه يحبّني.

ومع أن جسدي كان يؤلمني، لم أعد أشعر بالألم على نحو غريب.

إيلا

نورثامبتون، ٣ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

كان لحن أغنية «فتيان الشاطئ» ينبعث من نوافذ سيارات طلاب الجامعة المشرعة، بوجوههم التي لوّحتها شمس الصيف الأولى. راحت إيلا تراقب، غير عابئة بسعادتهم، وعادت بذاكرتها إلى ما جرى في الأيام القليلة الماضية. فقد وجدت كلبها «سبيريت» ميتاً في المطبخ، ومع أنها كانت تستعد لهذه اللحظة، فقد غمرها حزن شديد، وأحست بالضعف والوحدة، كأن فقدان كلبها جعلها تشعر بأنها أصبحت وحيدة في هذا العالم. ثمّ اكتشفت أن أورلي تعاني من مرض البوليميا[١]، وأن جميع زميلاتها في المدرسة تعرفن ذلك. فاعترت إيلا موجة من الشعور بالذنب، وساورتها شكوك حول علاقتها بابنتها الصغرى، مما جعلها تفكر بمراجعة سجلّها كأمّ. لم يكن الشعور بالذنب عنصراً جديداً في مجموعة مشاعر إيلا، لكن فقدان ثقتها بتربيتها كأمّ، جعلها تشعر بذلك.

---

(١) البوليميا: شهوة متواصلة وغير سوية إلى تناول الطعام بكثرة، يتبع ذلك محاولة التخلص منه بالتقيؤ أو تناول المسهّلات أو الصوم، وغالباً مع شعور بالذنب والاكتئاب.

خلال تلك الفترة، بدأت إيلا تتبادل كل يوم عدة رسائل إلكترونية مع عزيز ز. زاهارا. رسالتان، ثلاث رسائل، وأحياناً خمس رسائل. كانت تكتب له عن كلّ شيء، ولمفاجأتها، كان يرد عليها على الفور تقريباً. ولم تفهم إيلا كيف كان بإمكانه أن يجد الوقت أو حتى وصلة إنترنت لقراءة الرسائل التي تصله بالبريد الإلكتروني وهو يتنقل مسافراً إلى أماكن بعيدة. وسرعان ما أدمنت على كلماته. وبدأت تفتح بريدها الإلكتروني في كلّ فرصة، أول شيء في الصباح، ثمّ بعد الفطور، وعندما تعود من نزهتها الصباحية، وعندما تعدّ وجبة الغداء، وقبل أن تخرج لأداء بعض الأمور المنزلية، بل حتى أثناءها، عندما كانت تتوقف عند أحد مقاهي الإنترنت. وعندما كانت تشاهد برامجها التلفزيونية المفضّلة، وتقطع البندورة شرائح في نادي الطهو، وعندما تتكلم على الهاتف مع صديقاتها، أو تنصت إلى طفليها وهما يتحدثان عن المدرسة وواجباتهما المدرسية، كانت تبقي حاسوبها المحمول مفتوحاً وتفتح بريدها الإلكتروني. وعندما لا ترى رسائل جديدة من عزيز، كانت تعيد قراءة رسائله القديمة. وفي كلّ مرّة كانت تتلقى فيها رسالة جديدة منه، لم تكن تتمالك نفسها عن الابتسام، نصف مبتهجة، نصف محرجة مما يحدث. لأن شيئاً ما كان يحدث.

وسرعان ما جعل تبادل الرسائل الإلكترونية مع عزيز، إيلا تنفصل عن حياتها الرزينة الهادئة بطريقة ما. وبدأت تتحول من امرأة توجد في لوحة حياتها ألوان كثيرة من الرمادي الباهت والبني، إلى امرأة ذات لون سري، أحمر براق، مثير. وقد أحبّته.

لم يكن عزيز رجلاً صاحب دعابات صغيرة. فهو يعتقد بأن الذين لم يجعلوا من قلوبهم دليلاً أساسياً يقودهم في الحياة، الذين لا يستطيعون الانفتاح على الحبّ ويسيرون على هديه، كما تتبع زهرة عبّاد الشمس الشمس، فهم ليسوا أحياء حقيقيين. (تساءلت إيلا إن كان ذلك يضعها في قائمة الأشياء التي تفتقد إلى الحيوية؟). فلم يكن عزيز يكتب عن الطقس أو عن آخر فيلم شاهده، بل كان يكتب عن أشياء أخرى، أكثر عمقاً، كالحياة والموت، والأهم من كل ذلك، كان يكتب عن الحبّ. ولم تكن إيلا معتادة على الإفصاح عن مشاعرها، وخاصة لشخص غريب، لكن لعل هذا الغريب هو الذي جعل امرأة مثلها تبوح بما يجيش في نفسها.

وإن كانت رسائلهما المتبادلة تشي بمسحة من الغزل، قالت إيلا لنفسها، فهو غزل بريء قد يكون جيداً لكليهما. فمن الممكن أن يغازل أحدهما الآخر، وأن يضعا نفسيهما في زوايا قصية في المتاهة اللانهائية من العالم الافتراضي. وبفضل تبادل الرسائل هذا، كانت تأمل في أن تستعيد جزءاً من المشاعر التي فقدتها خلال زواجها. فقد كان عزيز من ذلك النوع النادر من الرجال الذين يمكن أن تقع امرأة في حبّه من دون أن تفقد احترامها لنفسها. ولعله كان يشعر بالسعادة لأنه أصبح في مركز اهتمام امرأة أمريكية متوسطة العمر. فقد أدى الإنترنت إلى تضخيم السلوك خارج نطاقه وجعله رقيقاً، مانحاً الفرصة للغزل من دون أن يعتري المرء إحساس بالذنب (الذي لم ترغب به لأن لديها الكثير منه)، والمغامرة من دون مجازفة (التي كانت تريدها لأنها لم تختبرها من قبل). كان ذلك مثل تناول طعام لذيذ محرّم من دون أن

يساورها القلق بسبب السعرات الحرارية الإضافية ـ فلا عواقب لذلك.

لكن ربما كان من الكفر أن تكتب امرأة متزوجة لديها أطفال رسائل إلكترونية تشي بالحميمية إلى شخص غريب، وبسبب الطبيعة الأفلاطونية لعلاقتهما، خلصت إيلا إلى القول بـ: إنه كفر حلو.

إيلا

نورثامبتون، ٥ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

عزيزي عزيز،

قلت في إحدى رسائلك السابقة إن فكرة أننا نستطيع التحكم بمسيرة حياتنا إذا اتخذنا خيارات عقلانية فكرة سخيفة مثل سمكة تحاول أن تتحكم بالمحيط الذي تسبح فيه. لقد فكّرت بجملتك التالية كثيراً وهي أن: «الفكرة بأن المرء يعرف ذاته لم تؤد إلى إحداث توقّعات خاطئة فقط، بل أدت إلى إحباطات في الأماكن التي لا تجاري فيها الحياة توقّعاتنا».

والآن حان الوقت لكي أعترف: إذ إن لديّ نزعة للتحكم والسيطرة. على الأقل هذا ما سيقوله لك الذين يعرفونني حق المعرفة. وحتى فترة قريبة كنت أمّاً صارمة، وكانت لديّ قواعد كثيرة (وصدقني، ليست قواعد جميلة مثل قواعدك الصوفية)، ولم يكن ثمة سبيل للمساومة معي. وفي إحدى المرات اتهمتني ابنتي الكبرى بأنني أتبع نهج رجال العصابات. وقالت إنني أتدخل في صميم حياتهم، ومن خندقي أحاول أن ألتقط كلّ فكرة أو رغبة خاطئة قد يعربون عنها.

أتذكّر الأغنية ("Que Sera, Sera"؟) ليكن ما يكون) حسناً، لا أظن أنها كانت من أغانيّ المفضلة. إذ إن عبارة «ليكن ما يكون» لم تكن تلائمني مطلقاً، فأنا لا أستطيع أن أسير مع التيار. أعرف أنك رجل متديّن، أما أنا فلست متديّنة. ومع أننا نحتفل بيوم السبت في الأسرة بين الحين والآخر، فأنا شخصياً لا أتذكّر آخر مرة صلّيت فيها. (آه، لقد تذكرت الآن. في مطبخي قبل يومين فقط، لكن هذه لا تعتبر صلاة، لأنها كانت أشبه بالشكوى إلى ذات أعلى).

وعندما كنت في الجامعة، مرت فترة أدمنت فيها على الروحانيات الشرقية، وقرأت أشياء عن البوذية والطاوية. حتى إنني وضعت خططاً مع صديقة غريبة الأطوار لقضاء شهر في أشرام في الهند، لكن تلك المرحلة من حياتي لم تدم طويلاً. وبقدر ما كانت تعاليم صوفية جميلة ومثيرة، فقد خيّل إليّ أنها تعاليم مطاوعة ومذعنة ولا تلائم الحياة المعاصرة، ولم أغيّر رأيي منذ ذلك الحين.

أرجو ألا أسيء إليك بنفوري من الدين. أرجو أن تعتبر ذلك اعترافاً متأخراً من شخص يهتمّ بك.

بحرارة،

إيلا

* * *

العزيزة إيلا، المقاتلة في حرب العصابات،

وصلتني رسالتك وأنا أتهيأ لمغادرة آمستردام إلى ملاوي. فقد كلفت بالتقاط صور لأناس في قرية ينتشر فيها الإيدز ويوجد فيها عدد كبير من اليتامى.

الآن، إذا سار كلّ شيء على ما يرام، فإني سأعود بعد أربعة أيام. هل يمكنني أن آمل ذلك؟ نعم. هل يمكنني أن أتحكم بذلك؟ لا! فكلّ ما يمكنني عمله هو أن آخذ معي حاسوبي النقال، وأحاول إيجاد وصلة جيدة بالإنترنت، وآمل أن أعيش يوماً آخر، أما ما تبقى فليس في يدي. وهذا ما يطلق عليه الصوفيون العنصر الخامس ـ الفراغ. العنصر الإلهي الذي لا يمكن تفسيره، والذي لا يمكن التحكم به، والذي لا نستطيع نحن البشر أن نفهمه، ومع ذلك يجب أن ندركه طوال الوقت. فأنا لا أؤمن «بالتقاعس» إن كنت تقصدين ذلك لأنك لا تفعلين شيئاً على الإطلاق، ولا تبدين اهتماماً عميقاً بالحياة. لكني أؤمن باحترام العنصر الخامس.

أظن أنّ كلّ واحد منا يقيم عهداً مع الله. أعرف أنني فعلت ذلك. فعندما أصبحت صوفياً، وعدت الله أن أفعل ما يجب أن أفعله بحسب مقدرتي، وأن أترك الباقي له، وله وحده فقط. وقد قبلت الحقيقة بأنّ هناك أشياء تتجاوز حدودي ومقدرتي. فلا يمكنني أن أرى إلا بعض الأجزاء، مثل قطع عائمة في فيلم سينمائي، أما المخطط الأكبر فهو يتجاوز إدراكي.

الآن، تظنين أنني رجل متدين. لا، لست كذلك.

بل أنا رجل روحاني، وهو شيء مختلف. فالتدين والروحانية ليسا الشيء نفسه، وأظن أن الفجوة بين هذين الشيئين لم تكن أعمق مما هي عليه اليوم. فعندما أنظر إلى العالم، أرى ورطة تزداد عمقاً. فمن ناحية، نحن نؤمن بحرية الفرد وقوته بغض النظر عن الله، أو الحكومة، أو المجتمع. ومن نواحٍ عدة، بدأ البشر يزدادون أنانية،

وبدأ العالم يصبح أكثر مادية. ومن الناحية الأخرى، بدأت الإنسانية ككل تصبح أكثر روحانية. فبعد الاعتماد على العقل منذ فترة طويلة، يبدو أننا وصلنا إلى نقطة يجب أن نقرّ فيها بحدود العقل.

واليوم، كما كان الحال في العصور الوسطى، هناك انفجار في الاهتمام بالروحانيات. وبدأ عدد أكبر من الناس في الغرب يحاولون التقرب من الروحانيات في غمرة حياتهم المنهمكة بالعمل. لكن بالرغم من نياتهم الطيبة، فإن أساليبهم غير كافية في معظم الأحيان. فالروحانيات ليست توابل أخرى لذات الطبق القديم. إنها ليست شيئاً يمكننا إضافته إلى حياتنا من دون أن ندخل تغييرات رئيسية عليها.

أعرف أنك تحبّين الطهو. هل تعلمين أن شمس التبريزي قال إن العالم قِدر ضخم يطهى فيه شيء ضخم؟ لكننا لا نعرف ما هو حتى الآن. فكلّ ما نفعله، أو نلمسه، أو نفكر فيه، هو أحد مكونات ذلك الخليط. يجب أن نسأل أنفسنا ماذا نضيف إلى القِدر. فهل نضيف استياء، أو عداوات، أو غضباً، أو عنفاً؟ أم نضيف حبّاً وانسجاماً؟

ماذا عنكِ أنت، عزيزتي إيلا؟ ما هي المكونات التي تظنين أنك تضيفينها إلى حساء البشرية المشترك؟ عندما أفكّر فيك، فإن المكوّن الذي أضيفه هو ابتسامة عريضة.

مع كلّ الحبّ،

عزيز

الجزء الثالث

الريح
الأشياء التي تتحرّك، تتطوّر، وتتحدى

المتعصّب

قونية، ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

كانت الكلاب تنبح أسفل نافذتي المشرعة على مصراعيها. استويت في جلستي على السرير، وساورني الشك في أن هناك لصاً يحاول اقتحام البيت، أو سكيراً قذراً يمرّ من أمام البيت. فلم يعد الناس المحترمون ينعمون بنوم هادئ، بعد أن انتشر الفسق والفجور في كل مكان. لكن الحال لم يكن كذلك في الماضي، فقد كانت هذه المدينة أكثر أماناً منذ بضع سنوات. وفي رأيي أن الفساد الأخلاقي لا يختلف كثيراً عن الإصابة بمرض فظيع يأتي فجأة وينتشر بسرعة، فيصيب الأغنياء والفقراء، الصغار والكبار على حد سواء. وهذا هو حال مدينتنا اليوم. ولولا عملي في المدرسة، لما غادرت البيت.

وإني أحمد الله على أنه يوجد أناس يقدمون مصلحة المجتمع على مصالحهم ويعملون ليل نهار لفرض النظام. ومنهم بيبرس، ابن أخي الشاب، الذي يحبه الناس والذي أفتخر به أنا وزوجتي. ومما يثلج صدري أن بيبرس ورفاقه الحرّاس يجوبون أطراف المدينة لحمايتنا، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، عندما يعيث الأوغاد والمجرمون والسكارى فساداً.

عندما توفي أخي أصبحت ولي أمر بيبرس. كان شاباً، متعصّباً، وكان قد بدأ عمله حارساً منذ ستة أشهر. ويدّعي الثرثارون أنه حصل على هذا العمل لأنني أعمل معلّماً في المدرسة. لكنني أجيبهم بأن ما يقولونه هراء، لأن بيبرس شاب قوي وشجاع ومؤهل لهذا العمل، وقد يكون جندياً ممتازاً أيضاً. فقد كان متحمساً للذهاب إلى القدس لقتال الصليبيين، لكنني قررت أنا وزوجتي أنه حان الأوان له لكي يستقرّ وينشئ أسرة.

«قلت له: إننا بحاجة إليك هنا يا بني، حيث توجد أشياء كثيرة تجب مواجهتها أيضاً».

وبالفعل توجد أمور تجب محاربتها هنا. وفي هذا الصباح بالذات، قلت لزوجتي إننا نعيش في أوقات عصيبة. وليس من قبيل الصدفة أن نسمع كلّ يوم عن وقوع مأساة جديدة. فإذا انتصر المغول، وإذا تمكن المسيحيون من نشر رسالتهم، وإذا رأينا أعداء الإسلام يدمرون ويسلبون وينهبون مدينة إثر مدينة، وقرية بعد قرية، فذلك لأن الناس أصبحوا مسلمين بالاسم فقط. فعندما لا يتمسك الناس بأهداب الدين ولا يعتصمون بحبل الله، فإنهم سيضلون السبيل. فقد أرسل الله المغول عقاباً لنا على الذنوب والآثام التي ارتكبناها. ولو لم يأت المغول، لوقع زلزال أو حلّت مجاعة أو فيضان. كم كارثة يجب أن تصيبنا بسبب الآثمين الذين يعيثون فساداً في هذه المدينة حتى يفهموا الرسالة ويتوبوا؟ وفي المرة القادمة أخشى أن تمطرنا السماء بالحجارة. وفي يوم قريب، سنزول جميعاً من الوجود، ونقتفي آثار قوم سدوم وعمورة.

أما هؤلاء الصوفيون، فتأثيرهم السيئ شديد. فكيف يجرؤون على تسمية أنفسهم مسلمين وهم يرددون أشياء لا تمت إلى الإسلام بصلة، أشياء يجب ألا تخطر على بال أي مسلم أو يفكّر فيها. إذ يبدأ دمي يغلي عندما أسمعهم يذكرون اسم النبي صلى الله عليه وسلم، لينشروا آراءهم وأفكارهم السخيفة. فهم يدّعون أن النبي محمد قال بعد إحدى المعارك التي خاضها، بأننا عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر - مجاهدة النفس -. ويجادل الصوفيون أنه منذ ذلك الحين أصبحت «النفس» الخصم الوحيد الذي يحاربه المسلم. يبدو هذا الكلام لطيفاً، لكني أتساءل كيف سيساعد ذلك في محاربة أعداء الإسلام؟

بل يذهب الصوفيون شأواً بعيداً إلى حدّ أنهم يدّعون أن الشريعة مجرد مرحلة في الطريق. وأنا أتساءل أي مرحلة، عمّا يتكلمون؟ وكأن هذا بحد ذاته لا يثير الخوف والقلق، فإنك تراهم يجادلون بأن الشخص المتنوّر لا يمكن أن تقيّده قواعد المراحل الأولى. وبما أنهم يدّعون أنهم بلغوا مرتبة سامية، فإنهم يتخذون ذلك ذريعة لتجاهل قواعد الشريعة وعدم الأخذ بها بجدية. إذ يبدو أنهم يعتبرون الشراب والرقص والموسيقى والشعر والرسم أموراً أهم من الواجبات الدينية. ويقولون بما أنه لا توجد تراتبية في الإسلام، فإنه يحق لكلّ إنسان البحث عن الله. في الظاهر يبدو هذا الكلام جيداً لا ضرر منه ولا أذية، لكن بعد التعمق في الأمر، يتبين لك وجود جانب شرّير في فحوى كلامهم، وهو أنه لا حاجة للاستماع إلى الهيئة الدينية.

ويعتبر الصوفيون أن القرآن الكريم مليء بالرموز الغامضة والتلميحات المتعددة الطبقات، وأنه يجب تفسير كلّ منها بطريقة

صوفية باطنية. لذلك فهم يدرسون كيف أن كلّ كلمة تتحول إلى عدد، ويدرسون المعنى الخفي للأعداد، ويبحثون عن الإشارات والمراجع الخفية في النص، ويبذلون كلّ ما بوسعهم لتحاشي قراءة رسالة الله بسهولة ووضوح.

بل يدّعي بعض الصوفيين أن البشر هم القرآن الناطق نفسه. فإذا لم يكن هذا الكلام كفراً مطلقاً، فأنا لا أعرف ما هو؟ وهناك الدراويش الجوّالون، وهم مجموعة مشوشة أخرى من الأشخاص غير الأسوياء الذين اختلطت عليهم الأمور. القلندرية والحيدرية ـ وأسماء كثيرة عدة يعرفون بها. وأنا أقول إنهم أسوأ خلق الله. فما هي الأمور المفيدة التي يمكن أن يجلبها رجل لا يمكنه الاستقرار في مكان واحد. فإذا لم يكن لدى المرء إحساس بالانتماء، فقد يطوف في جميع الاتجاهات، مثل ورقة شجرة هشيم تذروها الرياح. إنه الضحيّة المثالية للشيطان.

وأما الفلاسفة فهم ليسوا بأفضل حال من الصوفيين؛ فهم يجترّون ويفكّرون وكأن عقولهم المحدودة تستطيع أن تدرك غموض الكون. وهناك قصّة تشير إلى ما بين الفلاسفة والصوفيين من تواطؤ.

في أحد الأيام التقى فيلسوف بدرويش، وسرعان ما أصبحا على وئام. وراحا يتحدثان لأيام وأيام، يكمّل أحدهما جملة الآخر.

وأخيراً، عندما افترقا، قال الفيلسوف عن الحديث الذي دار بينهما، «إن كلّ ما أعرفه، يراه».

وأخيراً قال الصوفي: «إن كلّ ما أراه، يعرفه».

وهكذا فإن الصوفي يعتقد بأنه يرى، ويعتقد الفيلسوف بأنه يعرف.

وفي رأيي فهم لا يرون شيئاً ولا يعرفون شيئاً. أفلا يدركون أننا نحن، معشر البشر، باعتبارنا كائنات فانية، ببساطتنا وقدراتنا المحدودة، لا ينتظر منا أن نعرف أكثر مما ينبغي لنا أن نعرفه؟ إذ إن أكثر ما يستطيع الإنسان أن يحققه هو الحصول على قدر يسير من المعلومات عن الله. هذا كلّ شيء. ولا تكمن مهمّتنا في تفسير تعاليم الله، بل في إطاعتها والعمل بها.

عندما يعود بيبرس إلى البيت فإننا سنتحدّث في هذه الأمور. فقد أصبح ذلك عادة من عاداتنا، وطقوسنا الصغيرة. ففي كلّ ليلة بعد أن ينهي دوريته، يتناول الحساء والخبز الذي تعدّه له زوجتي، ونتحدث عما يجري من أحداث في هذه المدينة. ويسرّني كثيراً أن أرى أن شهيته للطعام جيدة. لأنه يجب أن يكون قوياً، إذ إن أمامه كشاب يحمل مبادئ، الكثير من العمل في هذه المدينة الشريرة.

شمس

قونية، ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

قبل ليلة واحدة فقط من لقائي بالرومي، جلست على الشرفة في خان تجار السكّر. كان قلبي يتقد فرحاً بعظمة وروعة الكون الذي خلقه الله على صورته، لذلك أينما استدرنا ونظرنا، نستطيع أن نبحث عنه وأن نجده. لكن البشر نادراً ما يفعلون ذلك.

تذكّرت الأشخاص الذين التقيت بهم: الشحاذ والمومس والسكران. أناس عاديون يعانون من مرض مشترك وهو الانفصال عن الواحد الأحد. هذا النوع من الناس الذين لا يراهم العلماء، الذين يجلسون في أبراجهم العاجيّة. وتساءلت هل يختلف الرومي عنهم؟ وقلت لنفسي إنه إذا لم يكن مختلفاً، فيجب أن أكون الواسطة بينه وبين قاع المجتمع.

وأخيراً غطّت المدينة في سبات عميق. وفي ذلك الوقت من الليل، ترفض حتى الحيوانات الليلية أن تعكّر صفو الهدوء المخيّم على المنطقة. إن الإنصات إلى المدينة وهي غافية يجعلني حزيناً وسعيداً في وقت واحد، وأتساءل ما نوع القصص التي تروى وراء الأبواب

الموصدة، وما هي القصص التي قد أعيشها لو أنني خُيِّرت سلوك طريق آخر. لكني لم أختر، بل الطريق هو الذي اختارني.

تذكّرت حكاية تقول إن درويشاً جوّالاً وصل إلى بلدة لا يثق أهلها بالغرباء، فصاحوا به: «اخرج! ! فلا أحد يعرفك هنا».

فأجاب الدرويش بهدوء، «نعم، لكنني أعرف نفسي، صدّقوني، كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير لو كان غير ذلك».

فما دمت أعرف نفسي، فإن الأمور ستسير على ما يرام. فمن يعرف نفسه، يعرف الواحد الأحد.

غمرني القمر بوهج شعاعه الدافئ. وبدأ رذاذ ناعم يهمي على المدينة، رهيفاً مثل وشاح حريري. شكرت الخالق على هذه اللحظة المباركة، وأسلمت نفسي بين يديه. وتذكّرت أن الحياة هشة وقصيرة، وتذكّرت قاعدة أخرى: ما الحياة إلا دين موقت، وما هذا العالم إلا تقليد هزيل للحقيقة. والأطفال فقط هم الذين يخلطون بين اللعبة والشيء الحقيقي. ومع ذلك، فإمّا أن يفتتن البشر باللعبة، أو يكسروها بازدراء ويرموها جانباً. في هذه الحياة تحاشى التطرف بجميع أنواعه، لأنه سيحطّم اتزانك الداخلي.

فالصوفي لا يتصرف بتطرف، بل يظل متسامحًا، ومعتدلاً على الدوام.

في صباح الغد سأتوجه إلى المسجد الكبير وأستمع إلى الرومي. فقد يكون خطيباً عظيماً كما يقول الجميع عنه، لكن أهمية وشعبية كلّ خطيب تقاسان في النهاية بعدد الأشخاص الذين يأتون لسماع خطبه. قد تكون كلمات الرومي مثل حديقة برّية، مليئة بالنباتات والأعشاب

والصنوبر والشجيرات، لكنه يحق للزائر دائماً أن يلتقط منها ما يشاء. ففي حين يهرع الكثيرون إلى قطف الأزهار الجميلة في الحال، فإن قلة قليلة تبدي اهتماماً بالنباتات ذات الأشواك، لكن الحقيقة هي أنه يمكن صنع أدوية عظيمة منها.

ألا ينطبق الأمر نفسه على حديقة العشق؟ كيف يمكن للعشق أن يكون جديراً باسمه ما لم يختر المرء منه إلا الأشياء الجميلة، ويترك الأشياء الصعبة؟ فمن السهل الاستمتاع بالأشياء الجيدة، والنفور من الأشياء السيئة. يمكن لأي امرئ أن يفعل ذلك. لكن التحدي الحقيقي هو أن يحبّ المرء الأشياء الجيدة والسيئة معاً، لا لأنه يجب أن يتقبّل الأشياء بحلوها ومرّها، بل لأنه يجب أن يتجاوز هذه الأوصاف، وأن يتقبّل الحبّ برمته.

لم يبق سوى يوم واحد حتى ألتقي برفيقي. لقد جافاني النوم.

أيها الرومي! ملك عالم الكلمات والمعاني! هل ستعرفني عندما تراني؟

لنلتق!

الرومي

قونية، ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤

إنه ليوم مبارك حقاً، فقد التقيت شمس التبريزي. ففي هذا اليوم، وهو آخر يوم من شهر تشرين الأول (أكتوبر) كان الهواء أكثر برودة، وهبّت رياح أقوى، معلنة انتهاء الخريف. وكالعادة كان المسجد مكتظاً بالمصلين في عصر هذا اليوم. فعندما أعظ الحشود الغفيرة، فإني أحرص دائماً على ألا أنسى المؤمنين الذين يستمعون إلى خطبي. ولا توجد إلا وسيلة واحدة لعمل ذلك وهي أن أتخيّل أن الحشد شخص واحد، فعلى الرغم من أن المئات يستمعون إلى خطبي كلّ أسبوع، فإني أكلّم شخصاً واحداً فقط على الدوام، وهو الشخص الذي يسمع صدى كلماتي تتردّد في قلبه، والذي يعرفني كما لا يعرف أحداً آخر.

عندما أنهيت خطبتي وخرجت من المسجد، كانوا قد جهّزوا لي حصاني. وكانوا قد ضفروا عرف الحصان بخيوط من الأجراس الفضية والذهبية الصغيرة. كنت أجد متعة في سماع رنين الأجراس في كلّ خطوة يخطوها، لكن كان يستحيل عليّ أن أمضي بسرعة أكبر

وأمامي هذا العدد الكبير من الأشخاص الذين يسدّون طريقي. وببطء رحنا نمر أمام محلات وبيوت متداعية ذات سقوف مصنوعة من القش، وقد اختلطت نداءات البائعين ببكاء الأطفال وصيحات الشحاذين الذين يطلبون حفنة من النقود. وكان معظم الناس يريدون أن أباركهم وأبتهل من أجلهم، وكان بعضهم الآخر يكتفي بالسير بالقرب مني، لكن كان لدى بعضهم الآخر توقّعات أكبر، فكانوا يطلبون مني أن أشفيهم من مرض عضال، أو من رقية شريرة. كان هؤلاء هم الذين يثيرون قلقي، فكيف لا يرون أنه لم يكن بمقدور النبي ولا أي حكيم آخر، الإتيان بأي معجزة من هذا القبيل؟

عندما انعطفنا عند ناصية الشارع، واقتربنا من خان تجار السكّر، لمحت ولياً تقياً جوّالاً يشقّ طريقه عبر الحشد، يتهادى نحوي مباشرة ويرمقني بعينين ثاقبتين. كانت حركاته حاذقة ومركّزة، وكانت تشعّ منه هالة من القدرة الذاتية. كان حليقاً، لا لحية له، ولا حاجبين. ومع أن وجهه كان مكشوفاً كما ينبغي لوجه أي رجل أن يكون، فإن قسمات وجهه يكتنفها الغموض.

لكن لم يكن مظهره هو الذي فتنني وجذب انتباهي. فخلال سنوات كثيرة، رأيت دراويش جوّالين من جميع الأنواع يجتازون قونية سعياً وراء الله. ويُعرف معظم هؤلاء الدراويش بسلوكهم المشاكس، بأوشامهم البارزة، وأقراطهم العديدة، والحلقات في أنوفهم. وكانوا إمّا يطيلون شعورهم، أو يحلقونها تماماً، بل إن بعض الدراويش من الطريقة القلندرية يثقبون ألسنتهم وحلماتهم بحلقات. لذلك عندما وقعت عيناي على هذا الدرويش، لم تكن قشرته الخارجية هي التي أثارت انتباهي، بل يمكنني القول إن نظرته هي التي فتنتني.

كانت عيناه السوداوان تحدّقان بي بنظرة أحدّ من الخنجر. وقف في منتصف الشارع، ورفع ذراعيه عالياً، وفتحهما على وسعيهما، وكأنه لم يكن يريد أن يوقف الموكب فقط، بل يوقف تدفق الزمن كذلك.

أحسست برعدة تسري في أوصالي، مثل حدس مفاجئ. وتوتر حصاني وبدأ يصهل بصوت مرتفع، وراح يهزّ رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل. حاولت أن أهدئ من روعه، لكنه أجفل، واعتراني شعور بالتوتر أنا أيضاً.

أمام عينيَّ اقترب الدرويش من حصاني، الذي أجفل، وهمس شيئاً في أذنه. بدأ الحصان يتنفّس بصعوبة، لكنه عندما لوّح بيده بإيماءة نهائية، هدأ الحصان على الفور، وسرت موجة من الحماسة في الحشد، وسمعت أحدهم يتمتم، ويقول: «هذه شعوذة».

نظر الدرويش إليّ بفضول، غير عابئ بما يحيط به، وقال: أيها العالم العظيم في الشرق والغرب، لقد سمعت عنك الكثير. لقد جئت إلى هنا اليوم لأسألك سؤالاً، لو سمحت؟».

«تفضل»، قلت هامساً.

«حسناً، يجب عليك أولاً أن تترجل عن حصانك كي نكون على سوية واحدة».

ذهلت لسماع ذلك، فلم أتمكن من أن أنبس بكلمة لوهلة؛ وأبدى الناس حولي دهشتهم، فلم يجرؤ أحد على مخاطبتي بهذه الطريقة.

أحسست بوجهي يلتهب، وببطني تؤلمني، لكني كبحت انزعاجي وترجلت عن حصاني. كان الدرويش قد أدار ظهره وسار مبتعداً.

«يا صاح، انتظر»، صحت ولحقت به، «أريد أن أسمع سؤالك».

توقّف واستدار، وابتسم لي لأول مرة، وقال: «حسناً، قل لي أرجوك، من هو الأعظم برأيك: النبي محمد أم الصوفي أبو يزيد البسطامي؟».

فقلت: «ما هذا السؤال؟ كيف يمكنك أن تقارن بين نبينا العظيم عليه الصلاة والسلام، خاتم الأنبياء والمرسلين، وبين صوفي سيئ السمعة؟».

تجمّع حولنا حشد من الناس الفضوليين، لكن الدرويش بدا غير مكترث بهم، وقال بإلحاح وهو لا يزال يحدّق في وجهي: «أرجو أن تفكّر في الموضوع. أفلم يقل النبي: يا رب اغفر لي عجزي عن معرفتك حق المعرفة، في حين قال البسطامي: طوبى لي، فأنا أحمل الله داخل عباءتي؟ فإذا كان هناك رجل يشعر بأنه صغير بالنسبة لله، بينما يدّعي رجل آخر بأنه يحمل الله في داخله، فأيهما أعظم؟».

بدأ قلبي يخفق بقوة. فما عاد السؤال يبدو غريباً. في الواقع، بدا كأن حجاباً قد أزيل وكان تحته لغز مثير ينتظرني. ارتسمت على شفتيّ الدرويش ابتسامة ماكرة، مثل نسيم عابر. وعرفت الآن أنه ليس مجنوناً، بل مجرد رجل يطرح سؤالاً، سؤال لم أفكّر به من قبل.

«أرى ما تحاول أن تقوله»، قلت له، ولم أرغب في أن يسمع الرعشة التي اعترت صوتي المتهدج، «سأقارن بين القولين. ومع أن قول البسطامي يبدو أعلى، فإني سأخبرك لماذا إن العكس هو الصحيح».

فقال الدرويش: «كلي آذان صاغية».

«كما ترى، فإن حبّ الله محيط لا نهاية له، ويحاول البشر أن ينهلوا منه أكبر قدر من الماء. لكن في نهاية المطاف، يعتمد مقدار الماء الذي يحصل عليه كلّ منا على حجم الكوب الذي يستخدمه. ففي حين

يوجد لدى البعض براميل، ولدى البعض دلاء، فإن لدى البعض الآخر طاسات فقط».

بينما كنت أتحدّث، رحت أراقب قسمات الدرويش وهي تتحوّل من ازدراء خفيف إلى شكر واضح، ومنها إلى ابتسامة رقيقة لشخص يرى أفكاره في كلمات شخص آخر.

«كان وعاء البسطامي صغيراً بعض الشيء، وقد روى عطشه بعد أن نهل جرعة، وكان سعيداً بالمرحلة التي بلغها. كان شيئاً عظيماً أن يدرك الإله في نفسه، لكن بالرغم من ذلك،لم يتمكن من التمييز بين الله وبين وحدة النفس. أما النبي، فقد اختاره الله ولديه كوب أكبر بكثير لكي يملأه. لذلك سأله الله في القرآن: ألم نشرح لك صدرك؟ وهكذا شرح صدره، وكان كوبه ضخماً، كان عطشاً على عطش بالنسبة له. ولا عجب أنه قال: «إننا لا نعرفك كما ينبغي لنا أن نعرفك، مع أنه من المؤكد أنه يعرفه كما لا يعرفه شخص آخر».

ابتسم الدرويش ابتسامة عريضة ودودة، وأومأ وشكرني. ثمّ وضع يده على قلبه ببادرة امتنان، ولبث هكذا لبضع ثوان. وعندما التقت عيوننا ثانية، لاحظت مسحة من اللطف قد تسللت إلى نظرته.

رحت أحدّق وراء الدرويش ورأيت المشهد الطبيعي الرمادي اللؤلؤي الذي يميّز مدينتنا في هذا الوقت من السنة. وانسلت بضع أوراق أشجار جافة حول أقدامنا: وراح الدرويش ينظر إليّ باهتمام متجدّد، وفي ضوء الشمس الآفلة للغروب، أقسم بأنني لوهلة رأيت حوله هالة عنبرية اللون.

انحنى لي احتراماً، وانحنيت له. لا أدري كم وقفنا هكذا، كانت السماء بلونها البنفسجي تتدلى فوق رؤوسنا. وبعد قليل، بدأ الناس

المتحلقون حولنا يتململون بعصبية، بعد أن كانوا يراقبوننا ونحن نتبادل الحديث بدهشة تكاد تتسم بالرفض. إذ لم يرني أحد أنحني لأي شخص قط، لذلك صدم البعض عندما رأوني أنحني لصوفي جوّال بسيط، بمن فيهم أقرب المريدين لي.

لا بد أن الدرويش شعر باستياء عامة الناس.

«من الأفضل لي أن أذهب الآن وأتركك مع مريديك»، قال، وانخفض صوته ليصبح مثل جرس مخملي، يكاد يكون همساً.

فقلت معترضاً: «انتظر. لا تذهب، أرجوك. ابق».

لمحت مسحة من الاهتمام على وجهه، وزمّ شفتيه بحزن، كما لو كان يريد أن يقول شيئاً لكن إما أنه لم يستطع، أو أنه لم يشأ أن يقوله. وفي تلك اللحظة، في فترة الصمت القصيرة تلك، سمعت السؤال الذي لم يسألني إياه.

وماذا عنك أنت، أيها الخطيب العظيم؟ قل لي، ما هو حجم كوبك؟

لم يكن لديّ شيء أقوله، فقد نضبت الكلمات مني. اقتربت من الدرويش حتى إني رأيت الخطوط الذهبية في عينيه السوداوين. وفجأة غمرني إحساس غريب، كما لو أنني كنت قد عشت هذه اللحظة من قبل. لا مرة واحدة، بل أكثر من عشر مرات. وبدأت أتذكر شذرات. رجل طويل نحيف يستر وجهه بحجاب، وأصابعه ملتهبة. ثم أدركت. فلم يكن الدرويش الواقف أمامي إلا ذاك الرجل الذي كنت أراه في أحلامي دائماً.

عرفت أنني وجدت رفيقي. لكن بدلاً من أن أبتهج نشوة، كما خيّل إليّ، غمرني شعور بالرهبة.

إيلا

نورثامبتون، ٨ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

وجدت إيلا، المحاطة بأسئلة لم تجد لها إجابات شافية، أن عدة أشياء فاجأتها في رسائلها المتبادلة مع عزيز، وخاصة الحقيقة بأنها تحدث فعلاً. فقد كانا مختلفين تمام الاختلاف من جميع الجوانب، الأمر الذي جعلها تتساءل عمّا قد يجمع بينهما من الأمور المشتركة حتى يتبادلا الرسائل.

فقد كان عزيز يشبه لوحة مركبة مؤلفة من قطع كثيرة. ففي كلّ رسالة إلكترونية جديدة كان يرسلها، كانت توضع قطعة أخرى في مكانها الصحيح في تلك اللوحة. كانت إيلا ترغب في رؤية اللوحة كلها، لكنها اكتشفت عدة أمور عن الرجل الذي تبادله الرسائل.

ومن مدوّنة عزيز على الإنترنت، علمت إيلا أنه مصور محترف يجول في أنحاء الكرة الأرضية، ويجد في الذهاب إلى أقصى أقاصي المعمورة أمراً طبيعياً وسهلاً كأنه يتنزه في حديقة الحيّ. بدوي عنيد في الصميم، جاب أرجاء الدنيا، يرتاح في كل مكان يحلّ فيه، سواء أكان في سيبيريا، أم في شنغهاي، أم في كلكتا، أم في الدار البيضاء.

يسافر حاملاً معه حقيبة ظهر ونايا مصنوعاً من القصب، ويتخذ لنفسه أصدقاء في أماكن لا تستطيع إيلا أن تحدد موقعها حتى على الخريطة. ويصادف حرس حدود فظين يصعب التعامل معهم، ويجد صعوبة في الحصول على تأشيرات دخول إلى بلدان فيها حكومات غير ودية، ويتعرض للإصابة بأمراض طفيلية تنتقل عن طريق الماء، واضطرابات معوية من تناول أطعمة ملوثة، ويتعرض لخطر السرقة، والصراعات الدائرة بين القوات الحكومية والثوار، لم يكن هناك شيء يمكن أن يحول بينه وبين الترحال شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً.

قالت إيلا لنفسها إن عزيز شلال هادر. فقد كان ينطلق بكامل طاقته وقوته إلى أماكن تخاف أن تطأها. وفي حين كانت إيلا تتردّد وتقلق قبل الإقدام على أي عمل، إذ تكون متحمسة جداً في البداية، ثم يعتريها التردد والقلق، لم يكن يعتريه هو أي قلق. فشخصيته مفعمة بالحيوية، وهو يتصف بقدر كبير من المثالية والمحبة لا يمكن أن يسعهما جسد واحد. لقد كان يعتمر قبعات عدة، وكان يستطيع أن يعتمرها جميعها بشكل جيد.

كانت إيلا ترى نفسها امرأة متحررة، تنتمي إلى الحزب الديمقراطي، يهودية غير متدينة، ونباتية طموحة، عازمة على إزالة جميع أنواع اللحم من وجبات طعامها ذات يوم. وكانت تصنّف الأمور في فئات واضحة، وتنظّم عالمها كما تنظّم شؤون بيتها، بدقة وترتيب. وكان عقلها يعمل بقائمتين متعارضتين طويلتين: الأشياء التي تحبّها إزاء الأشياء التي تكرهها.

ومع أن إيلا لم تكن متديّنة، فقد كانت تستمتع بممارسة بعض

الطقوس الدينية من حين لآخر، وكانت ترى أن الدين هو المشكلة الرئيسية التي تشغل العالم اليوم، كما كانت تشغله في الماضي. فقد كان المتدينون، بغطرستهم الشديدة، وإيمانهم الذاتي بتفوق أساليبهم وأفعالهم، يثيرون أعصابها. فهي لا تحتمل المتعصّبين مهما كانت دياناتهم وطوائفهم، لكنها كانت تظن في أعماقها بأن المتعصّبين المسلمين هم الأسوأ.

أما عزيز فكان رجلاً روحانياً، يأخذ الأمور الدينية والإيمان بجدية، ويبتعد عن الأمور السياسية المعاصرة، ولم يكن «يكره» شيئاً أو أحداً. وكان آكل لحم نهماً، ويقول إنه لا يستطيع أن يرفض طبق كباب لذيذاً. وقد اعتنق الإسلام بعد أن كان ملحداً في منتصف السبعينات، كما يقول ساخراً، «بعد كريم عبد الجبّار، وقبل كات ستيفنز». ومنذ ذلك الحين، أصبح يقتسم الخبز مع مئات الصوفيين من مختلف البلدان والأديان، ويقول إنهم «إخوة وأخوات على طول الطريق».

كان عزيز رجلاً مسلماً، يرفض العنف، وله آراء إنسانية قوية، وكان يؤمن بأن جميع الحروب الدينية هي في جوهرها «مشكلة لغوية». فهو يقول إن اللغة تخفي الحقيقة أكثر مما تكشفها، لذلك، يسيء الناس دائماً فهم أحدهم للآخر وتقديره له. وفي عالم محفوف بالترجمات السيئة، لا فائدة ترجى في أن يكرس المرء نفسه لأيّ موضوع، لأنه يمكن أن تكون أشد قناعاتنا ناجمة عن سوء فهم بسيط. وبصورة عامة، يجب ألاّ يكون المرء متشدداً ومتصلباً في أيّ شيء لأنه «لكي يعيش المرء لا بد له من أن يغيّر الألوان باستمرار».

كان عزيز وإيلا يعيشان في مناطق تختلف في توقيتها، من الناحية

الحرفية والمجازية. فالزمن يعني لها المستقبل بشكل رئيسي. فقد أمضت شطراً كبيراً من أيامها وهي تفكر بهوس في وضع خطط للسنة التالية، للشهر التالي، لليوم التالي، بل حتى للدقيقة التالية. حتى في الأمور البسيطة كالتسوّق أو استبدال كرسي مكسور، كانت إيلا تخطّط لكلّ تفصيل مقدماً، وتنفذ أعمالها وفق جداول وقوائم دقيقة تملأ حقيبتها.

أما الزمن في تصور عزيز، فيتمحور حول اللحظة الراهنة، وأيّ شيء سوى هذه اللحظة، ليس إلا وهماً فحسب. وللسبب نفسه، فإنه يعتقد بأن لا علاقة للحبّ «بخطط الغد» أو «بذكريات علاء الدين البارحة»؛ فلا يمكن أن يكون الحبّ إلاّ هنا والآن. وقد اختتم إحدى رسائله السابقة بهذه العبارة: «أنا صوفي، طفل اللحظة الراهنة».

فردت عليه إيلا: «من الغرابة أن تقول ذلك لامرأة تفكّر بالماضي كثيراً، وتفكّر بالمستقبل أكثر، لكن بطريقة ما، لم تمسّها اللحظة الراهنة».

علاء الدين

قونية، ١٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٤

بالصدفة لم أكن موجوداً عندما اعترض الدرويش طريق أبي. فقد خرجتُ في رحلة لصيد الغزلان مع بعض الأصدقاء وعدت في اليوم التالي؛ وأصبح الآن لقاء أبي بشمس التبريزي الحديث السائر على كل لسان. فقد تساءل الناس من هو هذا الدرويش، وكيف يمكن لعالم جليل مثل الرومي أن يأخذه بجدية، إلى درجة أن ينحني له؟

فمنذ أن كنت صبياً، كنت أرى الناس ينحنون أمام أبي، ولم أكن أتخيّل أن يأتي يوم أرى فيه أبي وهو ينحني لشخص آخر، غير الملك أو الصدر الأعظم. لذلك لم أصدّق نصف ما سمعته ولم أنزعج، إلا عندما وصلت إلى البيت، وأكدت لي كيرا، زوجة أبي، التي لا تكذب ولا تبالغ أبداً، القصّة كلها. نعم، صحيح أن درويشاً يدعى شمس التبريزي تحدّى أبي أمام عامة الناس، بل ويعيش في بيتنا حالياً.

من هو هذا الغريب الذي هبط إلى حياتنا مثل صخرة غامضة قذفتها السماء؟ متلهّفاً لرؤيته بأمّ عيني، سألت كيرا: «إذاً أين هو هذا الرجل؟».

«اصمت»، قالت كيرا هامسة، بشيء من التوتر، «أبوك والدرويش في المكتبة».

تناهى إلينا صوتهما من بعيد، مع أنه كان يستحيل علينا تبيّن ما يقولانه. توجّهت نحو المكتبة، لكن كيرا أوقفتني.

«انتظر. لقد طلبا ألا يزعجهما أحد». ولم يغادرا المكتبة طوال النهار، ولم يخرجا منها في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي تلاه. عمّ يتكلمان؟ ما الذي يمكن أن يجمع بين شخص مثل أبي ودرويش بسيط؟

مرّ أسبوع، ثمّ أسبوع آخر. وفي كلّ صباح كانت كيرا تعدّ طعام الفطور وتضعه في صينية أمام باب غرفتهما. ومهما كانت أطايب الطعام التي أُعدّت لهما، كانا يرفضانها، وكانا يكتفيان بتناول قطعة من الخبز في الصباح وكوب من حليب الماعز في المساء.

خلال هذه الفترة، تملكني الذعر والقلق، واعتراني مزاج سيئ. وخلال ساعات مختلفة طوال اليوم، لم أترك ثقباً أو شقّاً في الباب إلا وجربّته لاختلاس النظر إلى داخل المكتبة. ولم أكن أعبأ إذا ما فتحا الباب فجأة، ووجداني أسترق السمع، وكنت أمضي وقتاً طويلاً وأنا منحنٍ، أحاول أن أفهم ماذا يتحدّثان. لكن كلّ ما كنت أسمعه مجرد همهمة منخفضة. ولم أكن أرى الكثير أيضاً، فقد كانت الغرفة شبه معتمة، بسبب الستائر نصف المسدلة. وعندما لم أر أو أسمع الكثير، تركت عقلي يملأ الصمت، ويختلق الأحاديث التي يمكن أن تدور بينهما.

ذات مرة، وجدتني كيرا وأنا أضع أذني على الباب، لكنّها لم تقل

شيئاً. فقد كانت متشوقة أكثر مني لمعرفة ما يجري. فالفضول طبع من طبائع النساء.

لكن الأمر كان مختلفاً عندما رآني أخي، سلطان ولد، وأنا أتنصّت عليهما، فقد حدجني بنظرة ثاقبة، واشتعل وجهه غيظاً.

«لا يحقّ لك أن تتجسّس على الآخرين، ولا سيما والدك»، قال موبخاً.

هززت كتفي وقلت: «أصدقني القول يا أخي، ألا يزعجك أن يمضي والدنا وقته مع شخص غريب؟ لقد مضى عليهما أكثر من شهر، أهمل والدنا خلاله أسرته. ألا يضايقك ذلك؟».

«لم يهملنا والدنا»، قال أخي، «فقد وجد في شمس التبريزي صديقاً جيداً، فبدلاً من أن تنزعج وتتذمر مثل تلميذ مدرسة، يجب أن تكون سعيداً لأبينا، إن كنت تحبّه حقاً».

هذه هي الأمور التي يمكن لأخي أن يقولها. وبما أنني كنت قد اعتدت على ملاحظاته، فلم أمتعض من ملاحظاته القاسية. فقد كان دائماً ذلك الفتى اللطيف، العزيز على قلب الأسرة والحيّ، الابن الأثير لدى أبي.

وبعد أربعين يوماً من اعتكاف أبي والدرويش في المكتبة، حدث شيء غريب. فقد كنت مقرفصاً عند الباب، أتنصت على صمت أشدّ من المعتاد، سمعت الدرويش يرفع صوته فجأة.

«لقد مرّ أربعون يوماً على خلوتنا هنا، وكنا نناقش كلّ يوم قاعدة من قواعد العشق الأربعين لدين الحبّ. أما الآن، بعد أن فرغنا منها، أظن من الأفضل أن نخرج، فلعل غيابك أزعج أسرتك».

فقال أبي معترضاً: «لا تقلق. إن زوجتي وأبنائي على درجة كبيرة من النضج، ويفهمون أنني قد أحتاج إلى بعض الوقت لأمضيه بعيداً عنهم أحياناً».

«حسناً، فأنا لا أعرف شيئاً عن زوجتك، لكن ابنيك مختلفان كاختلاف الليل والنهار»، ردّ شمس، «إذ إن ابنك الأكبر يسير على خطاك، أما ابنك الأصغر، فإني أخشى أنه يسير في طريق مختلف تماماً. إذ تغمر قلبه الكراهية والحسد».

اشتعلت وجنتاي غضباً. كيف يمكنه أن يتفوّه بأمور سيئة كهذه عنيّ ونحن لم نلتق معاً قط.

«يخيّل إليه أنني لا أعرفه، لكنني أعرفه جيداً»، قال الدرويش بعد قليل، «فهو يجلس مقرفصاً ويلصق أذنه بالباب، يراقبني من شقوق الباب، وأنا أراقبه أيضاً».

سرت في جسدي رعشة مفاجئة باردة، وانتصب شعر ذراعيّ. وبشكل تلقائي، دفعت الباب ودخلت الغرفة. توسّعت عينا أبي غير مصدق، لكن سرعان ما حلّ الغضب محل صدمته.

«علاء الدين، هل فقدت عقلك؟ كيف تجرؤ على إزعاجنا بهذه الطريقة»، قال أبي هادراً.

متجاهلاً سؤاله، أشرت إلى شمس وصحت: «لماذا لا تسأله أولاً كيف يجرؤ على التحدّث عني هكذا؟».

لم ينبس أبي بكلمة، بل نظر إليّ، وأخذ نفساً عميقاً، كأن وجودي عبء ثقيل يثقل كاهله.

«أرجوك يا أبي، إن كيرا مشتاقة إليك، وكذلك تلاميذك. كيف

يمكنك أن تولي ظهرك لأحبائك من أجل درويش سيئ؟».

ما إن تفوهت بهذه الكلمات، حتى ندمت على قولها، لكن فات الآوان. فحدّق أبي فيّ وفي عينيه استياء شديد. لم أره هكذا من قبل قط.

«علاء الدين، أخرج من هنا ـ حالاً»، قال أبي، «اذهب إلى مكان هادئ وفكّر بما فعلته. لا تكلمني حتى تفكّر ملياً في داخلك وتعرف خطأك».

«لكن، يا أبي . . .».

«اخرج»، كرّر أبي، مشيحاً بوجهه عني.

بقلب كليم، غادرت الغرفة. كانت راحتا يديّ مبللتين، وركبتاي تصطكان.

في تلك اللحظة، عرفت أن حياتنا قد تغيّرت بطريقة غير مفهومة، وأن الأمور لم تعد كما كانت. ومنذ وفاة أمّي قبل ثماني سنوات، كانت هذه هي المرة الثانية التي أشعر فيها بأن أبي قد هجرني.

الرومي

قونية، ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٢٤٤

باطن الله ـ يا وجه الله المخفي. افتح لي عقلي حتى يمكنني أن أرى الحقيقة.

عندما سألني شمس التبريزي عن النبي محمد والصوفي البسطامي، أحسست كما لو كنا الشخصين الوحيدين المتبقيين على وجه الأرض، وقد انبسطت أمامنا الأطوار السبعة على طريق الحقيقة ـ سبعة مقامات يجب على كلّ روح أن تكابدها حتى تبلغ الوحدانية.

الطور الأول هو النفس الأمارة، وهو أشدّ الأطوار بدائية وانتشاراً في الوجود، عندما تقع الروح في شرك المساعي الدنيوية. ويبقى معظم الناس في هذا الطور، يجاهدون ويعانون في العمل لأنهم منهمكون في خدمة ذواتهم الوضيعة، لكنهم يحمّلون الآخرين على الدوام مسؤولية شقائهم المستمر.

وعندما يدرك المرء الحالة التي وصل إليها من انحطاط الروح، يبدأ في جهاد النفس حتى ينتقل إلى الطور التالي الذي هو عكس الطور الأول. فبدلاً من أن ينحي باللائمة على الآخرين دائماً، يبدأ المرء

الذي بلغ هذا الطور بنفسه، تصل أحياناً إلى درجة محو الذات. وهنا تصبح النفس اللوامة وبذلك يبدأ الرحلة نحو النقاء الداخلي.

وفي الطور الثالث، يزداد المرء نضجاً وتنتقل النفس لتصبح النفس الملهمة. وفي هذا الطور فقط، وليس قبله، يتمكن المرء من معرفة المعنى الحقيقي لكلمة «الخضوع»، ويبدأ في الطواف في وادي المعارف الإلهية. والمرء الذي يبلغ هذه المرحلة يمتلك الصبر، والمثابرة، والحكمة، والتواضع، ويبدو العالم له جديداً مليئاً بالإلهام. بيد أن معظم الذين يبلغون المقام الثالث هذا، يرغبون في البقاء فيه، ويفقدون الرغبة في الانتقال أو الشجاعة للانتقال إلى الأطوار الأخرى. لذلك، مع أن الطور الثالث يبدو جميلاً ومباركاً، فإنه بمثابة شرك للشخص الذي يتطلع إلى بلوغ درجة أعلى.

أما الذين يتمكنون من المضي قدماً، فهم يبلغون وادي الحكمة ويعرفون النفس المطمئنة. وهنا يختلف إحساس النفس عما كانت عليه، لأنها ترتقي إلى درجة أعلى من الوعي. ومن الصفات التي تلازم الذين بلغوا هذا الطور: الكرم، والعرفان، والشعور الدائم بالرضا، مهما بلغت مشاق الحياة ومصاعبها. ثم يأتي وادي الوحدة. ويشعر المرء الذي يبلغ هذا المقام بالرضا مهما كان الوضع الذي يضعه الله فيه. فلا تهمه الأمور الدنيوية، لأنه بلغ النفس الراضية.

وفي الطور التالي، تأتي النفس المرضية، حيث يصبح المرء مشكاة للإنسانية، يبثّ الطاقة في كلّ من يطلبها، ويعلّم وينوّر مثل أستاذ حقيقي. وقد يمتلك المرء أحياناً قوى شافية أيضاً. فحيثما ذهب، يحدث أثراً كبيراً في حياة الآخرين. ففي كلّ شيء يفعله ويصبو إلى

عمله، يكون هدفه الرئيسي خدمة الله من خلال خدمة الآخرين.

وأخيراً يأتي الطور السابع، حيث يبلغ المرء النفس النقية ويصبح «الإنسان الكامل». لكن أحداً لا يعرف الكثير عن هذه الحالة، التي حتى لو بلغها البعض، فإنهم لا يتكلّمون عنها.

يسهل تلخيص أطوار بلوغ الطريق، ويصعب اجتيازها. ومما يزيد من العقبات التي تظهر على طول طريق الحقيقة، عدم وجود ما يكفل الاستمرار في المضي قدماً. فالطريق من الطور الأول حتى الطور الأخير ليس خطاً مستقيماً البتة؛ وهناك دائماً احتمال السقوط والعودة إلى الأطوار الأولى، ويكون السقوط أحياناً من أعلى الأطوار إلى الطور الأول. وبسبب كثرة الأفخاخ المنصوبة على طول الطريق، فلا عجب ألا يتمكن من بلوغ الأطوار النهائية سوى قلة قليلة في كلّ قرن.

* * *

لذلك، عندما سألني شمس هذا السؤال، لم يكن في نيته عقد مقارنة، بل كان يريد أن يعرف مدى استعدادي للمضي في محو شخصيتي حتى أذوب في الله. وكان هناك سؤال خفي داخل سؤاله الأول.

«وماذا عنك، أيها الخطيب العظيم؟»، سألني، «فمن بين الأطوار السبعة، في أيّ طور أنت الآن؟ وهل تظن أن لديك الشجاعة للمضي حتى النهاية؟ قل لي، ما هو حجم كوبك؟».

كيرا

قونية، ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٤

إن التحسّر على قدري لا يجدي نفعاً. لكني على الرغم من ذلك، كنت أتمنى أن أطّلع أكثر على الأمور المتعلقة بالدين والتاريخ والفلسفة، وعلى جميع الأمور التي يتحدث عنها الرومي وشمس آناء الليل وأطراف النهار. وتمرّ أوقات تعتريني فيها الرغبة في التمرّد لأنني خلقت امرأة. فعندما تولدين بنتاً، يجب أن تتعلّمي الطهو والتنظيف، وغسيل الملابس الوسخة، ورتق الجوارب القديمة، وصنع الزبدة والجبن، وإرضاع الأطفال. كما تُعلَّم بعض النساء فنّ الحبّ وكيف يجعلن أنفسهن جذّابات للرجال. لكن هذا كلّ شيء؛ فلا أحد يعطي النساء كتباً حتى لا يفتحن عيونهن.

ففي السنة الأولى من زواجنا، كنت أتسلل إلى مكتبة الرومي كلما أتيحت لي الفرصة، فأجلس في وسط الكتب التي يحبّها كثيراً، أتنشق الغبار الذي يكسوها، ورائحة العفن، وأتساءل ما هي الألغاز التي تخفيها في داخلها. كنت أعرف كم يعشق الرومي كتبه التي أورثه معظمها والده الراحل، بهاء الدين. ومن بين هذه الكتب كان مغرماً

بكتاب «المعارف». فقد سهر العديد من الليالي حتى مطلع الفجر يقرأها، ويخيّل إليّ أنه حفظها كلها عن ظهر قلب.

كان الرومي يقول: «حتى لو دفعوا لي أكياساً من الذهب، فلن أبادل كتب أبي بأي شيء آخر. فكلّ كتاب هو تراث ثمين خلّفه لي أسلافي، وقد ورثتها من أبي، وسأورثها إلى أبنائي».

لقد عرفت كم كانت كتبه تعني له. ففي أحد الأيام، خلال السنة الأولى من الزواج، كنت وحدي في البيت، وخطر لي أن أنظّف المكتبة. فأنزلت كلّ الكتب من على الرفوف، ونظّفت أغلفتها بقطعة من المخمل مبللة بماء الورد. ويعتقد السكان المحليون أنه يوجد جني صغير يدعى «كيبيك»، يستمتع بإتلاف الكتب. ولمنعه من عمل ذلك، كانوا يدوّنون عبارة تحذيرية في كلّ كتاب: «توقف يا كيبيك، ابتعد عن هذا الكتاب». كيف لي أن أعرف أن كيبيك لم يكن الوحيد الذي يجب أن يبتعد عن كتب زوجي، بل أنا أيضاً؟

ففي عصر ذلك اليوم، أزلت الغبار ونظّفت جميع الكتب في المكتبة. وبينما كنت أفعل ذلك، رحت أقرأ كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي. وعندما سمعت صوتاً جافاً ورائي أدركت أنني أمضيت وقتاً طويلاً في القراءة.

«كيرا، ماذا تظنين أنك تفعلين هنا؟».

كان الرومي، أو أحد آخر يشبهه ـ فقد كانت نبرة صوته أكثر حدّة، أكثر صرامة. فخلال السنوات الثماني من زواجنا، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يكلّمني فيها بهذه الطريقة.

«إني أنظّف»، تمتمت بصوت واهن، «أردت أن أجعل ذلك مفاجأة لك».

فردّ الرومي قائلاً: «أفهم ذلك، لكن أرجو ألاّ تلمسي كتبي مرة أخرى. وفي الحقيقة، أفضّل ألاّ تدخلي هذه الغرفة على الإطلاق».

لم أدخل المكتبة بعد ذلك اليوم، حتّى عندما لا يكون أحد في البيت. فقد فهمت وقبلت بأن عالم الكتب لم يكن ولن يكون لي.

لكن عندما جاء شمس التبريزي إلى بيتنا، واختلى هو وزوجي في المكتبة أربعين يوماً، أحسست باستياء يعتمل في صدري. جرح لم أعرف أنه بدأ ينزف.

كيميا

قونية، ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٤

ولدت في أسرة بسيطة من الفلاحين في أحد سهول جبال طوروس، وتبنّاني الرومي عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. وكان والداي الحقيقيان من أولئك الذين يعملون كثيراً ويشيخون قبل أوانهم. وكنا نعيش في بيت صغير، وكنت أنا وأختي نتقاسم الغرفة مع أشباح أشقائنا الموتى، الأطفال الخمسة الذين ماتوا جميعاً بسبب إصابتهم بأمراض بسيطة. كنت الوحيدة في البيت التي تستطيع رؤية الأشباح. وكانت أختي وأمّي تخافان وتبكيان كلّما ذكرت ماذا تفعل الأرواح الصغيرة. وكنت أحاول أن أقنعهما، بلا جدوى، بألاّ تخافا أو تقلقا من شيء، لأنه لم يكن يبدو على أي من أشقائي الموتى بأنه خائف أو حزين. لكني لم أفلح في إقناع أسرتي بذلك.

وفي أحد الأيام، مرّ ناسك بقريتنا، وعندما رآه أبي متعباً، دعاه لقضاء الليلة في بيتنا. وفي تلك الأمسية، بينما كنا نتحلق جميعاً حول الموقد نشوي جبن ماعز، حكى لنا الناسك قصصاً ساحرة من أراض بعيدة. وبينما كان يروي لنا قصصه، أغمضت عيني، وسافرت معه

إلى الصحراء العربية، وإلى مضارب البدو في شمال أفريقيا، وإلى بحر مياهه من أشد المياه زرقة، يطلقون عليه اسم البحر الأبيض المتوسط. وعثرت على شاطئه على صدفة كبيرة ملفوفة، فوضعتها في جيبي. وكنت أزمع أن أمشي على الشاطئ من بدايته إلى نهايته، لكن رائحة كريهة، حادّة، أوقفتني في منتصف الطريق.

عندما فتحت عينيَّ، وجدت نفسي ممددة على الأرض وقد أحاط بي جميع من في البيت، والقلق الشديد باد على محياهم. كانت أمّي تمسك رأسي بيد، وتمسك بيدها الأخرى نصف بصلة لكي أشمّها.

«لقد استعادت وعيها»، قالت أختي وهي تصفّق مغتبطة.

«الحمد لله»، قالت أمّي وهي تتنهد، ثمّ التفتت إلى الناسك، وقالت موضحة: «منذ أن كانت كيميا فتاة صغيرة، تنتابها دائماً نوبات إغماء».

في الصباح، شكرنا الناسك على الكرم الذي أسبغناه عليه وودّعنا. لكنه قبل أن يغادر، قال لأبي: «إن ابنتك كيميا طفلة غير عادية؛ إنها فتاة موهوبة، ومن المؤسف ألاّ يقدِّر أحد هذه الموهبة. يجب أن ترسلها إلى المدرسة».

«وما الفائدة إذا تعلمت الفتاة؟»، صاحت أمّي، «أين سمعت شيئاً كهذا؟ يجب أن تبقى بجانبي وتساعدني في حياكة السجاد حتى تتزوّج. فهيَ كما تعرف حائكة سجاد رائعة».

فأجاب الناسك من دون تردّد: «قد تصبح عالمة معروفة ذات يوم. من الواضح أن الله لا يكره ابنتك لأنها فتاة، لذلك منحها مواهب عدة»، ثم سألها: «هل تدّعين أنك تعرفين أكثر مما يعرف الله؟ فإذا لم

تكن توجد مدرسة، أرسلوها إلى أحد العلماء كي تتلقى التعليم الذي تستحقه على يده».

هزّت أمّي رأسها، لكني رأيت أن لأبي رأياً مختلفاً. وبما أنني كنت أعرف مدى حبّه للتعلم والمعرفة، وتقديره لقدراتي، لم أفاجأ عندما سمعته يسأل: «إننا لا نعرف أيّ عالم. أين يمكنني أن أجد واحداً؟».

عندها نطق الناسك بالاسم الذي سيغيّر مجرى حياتي، فقال: «إني أعرف عالماً بارزاً في قونية يدعى مولانا جلال الدين الرومي، وأظن أنه قد يكون سعيداً لتعليم فتاة مثل كيميا. خذها إليه، ولن تندم على ذلك».

عندما ذهب الناسك، رفعت أمّي ذراعيها إلى الأعلى، وقالت: «إني حامل، وسرعان ما سيأتينا فم آخر لإطعامه في هذا البيت. وسأكون بحاجة إلى مساعدة. إن البنات لا يحتجن إلى كتب، بل يحتجن إلى تعلّم الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال».

كنت أتمنى أن تعارض أمّي ذهابي لأسباب أخرى. فلو قالت إنها ستفتقدني وإنها لا تقوى على منحي إلى أسرة أخرى، حتى لفترة موقتة، لكان من الممكن أن أبقى. لكنّها لم تقل شيئاً من هذا القبيل. لكن أبي كان مقتنعاً بأن الناسك على حق.

وبعد فترة، سافرت أنا وأبي إلى قونيا، وانتظرنا الرومي خارج المدرسة التي يدرّس فيها. وعندما خرج، كنت في حرج شديد لأن أرفع رأسي وأنظر إليه، لذلك رحت أنظر إلى يديه. كانت أصابعه طويلة، منقّطة، ورفيعة، تشبه أصابع حرفيّ أكثر منها أصابع عالم. دفعني أبي نحوه.

«إن ابنتي موهوبة جداً، لكنني رجل بسيط، وكذلك زوجتي. قيل لنا إنك أكثر الرجال تبحّراً في المنطقة. هل تريد أن تعلّمها؟».

من دون أن أنظر إلى وجهه، أحسست بأن الرومي لم يفاجأ بطلب أبي، فلا بد أنه معتاد على طلبات كهذه. وبينما استغرق هو وأبي في الحديث، مشيت نحو الساحة حيث رأيت عدداً من الفتيان ولم أر أي فتاة. وفي طريق عودتي، فوجئت برؤية شابّة تقف عند الناصية وحدها، كان وجهها المستدير هادئاً وأبيض كأنه مصنوع من الرخام، لوّحت لها بيدي. بدا أنها دهشت لرؤيتي، لكنها بعد تردد قصير، لوّحت لي.

سألتني: «مرحباً أيتها الشابة، هل تستطيعين رؤيتي؟».

عندما أومأت برأسي، ابتسمت المرأة، وصفّقت بيدها وقالت: «هذا رائع! لا أحد غيرك يمكنه ذلك».

سرنا باتجاه أبي والرومي. ظننت أنهما سيتوقّفان عن الكلام لدى رؤيتها، لكنها كانت محقّة، فلم يتمكنا من رؤيتها.

قال الرومي: «تعالي يا كيميا. قال لي والدك إنك تحبّين الدراسة. أخبريني، ما الذي تحبينه في الكتب؟».

ابتلعت ريقي بصعوبة، ولم أستطع أن أجيبه. كنت عديمة الحيلة.

«تعالي يا عزيزتي»، قال أبي، وقد بدا عليه الانزعاج.

أردت أن أجيب بردّ ملائم، ردّ يجعل أبي فخوراً بي. وفي غمرة قلقي، كان الصوت الوحيد الذي انبعث من فمي، لهاثاً يائساً.

كان من الممكن أن أعود أنا وأبي إلى قريتنا خاويي الوفاض لو لم تتدخل هذه المرأة. فقد أمسكت يدي وقالت: «قولي له ماذا ترغبين في دراسته. سيكون الأمر على ما يرام، أعدك بذلك».

عندما أحسست بأنني في حال أفضل، التفتُّ نحو الرومي وقلت: «يشرّفني أن أدرس القرآن على يدك يا مولانا، وأنا مستعدة للاجتهاد في الدراسة».

أشرق وجه الرومي وقال: «هذا رائع»، لكنه توقف وكأنه تذكّر تفصيلاً سيئاً وقال: «لكنك فتاة. حتى لو درست وأحرزت تقدماً كبيراً، سرعان ما ستتزوّجين وتنجبين أطفالاً. عندها لن تجدي سنوات التعليم نفعاً».

لم أعرف ماذا أقول، وأحسست بأني فتاة بائسة، بل مذنبة. وبدا أن أبي كان قلقاً أيضاً، فراح يبحث عن حذائه. مرة أخرى هبّت الشابّة لنجدتي، فقالت: «قولي له إن زوجته كانت ترغب في إنجاب فتاة وأنها ستكون سعيدة عندما ترى أنه يعلّم فتاة أخرى».

ضحك الرومي عندما نقلت له الرسالة، وقال: «هذا يعني أنك زرتِ بيتي وكلّمتِ زوجتي. لكن دعيني أطمئنك أن كيرا لا تتدخل في أمور تعليمي».

ببطء، وعلى نحو يائس، هزّت الشابّة رأسها، وهمست في أذني: «قولي له إنك لا تتحدّثين عن كيرا، زوجته الثانية، بل عن جوهر، أمّ ولديه».

فقلت: «كنت أتحدّث عن جوهر»، ونطقت الاسم بعناية، «أمّ ولديك».

شحب وجه الرومي، وقال بجفاف: «إن جوهر ميتة يا طفلتي. لكن ماذا تعرفين عن زوجتي المرحومة؟ هل هذه مزحة سخيفة؟».

فتدخّل أبي وقال: «إني واثق من أنها لا تقصد سوءاً يا مولانا.

يمكنني أن أطمئنك أن كيميا طفلة جدّية. وهي تكنّ لمن يكبرونها احتراماً كبيراً».

أدركت أنني يجب أن أقول الصدق، فقلت: «إن زوجتك المرحومة هنا. إنها تمسك بيدي وتشجّعني على الكلام. إن عينيها لوزيتان وبنيّتان داكنتان، ويكسو وجهها نمش جميل، وترتدي عباءة صفراء طويلة....».

توقّفت عندما لاحظت أن الشابّة تومئ باتجاه نعليها، وقلت: «إنها تريدني أن أخبرك عن نعليها، فهما نعلان حريريان، لونهما برتقالي ناصع ومطرّزان بأزهار صغيرة حمر. إنهما جميلان للغاية».

«لقد جلبتهما لها من دمشق»، قال الرومي، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، «كانت تحبّهما».

عند ذلك، صمت مولانا، وحكّ لحيته. كانت قسماته جادة وساهمة. لكنه عندما تكلّم ثانية، كان صوته لطيفاً وودّياً، لا أثر فيه لأي مسحة من الحزن.

«الآن فهمت لماذا يقول الجميع إن ابنتك موهوبة»، قال الرومي لأبي، «لنذهب إلى بيتي ونتحدّث عن مستقبلها، ونحن نتناول طعام العشاء. إني على ثقة من أنها ستكون تلميذة ممتازة، أفضل من الكثير من الفتيان».

ثمّ التفت الرومي إليّ وسألني: «هل ستخبرين جوهر بذلك؟».

فقلت: «لا توجد حاجة لذلك يا مولانا، فقد سمعتك»، وأضفت: «إنها تقول إنها يجب أن تذهب الآن. لكنها تراقبك دائماً بحبّ».

ابتسم الرومي ابتسامة دافئة. وابتسم أبي أيضاً. ساد الآن شعور

بالارتياح لم يكن موجوداً من قبل. في تلك اللحظة، كنت أعرف أنه سيكون للقائي مع الرومي نتائج بعيدة المدى.

لم تكن علاقتي بأمّي علاقة قوية قط، لكن كما لو كنت أريد أن أعوّض عن غيابها، منحني الله أبوين، أبي الحقيقي، وأبي الذي تبنّاني.

هكذا وصلت إلى بيت الرومي قبل ثماني سنوات، طفلة خجولة متلهفة للمعرفة. كانت كيرا امرأة محبّة وعطوفة، أكثر من أمّي، وكان ابنا الرومي لطيفين، لا سيما ابنه الأكبر، الذي أصبح الأخ الأكبر لي مع مرور الوقت.

في النهاية كان الناسك محقاً. وبقدر ما افتقدت أبي وأشقائي، لم أشعر بالأسف للحظة واحدة لقدومي إلى قونية وانضمامي إلى أسرة الرومي. فقد أمضيت أياماً سعيدة كثيرة تحت سقف هذا البيت.

ظل الأمر على هذا الحال، حتى مجيء شمس التبريزي، الذي غيّر وجوده كلّ شيء.

إيلا

نورثامبتون، ٩ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

بما أن إيلا لم تكن تستمتع بالاختلاء بنفسها قط، تبيّن لها في ما بعد أنها كانت تفضّل ذلك. فقد كانت منهمكة في وضع اللمسات الأخيرة على تقريرها النهائي عن رواية «الكفر الحلو». وكانت قد طلبت من ميشيل أن تمهلها أسبوعاً آخر. كان بإمكانها إنجاز عملها في وقت أبكر، لكنها لم ترغب في القيام بذلك. فقد منحها هذا العمل ذريعة لكي تنسحب إلى عقلها وتتجنّب واجباتها العائلية، والمواجهات الزوجية التي طال انتظارها. ولأول مرة لم تذهب إلى نادي الطهو هذا الأسبوع، لأنها لم تشعر بالرغبة في الطهو والثرثرة مع خمس عشرة امرأة تتشابه ظروف حياتهن، في حين لم تكن واثقة ماذا ستفعل بحياتها. فقد اتصلت بهن وأخبرتهن أنها متوعكة.

كانت إيلا تحيط تبادلها الرسائل مع عزيز بسرية تامة. ولم يكن عزيز يعرف أنها لم تكن تقرأ روايته فقط، بل كانت تكتب تقريراً عنها أيضاً؛ ولم تكن الوكالة الأدبية تعرف أنها تغازل مؤلف الرواية التي كلفت بقراءتها وإبداء رأيها فيها؛ كما لم يكن أطفالها وزوجها يعرفون شيئاً

عن موضوع الرواية ولا عن المؤلف أو الرسائل الغزلية المتبادلة.
خلال بضعة أسابيع، تحوّلت إيلا من امرأة كانت حياتها شفّافة كجلد الوليد إلى امرأة تتمرّغ في لجج الأسرار والأكاذيب. وما فاجأها أكثر في هذا التغيير هو أنها لم تشعر بأي انزعاج. كانت تتصرف كأنها تنتظر حدوث شيء بالغ الأهمية بثقة وصبر. فقد كان هذا التوقع اللاعقلاني جزءاً من سحر مزاجها الجديد، الذي كان على الرغم من جميع الأسرار، فاتناً.

لكن تبادل الرسائل الإلكترونية لم يعد كافياً. فمع أن إيلا هي التي بدأت بالكتابة لعزيز، أصبحا الآن، على الرغم من فرق خمس ساعات في التوقيت، يتحدثان على الهاتف كلّ يوم تقريباً، وقال لها عزيز إن صوتها ناعم ورقيق. وعندما ضحكت، جاءت ضحكتها أشبه بخرير جدول ماء، يتخللها لهاث قصير، كأنها لم تكن واثقة من أن عليها أن تضحك أكثر. كانت ضحكة امرأة لم تتعلم قط كيف توجّه اهتماماً كبيراً للأحكام التي يطلقها الآخرون.

«دعي نفسك تنجرف مع التيار»، قال، «دعي نفسك تتدفق مع التيار».

لكن التدفق حولها لم يكن مستقراً، وكانت تعرقله أشياء عدة تحدث في بيتها. فقد بدأ آفي يتلقى دروساً خاصة في الرياضيات، وبدأت أورلي تراجع مستشاراً لمعالجة اضطراب التغذية الذي تعانيه. فقد تناولت هذا الصباح نصف قطعة من العجة ـ أول وجبة طعام كبيرة منذ أشهر ـ ومع أنها سألت على الفور عن عدد السعرات الحرارية فيها، كانت المعجزة الصغيرة أنها لم تشعر بالذنب، ولم تعاقب نفسها بأن

تتقيأ ما تناولته. في هذه الأثناء، فجّرت جانيت قنبلة عندما أعلنت انفصالها عن سكوت. ولم تقدم أي تفسير سوى أن كلاً منهما يحتاج إلى فضاء خاص به. وتساءلت إيلا هل كلمة «فضاء» هي رمز لحبّ جديد، لأنه لا يزال أمام كلّ من جانيت وسكوت وقت لإيجاد شخص جديد.

فالسرعة التي تبدأ فيها العلاقات الإنسانية وتتلاشى أذهلت إيلا أكثر من أي وقت مضى، ومع ذلك فقد حاولت ألاّ تطلق أحكاماً على الآخرين. وإذا كان من شيء تعلّمته من مراسلاتها مع عزيز، فهو أنها كلما لبثت هادئة ومتزنة، شاطرها أولادها مشاكلهم أكثر. وعندما توقّفت عن الجري وراءهم، لم يعودوا يهربون منها. فقد بدأت الأمور تسير بيسر على نحو ما، وعلى نحو أقرب إلى قلبها أكثر مما كانت عندما كانت تحاول تقديم المساعدة بلا كلل.

ويُعتقد بأنها لم تكن تفعل شيئاً للوصول إلى هذه النتيجة، فبدلاً من رؤية أن دورها في البيت نوع من مادة لاصقة، الرابطة المركزية الخفية التي تجعل المرء متماسكاً، أصبحت متفرجة صامتة. وراحت تراقب الأحداث وهي تتكشف أمامها والأيام تمر، ليس بالضرورة ببرود أو بلا مبالاة، بل بموضوعية ومراقبة خفية. كانت قد اكتشفت أنها عندما قبلت ذلك، لم يعد عليها أن تشعر بالتوتر وأن تضغط على نفسها إزاء الأشياء التي لم تكن تستطيع السيطرة عليها، برزت ذات أخرى من داخلها، ذات أكثر عقلانية وهدوءاً وحساسية.

«العنصر الخامس»، تمتمت لنفسها عدّة مرات أثناء اليوم، «تقبّلي الفراغ».

لم يطل الوقت حتى لاحظ زوجها أن شيئاً غريباً قد طرأ على سلوكها، شيء لم يكن موجوداً في إيلا الحقيقية. ألهذا السبب أصبح يرغب في قضاء وقت أطول معها فجأة؟ فقد صار يعود إلى البيت مبكراً هذه الأيام، وشكّت إيلا في أنه لم يكن يرى نساء أخريات منذ فترة من الزمن.

«حبيبتي، هل أنت على ما يرام؟»، سألها ديفيد مرات عدة.

«أنا على ما يرام مثل المطر»، كانت تجيبه بابتسامة في كلّ مرة. وكان يبدو أن انكفاءها إلى فضاء هادئ خاص بها نزع اللباقة المؤدّبة التي كانت كامنة بهدوء وراء زواجها منذ سنوات عدة. أما الآن، بعد أن تلاشت الذرائع والادعاءات بينهما، أصبحت ترى عيوبهما وأخطاءهما قد تعرّت، فكفّت عن التظاهر، واعتراها شعور بأن ديفيد على وشك أن يفعل شيئاً.

أثناء الفطور والعشاء، كانا يتحدّثان عن أحداث اليوم بصوت شخصين بالغين رزينين، كما كانا يناقشان تقرير العائدات السنوية من استثماراتهما في البورصة، ثمّ يصمتان، مدركين الحقيقة الصريحة بأنه ليس لديهما أشياء كثيرة يمكنهما الحديث عنها. فلم يعد الأمر كما كان من قبل.

كانت ترى زوجها ينظر إليها بإمعان أحياناً، ينتظرها أن تقول شيئاً، أي شيء. وكانت إيلا تشعر بأنها لو سألته عن علاقاته العاطفية، لاعترف بها لها بسرور. لكنها لم تكن واثقة من أنها كانت تريد أن تعرف.

ففي الماضي كانت تتظاهر بالجهل لكي لا تهزّ سفينة زواجهما. أما

الآن، فقد توقّفت عن التظاهر والتمثيل في سلوكها، وكأنها لا تعرف ماذا يفعل عندما يكون خارج البيت. فقد أظهرت له أنها تعرف، لكنها غير مهتمة بذلك. كان ذلك الانكفاء الجديد هو الذي أخاف زوجها، وكان بإمكان إيلا أن تفهمه، لأن ذلك كان يخيفها في أعماقها أيضاً.

فقبل شهر من الآن، كانت لتشعر بالامتنان لو اتخذ ديفيد خطوة صغيرة لتحسين علاقتهما. وأيّ محاولة من جانبه كانت لتدخل البهجة إلى نفسها. لكن الأمر لم يعد كذلك، وبدأت تشكّ في أن حياتها لم تكن حقيقية. كيف بلغت هذه النقطة؟ كيف اكتشفت أمّ متفانية لثلاثة أطفال كآبتها ويأسها؟ والأهم من كل ذلك، لو أنها كانت غير سعيدة، كما قالت لجانيت ذات يوم، فلماذا لم تكن تتصرف كما يتصرف الأشخاص غير السعيدين؟ لا بكاء على أرضية الحمّام، لا نشيج أمام مغسلة المطبخ، لا سير على القدمين بكآبة بعيداً عن البيت، ولا إلقاء أشياء على الحيطان... لا شيء.

حلّ هدوء غريب على إيلا. وبدا أنها أصبحت أكثر استقراراً من أي وقت مضى، حتى عندما كانت تنسل بسرعة شديدة بعيداً عن الحياة التي كانت تعرفها. وفي الصباح أمعنت النظر في المرآة لترى هل طرأ على وجهها أي تغيير مرئي. هل أصبحت تبدو أصغر سناً؟ أجمل؟ أو ربما أكثر امتلاء بالحياة؟ لكنها لم تر أيّ فرق. لم يتغيّر شيء، ورغم ذلك لم تعد الأمور كما كانت.

كيرا

قونية، ٥ أيار (مايو) ١٢٤٥

بدأت الأزهار تتبرعم على الأغصان المدلاة تحت ثقل الثلج خارج نافذة غرفتنا، وكان شمس التبريزي لا يزال يقيم معنا. خلال هذه الفترة بدأت أرى زوجي يتحول إلى رجل مختلف، فأخذ يبتعد عني وعن أسرته يوماً بعد يوم. في البداية خيّل إليّ أنّ أحدهما سيملّ من الآخر، لكن ذلك لم يحدث. بل إنهما ازدادا التصاقاً. وعندما يكونان معاً، فهما إما أن يلوذا بالصمت على نحو غريب، أو يتحدثا بصوت خفيض بشكل متواصل، وفي بعض الأحيان كانت تتخلل حديثهما ضحكات، فأتساءل ألا تنضب الكلمات من معينيهما. وكان الرومي، بعد كلّ حديث مع شمس، يذرع الغرفة وكأنه أضحى رجلاً مختلفاً، ساهماً، غارقاً في التفكير، كما لو كان منتشياً بمخدر لا يمكنني تذوقه أو رؤيته.

إن الصلة التي توحّدهما هي عشّ لشخصين، لا مكان فيه لشخص ثالث. فقد أصبحا يبتسمان ويضحكان، أو يتجهّمان بالطريقة نفسها، وفي الوقت نفسه، كانا يتبادلان نظرات طويلة ذات مغزى بين

الكلمات التي يقولانها. حتى إن مزاج أحدهما بات يتوقف على مزاج الآخر. ففي بعض الأيام، كنت تراهما هادئين، لا يتناولان شيئاً، لا ينبسان ببنت شفة، وفي أيام أخرى، تراهما يدوران حول نفسيهما بغبطة وانتشاء إلى حد أنه يخيّل إلى من يراهما أنهما رجلان فقدا عقليهما. وفي كلتا الحالتين، لم أعد أعرف زوجي، ذاك الرجل الذي مضى على زواجي به أكثر من ثماني سنوات، الرجل الذي ربّيت أطفاله كما لو كانوا أطفالي، والذي أنجبت منه طفلاً، أصبح الآن رجلاً غريباً. وكان الوقت الوحيد الذي أشعر فيه بأنني قريبة منه، عندما يغطّ في النوم. ولم أنم لعدة ليالٍ خلال الأسابيع الماضية، أنصت إلى إيقاع تنفّسه، وأشعر بهمس أنفاسه الرقيقة على بشرتي، وقلبه يخفق في أذني، لأذكّر نفسي بأنه لا يزال الرجل الذي تزوجته.

ولم أنفك أقول لنفسي لا، إن هذه المرحلة موقتة وستنقضي. فلا بد أن يغادر شمس ذات يوم، لأنه درويش جوّال، وعندها سيعود الرومي إليّ، لأنه ينتمي إلى هذه المدينة وإلى مريديه، لكن لا أملك من أمري شيئاً سوى أن أنتظر بصبر. لكن الصبر لا يأتي بسهولة، ويزداد الأمر صعوبة مع مرور كلّ يوم. وعندما يتملكني شعور باليأس والقنوط، أحاول أن أتذكّر الأيام الخوالي، وخاصة عندما كان الرومي يدعمني بالرغم من كلّ المصاعب.

«إن كيرا مسيحية، وحتى لو اعتنقت الإسلام، فلن تصبح واحدة منا على الإطلاق»، كان الناس يثرثرون عندما سمعوا بزواجنا الوشيك، «فضلاً عن أن عالِماً إسلامياً مرموقاً يجب ألا يقترن بامرأة لا تنتمي إلى دينه».

لكن الرومي لم يكن يعيرهم أي اهتمام، لا حينها ولا الآن. لذلك فإني سأظل ممتنة له على الدوام.

إن الأناضول مزيج من الأديان والشعوب وأنواع الطعام. فإذا كنا نتناول الطعام نفسه، ونغنّي الأغاني الحزينة ذاتها، ونؤمن بالخرافات عينها، ونحلم بذات الأحلام، فلم لا نكون قادرين على العيش معاً؟ فقد كنت أعرف أطفالاً مسيحيين سُمُّوا بأسماء إسلامية، وأطفالاً مسلمين ترضعهم أمهات مسيحيات. إن عالمنا عالم سلس يتدفّق فيه كلّ شيء ويمتزج، وإن كانت توجد حدود بين المسيحية والإسلام، فإنها حدود مرنة أكثر مما يخيّل إلى رجال الدين من كلا الجانبين.

ولمّا كنت زوجة عالِم معروفٍ، فإن الناس يتوقعون مني أن أكنّ احتراماً وإجلالاً كبيرين لَلعلماء، لكني لم أكن أفعل ذلك حقاً. فمن المؤكد أن العلماء يعرفون أموراً كثيرة، لكن ألا تقيّد معرفة أمور كثيرة المرء عندما يتعلق الأمر بالإيمان؟ فهم لا يكفّون عن ترديد كلمات كبيرة، لذلك يصعب فهم ما يقولونه واستيعابه. فالعلماء المسلمون ينتقدون الدين المسيحي لأنه يؤمن بالثالوث الأقدس، والقساوسة المسيحيون ينتقدون المسلمين لأنهم يعتبرون أن القرآن كتاب كامل، ويوحون بأن الدينين عالَمان منفصلان. لكن في رأيي، عندما يتعلق الأمر بالمبادئ الأساسية، فإن المسيحيين العاديين والمسلمين العاديين يشتركون في أمور أكثر مما يشترك رجال دينهم.

ويقولون إن أصعب شيء على المسلم الذي يعتنق المسيحية قبول الثالوث الأقدس؛ وأصعب شيء على المسيحي الذي يعتنق الإسلام تركه الثالوث الأقدس. ففي القرآن، يقول المسيح «إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً».

أما أنا فلا يصعب عليّ تصديق الفكرة بأن المسيح ليس ابن الله بل عبده. لكن الأمر الأكثر صعوبة الذي تبيّن لي هو التخلي عن مريم. فلم أخبر أحداً بذلك، ولا حتى الرومي، لكني أتوق أحياناً إلى رؤية عيني مريم البنيتين الرحيمتين، لأن لنظراتها تأثيراً مهدئاً عليّ على الدوام.

ومنذ أن وطأ شمس التبريزي عتبة بيتنا، تملكني شعور بالكآبة والاضطراب، ووجدت نفسي أشتاق إلى مريم أكثر من أي وقت مضى، مثل حمّى سرت في عروقي، وعاودتني الرغبة في الصلاة لمريم، رغبة لا أكاد أستطيع كبحها. ويبدأ الإحساس بالذنب ينهشني، كما لو كنت أخون ديني الجديد.

لا أحد يعرف ذلك. حتى جارتي صفية، كاتمة أسراري في كلّ شيء إلا هذا السرّ، لأنها لن تفهمني. لشدّ ما كنت أتمنّى أن أشاطر زوجي ذلك، لكني لم أكن أعرف كيف أفاتحه في الأمر. فقد ابتعد عني كثيراً، وأخشى أن يزداد بعداً عني إذا أخبرته بذلك. فالرومي هو كلّ شيء بالنسبة لي، لكنه أضحى غريباً عني الآن. ولا أعرف هل بوسعي أن أعيش مع شخص تحت سقف واحد، وأنام معه في السرير نفسه، وأشعر بأنه غير موجود حقاً.

شمس التبريزي

قونية، ١٢ حزيران (يونيو) ١٢٤٥

مؤمن مضطرب! إذا صام المرء شهر رمضان كلّه باسم الله، وقدّم خروفاً أو عنزة كلّ عيد ليغفر الله له ذنوبه، وإذا جاهد المرء طوال حياته ليحجّ إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وإذا سجد خمس مرات كلّ يوم على سجادة صلاة، وليس في قلبه مكان للمحبة، فما الفائدة من كلّ هذا العناء؟ فالإيمان مجرد كلمة، إن لم تكن المحبّة في جوهرها، فإنه يصبح رخواً، مترهلاً، يخلو من أي حياة، غامضاً وأجوف، ولا يمكنك أن تحس به حقاً.

هل يعتقدون بأن الله يقيم في مكة المكرمة أو في المدينة المنورة؟ أو في أي مسجد من مساجد العالم؟ كيف يمكنهم تصوّر أن الله يمكن أن يكون محصوراً في فضاء محدود وهو الذي يقول: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن».

إني أشفق على الأحمق الذي يظنّ أن حدود عقله البشري هي حدود الله عز وجل. إني أشفق على الجاهل الذي يعتقد بأنه يستطيع أن يساوم الله ويسوّي حساباته وديونه معه. هل يظنّ هؤلاء الله بقالاً يزن

حسناتنا وسيئاتنا في ميزانين منفصلين؟ هل يظنّون أنه يسجّل ذنوبنا في دفتر حساباته بدقة حتى نسدد له ما علينا ذات يوم؟ أهذه هي فكرتهم عن الوحدانية؟

إن إلهي ليس بقالاً ولا محاسباً، بل إنه إله عظيم. إله حيّ! فلماذا أريد إلهاً ميتاً؟ إنه حيّ. اسمه الحيّ، القيوم. لماذا أتخبّط في مخاوف أبدية وقلق لا ينتهي، حيث يقيدني دائماً بالمحرمات والمحظورات؟ فلا حدود لرحمته. إذ إن اسمه الودود، الحميد. إني أحمده بكلّ كلماتي وتصرفاتي، بشكل طبيعي ويسر كما أتنفّس الهواء.

اسمه الحميد. فكيف يمكنني أن أستغيب الآخرين وأشهّر بهم وأنا أعلم في أعماق قلبي أن الله هو السميع البصير؟ اسمه البشير. جميل يفوق كلّ الأحلام والآمال.

الجميل، القيّوم، الرحمن، الرحيم. أثناء المجاعات والفيضانات، وخلال الجفاف والظمأ، سأغنّي وأرقص له حتى تخور ركبتاي، حتى ينهار جسمي، وحتى يتوقّف قلبي عن الخفقان. سأحطّم نفسي إلى شذرات حتى لا أعدو إلا مجرد ذرة في العدم، عابر سبيل في الفراغ المحض، هباء الهباء في هندسته العظيمة الرائعة. ولن أكفّ عن امتداح عظمته وكرمه بامتنان، وسعادة. سأشكره على كلّ ما منحني إياه وما حرمني منه، لأنه يعرف ما هو الأفضل لي.

عندما تذكرت قاعدة أخرى في قائمتي، غمرتني موجة جديدة من السعادة والأمل. يتبوأ الإنسان مكانة فريدة بين خلق الله، إذ يقول عزّ وجل، «ونفخت فيه من روحي». فقد خُلقنا جميعاً، من دون استثناء، لكي نكون خلفاء الله على الأرض. فاسأل نفسك، كم مرة تصرفت

كخليفة له، هذا إنْ فعلت ذلك؟ تذكّر أنه يقع على عاتق كلّ منّا اكتشاف الروح الإلهية في داخله حتى يعيش وفقها.

وبدلاً من أن يفني المتدينون المتعصبون ذواتهم في حبّ الله ويجاهدون أنفسهم، فهم يحاربون أناساً آخرين، يولّدون موجة إثر موجة من الخوف. وينظرون إلى الكون كلّه بعيون يشوبها الخوف، ولا عجب أنهم يرون أشياء كثيرة يخافها الناس. فعندما يحدث زلزال أو جفاف، أو تقع كارثة يعتبرون هذا دليلاً على غضب الله، وكأن الله لا يقول صراحة، «إن رحمتي سبقت غضبي». وعندما يغضبون من أحد لسبب أو لآخر، فإنهم يتوقّعون أن الله سبحانه وتعالى سيتدخل بالنيابة عنهم ويثأر من أجلهم. وتغمر حياتهم حالة متواصلة من المرارة والعداوة، ويلاحقهم سخط كبير أينما ذهبوا، مثل غيمة سوداء، فيسودّ ماضيهم ومستقبلهم.

يوجد شيء في الإيمان يجعل المرء غير قادر على رؤية الغابة لأنه يرى الأشجار. إن الدين بكليته أعظم وأعمق بكثير من الأجزاء الصغيرة المكوّنة له؛ ويجب قراءة كل قاعدة في إطار القواعد كلها. والقواعد الكاملة تتوارى في الجوهر.

لكن بدلاً من البحث عن جوهر القرآن، وأخذه ككل، ينتقي المتعصبون آية أو آيتين بعينهما، ويمنحون الأولوية للأوامر الإلهية التي يرون أنها تتناغم مع أسلوب تفكيرهم وعقولهم التي يسكنها الخوف. ولا يكفّون عن التذكير بأن البشر جميعاً سيرغمون على السير يوم القيامة على السراط، الأرفع من شعرة، والأحدّ من سيف. وعندها يسقط المذنبون الذين لا يستطيعون اجتياز السراط، فيسقطون

في قعر جهنم، ويعانون إلى الأبد. أما الذين عاشوا حياة تقية فسيتمكنون من عبور السراط حتى نهايته، وسيكافأون بفاكهة لذيذة، ومياه عذبة، وحوريات. هذه هي، بإيجاز، فكرتهم عن الحياة الآخرة. ويتركّز هاجسهم الرئيسي في الحياة على الأهوال وعلى الجزاء والنار والفاكهة، والملائكة والشياطين، وفي سعيهم الدائب للوصول إلى مستقبل يبرّر من هم اليوم، فإنهم ينسون الله! ألا يعرفون هذه القاعدة من القواعد الأربعين؟ *إن جهنم تقبع هنا والآن، وكذلك الجنة. توقّفوا عن التفكير بجهنم بخوف أو الحلم بالجنة، لأنهما موجودتان في هذه اللحظة بالذات. ففي كل مرة نحبّ، نصعد إلى السماء. وفي كلّ مرّة نكره، أو نحسد، أو نحارب أحداً، فإننا نسقط مباشرة في نار جهنم. هذا ما تقوله القاعدة الخامسة والعشرون.*

هل يوجد جحيم أسوأ من العذاب الذي يعانيه الإنسان عندما يعرف في أعماق ضميره أنه اقترف ذنباً، ذنباً جسيماً؟ اسأل ذلك الرجل، فإنه سيخبرك ما هي جهنم. هل توجد جنة أفضل من النعمة التي تهبط على الإنسان في تلك اللحظات النادرة من الحياة عندما تُفتح فيها مزاليج الكون، ويشعر بأنه يمتلك كلّ أسرار الخلود ويتّحد مع الله اتحاداً تاماً؟ إسأل ذلك الرجل، فإنه سيخبرك ما هي الجنة.

لماذا كل هذا القلق مما سيحدث بعد الحياة، مستقبل متخيّل، عندما تكون هذه اللحظة بالذات هي الزمن الوحيد الذي نستطيع أن نشعر حقاً وبصورة كاملة بوجود الله وغيابه في حياتنا؟ إن الصوفيين يحبّون الله، لا خوفاً من العقاب في نار جهنم، ولا رغبة في الثواب والمكافأة في الجنة، بل يحبّون الله لمجرد محبته الخالصة، محبة نقية وسهلة، غير ملوّثة، خالية من أي مصلحة.

الحبّ هو العلة. الحبّ هو المعلول.

فعندما تحبّ الله، وعندما تحبّ كلّ مخلوقاته من أجله، وبفضله، تذوب جميع الانقسامات وتختفي. ومن هنا، لا يعود هناك شيء يدعى «أنا»، وكلّ ما تبلغه هو صفر كبير يغطّي كيانك كلّه.

قبل أيام، كنت أنا والرومي نمعن التفكير في هذه الأمور، عندما أغمض عينيه فجأة وردد الأبيات التالية:

«لست مسيحياً ولا يهودياً ولا مسلماً، لست بوذياً ولا هندوسياً، ولا صوفياً ولا من أتباع زن. لا أتبع أيّ دين أو نظام ثقافي. لست من الشرق، ولا من الغرب.

إن مكاني هو اللامكان، أثر اللاأثر».

يظنّ الرومي أنه لا يمكن أن يكون شاعراً، لكن يوجد شاعر في داخله. شاعر رائع! وقد برز ذلك الشاعر الآن.

نعم، إن الرومي على حق، فهو ليس من الشرق ولا من الغرب، إنه ينتمي إلى مملكة الحبّ. إنه ينتمي إلى المحبوب.

إيلا

نورثامبتون، ١٢ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

أنهت إيلا قراءة «الكفر الحلو»، وبدأت تضع اللمسات الأخيرة على تقريرها. ومع أنها كانت متلهفة لمناقشة تفاصيل الرواية مع عزيز، فقد منعها إحساسها بالمهنية من ذلك. فهذا الأمر ليس لائقاً، إلا بعد إنهاء عملها. حتى إنها لم تخبر عزيز بأنها اشترت نسخة من قصائد الرومي بعد أن أنهت قراءة روايته، وأنها بدأت تقرأ بعضاً من قصائده قبل أن تأوي إلى الفراش في كلِّ ليلة. وبمهارة تمكّنت من الفصل بين عملها في الرواية وبين الرسائل التي تبادلتها مع الكاتب. لكن في الثاني عشر من حزيران (يونيو)، حدث شيء جعل الخطّ الفاصل بين الاثنين مضطرباً.

فحتى ذلك اليوم، لم تر إيلا صورة عزيز. وبما أنه لم تكن توجد له صورة على موقعه على الإنترنت، لم تتمكن من رسم صورته في مخيلتها. في البداية، استمتعت بالغموض الذي يكتنف الكتابة إلى رجل من دون وجه. لكن مع مرور الوقت، بدأ فضولها يزداد، وبدأت رغبتها في وضع وجه على رسائله، تزداد حدة. أما هو فلم يطلب صورتها، وقد وجدت ذلك أمراً غريباً، غريباً جداً.

لذلك، أرسلت له صورتها وهي تقف على الشرفة مع كلبها سبيريت، مرتدية رداء أزرق ضيقاً يكشف قليلاً عن منحنيات جسدها. كانت تبتسم في الصورة، ابتسامة تبدي شيئاً من القلق وشيئاً من السرور. كانت أصابعها تمسك بقوة بطوق الكلب، كأنها تحاول أن تستمد منه قوة. وكان لون السماء فوقهما مزيجاً من اللونين الفضي والأرجواني. لم تكن هذه الصورة من أجمل صورها، لكن كان فيها شيء روحي، يكاد يكون أخروياً، أو هكذا كانت تأمل. أرسلتها إيلا له وراحت تنتظر. كان ذلك أسلوبها في أن تطلب من عزيز أن يرسل لها صورته.

وقد أرسل صورته.

عندما رأت إيلا الصورة التي أرسلها عزيز، قالت لنفسها إنها لا بدّ التقطت في أحد بلدان الشرق الأقصى، بلد لم تزره قط. وكان عزيز في الصورة محاطاً بعدد من الأطفال المحليين بشعرهم الأسود. وكان يرتدي قميصاً أسود وبنطالاً أسود. كان نحيف البنية، له أنف حادّ، وشعر أسود متموّج طويل ينسدل على كتفيه. وكانت عيناه زمردتين تنبعث منهما طاقة وشيء آخر أدركت أنه نوع من الشفقة؛ وكان يضع قرطاً في إحدى أذنيه، وقلادة لم تتبين شكلها جيداً. وفي الخلفية، كانت تمتد بحيرة فضية تحيط بها أعشاب طويلة، وفي إحدى الزوايا، لاح ظلّ شيء أو شخص خارج الإطار.

عندما راحت إيلا تتفحّص الرجل في الصورة، تتمعّن في كلّ تفصيل فيه، أحست بأنها تعرفه وأنها رأته في مكان ما. بتلك الدرجة من الغرابة، كان بوسعها أن تقسم بأنها رأته من قبل.

وفجأة عرفت.

فقد كان شمس التبريزي يحمل شبهاً شديداً لعزيز ز. زاهارا، وبدا تماماً على النحو الذي وصف فيه شمس في روايته قبل أن يتوجّه إلى قونية للقاء الرومي. وتساءلت إيلا هل اعتمد عزيز على قسماته في وصف الشخصية التي كتبها. فلعله أراد، ككاتب، أن يخلق شخصيته المحورية على صورته، كما خلق الله البشر على صورته.

وبينما كانت تفكّر في ذلك، خطر لها احتمال آخر. أيعقل أن يكون شكل شمس التبريزي الحقيقي هو كما ورد وصفه في الكتاب، وهذا يعني أنه قد يكون هناك شبه مفاجئ بين رجلين تفصل بينهما قرابة ثمانمائة سنة؟ وهل يمكن أن يكون هذا الشبه غير مقصود، بل ربما يتجاوز معرفة المؤلف؟ وكلما فكرت إيلا بهذه المعضلة، ازدادت شكوكها بإمكانية الربط بين شمس التبريزي وعزيز ز. زاهارا بطريقة تتجاوز الحيل الأدبية البسيطة.

كان لهذا الاكتشاف تأثيران غير متوقّعين على إيلا؛ الأول، أنها أحسّت بالحاجة إلى العودة إلى رواية «الكفر الحلو» وقراءتها ثانية، بعين مختلفة، لا من أجل القصّة هذه المرة، بل لتكتشف المؤلف المتواري وراء شخصيته الرئيسية، لتجد عزيز في شمس التبريزي؛ والثاني، أنها ازدادت افتتاناً بشخصية عزيز. من هو؟ ما هي قصّته؟ ففي رسالة إلكترونية سابقة، قال لها إنه اسكتلندي، لكنه يحمل اسماً شرقياً ـ عزيز؟ هل هذا اسمه الحقيقي؟ أم أنه اسم صوفي؟ وبالمناسبة، ماذا يعني أن يكون صوفياً؟

وكان أمر آخر يشغل بالها: الإشارات الأولى التي لا تكاد تدرك من

الرغبة. فقد مضى زمن طويل لم يعترها مثل هذا الشعور، لذلك استغرقت بضع ثوان أخرى كي تتعرف على حقيقة هذا الشعور الذي كان يعتريها، بقوة، وبإلحاح، وبتمرد. لقد أدركت أنها أحسّت بأنها ترغب في الرجل الكائن في الصورة، وتساءلت كيف ستشعر إذا ما قبّلته.

كان إحساساً غير متوقّع ومحرجاً إلى حدّ أنها أطفأت حاسوبها النقال بسرعة، وكأن الرجل في الصورة يجذبها إلى داخله.

بيبرس المحارب

قونية، ١٠ تموز (يوليو) ١٢٤٥

«بيبرس، يا بني، لا تثق بأحد»، قال عمي، «لأن الفساد آخذ في الازدياد في العالم». وقال إن الفترة الرائعة الوحيدة، كانت في العصر الذهبي، في زمن النبي محمد، عليه الصلاة والسلام. فبعد وفاته، بدأ كلّ شيء في الانحدار، وأصبح المكان الذي يوجد فيه أكثر من شخصين ساحة حرب. لكن حتى في عصر النبي، ألم تنشب معارك وحروب؟ إن الحروب جوهر الحياة.

فالأسد يلتهم الأيل، والعقبان تلتهم الجيف وتجعلها عظاماً عارية. إن الطبيعة قاسية. فعلى سطح الأرض، أو في البحر، أو في الجو، لا توجد إلا وسيلة واحدة يستطيع فيها كل مخلوق البقاء على قيد الحياة: وهي أن تكون أذكى وأقوى من ألدّ أعدائك، ولكي تبقى على قيد الحياة يجب أن تقاتل. إن الأمر بهذه البساطة.

ويجب علينا أن نحارب. فحتى أكثر الأشخاص سذاجة يرى أنه لا توجد وسيلة أخرى في يومنا وعصرنا هذا. فقد أخذت الأمور منحى سيئاً منذ خمس سنوات، عندما أرسل جنكيزخان مائة من مبعوثيه

للتفاوض على السلام، فذبحوا جميعاً؛ وتحوّل جنكيزخان إلى كرة نارية من الغضب، وأعلن الحرب على الإسلام. ولا يعرف أحد كيف قتل هؤلاء المبعوثون ولماذا، إذ يشكّ البعض في أن جنكيزخان نفسه هو الذي أمر بقتل المبعوثين الذين أرسلهم، لتصبح لديه ذريعة لشنّ هذه الحرب الضروس. ولعل ذلك صحيح. لا أحد يعرف. لكن ما أعرفه أنه بعد خمس سنوات اجتاح المغول منطقة خاور شهر برمتها، وعاثوا في كل بقعة وطأوها خراباً ودماراً ونشروا الموت فيها. وقبل سنتين، هزم المغول القوات السلجوقية في كوسيداغ، وجعلوا السلطان تابعاً لهم وأرغموه على أن يدفع لهم الجزية. والسبب الوحيد الذي جعل المغول لا يقضون علينا قضاء مبرماً هو أنهم يريدون أن نظل أحياء حتى نظل نرزح تحت نيرهم.

ربما كانت الحروب تُشنُّ منذ أزمان سحيقة، على الأقل منذ أن قتل قايين شقيقه هابيل، لكن الجيش المغولي كان شيئاً لم ير له التاريخ مثيلاً. فقد كانوا يجيدون استخدام أكثر من نوع من أنواع الأسلحة، صُمِّم كلّ منها لغرض معين. إذ إن جميع الجنود المغول مدججون بالسلاح: قضيب، فأس، سيف، رمح، ومزودون بسهام يمكنها اختراق درع، ويمكنهم إحراق قرى بكاملها، وتسمّيم ضحاياهم، أو ثقب أصلب العظام في جسم الإنسان. ولديهم سهام تطلق صفيراً، يستخدمونها لإرسال إشارات من فرقة إلى أخرى. بهذه المهارات الحربية المتطورة، وعدم الخشية من الله، هاجم المغول كلّ مدينة وبلدة وقرية مروا بها وأبادوا أهلها. حتى المدن القديمة، مثل بخارى، استحالت إلى أكوام من الأنقاض. وليس المغول وحدهم

المشكلة، بل هناك القدس التي يجب علينا استعادتها من الصليبيين، بالإضافة إلى الضغوط التي يمارسها البيزنطيون، والتنافس القائم بين الشيعة والسنّة. فعندما نكون محاطين بأعداء متوحشين من كلّ جانب، فكيف يمكننا أن نكون مسالمين؟

لذلك يثير أشخاص مثل الرومي حفيظتي، ولا يهمني إلى أي مدى يحترمه الناس ويبجّلونه. فهو في رأيي جبان لا ينشر سوى الجبن. ربما كان عالم دين جيداً في الماضي، لكنه أصبح الآن يرزح تحت تأثير شمس، ذلك الزنديق. ففي حين يظهر أعداء الإسلام، ماذا يعظ الرومي؟ إنه يدعو إلى السلام والاستسلام والخنوع.

يا أخي، تحمّل الألم. تخلّص من سموم
نزواتك. ستنحني السماء أمام جمالك
إذا فعلت ذلك... فإن الشوكة تصبح وردة. تتوهج مع العالمين.

إذ يعظ الرومي أن نكون مستسلمين، جاعلاً المسلمين ليسوا أكثر من قطيع من الأغنام، وديعين وخجولين. يقول إن لكلّ نبي أتباعاً ولكلّ مجتمع زمناً. وبالإضافة إلى عبارة «عشق»، يبدو أن الكلمات الأثيرة لديه هي «الصبر» و «التوازن» و«التحمّل». ولو كان الأمر بيده، لجلسنا جميعاً في بيوتنا وانتظرنا حتى نذبح على يد أعدائنا، أو حتى تصيبنا كارثة أخرى، وإني واثق من أنه سيأتي بعد ذلك، ويتفحّص الدمار بسرعة، ويدعوه «بركة». وقد سمعه البعض يقول: «عندما تتهدم المدرسة والمسجد والمئذنة، عندها يستطيع الدراويش إقامة مجتمعهم». ما معنى هذا الكلام؟

عندما تتمعن في الأمر، فإن السبب الوحيد الذي جعل الرومي يستقر في هذه المدينة هو أن أسرته غادرت أفغانستان منذ عقود ولجأت إلى الأناضول. فقد تلقى آنذاك عدد من العلماء والأغنياء دعوة مفتوحة من السلطان السلجوقي، ومن بينهم والد الرومي. وهكذا غادرت أسرة الرومي، التي كانت تنعم بالحماية والثراء والرعاية، أفغانستان التي كانت تسودها الاضطرابات، إلى بساتين قونية الهادئة المسالمة. فمن السهل إعطاء خطب عن التسامح عندما يكون وراءك تاريخ كهذا!

وقد سمعت منذ بضعة أيام قصّة تقول إن شمس التبريزي حدّث مجموعة من الأشخاص في السوق، وقال إن علياً، خليفة النبي وأحد صحابته، كان يقاتل مشركاً شرساً، فطال بينهما القتال، وفي النهاية تمكَّن رضي الله عنه من خصمه، وسقط المشرك جريحاً تحت علي بن أبي طالب ولما هَمَّ بقتله، بَصَقَ المُشرِك في وجه علي والسيف في الهواء يُوشك أن يهوي به، فما كان من علي إلا أن تركه وانصرف عنه ولم يقتله فلما سُئِل قال: لقد كنت أقاتله لله، فلما بَصَقَ في وجهي، أحسست بأني أريد الانتقام لنفسي فتركته.

وهكذا أطلق علي الرجل، فتأثر المشرك كثيراً وأصبح تابعاً من أتباعه، ثمّ اعتنق الإسلام بمحض إرادته.

يبدو أن شمس التبريزي يحب رواية هذا النوع من القصص. لكن ما هي الرسالة التي يبغي إيصالها؟ دع الكفار يبصقون في وجهك! وأنا أقول، على جثتي، سواء أكان كافراً أم لم يكن، فلا يستطيع أحد أن يبصق في وجه بيبرس المحارب.

إيلا

نورثامبتون، ١٣ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

المحبوب عزيز،

ستقول إني مجنونة، لكن، هناك شيءٌ أريد أن أسألك إياه: هل أنت شمس؟

أم العكس هو الصحيح؟ هل شمس هو أنت؟

المخلصة، إيلا

* * *

عزيزتي إيلا،

إن شمس هو المسؤول عن تحويل الرومي من رجل دين محلّي إلى شاعر وصوفي مشهور في العالم.

وكان السيد ساميد يقول لي: «حتى لو صادفنا شخصاً مثل شمس، فمن أين لنا بالرومي؟».

مع كل الاحترام،

عزيز

* * *

عزيز الغالي،

من هو السيد ساميد؟

أفضل التحيات،

إيلا

* * *

المحبوبة إيلا،

إنها قصّة طويلة. هل تريدين أن تعرفي حقاً؟

تحية حارة،

عزيز

* * *

عزيز الغالي،

في جعبتي الكثير من الوقت.

مع حبي،

إيلا

الرومي

قونية، ٢ آب (أغسطس) ١٢٤٥

حياتك حافلة، مليئة، كاملة، أو هكذا يخيّل إليك، حتى يظهر فيها شخص يجعلك تدرك ما كنت تفتقده طوال هذا الوقت. مثل مرآة تعكس الغائب لا الحاضر، تريك الفراغ في روحك ـ الفراغ الذي كنت تقاوم رؤيته. قد يكون ذلك الشخص حبيباً، أو صديقاً، أو معلماً روحياً. وقد يكون طفلاً يجب إحاطته بالحب والرعاية. المهم هو أن تعثر على الروح التي تكمل روحك؛ فقد قدم الأنبياء جميعاً النصيحة ذاتها: جد الشخص الذي سيكون مرآتك! بالنسبة لي، فإن هذه المرآة هي شمس التبريزي، الذي جاء وجعلني أبحث في أعماق روحي وثناياها، لأنني لم أجد حقيقة نفسي الأساسية: فعلى الرغم من أنني كنت عالماً ناجحاً في الخارج، فإني أشعر بالوحدة وإني لم أحقق شيئاً في داخلي.

يبدو كأنك أمضيت سنوات عدة في جمع قاموس شخصي، تعرّف فيه كلّ مفهوم تراه مهماً مثل «الحقيقة»، أو «السعادة»، أو «الجمال». وفي كلّ منعطف رئيسي في حياتك، تعود إلى هذا القاموس، لكنك

قلما تشعر بالحاجة إلى البحث في مقدماتها المنطقية. وفجأة يأتي شخص غريب وينتشل قاموسك الثمين ويلقي به جانباً، ويقول لك: «يجب أن تعيد تعريف جميع التعاريف التي وضعتها. لقد آن الأوان أن تنسى كلّ ما تعرفه».

ولسبب يجهله عقلك، لكنه واضح لقلبك، لا تعترض على ما فعله أو تغضب منه، بل تمتثل لمشيئته بسعادة، وهذا ما فعله بي شمس. فقد علّمتني صداقتنا الكثير، لكن الأهم من كل ذلك، أنه علّمني أن أنسى كلّ ما كنت أعرفه.

عندما تحبّ شخصاً إلى هذه الدرجة، فإنك تتوقّع من جميع المحيطين بك أن يحبّوه أيضاً، وأن يشاطروك بهجتك وغبطتك، لكن عندما لا يتحقق ذلك، فإنك تفاجأ ويعتريك شعور بأنهم أهانوك وغدروا بك.

كيف يمكنني أن أجعل عائلتي وأصدقائي يرون ما أراه؟ كيف يمكنني أن أصف الأشياء التي يتعذّر عليّ وصفها؟ إذ إن شمس بحر رحمتي ونعمتي؛ إن شمس حقيقتي وإيماني، وإني أدعوه ملك ملوك الروح. إنه نبع حياتي وشجرة السرو الباسقة، المهيبة، الدائمة الخضرة بالنسبة لي؛ وتشبه صحبته التلاوة الرابعة للقرآن ـ رحلة لا يمكن الإحساس بها إلا من الداخل ولا يمكن إدراكها من الخارج مطلقاً.

ولسوء الحظ، يبني معظم الناس تقييماتهم على التصورات والإشاعات. فهم يعتبرون أن شمساً ما هو إلا درويش غريب الأطوار، ويخيّل إليهم أن تصرفاته غريبة، وأن أقواله محض كفر،

ويعتبرونه شخصاً متقلّب الأهواء لا يمكن الوثوق به. أما أنا فأرى أنه مثال الحبّ، يتنقّل في مختلف أرجاء الكون، وينسحب أحياناً إلى الخلف ليجمع القطع المتناثرة ويلملمها، وفي أحيان أخرى، يتفجّر إلى شظايا. إن لقاء كهذا لا يحدث إلا مرة واحدة في العمر؛ مرة كلّ ثمان وثلاثين سنة.

منذ اللحظة التي دخل فيها شمس حياتنا، دأب الناس على سؤالي ما هو الشيء المميّز الذي وجدته فيه. لكني لا أجد رداً على سؤالهم هذا. وفي نهاية الأمر، فإن الذين يطرحون هذا السؤال هم الذين لم يفهموه، أما الذين فهموه، فلا يطرحون أسئلة من هذا القبيل.

تذكّرني المشكلة التي أجد نفسي فيها بقصّة ليلى وهارون الرشيد، الخليفة العباسي المعروف. فعندما سمع أن شاعراً بدوياً يدعى قيس قد هام في حبّ ليلى وجنّ من أجلها، وأطلق عليه «المجنون»، أصبح الخليفة متلهفاً للتعرف على المرأة التي أوصلته إلى هذه الدرجة من التعاسة.

لا بد أن ليلى هذه مخلوقة خاصّة جداً، قال لنفسه، امرأة تفوق النساء الأخريات جميعهن. ربما كانت ساحرة لا توازيها امرأة بجمالها وفتنتها.

ومارس كلّ الحيل والسبل المذكورة في الكتب ليرى ليلى بعينيه هو.

وذات يوم، أحضروا ليلى إلى قصر الخليفة هارون الرشيد، وعندما نزعت حجابها، ورأى وجهها شعر بخيبة شديدة. فلم تكن ليلى عجوزاً أو عاجزة أو قبيحة، لكنها لم تكن في الوقت نفسه على تلك

الدرجة من الجاذبية والفتنة، بل مجرد امرأة عادية، لها عيوبها، امرأة بسيطة، مثل النساء الآخريات اللاتي لا يعددن ولا يحصين.

لم يخف الخليفة شعوره بالإحباط، فسألها: «هل أنتِ هي المرأة التي هام بها المجنون؟ إني أتساءل ما الذي يجعلك امرأة يهيم فيها المجنون في حين أنك مجرد امرأة عادية؟».

فافترّت شفتا ليلى عن ابتسامة، وقالت: «نعم، أنا ليلى، لكنك لست المجنون. يجب أن تراني بعينيّ المجنون، لكي تحلّ هذا اللغز الذي يدعى الحبّ».

كيف يمكنني أن أشرح اللغز نفسه لعائلتي أو لأصدقائي، أو لتلاميذي؟ كيف أجعلهم يفهمون أنهم لكي يدركوا ما يميّز شمس التبريزي، يجب أن ينظروا إليه بعينيّ المجنون؟

هل من وسيلة لفهم ما معنى الحبّ من دون أن تصبح حبيباً في المقام الأول؟

فالحبّ لا يمكن تفسيره؛ ولا يمكن إلا معايشته واختباره. ومع أن الحبّ لا يمكن تفسيره، فهو يفسر كلّ شيء.

كيميا

قونية، ١٧ آب (أغسطس) ١٢٤٥

بلهفة شديدة رحت أنتظر دعوة الرومي لي ليعطيني درساً، لكن لم يعد لديه وقت لذلك. وعلى الرغم من أنني أصبحت أفتقد دروسنا وبدأت أشعر بإهماله إياي، فإنني لم أنزعج منه؛ ولعل ذلك بسبب محبتي له، أو ربما لأنني أعرف أكثر من أي شخص آخر كيف يشعر، وقد اعترتني في أعماقي الحيرة التي تعتري الآخرين، وهي شمس التبريزي.

إذ تتبع عينا الرومي شمساً كما يتبع نبات عبّاد الشمس الشمس. فقد كان حبّ أحدهما للآخر جلياً قوياً، وثمة شيء نادر جداً يجمعهما. ولم يُعد جميع من في البيت يتحمّلون ذلك، لا سيما علاء الدين، الذي رأيته مرات عدة وهو يرمق شمس بنظرات غاضبة. وكان القلق يعتصر كيرا أيضاً، لكنها لم تكن تنبس ببنت شفة. كنا نجلس جميعاً فوق برميل بارود، ومن الغريب أن شمس التبريزي، المسؤول عن كلّ التوتّر الذي خيّم علينا، لم يكن يعي ما حدث، أو أنه كان يعي ذلك لكنه لم يكن يعبأ به.

في جزء مني، كنت أحسّ بمرارة تجاه شمس لأنه سلب منا الرومي، وفي جزء آخر كنت أتلهف للتعرف عليه أكثر. وكانت هذه المشاعر المتباينة تحتدم في نفسي منذ زمن، وأخشى اليوم أن أكون قد كشفت عن مكنونات نفسي.

ففي هذا المساء، تناولت القرآن المعلّق على الحائط، وعزمت على قراءته وحدي. ففي السابق، كان الرومي يتبع الترتيب الذي نزلت فيه الآيات، لكن بعد أن افتقدت من يوجّهني ويرشدني، وبعد أن انقلبت حياتنا رأساً على عقب، لم أر ضيراً في قراءتها من دون ترتيب. لذلك، فتحت صفحة لا على التعيين، ووضعت إصبعي على أول سورة ظهرت لي، فكانت سورة «النساء»، التي لم أكن أحبّها كثيراً، لأنني كنت أجد صعوبة في فهم الأوامر المتعلقة بالمرأة فيها، والتي وجدت من الصعب عليّ تقبّلها. وبينما رحت أقرأ السورة مرة تلو الأخرى، خطر لي أن أطلب منه أن يساعدني. فعلى الرغم من أن الرومي لم يعد يعطيني دروساً، ما من سبب يمنعني من سؤاله. لذلك، حملت قرآني وتوجهت إلى غرفته.

دهشت عندما لم أر الرومي في الغرفة، بل رأيت شمساً جالساً بالقرب من النافذة، يسبّح بمسبحة يحملها في يده، وكان ضوء الشمس الغاربة يداعب قسمات وجهه. بدا شديد الوسامة فأشحت وجهي عنه.

قلت له: «أنا آسفة، إني أبحث عن مولانا، سأعود في ما بعد».

فقال شمس: «فيمَ العجلة؟ إبقي. يبدو أنك جئت إلى هنا لتسألي عن شيء. ربما كان بإمكاني أن أساعدك».

لم أر سبباً يمنعني من سؤاله، فقلت بتردد: «حسناً، أجد صعوبة في فهم هذه السورة».

همهم شمس، وكأنه يكلّم نفسه، وقال: «إن القرآن مثل عروس خجولة، لا ترفع حجابها إلا عندما ترى أن الناظر إليها لطيف وحنون في الصميم»، ثمّ سوّى كتفيه وسأل: «أيّ سورة؟».

فقلت: «سورة النساء. ففيها آيات تقول إن الرجال قوامون على النساء؛ حتى إنها تقول إنه يحق للرجال أن يضربوا زوجاتهم...».

«هل الأمر كذلك؟»، سأل شمس باهتمام مبالغ فيه فلم أعرف أكان جاداً أم أنه كان يسعى لإثارتي. وبعد فترة قليلة من الصمت، ابتسم ابتسامة رقيقة، وراح يتلو الآية من ذاكرته:

«الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا».

عندما انتهى، أغمض عينيه وراح يقولها بالتفسير التالي:

«إن الرجال يعيلون النساء لأن الله يرزق بعضهم أكثر من بعض، وينفقون من أموالهم (لإعالتهن). والنساء الصالحات المطيعات لله يحفظن الغيب كما حفظه الله. أما اللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن، واهجروهن في المضاجع (من دون إيذائهن) وضاجعوهن (عندما يكنّ راغبات في ذلك). وإذا تقرّبن منكم، فلا تبحثوا عن عذر للومهن. إن الله عليّ قدير».

«هل ترين فرقاً؟»، سأل شمس.

فقلت: «نعم. هناك فرق كبير. ففي حين يبدو أن الآية توافق على ضرب الرجال لزوجاتهم، ينصحهم تفسيرك بهجرهن والابتعاد عنهن. أظن أن هناك فرقاً كبيراً. لِمَ ذلك؟».

«لِمَ ذلك؟ لِمَ ذلك؟»، ردّد شمس عدّة مرات، كأنه يستمتع بالسؤال، «أخبريني شيئاً يا كيميا. هل سبق أن سبحت في نهر ذات يوم؟».

فهززت رأسي عندما لمعت في ذاكرتي ذكريات طفولتي. فقد تذكّرت الجداول الباردة التي تطفئ الظمأ، والتي تجري في جبال طوروس، وذكريات الفتاة الصغيرة التي كانت تمضي أمسيات سعيدة عدة على ضفاف تلك الجداول برفقة أختها وصاحباتها، التي لم يبق منها الآن سوى النذر اليسير. أشحت بوجهي عن شمس لأنني لم أشأ أن يرى الدموع تترقرق في عينيّ.

«عندما تنظرين إلى نهر من بعيد يا كيميا، فقد تعتقدين بوجود مجرى ماء واحد فقط. أمّا إذا غصتِ في الماء، فستدركين أنه يوجد أكثر من نهر واحد. فالنهر يخفي تيارات متعددة، تتدفّق جميعها بتناغم، لكنها في الوقت نفسه، منفصلة عن بعضها الآخر.

عندما قال ذلك، اقترب مني شمس وأمسك ذقني بين أصبعيه، وجعلني أنظر مباشرة في عينيه العميقتين، الداكنتين، الحنونتين. كاد قلبي يتوقف عن الخفقان. حتى إنني لم أستطع أن أتنفّس.

وقال: «إن القرآن نهر متدفق. لا يرى الذين ينظرون إليه من بعيد إلا نهراً واحداً. أما الذين يسبحون فيه، فإنهم يجدون أربعة تيارات. ومثل أنواع الأسماك المختلفة، بعضنا يسبح بالقرب من السطح، وبعضنا الآخر يسبح في المياه الأعمق».

فقلت: «لم أفهم»، مع أنني كنت قد بدأت أفهم.

«إن الذين يحبّون أن يسبحوا بالقرب من سطح الماء يقنعون بالمعنى الظاهري للقرآن، وكثيرون ينتمون إلى هذه الفئة، فيفسّرون الآيات تفسيراً حرفياً، ولا عجب أنهم يستنتجون، عندما يقرأون سورة مثل سورة النساء، بأن الرجال هم أعلى منزلة من النساء، لأن هذا هو ما يريدون رؤيته فقط».

فسألته: «وماذا عن التيارات الأخرى؟».

انطلقت من شمس تنهيدة رقيقة، ولم أتمالك نفسي من النظر إلى فمه، الغامض، الممتع مثل حديقة سرية.

«توجد ثلاثة تيارات أخرى: فالتيار الثاني أعمق من التيار الأول، لكنه قريب من السطح. وعندما تتسع درجة وعيك، تتسع درجة فهمك للقرآن أيضاً. لكن لكي يتم ذلك، يجب أن تغوصي في العمق».

أحسست بالفراغ وبالفهم في الوقت نفسه وأنا أنصت إليه، ثمّ سألته بحذر: «وماذا يحدث عندما تغوص؟».

«أما التيّار التحتي الثالث فهو القراءة الباطنية. فإذا قرأت سورة النساء وعينك الداخلية مفتوحة، فإنك سترين أن السورة لا تتحدث عن النساء والرجال، بل عن الأنوثة والذكورة. ويوجد لدى كلّ واحد منّا، بمن فيهم أنا وأنت، أنوثة وذكورة، لكن بدرجات وظلال متباينة. وعندما نتعلّم كيف نحتضن هاتين الصفتين، نتمكن من تحقيق وحدانية متناغمة».

«هل تريد أن تقول لي إنه يوجد في داخلي شيء من الذكورة؟».

«نعم، بالتأكيد. ويوجد لديّ أيضاً جانب من الأنوثة».
انطلقت مني ضحكة خافتة، وسألته: «وماذا عن الرومي؟».
ابتسم شمس ابتسامة خفيفة، وقال: «توجد في داخل كلّ رجل درجة من الأنوثة».
«حتى الرجال الذين يتمتعون بالرجولة؟».
«خاصة هؤلاء يا عزيزتي»، قال شمس، مزيّناً كلماته بغمزة وخافضاً صوته إلى همس، كأنه يريد أن يفضي إليّ بسرّ.
كتمت ضحكة، وأحسست بأنني فتاة صغيرة. كان هذا هو تأثير وجود شمس القريب مني كثيراً. فقد كان رجلاً غريباً، لصوته سحر غريب. وكانت يداه لدنتين، تكسو العضلات ذراعيه، وكانت نظرته مثل خط من ضوء الشمس، يجعل كلّ شيء يسقط عليه يبدو أكثر حدّة وحيوية. وعندما وقفت بجانبه، أحسست بشبابي بكلّ عنفوانه، وسرت في داخلي كذلك غريزة أمومة، تنضح برائحة الأمومة الحليبية الكثيفة. أردت أن أحميه، كيف أو من ماذا، لا أعرف.
أرخى شمس يده على كتفي، وقرّب وجهه كثيراً من وجهي، فلسعتني أنفاسه الدافئة. ورأيت في عينيه نظرة حالمة جديدة. أسرني بلمسته، عندما داعب وجنتيّ بأطراف أصابعه الدافئة التي بدت مثل لهب يشعل بشرتي. دهشت. هبط إصبعه قليلاً ليصل إلى شفتي السفلى. شعرت بدوار واضطراب، فأغمضت عيني، وتموّج في بطني إحساس بالإثارة يعادل عمراً كاملاً. لكن عندما لمس شمس شفتيّ سرعان ما أبعدها.
«يجب أن تذهبي الآن يا عزيزتي كيميا»، دمدم شمس، جاعلاً اسمي يبدو مثل كلمة حزينة.

خرجت وأنا أشعر باضطراب في رأسي، وقد توهجت وجنتاي بالحرارة.

عندما عدت إلى غرفتي، استلقيت على ظهري فوق حصيرة النوم، ورحت أحدّق في السقف، أتساءل كيف يمكن أن أشعر لو قبّلني شمس، وتذكرت أنني نسيت أن أسأله عن التيّار التحتي الرابع في الجدول ـ القراءة الأعمق للقرآن. ما هو؟ كيف يمكن للمرء أن يحقق هذا القدر من العمق؟

وماذا يحدث للذين يغوصون؟

سلطان ولد

قونية، ٤ أيلول (سبتمبر) ١٢٤٥

لماً كنت الشقيق الأكبر سناً لعلاء الدين، فقد كنت دائم القلق عليه، لكن قلقي عليه لم يعد كما كان من قبل. فهو عصبي المزاج، سريع الغضب، منذ أن كان طفلاً، لكنه أصبح الآن مشاكساً، محباً للخصام. وكان مهيأً دائماً للشجار على أيّ شيء، مهما كان تافهاً أو بسيطاً، وأصبح طبعه رديئاً، مشاكساً، وبات الأطفال في الشارع يخافون منه ما إن يرونه. ومع أنه لم يكن يتجاوز السابعة عشرة من العمر، تشكّلت حول عينيه تجاعيد من شدة التجهّم والتحديق. وفي هذا الصباح بالذات، لاحظت تجعيدة جديدة بجانب فمه لأنه يبقيه مزموماً على الدوام.

كنت منهمكاً في الكتابة على رقّ مصنوع من جلد الغنم عندما سمعت صوتاً خفيفاً خلفي. كان علاء الدين، بشفتيه المزمومتين. ويعلم الله منذ متى كان يقف هناك، يراقبني بعينيه البنيتين بنظرته المتوتّرة. وسألني ماذا أفعل.

فقلت: «إني أنسخ محاضرة قديمة لوالدنا. فمن المستحسن أن نحتفظ بنسخة إضافية عن جميع محاضراته».

«وما فائدة ذلك؟»، زفر علاء الدين بصوت مرتفع، «فقد توقّف عن إلقاء المحاضرات أو الخطب. وإذا لم تكن تلاحظ، فقد توقّف عن إعطاء الدروس في المدرسة أيضاً. ألا ترى أنه تخلّى عن جميع مسؤولياته؟».

فقلت: «إنه أمر موقت. إذ سيعود إلى التدريس قريباً».

«إنك تخدع نفسك. ألا ترى أنه لم يعد لدى والدنا وقت يمنحه لأيّ شيء أو لأحد إلا لشمس؟ أليس هذا الأمر مضحكاً؟ من المفترض أن يكون الرجل درويشاً متجولاً، لكنه ضرب جذوره في بيتنا».

وأطلق علاء الدين ضحكة ساخرة، متوقعاً مني أن أوافقه على رأيه، لكنني عندما لم أجبه، أخذ يذرع الغرفة، وحتى من دون أن أنظر إليه، شعرت باللهب الغاضب يشعّ من عينيه.

«إن الناس يثرثرون»، واصل علاء الدين كلامه بحزن، «ويسألون جميعهم السؤال نفسه: كيف استطاع زنديق أن يتلاعب بعالم جليل؟ إن سمعة والدنا مثل ثلج يذوب تحت الشمس، وإذا لم يتوقف عن ذلك بسرعة، فقد لا يجد مريدين آخرين في هذه المدينة؛ إذ لم يعد أحد يريده معلّماً، وأنا لا ألومهم على ذلك».

وضعت الرقّ جانباً ونظرت إلى أخي. كان مجرد فتى، حقاً، مع أن قسماته تشي بأنه أصبح يقف على عتبة الرجولة. فقد تغيّر كثيراً منذ السنة الماضية، وبدأت أشكّ في أنه عاشق، لكني لا أعرف من هي الفتاة، وأصدقاؤه يرفضون إخباري من هي.

«يا أخي، أعرف أنك لا تحبّ شمساً، لكنه ضيف ينزل في بيتنا، ويجب أن نحترمه. لا تنصت إلى ما يقوله الآخرون. صدقاً، يجب ألا نثير لغطاً حول هذا الأمر».

ما إن انبعثت هذه الكلمات من فمي، حتى ندمت، لكن الآوان قد فات. ومثل الحطب الجاف، اشتعل علاء الدين بسرعة.

«لغط؟»، زفر علاء الدين، «أهكذا تسمي الكارثة التي حلت بنا؟ كيف يمكنك أن تكون أعمى إلى هذه الدرجة؟».

تناولت رقّاً آخر، ورحت أمسّد سطحه الرقيق. فقد كان نسخ كلمات أبي يمنحني متعة كبيرة، لذلك كنت أحاول إطالة ذلك بقدر ما أستطيع، حتى يتمكن الناس من قراءة خطب أبي لتصبح إلهاماً لهم. وقد جعلني عملي هذا، على صغره، أشعر بالفخر.

وقف علاء الدين إلى جانبي ولم يكفّ عن التذمر، وراح ينظر إلى ما أفعله، بعينين كئيبتين مريرتين. ولوهلة، رأيت توقاً في عينيه، ورأيت وجه فتى بحاجة إلى حبّ أبيه. وبقلب منقبض، أدركت أنه لم يكن غاضباً من شمس، بل من أبي.

كان علاء الدين غاضباً من أبي لأنه لم يكن يحبّه كثيراً، فعلى الرغم من أن أبي كان عالماً مرموقاً وجليلاً، فإنه لم يتمكن من مواجهة الموت الذي اختطف أمّنا وهي في مقتبل العمر.

ثم قال: «يقولون إن شمساً سحر والدنا. ويقولون إن الحشاشين هم الذين أرسلوه».

«الحشاشون»، قلت محتجاً، «هذا هراء».

والحشاشون فرقة تعرف بأساليبها الدقيقة في القتل، وباستخدامها السمّ في قتل مناوئيها. وكان أفرادها يستهدفون أصحاب السلطة والنفوذ، ويقتلون ضحاياهم في الأماكن العامة، لبثّ الخوف والاضطراب في قلوب الناس. فقد وضعوا قطعة حلوى مسمومة في

خيمة صلاح الدين الأيوبي ورسالة إلى جانبها تقول إنك في متناول أيدينا. ولم يجرؤ صلاح الدين، القائد المسلم العظيم الذي حارب الصليبيين ببسالة وحرّر القدس، على محاربتهم، وفضّل مهادنتهم. فكيف يخطر في بال أحد أن يكون شمس مرتبطاً بهذه الفرقة التي تبثّ الرعب في نفوس الناس؟

وضعت يدي على كتف علاء الدين وجعلته ينظر في وجهي.

«بالإضافة إلى ذلك، ألا تعرف أن الفرقة لم تعد كما كانت؟ فلم تعد أكثر من مجرد اسم الآن».

تمعّن علاء الدين في ذلك قليلاً وقال: «نعم، لكنهم يقولون إن ثلاثة من الجنود الشديدي الولاء لحسن الصباح، قد غادروا قلعة الموت، وأقسموا أن يزرعوا الرعب وينشروا الاضطرابات أينما حلّوا. ويعتقد البعض بأن شمساً هو زعيمهم».

بدأت أفقد صبري، فقلت: «كان الله في عوني! وهل يمكنك أن تخبرني لماذا يريد الحشاشون قتل والدنا؟».

«لأنهم يكرهون الأشخاص ذوي النفوذ ويحبّون نشر الفوضى»، ردّ علاء الدين الذي كان متأثراً بنظريات المؤامرة، إلى حدّ أنّ بقعاً حمراء اعترت خديّه.

كان عليّ أن أعالج الأمر بحرص شديد، فقلت: «أنظر، إن الناس يتحدثون دائماً عن أشياء مختلفة، ولا يمكنك أن تصدّق هذه الإشاعات السيئة. إطرح من رأسك الأفكار الحقودة هذه. إنها تسمّم عقلك».

وعلى الرغم من أن علاء الدين قد أطلق أنّة تنم عن امتعاض،

واصلت كلامي، وقلت: «يبدو أنك لا تحبّ شمساً شخصياً. فليس من الضروري أن تحبّه، لكن كرمى لأبينا، يجب أن تظهر له شيئاً من الاحترام».

رمقني علاء الدين بمرارة واحتقار. وعندها فهمت أن أخي الأصغر لم يكن منزعجاً من والدنا ولم يكن غاضباً من شمس فحسب، بل كان مستاء مني أيضاً، لأنه كان يعتبر تقديري لشمس علامة ضعف مني. وربما خيّل إليه أنه لكي أكتسب استحسان أبي، كنت أبدو متذلّلاً وضعيفاً. ومع أنني كنت أشكّ في ذلك، فقد آلمني كثيراً.

وبالرغم من ذلك، فلم أغضب منه، وحتى لو كنت قد غضبت، فلم يدم غضبي طويلاً، لأنه أخي الأصغر، الذي سيظل دائماً، بالنسبة لي، ذلك الفتى الذي يجري وراء القطط في الشارع، ويوسّخ قدميه في البرك الموحلة التي تشكّلها الأمطار، ويتناول شرائح الخبز المدهونة باللبن طوال النهار. ورأيت في وجهه ذلك الفتى المكتنز قليلاً، القصير بالنسبة لعمره، ذلك الفتى الذي لم يذرف دمعة واحدة عندما سمع نبأ وفاة أمّه؛ وكان كلّ ما فعله أن نظر إلى قدميه، وكأنه أحسّ بالخجل فجأة من حذائه، وزمّ شفته السفلى حتى تلاشى لونها. ولم تنبعث من فمه كلمة أو شهقة. لقد تمنيت لو أنه بكى.

سألته: «هل تتذكّر عندما تعاركت مع أطفال الحيّ وأتيت إلى البيت وأنت تبكي وأنفك يرعف؟ ماذا قالت لك أمّنا آنذاك؟».

ضاقت عينا علاء الدين أولاً، ثم توسّعتا، لكنه لم ينبس بكلمة.

«قالت لك عندما تغضب من شخص، يجب أن تتخيّل وجه شخص تحبّه بدلاً من وجه ذلك الشخص. هل حاولت أن تتخيّل وجه أمّنا بدلاً من وجه شمس؟ فربما وجدت فيه شيئاً تحبّه».

ارتسمت على شفتيّ علاء الدين ابتسامة عابرة، سريعة، وخجولة، مثل سحابة عابرة، ودهشت كم خففت هذه الابتسامة من قسوة قسماته.

«ربما استطعت»، قال وقد تلاشى الغضب من صوته الآن.

ذاب قلبي. عانقت أخي، ولم أعرف ما الذي يمكنني أن أقوله له بعد ذلك. عانقني واعتراني شعور بالثقة بأنه سيصلح علاقته مع شمس، وأنه سرعان ما سيحلّ الانسجام في بيتنا.

ومن الأحداث التي أعقبت ذلك، لم أكن مخطئاً.

كيرا

قونية ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٥

وراء الباب المغلق، كان شمس والرومي يتحدثان بحماسة شديدة عن الله وعن أمور لا يعلمها إلا الله في ذلك اليوم. قرعت الباب ودخلت من دون أن أنتظر ردّاً، حاملة صينية عليها صحن حلاوة. جرت العادة ألا ينبس شمس بكلمة في حضوري، وكأن وجودي يرغمه على الصمت، ولا يعلّق بشيء على مهاراتي في الطهو. وفي جميع الأحوال، لم يكن يتناول الكثير من الطعام. ويخطر لي أحياناً أنه لم يكن يكترث إن كنت أقدّم له طعاماً لذيذاً أو خبزاً يابساً. لكنه هذه المرة، برقت عيناه عندما تناول قطعة الحلاوة التي صنعتها بنفسي.

وقال: «إنها لذيذة يا كيرا. كيف صنعتها؟».

لا أعرف ماذا حلّ بي، فبدلاً من أن أستمتع بإطرائه للحلوى التي صنعتها، سمعت نفسي أردّ عليه: «لماذا تسأل؟ حتى لو أخبرتك كيف صنعتها، فلن تتمكن من صنعها».

رمقني شمس بعينيه وهزّ رأسه قليلاً، كما لو كان موافقاً على ما

قلته. انتظرت أن يقول شيئاً رداً على ذلك، لكنّه لبث واقفاً هناك، صامتاً وهادئاً.

بعد قليل، غادرت الغرفة وعدت إلى المطبخ، أفكّر بما جرى. ولعلي ما كنت تذكرت شيئاً، لولا ما حدث في هذا الصباح.

* * *

كنت أخضّ اللبن بجانب الموقد في المطبخ عندما سمعت أصواتاً غريبة في الفناء. خرجت مسرعة، لأرى أكثر المشاهد جنوناً في حياتي. فقد كانت الكتب متناثرة في كل مكان، وكان بعضها مكوّماً في أبراج متزعزعة، وكانت كتب أخرى تطفو فوق سطح ماء البركة الذي أصبح أزرق فاقعاً بسبب الحبر الذي ذاب فيه.

بينما كان الرومي واقفاً هناك، التقط شمس كتاباً من بين الكتب المكدسة ـ ديوان المتنبي ـ وحدّج فيه بنظرات عابسة، وألقاه في الماء. عندما غاص الكتاب في الماء تناول كتاباً آخر. كان هذه المرة كتاب الأسرار للعطّار.

فغرت فمي رعباً. فقد كان شمس يتلف كتب الرومي الأثيرة لديه، الواحد تلو الآخر! وكان آخر كتاب ألقاه في الماء كتاب «العلوم الإلهية» الذي ألّفه والد الرومي. ولمّا كنت أعرف مقدار حبّ الرومي لأبيه وشغفه بهذا المخطوط القديم، نظرت إليه، وتوقّعت أن ينفجر غضباً.

لكني وجدت الرومي واقفاً جانباً. وجهه شاحب كالشمع، ويداه ترتعشان. لم أفهم لماذا لم يقل شيئاً. فالرجل الذي وبّخني عندما كنت أزيل الغبار عن كتبه، ينظر الآن إلى رجل مجنون يتلف مكتبته

كلها، من دون أن ينبس بكلمة واحدة. هذا ليس عدلاً، وعندما لم يتدخل الرومي ليضع حداً لذلك، تدخّلت أنا بنفسي.

«ماذا تفعل؟»، سألتُ شمساً، «فلا توجد نسخ أخرى من هذه الكتب. إنها ثمينة للغاية. لماذا تلقي بها في الماء؟ هل جننت؟».

لم يردّ شمس، بل التفت إلى الرومي وسأله: «أهذا هو رأيك أيضاً؟».

زمّ الرومي شفتيه، وابتسم ابتسامة باهتة، لكنه لبث صامتاً.

«لماذا لا تقول شيئاً؟»، صرخت في زوجي.

عندها، اقترب الرومي مني، وأمسك بيدي بقوة، وقال: «هدّئي من روعك يا كيرا، أرجوك. إني أثق بشمس».

نظر إليّ شمس من وراء كتفه، براحة وثقة، وشمّر عن ساعديه وانتشل الكتب من الماء. دهشت عندما تبين لي أن جميع الكتب التي أخرجها من الماء كانت جافة.

سألته، «هل هذا سحر؟ كيف فعلت ذلك؟».

فقال شمس: «لكن لماذا تسألين؟ وحتى لو أخبرتك، فلن تقدري على القيام بذلك».

غضبت، حبست دموعي، وتسللت إلى المطبخ الذي أصبح ملاذي هذه الأيام. جلست في المطبخ وسط القدور والمقالي، وأكوام الأعشاب والتوابل، وأجشهت في البكاء.

الرومي

قونية، كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٥

عزمنا أنا وشمس على أداء صلاة الصبح معاً في العراء، وغادرنا البيت بعد فترة وجيزة من بزوغ الفجر. امتطى كلّ منا حصانه وسرنا لفترة من الزمن، واجتزنا المروج والوديان والجداول التي تجري فيها مياه شديدة البرودة، مستمتعين بالنسيم الذي يهبّ على وجهينا؛ وحيّتنا فزّاعات بأشكال غريبة في حقول القمح، ورأينا ثياباً مغسولة حديثاً معلقة أمام بيت ريفي ترفرف بجنون في جميع الاتجاهات عندما مررنا بجانبها في شبه الظلام.

في طريق عودتنا، شدّ شمس رسن حصانه، وأشار إلى شجرة بلوط هائلة خارج المدينة. جلسنا معاً تحت الشجرة، والسماء معلقة فوق رؤوسنا في ظلال أرجوانية. افترش شمس عباءته على الأرض، وعندما انطلق صوت الأذان داعياً المؤمنين إلى الصلاة من مساجد قريبة وبعيدة، صلّينا معاً.

«عندما وصلت إلى قونية، جلست تحت هذه الشجرة»، قال شمس، وابتسم عندما لمعت في رأسه ذكرى بعيدة، لكنه سرعان ما

أصبح جدّياً، وقال: «لقد أوصلني فلاح كان من أشدّ المعجبين بك. وقال إن خطبك تشفي من الحزن».

فقلت: «كانوا يطلقون عليّ اسم ساحر الكلمات، أما الآن فقد أصبح ذلك وكأنه من الزمن الغابر. لم أعد أرغب في إلقاء خطب. لقد انتهيت».

«إنك ساحر الكلمات»، قال شمس بتصميم، «لكن أصبح لديك قلب يترنم بدلاً من عقل خطيب».

لم أفهم قصده، ولم أسأله. كان الفجر قد محا ما تبقى من الليلة السابقة، فأصبحت السماء برتقالية. وعلى مسافة بعيدة أمامنا، بدأت المدينة تستيقظ، وراحت الغربان تنقضّ على مزارع الخضراوات لالتقاط ما يمكنها سرقته، وتناهت إلينا أصوات صرير الأبواب التي بدأت تفتح، ونهيق الحمير، وطقطقة نار المواقد المشتعلة عندما انطلق الجميع لاستقبال يوم جديد.

«في كل مكان يكافح الناس وحدهم لتحقيق ذواتهم، من دون أن يوجههم أو يرشدهم أحد إلى ما يجب عليهم فعله»، همهم شمس وهو يهزّ رأسه، «إن كلماتك تساعدهم، وسأبذل ما بوسعي لمساعدتك. إني خادمك».

«لا تقل ذلك»، قلت محتجاً، «إنك صديقي».

غير عابئ باعتراضي، واصل شمس كلامه قائلاً: «إن ما يقلقني هو القوقعة التي تعيش في داخلها. ولكونك خطيباً وواعظاً مشهوراً، فإن المعجبين والمريدين يتحلّقون حولك. لكن ماذا تعرف عن عامة الناس؟ السكارى والشحاذون واللصوص والمومسات والمقامرون ـ

الذين لا عزاء لهم، الذين يتعرّضون لأشدّ أنواع الظلم والبؤس. هل يمكننا أن نحبّ مخلوقات الله جميعها؟ إنه اختبار صعب، ولا يستطيع إلا القليل من الناس اجتيازه».

عندما واصل كلامه، رأيت لطافة وقلقاً يرتسمان على وجهه، وشيئاً آخر يشبه حناناً أمومياً.

فقلت: «إنك محق. فقد عشت حياة رغيدة، حتى إنني لا أعرف كيف يعيش الناس العاديون».

التقط شمس حفنة من التراب، وبينما ترك التراب ينسلّ من بين أصابعه، أضاف بهدوء: «لو كان بإمكاننا اعتناق الكون كله، بكلّ اختلافاته وتناقضاته، لذاب كلّ شيء وأصبح بوتقة واحدة».

عندها التقط شمس غصناً يابساً ورسم به دائرة كبيرة حول شجرة البلوط. وعندما انتهى من ذلك، رفع ذراعيه إلى السماء كأنه يريد أن يرفعهما ليمسك حبلاً غير مرئي، وراح يردد أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، ويدور في الوقت نفسه داخل الدائرة؛ ببطء وبهدوء في البداية، ثم بسرعة متزايدة، مثل نسيم المساء. وسرعان ما أخذ يدور بسرعة وبقوة ريح عاصفة. كان دورانه بهذه الحماسة آسراً إلى درجة أنني بدأت أحسّ كأن الكون كله ـ الأرض والنجوم والقمر ـ تدور معه. رحت أراقب هذه الرقصة الغريبة، تاركاً الطاقة التي تشعّ منها تغلّف روحي وجسمي.

وفي النهاية، بدأ دوران شمس يتباطأ حتى توقّف تماماً. كان صدره يعلو ويهبط، مع كلّ نَفَسٍ قاس يتنفسه، وقد ابيضّ وجهه، وأصبح صوته فجأة عميقاً، كأنه منبعث من مكان بعيد، وقال: «إن الكون

كائن واحد. ويرتبط كلّ شيء وكلّ شخص بشبكة خفيّة من القصص. وسواء أدركنا ذلك أم لم ندرك، فإننا نشارك جميعاً في حديث صامت. لا ضرر ولا ضرار. كن رحيماً. ولا تكن نمّاماً، حتى لو كانت كلماتك بريئة، لأن الكلمات التي تنبعث من أفواهنا، لا تتلاشى بل تظل في الفضاء اللانهائي إلى ما لا نهاية، وستعود إلينا في الوقت المناسب. إن معاناة إنسان واحد تؤذينا جميعاً. وبهجة إنسان واحد تجعلنا جميعاً نبتسم. هكذا تقول إحدى قواعد العشق.

ثمّ وجه نظرته الفضولية نحوي. كان ثمة مسحة من اليأس في أعماق عينيه، مسحة من الحزن لم أرها فيه من قبل.

قال شمس: «ذات يوم ستُعرف بصوت الحبّ، في الشرق والغرب، سيجد الناس الذين لم يروا وجهك قط إلهاماً في صوتك».

فسألته بريبة: «كيف يمكن أن يحدث ذلك؟».

فأجاب شمس: «من خلال كلماتك. لكني لا أتحدّث هنا عن المحاضرات ولا عن الخطب، بل أتحدّث عن الشعر».

«الشعر؟»، قلت بصوت متصدع، «أنا لا أقرض الشعر. إني عالم دين». أثار كلامي ابتسامة خفيّة ارتسمت على وجه شمس.

«ستكون، يا صديقي، أحد أجمل الشعراء الذين سيعرفهم العالم».

كنت على وشك أن أحتجّ، لكن النظرة المصممة في عينيّ شمس أوقفتني، ولم أرغب في مجادلته، فقلت: «سنفعل ما يجب أن نفعله معاً. سنسير على هذا الدرب معاً».

هزّ شمس رأسه ساهماً ولاذ بصمت مخيف، وراح يحدّق في الألوان الباهتة في الأفق. وعندما تكلّم أخيراً، نطق بتلك الكلمات

المشؤومة التي لم تغادرني قط، جارحاً روحي جرحاً دائماً: «الشدّ ما أحبّ أن أكون معك، يجب أن تفعل ذلك وحدك».

فسألته: «ماذا تقصد؟ إلى أين ستذهب؟».

زمّ شمس شفتيه بحزن، وأطرق بعينيه، وقال: «ليس الأمر بيدي».

هبّت علينا ريح مفاجئة، فاشتدت برودة الطقس،كأنه نذير بأن الخريف أصبح على الأبواب. وبدأ المطر يهمي من السماء الزرقاء الصافية، قطرات خفيفة دافئة، رهيفة ورقيقة مثل لمسة الفراشة. وكانت هذه هي أول مرة تخطر لي فكرة أن شمس سيغادر، فأحدث ذلك ألماً حاداً في صدري.

سلطان ولد

قونية، كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٥

ربما كان البعض يتسلى بسماع تلك الثرثرة، لكن الألم يعتصرني عندما أسمعها. فكيف يمكن أن يكون الناس على هذه الدرجة من الاستعلاء والاحتقار إزاء الأمور التي لا يعرفون عنها كثيراً؟ إنه أمر غريب، إن لم يكن مخيفاً، مدى بُعدِ الناس عن الحقيقة! فهم لا يفهمون عمق الصلة التي تربطني مع أبي وشمس. ومن الواضح أنهم لم يقرأوا القرآن. لأنهم لو قرأوه، لعرفوا أن هناك قصصاً مماثلة تحكي عن الرفقة الروحية، مثل قصّة موسى والخضر.

فهي ترد في سورة الكهف بوضوح شديد. فقد كان موسى رجلاً يُحتذى، عظيماً إلى درجة أن يصبح نبياً ذات يوم، فضلاً عن كونه زعيماً ومشرّعاً أسطورياً. ثم جاء وقت أحسّ فيه بأنه بحاجة ماسة إلى رفيق روحي ليفتح عينه الثالثة؛ ولم يكن ذلك الرفيق سوى الخضر، معزّي المفجوعين والمكروبين.

قال الخضر لموسى: «أمرني الله أن أجوب العالم، وأن أفعل ما يجب أن أفعله. وتقول إنك تريد أن ترافقني، فإن رافقتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدّثك أنا به».

فقال موسى ستجدني صابراً ولا أعصي لك أمراً».

فانطلقا، وزارا أماكن عدة في طريقهما، لكن موسى رأى من فعله عجباً، فقد قتل غلاماً وخرق سفينة، فلم يتمالك موسى عن سؤاله، «لماذا فعلت هذه الأعمال الفظيعة؟».

«ألم أطلب منك ألاّ تسألني؟».

وفي كلّ مرة كان موسى يسأله، كان يعتذر منه ويعده بألاّ يسأله ثانية، وفي كلّ مرة، كان ينكث بوعده. وفي النهاية، أبان له الخضر سبب تصرفاته. وشيئاً فشيئاً، فهم موسى أن الأمور التي قد تبدو خبيثة أو تعيسة، غالباً ما تكون نعمة مغلّفة في شكل نقمة، وعندما تبدو الأمور جيدة، فقد تكون ضارّة على المدى البعيد. وأصبحت مرافقته القصيرة للخضر من أكثر التجارب المدهشة في حياته.

وكما في هذه الحكاية الرمزية، توجد في هذا العالم صداقات قد تبدو غير مفهومة للأشخاص العاديين، لكنها في حقيقة الأمر تشكّل قنوات تفضي إلى حكمة وبصيرة أعمق. وهكذا أعتبر وجود شمس في حياة أبي.

لكنّي أعرف أن الآخرين لا يرون الأمر بالطريقة التي أراها، وهذا ما يقلقني. ولسوء الحظ، فإن شمساً لا يسهّل الأمور حتى يكسب محبة الناس ومودتهم. إذ يجلس عند باب التكية بطريقة متوعدة، ويوقف كلّ من يريد الدخول لرؤية أبي ويسأله: «لماذا تريد أن ترى مولانا العظيم؟ ما الهدية التي أحضرتها له؟».

فيتلعثم الزائر ويتأتئ، بل ويعتذر، ولا يسمح له شمس بالدخول.

ويعود بعض هؤلاء الزوّار بعد بضعة أيام حاملين معهم هدايا، فاكهة

مجفّفة، أو دراهم فضّة، أو سجاجيد حريرة، أو خِرافاً صغيرة. لكن رؤية هذه الأشياء كانت تزعج شمس، فتتوهج عيناه السوداوان، ويتضرّج وجهه، ويطردهم ثانية.

وفي أحد الأيام استشاط رجل غضباً وصاح في وجه شمس: «من أعطاك الحقّ في أن تسدّ علينا باب مولانا؟ ولا تكفّ عن سؤال كلّ من يأتي ماذا أحضر معه! وماذا عنك أنت؟».

فقال له شمس بصوت عال ليسمعه الجميع: «لقد أحضرتُ نفسي. لقد ضحّيتُ برأسي من أجله».

فابتعد الرجل يدمدم شيئاً، وبدا عليه الاضطراب أكثر من الغضب.

* * *

وفي اليوم نفسه سألت شمساً ألا يشعر بالانزعاج عندما يسيء الجميع فهمه ولا يقدّرونه، ولم أتمكن من مغالبة مخاوفي، وقلت له إنه اكتسب أعداء كثيرين في الأيام الأخيرة.

بدا شمس ساهماً، وكأن ليست لديه فكرة عمّا أتحدث عنه، فقال: «لكن ليس لدي أعداء»، وأضاف: «قد يكون لعشاق الله منتقدون، بل منافسين، لكنّ ليس لهم أعداء».

«نعم لكنّك تتشاجر مع الناس»، قلت معترضاً.

فقال شمس محتدماً: «إني لا أتشاجر معهم، بل أتشاجر مع إحساسهم بتضخم ذواتهم، وهذا أمر مختلف».

ثمّ أضاف بهدوء: «إنها قاعدة من القواعد الأربعين: *«يشبه هذا العالم جبلاً مكسواً بالثلج يردّد صدى صوتك. فكل ما تقوله، سواء أكان جيداً أم سيئاً، سيعود إليك على نحو ما. لذلك، إذا كان هناك*

شخص يتحدث بالسوء عنك، فإن التحدث عنه بالسوء بالطريقة نفسها يزيد الأمر سوءاً. وستجد نفسك حبيس حلقة مفرغة من طاقة حقودة. لذلك، انطق وفكّر طوال أربعين يوماً وليلة بأشياء لطيفة عن ذلك الشخص. إن كلّ شيء سيصبح مختلفاً في النهاية، لأنك ستصبح مختلفاً في داخلك».

فقلت: «لكن الناس يقولون أشياء كثيرة عنك، حتى إنهم يشكّون بوجود علاقة لا يمكن وصفها بين رجلين»، وبدأ صوتي يخونني في النهاية.

عندما سمع شمس ذلك، أرخى يده على ذراعي، وابتسم ابتسامته المريحة المعهودة، وحكى لي قصّة.

كان رجلان يسافران من بلدة إلى أخرى، ووصلا إلى جدول ماء فاض من الأمطار الغزيرة. وعندما أوشكا على عبور الجدول، لاحظا امرأة شابة جميلة تقف وحيدة، تحتاج إلى مساعدة. وعلى الفور توجّه إليها أحد الرجلين، وحملها بين ذراعيه، واجتاز بها الجدول، ثم وضعها على الضفة الأخرى، ولوّح لها مودعاً، ثم تابع الرجلان رحلتهما.

وخلال ما تبقى من الرحلة، لبث المسافر الثاني صامتاً وعابساً، لا يردّ على أسئلة صديقه. وبعد مرور ساعات من التجهّم، لم يعد بمقدوره البقاء صامتاً، فقال: «لماذا لمست تلك المرأة؟ كان من الممكن أن تغويك! إذ يحرم على الرجل ملامسة امرأة هكذا».

فردّ الرجل الأول بهدوء: «يا صديقي، لقد حملت تلك المرأة ووضعتها على ضفة الجدول الأخرى وتركتها هناك؛ أما أنت فلا تزال تحملها منذ ذلك الحين».

«إن بعض الناس هكذا»، قال شمس، «يحملون مخاوفهم وأفكارهم المتحيّزة على أكتافهم، ويسحقهم كلّ ذلك الثقل. وإذا سمعت بأحد لا يستطيع فهم الصلة التي تربطني بأبيك، فاطلب منه أن يغسل دماغه».

إيلا

نورثامبتون، ١٥ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

المحبوبة إيلا،

لقد سألتني كيف أصبحت صوفياً، وإني أقول لك إنني لم أصبح صوفياً بين ليلة وضحاها.

اسمي الأصلي كريغ ريتشاردسون، ولدت في مدينة كينلوتشبيرفي، وهي ميناء بعيد يقع في المناطق المرتفعة في اسكتلندا. عندما أتذكّر الماضي، فإني أتذكّر بولع شديد قوارب الصيد، والشباك المثقلة بالسمك، وجدائل العشب البحري المتدلية منها مثل أفاعٍ خضرٍ، وطيور زمار الرمل التي تحلّق على طول الشاطئ تلتقط الديدان، والنباتات التي تنمو في أقل الأماكن توقّعاً، ورائحة البحر اللاذعة والمالحة. إن تلك الرائحة، بالإضافة إلى رائحة الجبال والبحيرات، والطمأنينة الكئيبة التي خيّمت على الحياة في أوروبا بعد الحرب، هي التي كوّنت خلفية طفولتي.

وبينما انحدر العالم في ستينات القرن العشرين وأصبح مسرحاً للتظاهرات الطالبية، وخطف الطائرات، والثورات، كنت منعزلاً عنها

جميعاً أقبع في ركن هادئ، أخضر. وكان أبي يمتلك مكتبة لبيع الكتب المستعملة، وكانت أمي تربي الأغنام التي تنتج صوفاً عالي الجودة. وفي طفولتي تذوقت طعم الوحدة التي يحياها الراعي، والمشاعر التي تعتري بائع الكتب. وفي أيام كثيرة، كنت أتسلّق شجرة قديمة وأنظر إلى المشهد المحيط، قانعاً بأنني سأمضي حياتي كلها هناك. وبين الحين والآخر، كان قلبي يتوق إلى القيام بمغامرات، لكني كنت أحبّ كينلوتشبيرفي كثيراً، وكنت سعيداً وقانعاً بتوقعاتي لحياتي. كيف كان لي أن أعرف أن الله قد رسم مخططاً آخر؟

وبعد بلوغي العشرين من العمر بقليل، اكتشفت الشيئين اللذين غيّرا حياتي إلى الأبد، الأول آلة تصوير للمحترفين، فسجّلت اسمي في دورة لتعليم فنون التصوير الفوتوغرافي، ولم أكن أعرف أنني سأصبح مولعاً بما كنت أعتبره هواية بسيطة طوال حياتي. والثاني الحبّ، فقد أحببت امرأة هولندية كانت تقوم بجولة في أوروبا مع بعض صديقاتها، تدعى مارغو.

كانت مارغو تكبرني بثماني سنوات؛ فارعة الطول وجميلة وعنيدة. تعتبر نفسها بوهيمية، مثالية، راديكالية، تعاشر الجنسين، يسارية، فوضوية، متعددة الثقافات، مناصرة لحقوق الإنسان، وناشطة مناوئة للثقافة السائدة، ونسوية مناصرة للبيئة؛ تسميات لم أكن أعرف كيف يمكنني أن أعرّفها إذا سألني أحدهم عنها. لكني لاحظت منذ البداية أنها كانت تعني شيئاً آخر: امرأة البندول. فقد كانت مارغو امرأة قادرة على التأرجح بين البهجة العارمة والكآبة الشديدة في بضع دقائق. كانت شديدة التقلب، وتغضب دائماً مما

كانت تفسّره بأنه نفاق «أسلوب الحياة البرجوازية». وكانت تدأب على البحث في كلّ تفصيل من تفاصيل الحياة، وتشنّ معارك على المجتمع. وحتى يومنا هذا، لا يزال عدم هروبي منها وهجرها لغزاً بالنسبة لي.

بل تركت نفسي أنجرّ إلى دوّامة شخصيتها المتقلّبة، لأنني كنت غارقاً في حبها.

كانت مارغو توليفة مستحيلة، فمع أنها كانت مفعمة بالآراء الثورية، والشجاعة الحرة، والإبداع، كانت هشّة مثل زهرة من كريستال. فقررت أن أقف إلى جانبها وأحميها، لا من العالم الخارجي فحسب، بل من نفسها أيضاً. هل كانت تحبني بقدر ما كنت أحبّها؟ لا أظن ذلك، لكني كنت أعلم أنها كانت تحبّني بطريقتها الأنانية التي تتسم بالتدمير الذاتي.

وهكذا انتهى بي المقام في آمستردام وأنا في العشرين من عمري، حيث تزوّجنا. وكرّست مارغو وقتها لمساعدة اللاجئين إلى أوروبا لأسباب سياسية أو إنسانية. وبسبب عملها في منظمة تعنى بتلبية احتياجات المهاجرين، كانت تقدم المساعدة للمتضررين القادمين إلى هولندا من أصقاع الدنيا. كانت ملاكهم الحارس. وقد أطلقت الكثير من الأسر القادمة من إندونيسيا والصومال والأرجنتين وفلسطين اسم مارغو على بناتها.

أما أنا، فلم أكن أبدي اهتماماً بالقضايا المهمة، لأنني كنت منهمكاً بتسلق سلم الترقيات. فبعد أن تخرجت في كلية إدارة الأعمال، عملت في شركة دولية. جعلني عدم اهتمام مارغو بوضعي أو براتبي

أطمح أكثر إلى تحقيق نجاحات تافهة. فقد كنت متعطشاً للسلطة، وكنت أريد أن أترك بصمتي على العالم.

كنت قد خططت لحياتنا كلها؛ وكنا قد قررنا أن ننجب أطفالاً بعد سنتين. وقد أكملت ابنتان صغيرتان الصورة التي رسمتها في ذهني عن عائلة مثالية. وكنت واثقاً من المستقبل الماثل أمامنا. فقد كنا نعيش في واحد من أكثر البلدان أماناً على وجه الأرض، لا في واحد من تلك البلدان التي تسود فيها الاضطرابات ويتدفق منها المهاجرون إلى أوروبا مثل صنبور ماء معطوب. كنّا في ريعان الشباب، ننعم بالصحة، ويحبّ أحدنا الآخر. ومن الصعب الآن أن أصدق أنني بلغت الرابعة والخمسين من العمر، وأن مارغو قد ماتت.

كانت مارغو وافرة الصحة؛ وكانت نباتية في زمن لم تكن هذه الكلمة معروفة، وكانت تحرص على تناول الأطعمة الصحية، وتمارس الرياضة بانتظام، ولم تكن تتناول أي أدوية. كان وجهها الملائكي مفعماً بالصحة، وجسمها على الدوام كان رشيقاً، نحيفاً. كما كانت تعتني بنفسها إلى درجة أنني كنت أبدو أكبر سناً منها، على الرغم من فارق السن بيننا.

ماتت مارغو ميتة بسيطة وعلى نحو غير متوقّع. ففي إحدى الليالي، وهي في طريق عودتها من زيارة قامت بها لصحافي روسي مشهور، تقدّم بطلب للحصول على اللجوء، تعطّلت سيارتها في وسط الطريق السريع. فقد فعلت شيئاً، وهي المرأة التي طالما حرصت على الالتزام بالقوانين، لا يعبّر عن حقيقة شخصيتها. فبدلاً من أن تشعل الضوء الوامض، وتنتظر وصول مساعدة، غادرت السيارة وتوجهت

إلى القرية المجاورة سيراً على القدمين. كانت ترتدي معطفاً رمادياً داكناً، وبنطالاً غامقاً، ولم تكن تحمل مصباحاً كاشفاً، أو أيّ شيء يجعلها مرئية، فصدمتها شاحنة ـ مقطورة قادمة من يوغسلافيا. قال السائق إنه لم يرها، لأن مارغو كانت ذائبة في ظلام الليل تماماً.

كنت ذات يوم فتى. وكان الحبّ قد فتح عينيّ على حياة أجمل. لكن بعد أن فقدت المرأة التي كنت أحبّها، طرأ تغيّر كبير على شكلي، فلم أعد فتى ولم أعد رجلاً بالغاً، بل أضحيت حيواناً حبيساً. وإني أطلق على هذه المرحلة من حياتي الحرف «صاد» في كلمة «صوفي».

أرجو ألاّ أكون قد أثقلت عليك بهذه الرسالة الطويلة.

محبتي،

عزيز

البغي وردة الصحراء

قونية، كانون الثّاني (يناير) ١٢٤٦

بسبب الإحساس بالخزي لما حدث في المسجد، لم تعد صاحبة المبغى تسمح لي بالخروج للذهاب إلى أيّ مكان، وأصبحت سجينة في المبغى إلى الأبد. لكن ذلك لم يزعجني، لأنني لم أعد أرغب في أيّ شيء.

وازداد الوجه الذي يحيّيني في المرآة صباح كل يوم شحوباً؛ ولم أعد أمشّط شعري، أو أقرص خديّ ليصطبغا باللون الأحمر. بدأت الفتيات الأخريات يتذمّرن من هيئتي التي لم تعد جذابة، ويقلن إن ذلك يجعل الزبائن يهربون. ربما كنّ على حقّ، لذلك شعرت بالاطمئنان عندما قلن لي في ذلك اليوم إن زبوناً معيناً يلحّ على رؤيتي.

واعتراني الذعر عندما تبيّن لي أنه بيبرس.

وما إن أصبحنا وحدنا في الغرفة، حتى سألته: «ماذا يفعل حارس مثلك هنا؟».

فقال بصوت مثقل بالتلميح: «حسناً، إن قدومي إلى مبغى لا يقل غرابة عن ارتياد عاهرة مسجداً».

فقلت: «كنت واثقة من أنك كنت تريد أن تقتلني في ذلك اليوم. إني أدين بحياتي إلى شمس التبريزي».

فقال: «لا تذكري هذا الاسم المقزز أمامي ثانية، فهو زنديق».

«لا، إنه ليس زنديقاً»، لا أعرف ماذا حلّ بي، لكنني سمعت نفسي أقول: «منذ ذلك اليوم، زارني شمس التبريزي عدة مرات».

«هاه! درويش في مبغى!»، نخر بيبرس، «إن هذا لا يفاجئني».

فقلت: «ليس الأمر كذلك. ليس الأمر كما يخيّل إليك على الإطلاق».

لم أكن قد أخبرت أحداً بذلك من قبل، ولا أعرف ما الذي جعلني أخبر بيبرس بذلك الآن، لكن شمس دأب على زيارتي أسبوعياً خلال الشهور الماضية. لا أعرف كيف كان يستطيع التسلل إلى المبغى من دون أن يراه أحد، ولا سيما صاحبة المبغى. ولعل أي شخص آخر كان سيقول إنه يمارس السحر الأسود. لكنني أعرف أن هذا غير صحيح، فقد كان شمس رجلاً طيباً ـ رجلاً مؤمناً ـ لديه مواهب خاصة. وما عدا أمّي أثناء طفولتي، فإن شمس هو الشخص الوحيد الذي عاملني برقة ولطف من دون مقابل، وهو الذي علّمني ألا أقنط، مهما بلغ الأمر من سوء. وعندما قلت له إن شخصاً مثلي لا يمكنه التخلص من ماضيه، ذكّرني بإحدى قواعده التي تقول: *إن الماضي تفسير، والمستقبل وهم. إن العالم لا يتحرّك عبر الزمن وكأنه خط مستقيم، يمضي من الماضي إلى المستقبل. بل إن الزمن يتحرك من خلالنا وفي داخلنا، في لوالب لا نهاية لها.*

إن السرمدية لا تعني الزمن المطلق، بل تعني الخلود.

فإن أردتِ اختبار النور الأبدي، فعليكِ أن تخُرجي الماضي والمستقبل من عقلك وتظلي داخل اللحظة الراهنة.

ولقد دأب شمس على القول: «كما ترين، فإن اللحظة الحالية هي كلّ ما كان وكلّ ما سيكون. وعندما تفهمين هذه الحقيقة، فلن يبقى ما تخشين منه، وعندها يمكنك مغادرة هذا المبغى بلا رجعة».

* * *

كان بيبرس يحدّق في وجهي. عندما نظر إليّ، كانت عينه اليمنى تنظر إلى أحد الجانبين، كما لو كان معنا في الغرفة شخص آخر، شخص لا أستطيع رؤيته، مما أثار فزعي.

عندما أدركت أنه يجب عليّ أن أتوقف عن الحديث عن شمس، قدمت له إبريقاً من الجعة، فجرعها بسرعة.

«إذاً ما الشيء الذي تجيدينه؟»، سألني بيبرس بعد أن جرع إبريقاً ثانياً من الجعة، «ألا تتمتعن أيتها الفتيات بمواهب خاصة؟ هل تجيدين الرقص الشرقي؟».

فقلت إني لا أتمتع بأي من هذه المواهب، وأن المواهب التي كنت أتمتع بها في الماضي تلاشت بعد أن أصبت بمرض مجهول، وأن المعلمة ستقتلني لو سمعتني أقول ذلك لأحد الزبائن، لكن لم يعد يهمني. فقد كنت أتمنى أن يمضي بيبرس الليلة مع فتاة أخرى.

لكن بيبرس خيّب أملي، إذ راح يهزّ رأسه وقال إن ذلك لا يهمه. ثم أخرج كيسه، وصبّ مادة بنية مائلة إلى الأحمر في راحة يده، وتناولها وراح يمضغها ببطء، ثم سألني: «هل تريدين قليلاً؟».

هززت رأسي بالنفي. كنت أعرف ما هي هذه المادة.

«إنك لا تعرفين ما خسرتيه»، ابتسم ابتسامة عريضة عندما استلقى على السرير، واستسلم جسمه لخدر الحشيش.

في ذلك المساء، بعد أن شعر بيبرس بالانتشاء من الجعة والحشيش، أخذ يتحدث بتبجّح عن الفظائع التي شهدها في ساحات المعارك. وقال بيبرس إنه بالرغم من أن جنكيزخان مات وتفسّخ جسده، فلا يزال طيفه يرافق جيوش المغول، وبحافز من طيفه، يهاجم الجيش المغولي القوافل، وينهب القرى ويسلبها، ويذبح النساء والرجال. ثمّ حدثني عن حجاب الصمت، الرقيق الهادئ مثل دثار في ليلة شتوية باردة، الذي خيّم على ساحة معركة بعد أن قتل وجرح المئات، وكان العشرات يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

وأضاف بصوت مبهم: «إن الصمت الذي يعقب كارثة هائلة، هو أشدّ الأصوات التي يمكنك سماعها هدوءاً على سطح البسيطة».

فدمدمت قائلة: «يبدو الأمر حزيناً للغاية».

فجأة نضبت الكلمات، ولم يعد هناك شيء يمكن أن نتحدث عنه. فأمسك بذراعي، ودفعني إلى السرير، ونزع عني ردائي. كانت عيناه محتقنتين، وصوته أجشّ. وكانت رائحته مزيجاً كريهاً من الحشيش والعرق والجوع. وولجني بلكزة واحدة قاسية. حاولت أن أتحرك جانباً وأرخي فخذيّ لأخفف من شدة الألم، لكنّه ضغط بكلتا يديه على صدري بقوة وسمّرني في مكاني. ولم يتوقف عن الصعود والهبوط فوقي حتى بعد أن قذف في داخلي، مثل دمية متحركة تحركها أيد خفيّة، غير قادرة على التوقف. كان من الواضح أنه كان مستاء، وظل يتحرك فوقي بفظاظة فخشيت أن ينتصب ثانية، لكن

فجأة انتهى كلّ شيء. كان لا يزال فوقي، ونظر في وجهي بحقد، كأن الجسد الذي أثاره منذ لحظات بات الآن يثير اشمئزازه.

«ارتدي شيئاً»، أمرني وتدحرج جانباً.

ارتديت ثوبي، ورحت أراقبه من طرف عيني وهو يلقي قليلاً من الحشيش في فمه، وقال: «من الآن فصاعداً، أريدك أن تكوني عشيقتي»، وبرز فكّه إلى الخارج.

لم يكن من الشائع أن يطلب الزبائن مني ذلك. وكنت أعرف كيف أعالج هذه الأمور الحسّاسة، فأعطي الزبون انطباعاً كاذباً بأنني أحبّ أن أصبح عشيقته وأنني لن أخدم أحداً غيره، لكن عليه أولاً أن ينفق مالاً كثيراً لإرضاء صاحبة المبغى، لكنني لم أرغب في التظاهر بذلك اليوم.

فقلت: «لا يمكنني أن أصبح عشيقتك، لأنني سأغادر هذا المبغى قريباً».

فهقه بيبرس كأن ما قلته كان أطرف ما سمعه في حياته، ثم قال بثقة تامة: «لا يمكنك أن تفعلي ذلك».

كنت أعرف أن عليّ ألاّ أتشاجر معه، لكنني لم أتمالك نفسي، وقلت: «أنا وأنت لا نختلف كثيراً. ففي الماضي، فعلنا أشياء نأسف عليها كثيراً، لكنك عُيِّنت حارساً بسبب مركز عمك ومكانته، أما أنا فلا عمَّ لديَّ يدعمني».

تصلّب وجه بيبرس، واتسعت عيناه الباردتان والساهمتان، غضباً. فاندفع إلى الأمام، وأخذ يجرّني من شعري. وقال هادراً: «لقد كنت لطيفاً معك، من تظنين نفسك؟».

فتحت فمي لأقول شيئاً، لكن وخزة ألم حادّة أسكتتني. فقد لطمني بيبرس على وجهي بقوة ودفعني إلى الحائط. لم تكن تلك أول مرة، فقد ضربني زبائن كثيرون، لكن ليس بهذه القسوة.

* * *

ألقاني بيبرس أرضاً وراح يركلني بقوة على أضلاعي وساقيّ، ويكيل لي الشتائم. أحسست بأغرب تجربة في حياتي. فبينما رحت أتلوى متألّمة، انسحق جسمي تحت وطأة كلّ ضربة من ضرباته، وانفصلت روحي - أو ما أحسست بأنها روحي - عن جسمي، وتحوّلت إلى طائرة ورقية، خفيفة وحرة.

بعد قليل رحت أطوف في الأثير، كما لو كان قد ألقي بي في خواء هادئ ليس فيه شيء يمكن مقاومته، ولا مكان يمكن اللجوء إليه، بل رحت أحوم ببساطة. ورحت أطير فوق حقول القمح المحصودة حديثاً، حيث أطاحت الريح بالأوشحة من على رؤوس الفتيات الفلاحات، وفي الليل راحت اليراعات تومض هنا وهناك مثل أضواء الزينة. بدا كأنني أسقط، لكنني كنت أسقط إلى الأعلى، إلى السماء العميقة الغور.

هل كنت أحتضر؟ فإذا كان هذا هو الموت، فإنه لم يعد يخيفني. لقد خفّت حدة قلقي. سقطت في مكان من الخفّة والنقاوة المطلقتين، منطقة سحرية لا يمكن لشيء فيها أن يشدّني إلى الأسفل. وفجأة أدركت أنني أعيش أشدّ حالات خوفي، ويا لدهشتي، لم أخف. أليس الخوف من أن أتعرض للأذى هو الذي جعلني أخشى مغادرة المبغى طوال هذا الوقت؟ فما دمت لا أخاف الموت، أدركت بقلب متّسع، أنني أستطيع أن أغادر جحر الجرذان هذا.

كان شمس التبريزي محقاً؛ فالقذارة الوحيدة هي القذارة التي تقبع داخل الإنسان. أغمضت عينيّ وتخيّلت شخصيتي الأخرى، نظيفة وتائبة، شابة، وأنني غادرت المبغى وبدأت أعيش حياة جديدة، مفعمة بالشباب والثقة، حياة مليئة بالأمن وبالحبّ. كانت الرؤية فاتنة وحقيقية جداً، على الرغم من الدم النازف أمام عينيّ، والخفقان في أضلاعي، لم أتمالك من الابتسام.

كيميا

قونية، كانون الثاني (يناير) ١٢٤٦

استجمعت شجاعتي، بعد أن اعتراني شعور بالخجل وتعرّقت قليلاً، لأتحدث إلى شمس التبريزي. فقد كنت أنوي أن أسأله عن أعمق مستوى من مستويات قراءة القرآن الكريم، لكن لم تتح لي الفرصة منذ أسابيع. وبالرغم من أننا كنا نعيش تحت سقف واحد، فإننا لم نلتق أبداً. لكن في هذا الصباح، بينما كنت أكنس الفناء، ظهر شمس إلى جانبي، وبدا لي أنه في مزاج يمكن التحدث معه. في هذه المرة، لم أتمكن من التحدث إليه لفترة أطول فحسب، بل تمكّنت أيضاً من النظر في عينيه.

«كيف تسير الأمور يا عزيزتي كيميا؟»، سأل مبتهجاً.

بدا شمس مذهولاً، وكأنه استيقظ من النوم للتو، أو أنه رأى رؤية أخرى. فقد علمت أنه بدأ يرى رؤى، وأنه تعلّم الآن تفسير الإشارات. وكان كلما رأى رؤية، شحب وجهه وأصبحت عيناه حالمتين.

«ستهبّ عاصفة وشيكة»، همهم شمس، وهو يحدّق في السماء التي

بدأت تهطل منها ندف رمادية، مؤذنة بهطول الثلج لأول مرة في السنة.

خطر لي أن الوقت مناسب لأسأله السؤال الذي كان يخطر في بالي.
فقلت له بحذر: «أتذكر عندما قلت لي إننا جميعاً نفهم القرآن وفق عمق بصيرتنا؟ ومنذ ذلك الحين،كنت أريد أن أسألك عن المستوى الرابع».

التفت شمس إليّ، وكادت نظراته تلهب وجهي. كنت أحبّ أن ينظر إليّ باهتمام، لأنني كنت أراه يزداد وسامة، وخاصة عندما يزمّ شفتيه، وتتغضن جبهته قليلاً.

فقال: «لا يمكن وصف المستوى الرابع، لأنه توجد مرحلة تخذلنا اللغة بعدها. فعندما تدخلين منطقة العشق، فلن تكوني بحاجة إلى اللغة».

فقلت: «أرجو أن أدخل منطقة العشق ذات يوم»، لكن الخجل اعتراني على الفور وأردفت: «أقصد حتى أتمكن من قراءة القرآن ببصيرة أعمق».

ارتسمت على فم شمس ابتسامة صغيرة غريبة، وقال: «لو كان يقبع في داخلك، لتمكنت من القيام بذلك، ولتمكنت من الغوص في التيار الرابع، حتى تبلغي الجدول».

كنت قد نسيت هذا الإحساس المختلط الذي لا يستطيع أحد أن يثيره إلا شمس. فعندما أقف إلى جانبه، أشعر بأنني طفلة تتعلّم مبادئ الحياة من جديد، أو امرأة على استعداد لإذكاء لهيب الحياة في رحمها.

سألته: «ماذا تقصد لو كان يقبع في داخلك؟ أتقصد القدر؟».

«نعم، هذا صحيح»، هزّ شمس رأسه.

«لكن ماذا يعني القدر؟».

«لا أستطيع أن أخبرك ما هو القدر. فكلّ ما يمكنني أن أحدثك عن القدر يكمن في قاعدة أخرى من قواعد العشق الأربعين: *لا يعني القدر أن حياتك محددة بقدر محتوم. لذلك، فإن ترك كلّ شيء للقدر، وعدم المشاركة في عزف موسيقى الكون دليل على جهل مطلق.*

«إن موسيقى الكون تعمّ كل مكان وتتألف من أربعين مستوى مختلفاً.

إن قدرك هو المستوى الذي تعزفين فيه لحنك. فقد لا تغيّرين آلتك الموسيقية بل تبدلين الدرجة التي تجيدين فيها العزف».

لا بد أنني نظرت إليه نظرة مرتبكة، لأن شمس شعر بأنه بحاجة لتفسير قوله. وضع يده على يدي، واعتصرها برقة، وبعينين عميقتين داكنتين، قال، «دعيني أحكي لك قصّة».

وها هي القصّة التي حكاها لي:

ذات يوم سألت شابّة درويشاً ما هو القدر، فقال لها هيا بنا نلقي معاً نظرة على العالم، وسرعان ما صادفا موكباً يسوقون فيه قاتلاً إلى الميدان لإعدامه، فسأل الدرويش، «هل سيشنق هذا الرجل لأن أحداً أعطاه مالاً لشراء السلاح الذي قتل به؟ أم لأن أحداً لم يوقفه وهو يرتكب الجريمة؟ أم لأنه قبض عليه في ما بعد؟ أين السبب والنتيجة في هذه المسألة؟».

فقاطعته وقلت: «إن هذا الرجل سيشنق لأن ما أقدم عليه عمل شنيع، وأن هذا جزاء ما جنته يداه. فالسبب موجود وكذلك النتيجة.

توجد أمور جيدة وأمور سيئة، ويوجد فارق بين الاثنين».

«آه، يا كيميا الحلوة»، أجاب شمس، بصوت خفيض كما لو كان قد تعب فجأة، «إنك تحبّين التميز لأنك تظنين أنه ييسّر الحياة. فماذا لو لم تكن الأمور بهذا الوضوح؟».

«لكن الله يريدنا أن نكون واضحين، وإلاّ لما وجد مفهوم الحلال والحرام. ولما وجدت الجنة والنار. تصوّر أنك لو لم تتمكن من إخافة الناس بنار جهنم، أو من مكافأتهم وتشجيعهم على دخول الجنة، لازداد العالم سوءاً».

تناثرت ندف الثلج في الريح، وانحنى شمس ليحكم ربط وشاحي. ولوهلة، لبثت واقفة جامدة، وتضوعت منه رائحة، كانت مزيجاً من خشب الصندل والكهرمان الرقيق، خفيفة مثل رائحة التراب بعد هطول المطر. أحسست بلهب دافئ يغمر بطني، وبموجة من الرغبة تسري بين ساقيّ. كان الأمر محرجاً، والغريب، أنه لم يكن محرجاً على الإطلاق.

«في العشق، تختلط الحدود»، قال شمس، محدّقاً بي بشيء من العطف، وبشيء من الاهتمام.

هل يتحدث عن عشق الله أم عن العشق بين المرأة والرجل؟ أم أنه يشير إلينا؟ هل يوجد شيء اسمه «نحن»؟

وتابع شمس كلامه، غير مدرك الأفكار التي تجول في رأسي، وقال: «لا يعنيني الحلال ولا الحرام. فأنا أفضّل أن أطفئ نار جهنم، وأن أحرق الجنة حتى يحبّ الناس الله من أجل الحبّ الخالص».

فقلت: «يجب ألاّ تخرج على الناس وتخبرهم بهذه الأمور. فالناس

سيئون، ولن يفهموا جميعهم ما تقوله».

ارتسمت على وجه شمس ابتسامة تشي بالشجاعة والجرأة. فقد تركته يأسرني، ووضع راحة يده الحارة والثقيلة في راحة يدي.

«ربما كنت على حق، لكن ألاّ تظنين أن ذلك يمنحني دافعاً أكبر للتعبير عن رأيي بصراحة؟ بالإضافة إلى ذلك، فإن الأشخاص ذوي الأفق الضيق في آذانهم وقرٌ، على كل حال، وبسبب آذانهم المغلقة، سيعتبرون كلّ ما أقوله كفراً مطلقاً».

«في حين أن كلّ ما تقوله لي حلو وجميل».

رمقني شمس بنظرة تشي بعدم التصديق تقارب الدهشة؛ لكنني كنت مندهشة أكثر منه، فكيف يمكنني أن أقول شيئاً كهذا؟ هل أطلقت العنان لأحاسيسي؟ لا بد أن جنياً أو ما شابه ذلك تلبسني.

«إني آسفة، من الأفضل لي أن أذهب الآن»، قلت ووثبت واقفة.

كان خدايّ يشتعلان من شدّة الخجل، وكان قلبي يخفق بكلّ الأشياء التي قلناها والتي لم نقلها، هرعت وخرجت من الفناء ودخلت إلى البيت. لكنني حتى عندما جريت، أدركت أنني اجتزت عتبة. فبعد الآن، لن أستطيع تجاهل الحقيقة التي أصبحت أعرفها: وهي أنني أحبّ شمس التبريزي.

شمس

قونية، كانون الثاني (يناير) ١٢٤٦

إن النميمة والتشهير بالآخرين وشتمهم طبيعة ثانية لدى بعض الأشخاص؛ فقد تناهت إليّ أحاديث وشائعات عني. فمنذ قدومي إلى قونية، انتشرت شائعات كثيرة، لكن ذلك لم يفاجئني. فمع أن القرآن يقول إن النميمة وقذف الناس إثم كبير، قلما يبذل معظم البشر أي جهد لكبح أنفسهم عن ممارسة ذلك. فهم لا يكفّون عن إدانة شاربي الخمر، أو البحث عن النساء الزانيات لرجمهن، لكن عندما يتعلّق الأمر بالنميمة التي هي إثم أعظم بكثير في نظر الله، فإنهم لا يعرفون أنهم يرتكبون إثماً.

وكلّ هذا يذكّرني بقصّة.

في أحد الأيام، هرع رجل واقترب من صوفي وقال له لاهثاً: «يا صاح، إنهم يحملون صواني، انظر هناك».

فأجاب الصوفي بهدوء: «وما علاقتنا بذلك؟ هل هذا الأمر يخصّنا؟».

فصاح الرجل، «لكنهم يأخذون هذه الصواني إلى بيتك. ألا يخصّك الأمر؟».

للأسف، إن الناس يراقبون دائماً صواني الآخرين؛ فبدلاً من الاهتمام بشؤونهم الخاصة، فإنهم يصدرون أحكامهم على الآخرين. ومما يثير دهشتي الأمور التي يختلقونها! فعندما يتعلّق الأمر بالتشكيك بالآخرين والتشهير بهم، فإن خيالهم يجمح ولا يعرف حدوداً. إذ يعتقد البعض في هذه البلدة بأنني القائد السري لفرقة الحشاشين، بل ذهب بعضهم شأواً أبعد من ذلك، فادّعوا أنني ابن آخر إمام اسماعيلي في قلعة ألموت، ويقولون إنني أمارس السحر الأسود والشعوذة، وأن كلّ شخص ألعنه سيموت في الحال. واتهمني البعض اتهاماً شنيعاً وهو أنني سحرت الرومي، وحتى لا يبطل هذا السحر، فإني أرغمه على تناول حساء الأفعى فجر كلّ يوم.

عندما أسمع هذا الهراء، أضحك وأنصرف عنهم. فماذا بوسعي أن أفعل غير ذلك؟ ما الضرر الذي قد يلحق بدرويش من الحقد الذي يكنّه له الآخرون؟ فلو ابتلع البحر العالم برمته، فماذا يهمّ بطّة من ذلك؟

لكنني أشعر بأن بعض الأشخاص حولي قلقون، لا سيما سلطان ولد. فهو شابّ ذكي وأنا واثق من أنه سيصبح قريباً مساعداً لأبيه. وهناك كيميا، كيميا الحلوة. . . التي تبدو قلقة أيضاً. لكن أسوأ شيء في كلّ هذه الثرثرة هو أن الرومي يناله الكثير من الطعن والتشويه في سمعته. فهو لم يتعوّد مثلي على سماع كلام سيئ من الآخرين. ولشدّ ما يعذّبني أن أراه حزيناً عندما يسمع الكلمات السيئة التي يقولها عنه بعض الجهلة. ففي داخل مولانا قدر كبير من الجمال، أما أنا، ففي داخلي قدر من الجمال، وقدر من القبح، لذلك فإنني أقدر على

التعامل مع قبح الآخرين أكثر منه. لكن كيف يستطيع عالم دين جليل اعتاد على الحديث الجاد والاستنتاجات المنطقيّة، أن يتصدى لهذا الهراء الصادر عن الجهلاء؟

لا عجب أن النبي محمد قال: «إني أشفق على ثلاثة أنواع من الناس: الغني الذي فقد ثروته، والمحترم الذي فقد احترامه، والحكيم الذي يحيط به الجهلاء».

غير أن ذلك قد يفيد الرومي. فالتشهير عنصر مؤلم، بل ضروري، في عملية تحوّل الرومي الداخلية. فقد كان الجميع يحترمونه ويكنون له الإعجاب طوال حياته ويقلّدونه، وكان يتمتع بسمعة لا تشوبها شائبة، ولا يعرف كيف يمكن أن يسيء الآخرون فهمه وينتقدوه. ولم يعتره قط ذلك الشعور بالضعف والوحدة الذي يعتري المرء بين الحين والآخر، فلم يجرح أحد كبرياءه، لكنه يحتاج إلى ذلك. وبالرغم من الألم، فإن التعرض للتشهير والافتراء يفيد الصوفي الجوال؛ وفي ما يلي القاعدة الثلاثون: *إن الصوفي الحق هو الذي يتحمّل بصبر، حتى لو اتُهم باطلاً، وتعرض للهجوم من جميع الجهات، ولا يوجّه كلمة نابية واحدة إلى أيّ من منتقديه. فالصوفي لا ينحي باللائمة على أحد. فكيف يمكن أن يوجد خصوم أو منافسون أو حتى «آخرون» في حين لا توجد «نفس» في المقام الأول؟ كيف يمكن أن يوجد أحد يلومه في الوقت الذي لا يوجد فيه إلا «واحد»؟*

إيلا

نورثامبتون، ١٧ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

المحبوبة إيلا،

كنت في غاية اللطف عندما طلبت مني أن أخبرك المزيد عني. بصراحة، لا أجد أنه يسهل عليّ أن أكتب عن هذه الفترة من حياتي لأنها تعيد إليّ ذكريات لا أريد استعادتها، ومع ذلك فإني سأخبرك بها:

بعد أن ماتت مارغو، طرأ على حياتي تغير كبير. فقد خسرت نفسي بعد أن رافقت مجموعة من المدمنين، وفي الليل، بدأت أرتاد نوادي الرقص في آمستردام ولم أكن أرتادها من قبل، ورحت أبحث عن المتعة والحبّ في الأماكن غير اللائقة. فقد أصبحت مخلوقاً ليلياً، وصادقت أناساً لم يكن عليّ مصادقتهم، كنت أستيقظ في أسرّة أشخاص غرباء، وفقدت أكثر من خمسة وعشرين رطلاً من وزني خلال بضعة أشهر.

وللمرة الأولى في حياتي تنشّقت الهيروين، وتقيأت ومرضت وبلغ بي المرض حداً لم أستطع معه أن أرفع رأسي طوال اليوم، لأن

جسمي كان يرفض المخدر. كانت تلك إشارة موجّهة إليّ لكني لم ألتقطها. وبعد فترة قصيرة، بدأت أستعمل الحقن عوضاً عن الشمّ. الماريوانا والحشيش والكوكايين ـ جرّبت كلّ ما وقع في يدي. ولم تمض فترة طويلة حتى أصبحت في حالة من التشويش والاضطراب ـ جسدياً وعقلياً. كنت أفعل كلّ شيء، حتى أبقى منتشياً.

عندما كنت أدخل حالة النشوة، كنت أضع خططاً مدهشة لسبل الانتحار. حتى إنني حاولت ذات مرة تناول شراب الشوكران السام، كما فعل سقراط، لكن يبدو أن مفعول السمّ لم يكن قوياً بشكل كاف ولم يؤثّر عليّ، أو أن العشبة الداكنة التي اشتريتها سراً من مطعم صيني يبيع طعاماً جاهزاً، كانت مجرد عشبة عادية، أو لعلهم غشوني وباعوني نوعاً من الشاي الأخضر. وفي أيام عدة، كنت أستيقظ في الصباح وأجد نفسي في أماكن غريبة وأرى شخصاً جديداً إلى جانبي، مع ذلك، كان الفراغ نفسه ينهشني من الداخل، وكانت النساء تحطنني بالرعاية، كانت بعضهن تصغرنني سناً، وبعضهن تكبرنني بكثير. وكنت أقيم في بيوتهن، وأنام في أسرّتهن، وأمضي نهاية الأسبوع في أكواخهن، وأتناول الطعام الذي تطهينه لي، وأرتدي منامات أزواجهن، وأتسوّق مستخدماً بطاقاتهن الائتمانية، كنت أرفض إعطاءهنّ حتى القليل من الحبّ الذي كنّ يطلبنه مني والذي لا شكّ أنهن كنّ يستحققنه.

لقد ألحقت بي الحياة التي اخترتها خسائر كبيرة بسرعة. فقد فقدت وظيفتي، وفقدت أصدقائي، وفقدت أخيراً الشقّة التي أمضيت فيها أنا ومارغو أياماً سعيدة كثيرة. وعندما أصبح من الواضح أنني لم أعد

أحتمل أسلوب الحياة هذا، رحت أتنقّل بين بيوت بسيطة مشتركة. أمضيت أكثر من خمسة عشر شهراً في أحد هذه البيوت في روتردام، التي لم تكن فيه أبواب، لا من الخارج ولا من الداخل، ولا حتى في الحمّام، وكنا نحن النزلاء، نتشارك في كلّ شيء: أغانينا وأحلامنا ومصروفنا ومخدّراتنا وطعامنا وأسرّتنا. كلّ شيء ما عدا الألم.

وبعد سنوات من حياة المخدّرات والمجون، هبطت إلى الدرك الأسفل، وأضحيت ظلّ الرجل الذي كنته. وبينما كنت أغسل وجهي ذات صباح، حدّقت في المرآة، فلم أر شاباً منهكاً وحزيناً بهذا الشكل قط. فعدت إلى السرير ورحت أبكي مثل طفل. وفي اليوم نفسه، فتّشت في الصناديق التي كنت احتفظ فيها بأشياء مارغو: كتبها، ملابسها، أسطواناتها، دبابيس شعرها، دفاترها، صورها، الواحدة تلو الأخرى، ودّعت كلّ هذه التذكارات. ثمّ أعدتها إلى الصناديق ووزعتها على الأطفال المهاجرين الذين كانت تحيطهم برعايتها وباهتمامها. كان ذلك في العام ١٩٧٧.

بفضل الله، وجدت وظيفة مصور في مجلة سياحية مشهورة. وهكذا انطلقت في رحلة إلى شمال أفريقيا حاملاً حقيبة من الخيش، وصورة لمارغو، وتخليت عن الرجل الذي كنت قد صرت إليه.

ثمّ أوحى إليّ عالم أنثروبولوجيا بريطاني التقيت به في جبال أطلس في الصحراء الكبرى، بفكرة. فقد سألني هل أريد أن أكون أول مصور غربي يتسلل إلى قدس أقداس المدن الإسلامية. لم أعرف عمّ يتحدّث، ثم قال إن القانون في السعودية يحرّم على غير المسلمين دخول مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولا يسمح للمسيحيين أو اليهود بالدخول إليهما، إذ لم يتمكن أحد من إيجاد وسيلة للدخول إلى

المدينة لالتقاط بعض الصور. وقال إنهم إذا قبضوا عليّ، فإنهم سيودعونني السجن، أو قد يصيبني مكروه أسوأ من ذلك. كنت أصغي إليه باهتمام، إذ إن فكرة الذهاب إلى الأرض المحرّمة، وإنجاز ما لم ينجزه أحد من قبل، جعلا جسمي يفرز الأدرينالين، بالإضافة إلى الشهرة والمال اللذين سيدرّهما عليّ في النهاية... فقد جذبتني الفكرة كما يجذب قدر العسل النحلة.

وأضاف عالم الأنثروبولوجيا إنني لا أستطيع عمل ذلك وحدي، وإنني بحاجة إلى علاقات وصلات أخرى، واقترح الاتصال بالأخويّات الصوفية في المنطقة، وقال: «ما يدريك، فقد يوافقون على مساعدتك».

لم أكن أعرف شيئاً عن الصوفية، كما لم أكن أبدي اهتماماً بذلك. وعندما عرضوا علي مساعدتهم، كنت سعيداً بأن ألتقي بالصوفيين الذين كنت أرى فيهم مجرد وسيلة لتحقيق غايتي، ليس إلا.

إن الحياة غريبة يا إيلا. ففي نهاية الأمر، لم أتوجه إلى مكة المكرمة أو إلى المدينة المنورة. لا آنذاك، ولا في ما بعد، ولا حتى بعد أن اعتنقت الإسلام. فقد قادني القدر إلى درب مختلفة تماماً، وإلى تغيّر غير متوقّع في الأحداث، فتغيرت كثيراً وفقد الهدف الأصلي أهميته بعد فترة. مع أن دوافعي كانت ناجمة عن دوافع مادية بحتة في البداية، فقد أمسيت رجلاً آخر، عند نهاية الرحلة.

أما الصوفية، فمن بإمكانه أن يعرف أن ما كنت أعتبره وسيلة لتحقيق غايتي، أصبح غاية في حد ذاته؟ وأنا أطلق على هذا الجزء من حياتي لقائي بالحرف «و» في كلمة «صوفي».

المحبّ عزيز

البغي زهرة الصحراء

قونية، شباط (فبراير) ١٢٤٦

كان اليوم الذي غادرت فيه المبغى مريراً وكئيباً وأشدّ الأيام برودة منذ أربعين سنة. فقد التمعت الشوارع الملتوية الضيّقة بالثلج الذي هطل، وكانت قطع جليد حادّة تتدلى من أسطح البيوت ومآذن المساجد بجمال آخاذ. وعندما حلّ المغرب، اشتدّ البرد ورأيت قططاً نافقة في الشوارع بعد أن أصبح شعر شاربيها خيوطاً رقيقة متجمدة، وقد انهارت عدّة بيوت متداعية تحت ثقل الثلج. بعد قطط الشوارع، عانى المشرّدون في قونية أشدّ المعاناة. فقد وجدت ست جثث مجمّدة، جميعها مكوّرة على نفسها في وضعية جنينية ترتسم على وجوهها ابتسامات سعيدة، كما لو كانت تنتظر ولادتها مجدداً إلى حياة أفضل وأكثر دفئاً.

في أصيل يوم، بينما كانت جميع الفتيات تأخذن قيلولة قبل بدء نشاطهن الليلي، تسللت من غرفتي، لم أكن أحمل معي إلا القليل من الملابس البسيطة، وتركت ثيابي وأرديتي الحريرية التي كنت أرتديها للزبائن الخاصين. فكلّ ما كسبته في المبغى، يجب أن يبقى فيه.

عند منتصف الدرج، رأيت مانوليا واقفة عند الباب الرئيسي، تمضغ أوراق الشجر البنيّة التي أدمنت على مضغها. فقد كانت مانوليا أقدم فتاة في المبغى، وبدأت تنتابها مؤخراً حرارة حارقة مفاجئة. فقد كنت أسمعها في الليل وهي تتقلّب في سريرها. ولا يخفى على أحد أن أنوثتها أخذت تجفّ وتنضب. كانت الفتيات الأصغر يقلن بسخرية إنهن يحسدن مانوليا، لأنها لم تعد تقلق من أن تأتيها العادة الشهرية، أو أن تحمل، أو تجهض، وأنه أصبح بإمكانها مضاجعة رجل كلّ يوم طوال الشهر، لكننا كنا نعرف أن مومساً في عمرها لم يعد أمامها سنوات عدة تعيشها.

عندما رأيت مانوليا واقفة هناك، عرفت أن أمامي خيارين لا ثالث لهما، وهما: إما أن أعود إلى غرفتي وأنسى أمر الهروب، أو أن أجتاز ذلك الباب وأتحمّل العواقب؛ فاختار قلبي الخيار الثاني.

«هيه، مانوليا، هل تشعرين بالتحسّن؟»، سألتها، بصوت رجوت أن تكون نبرته هادئة وطبيعية.

أشرق وجه مانوليا لكنه سرعان ما تجهّم ثانية عندما لاحظت الحقيبة في يدي. لم يكن لديّ مجال للكذب، لأنها تعرف أن صاحبة المبغى قد منعتني من مغادرة غرفتي، فما بالك بمغادرة المبغى.

«هل ستغادرين؟»، زفرت مانوليا وكأن السؤال أخافها.

لم أحر جواباً. وجاء دورها الآن لكي تختار. فقد كان بإمكانها أن تعترض طريقي وتبلغ الجميع بخطتي أو أن تدعني أذهب بكل بساطة.

حدّقت مانوليا فيّ. كانت قسمات وجهها متجهّمة، مليئة بالمرارة.

قالت: «عودي إلى غرفتك يا وردة الصحراء، لأن صاحبة المبغى سترسل رأس الواوي في إثرك. ألا تعرفين ما فعل بـ. . . ؟».

لكنها لم تنه جملتها، فقد كانت تلك قاعدة من القواعد غير المدوّنة في المبغى: لا نذكر قصص الفتيات التعيسات اللاتي عملن هنا، واللاتي انتهين نهاية في غير أوانها، وفي المناسبات النادرة التي كنا نذكرهن فيها، كنا نحرص على عدم ذكر أسمائهن، فلا داعي لإزعاجهن في قبورهن، لأنهن عشن حياة قاسية، ومن الأفضل أن ندعهن يسترحن في مماتهن.

«وحتى لو تمكنت من الهرب، فكيف ستكسبين رزقك؟»، قالت مانوليا بإلحاح، وأضافت، «ستتضورين جوعاً».

كان الخوف هو الذي رأيته في عينيْ مانوليا ـ لا الخوف من أن أفشل وأن أعاقب ـ، بل الخوف من أن أنجح. كانت ستفعل الشيء الذي طالما حلمت به، لكنها لم تجرؤ على تحقيق حلمها قط، لذلك احترمتني وكرهتني الآن لجرأتي. ساورني شكّ سريع، وكنت على وشك أن أعود، لو لم يتردد صدى صوت شمس التبريزي في رأسي.

فقلت: «دعيني أذهب يا مانوليا. فلن أبقى هنا يوماً آخر».

فبعد أن ضربني بيبرس ورأيت الموت أمامي، أحسست بأن شيئاً ما في داخلي قد تغيّر إلى غير رجعة، شعرت بأن الخوف في داخلي قد تلاشى. وبشكل أو بآخر، لم أعد أكترث. فقد عزمت على تكريس ما تبقى من حياتي لله. ولا يهم أسيدوم ذلك يوماً واحداً أم سنوات عدة آتية. فقد قال شمس التبريزي إن الإيمان والحبّ يجعلان البشر أبطالاً لأنهما يزيلان الخوف والقلق من قلوبهم، وقد بدأت أفهم قصده.

الغريب هو أن مانوليا فهمته أيضاً، فرمقتني بنظرة طويلة ممضة، وتنحّت جانباً وأفسحت لي الطريق لأخرج.

إيلا

نورثامبتون، ١٩ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

المحبوبة إيلا،

شكراً على لطفك. إني سعيد لأنك أحببت روايتي وأنك تفكّرين بها كثيراً. ومع أنني لم أعتد على التحدث عن ماضيّ، فمن الغريب أن التحدث عن ماضيّ إليك جعلني أشعر بالتخفف من وطأته.

فقد أمضيت صيف ١٩٧٧ مع مجموعة من الصوفيين في المغرب. كانت غرفتي بسيطة وصغيرة وبيضاء، ولم يكن فيها إلا الأشياء الضرورية: حصيرة للنوم، وقنديل، ومسبحة من العنبر، وأصيص أزهار بجانب النافذة، وتعويذة لدرء العين الشريرة، ومنضدة مصنوعة من خشب الجوز يوجد في أحد أدراجها ديوان الرومي. ولم يكن فيها هاتف، ولا تلفاز، ولا ساعة، ولا كهرباء. لم أعبأ بذلك. فبعد أن عشت في بيوت شعبية بسيطة لعدة سنوات، لم أعد أستصعب العيش في تكيّة للدراويش.

في أول أمسية في التكيّة، زارني السيد ساميد في غرفتي للاطمئنان عليّ، وقال إنهم يرحّبون أشدّ الترحيب بي للإقامة معهم حتى يحين

موعد مغادرتي إلى مكة المكرمة، لكن بشرط واحد، وهو ألاّ أتعاطى أي مخدّرات.

أتذكّر أن وجهي اتقدّ احمراراً، مثل طفل اكتشفه والداه وهو يدس يده في علبة البسكويت. كيف عرفوا؟ هل فتّشوا في حقيبتي عندما كنت في الخارج؟ لن أنسى ما حييت ما قاله لي السيد بعد ذلك: «لسنا بحاجة لنفتّش في أغراضك حتى نعرف أنك تتعاطى المخدّرات، يا أخ كريغ، بل إن عينيك تشيان بأنك مدمن».

إن المضحك في الأمر يا إيلا، هو أنني، حتى ذلك اليوم، لم أكن أعتبر نفسي مدمناً؛ بل كنت واثقاً من أنني أتحكم بالأمر، وأن المخدّرات تساعدني على حلّ مشاكلي. وقال السيد ساميد: «إن تسكين الألم ليس مثل شفائه، فعندما يزول مفعول المخدر، يبقى الألم».

كنت أعرف أنه كان محقّاً. وبتصميم يشي بالعجرفة أعطيتهم كلّ المخدّرات التي بحوزتي، حتى الحبوب المنوّمة التي أتناولها. لكن سرعان ما تبيّن لي أن تصميمي لم يكن من القوة بما يكفي لإخراجي مما سيأتي. وخلال الشهور الأربعة التي أقمت فيها في تلك التكيّة الصغيرة، نكثت بوعدي. ولم يكن من الصعب على شخص فضّل أن يكون دائخاً على أن يكون صاحياً، أن يعثر على مخدّرات، حتى لو كان أجنبياً. وفي ذات ليلة، عدت إلى التكيّة ثملاً، فوجدت جميع الأبواب موصدة من الداخل، فاضطررت إلى النوم في الحديقة. وفي اليوم التالي، لم يسألني السيد ساميد شيئاً، ولم أقدّم له أي اعتذار.

بالإضافة إلى هذه الحوادث المخزية، انسجمت مع الصوفيين،

واستمتعت بالهدوء الذي يسود التكيّة في تلك الأمسيات، وأحسست بسكينة خاصة تغمرني، لكنها كانت سكينة غريبة؛ ومع أنني كنت قد اعتدت على العيش تحت سقف واحد مع أشخاص آخرين، وجدت هناك أمراً لم أره من قبل، وهو السلام الداخلي.

في الظاهر كنا نعيش حياة مشتركة حيث كنا جميعاً نأكل ونشرب معاً، وكنا جميعاً نؤدي ذات الأعمال في الوقت نفسه، أما في داخلنا، فكان يتوقع منا أن نظل وحيدين وأن ننظر في دواخلنا، وكانوا يشجعوننا على ذلك. على طريق الصوفية، تكتشفين أولاً فنّ أن تكوني وحيدة في وسط جمع من الناس، ثم تكتشفين أن جمع الناس يقبعون في داخل وحدتك، الأصوات في داخلك.

وبينما كنت أنتظر مساعدة الصوفيين في المغرب للذهاب بأمان إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، بدأت أقرأ الفلسفة الصوفية وأشعار الصوفيين، بدافع من السأم والضجر وعدم وجود شيء أفضل أقوم به في البداية، ثمّ بدأت أفعل ذلك باهتمام متزايد. ومثل شخص لم يكن يدرك أنه عطش حتى تناول أول رشفة من الماء، وجدت أنّ تعرّفي على الصوفية جعلني أتوق إلى المزيد. ومن بين جميع الكتب التي قرأتها في ذلك الصيف الطويل، كان لأشعار الرومي تأثير كبير عليّ.

بعد ثلاثة أشهر، قال السيد ساميد فجأة إنني أذكّره بشخص، درويش متجوّل يدعى شمس التبريزي، وقال إن البعض يعتبر شمس زنديقاً صفيقاً، لكنك لو سألتِ الرومي، لأجابك أنه القمر والشمس.

افتتنت به، لكن الأمر كان مجرد فضول، وبينما كنت أنصت إلى السيد ساميد وهو يحدثني عن شمس، اعترتني رعدة أسفل ظهري،

واعتراني إحساس غريب بأنني رأيته من قبل.

الآن، ستقولين إنني مجنون، لكن أقسم بالله، أنني سمعت، في تلك اللحظة، صوت حفيف حرير في الخلفية، في البداية من مسافة بعيدة، ثمّ أخذ الصوت يقترب أكثر فأكثر، حتى رأيت ظلّ شخص لم يكن موجوداً. لعل نسيم المساء هو الذي كان يتحرّك بين الأغصان، أو لعله كان صفق جناح ملاك. وأياً كان الأمر، فقد عرفت فجأة أنني لست بحاجة إلى الذهاب إلى أيّ مكان، ليس بعد الآن. فقد سئمت ومللت من التوق الدائم للانتقال إلى أماكن أخرى، إلى مكان بعيد، مندفعاً دائماً على الرغم من نفسي.

كنت حيث كنت أريد أن أكون، فكلّ ما كنت أحتاج إليه هو البقاء والنظر إلى داخلي. وإني أطلق على هذا الجزء الجديد من حياتي لقائي بالحرف «ف»، في كلمة «صوفي».

مع محبتي، عزيز

شمس

قونية، شباط (فبراير) ١٢٤٦

مبشراً بأنه سيكون يوماً حافلاً بالأحداث، مضى الصباح أسرع من أي يوم عادي، وبدت السماء منخفضة ورمادية. وفي وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، وجدت الرومي في غرفته جالساً بالقرب من النافذة، يتأمل وجبهته مسترخية، وأصابعه تتحرّك بقلق على حبات مسبحته. كانت غرفته شبه معتمة من الستائر المخملية الثقيلة نصف المسدلة، لكن كانت هناك حزمة غريبة من ضوء الشمس تسقط في البقعة التي كان يجلس فيها الرومي، فمنحت المشهد كله شيئاً حالماً. وتساءلت هل سيرى الرومي النية الحقيقية التي تكمن وراء ما سأطلب منه أن يفعله، أم أنه سيصدم وينزعج؟

بينما وقفت أستوعب صفاء اللحظة، وقد اعتراني أيضاً شيء من التوتر، تراءى لي بصيص رؤية. فقد رأيت الرومي أكبر سناً وأضعف بكثير، مرتدياً عباءة خضراء غامقة، وجالساً في البقعة ذاتها، وقد بدا أكثر عطفاً وأكثر كرماً من أي وقت مضى، لكني رأيت ندبة دائمة على قلبه في هيئتي. ففهمت أمرين في الحال وهما: أن الرومي سيمضي

شيخوخته في هذا البيت، وأن الجرح الذي سيخلّفه غيابي لن يبرأ مطلقاً. فاغرورقت عيناي بالدموع.

«هل أنت على ما يرام؟ إنك تبدو شاحباً»، قال الرومي.

أجبرت نفسي على الابتسام، لكن عبء ما كنت أزمع أن أقوله كان ثقيلاً عليّ. خرج صوتي قلقاً وأقل حدّة مما كنت أنوي، وقلت: «ليس حقاً. إني شديد العطش، ولا يوجد شيء في هذا البيت يروي عطشي».

«هل تريد أن أسأل كيرا ماذا يمكنها أن تفعل لتطفئ لهيب عطشك؟»، سأل الرومي.

«لا، لأن ما أحتاج إليه لا يوجد في المطبخ، بل يوجد في الحانة، لأني أشعر بالرغبة في أن أثمل كما ترى».

تظاهرت بأنني لم ألاحظ أمارات عدم الفهم التي ارتسمت على وجه الرومي، وواصلت كلامي: «بدلاً من أن تذهب إلى المطبخ لشرب الماء، هل تريد أن تذهب إلى الحانة لاحتساء الخمر؟».

«أتقصد أنك تريدني أن أحضر لك خمرة؟»، سأل الرومي، وهو يلفظ الكلمة الأخيرة بحرص شديد، كما لو كان يخشى أن يقولها.

«هذا صحيح. أكون ممتناً لك كثيراً لو أحضرت لنا قليلاً من الخمر. قنينتان تكفيان، واحدة لك، وواحدة لي. لكن أرجو أن تسدي لي معروفاً. عندما تذهب إلى الحانة، لا تجلب القنينتين وتعود فقط، بل أمكث هناك قليلاً. تحدّث إلى الناس. سأنتظرك هنا. لا داعي للعجلة».

رمقني الرومي بنظرة نصف غاضبة، نصف حائرة. تذكّرت وجه التلميذ في بغداد ذاك الذي كان يريد مرافقتي، لكنه كان يخشى على

سمعته لو فعل ذلك. لأن حرصه على آراء الآخرين به جعله يحجم عن ذلك. تساءلت الآن: هل إنّ سمعة الرومي ستجعله يحجم عن ذلك أيضاً؟

لكنني أحسست براحة كبيرة عندما استوى الرومي واقفاً وهزّ رأسه.

«لم أرتدْ حانة ولم أذق خمرة في حياتي، ولا أظن أن الشراب هو الشيء الملائم الذي يجب أن أفعله. لكنّي أثق بك ثقة تامة، لأني أثق بالمحبة التي تربطنا. فلا بد من وجود سبب لطلبك هذا مني. ويجب أن أعرف هذا السبب. سأذهب لأحضر الخمر».

ثمّ ودّعني وانصرف.

عندما غادر الغرفة، ارتميت على الأرض وأنا في حالة من النشوة العميقة. تناولت المسبحة العنبرية التي تركها الرومي، وحمدت الله لأنه منحني رفيقاً صادقاً، وابتهلت إلى الله بألا تفيق روحه الجميلة من السكر بالعشق الإلهي.

الجزء الرابع

النار
الأشياء التي تدمّر وتحطّم

سليمان السكران

قونية، شباط (فبراير) ١٢٤٦

بتأثير الخمر، تنتابني أوهام كثيرة عندما أسكر، لكن رؤية الرومي العظيم وهو يدخل باب الخمارة كان أمراً لا يمكن تصديقه. وبالرغم من أنني قرصت نفسي، لم تختف رؤيته تلك.

صرخت، «خريستوس، ماذا قدمت لي يا رجل؟ لا بد أن قنينة النبيذ الأخيرة تحتوي على نبيذ رائع. فلا يمكنك أن تخمّن ما أراه الآن».

«اسكت أيها الأحمق»، همس أحدهم من خلفي.

تطلعت حولي لأرى من يحاول إسكاتي، فذهلت عندما رأيت جميع الرجال في الحانة، بمن فيهم خريستوس، يحدّقون نحو الباب. وأطبق صمت مخيف على المكان، حتى ساكوي، كلب الحانة، الذي بدت عليه علائم الحيرة وهو رابض وقد التصقت أذناه المهدلتان بالأرض. توقّف تاجر السجاد الفارسي عن إنشاد تلك الألحان السيئة التي يطلق عليها أغاني، ونهض، رافعاً ذقنه بجدية سكير يحاول أن يبدو أنه ليس كذلك.

كان خريستوس أول من كسر الصمت، فقال: «أهلاً بك في حانتي

يا مولانا»، قال وصوته يقطر أدباً: «إنه لشرف عظيم أن نراك تحت هذا السقف. كيف يمكنني أن أخدمك؟».

رمشت عيناي عدة مرات وتأكدت أخيراً أن الرومي بلحمه وشحمه هو الواقف هناك.

«شكراً»، قال الرومي، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، لكن باردة، وأضاف: «أريد قليلاً من الخمر».

فوجئ خريستوس المسكين عندما سمع ذلك وفغر فاه. وعندما تمكّن من التحرّك ثانية، قاد الرومي إلى أول طاولة فارغة، صادف أنها تنتصب إلى جانب الطاولة التي أجلس إليها.

«السلام عليكم»، حيّاني الرومي عندما جلس.

رددت: عليك السلام ورويت بضع دعابات، لكنني لم أكن واثقاً من أن الكلمات التي انطلقت من فمي مناسبة. بتعابيره الهادئة، وعباءته الغالية الثمن، وقفطانه البني الغامق الرائع، لم يعد الرومي يبدو أنه في المكان الملائم على الإطلاق.

انحنيت إلى الأمام، وخفضت صوتي حتى كاد أن يصبح همساً، وقلت: «هل من الصفاقة أن أسألك ماذا يفعل رجل مثلك هنا؟».

«إني أمرّ بتجربة صوفية»، قال الرومي، ورمش عينيه كما لو كنّا صديقين قديمين، وأضاف: «لقد أرسلني شمس إلى هنا لتشويه سمعتي».

«وهل هذا شيء جيد؟»، سألته.

ضحك الرومي وقال: «حسناً، إن ذلك يتوقف على الطريقة التي تنظر فيها إلى الأمر. ففي بعض الأحيان، يجب أن تحطّم كلّ

ارتباطاتك حتى تفوز بنفسك. فإذا كانت علاقاتنا بعائلاتنا وثيقة، ومكانتنا في المجتمع رفيعة، حتى إذا كانت علاقتنا جيدة بمدرستنا المحليّة أو مسجدنا وتقف عائقاً في طريق اتحادنا مع الله، فإنه يتعين علينا حينئذ أن نحطّم هذه الارتباطات».

لم أكن متأكّداً من أنني فهمته جيداً، لكن نوعاً ما، أراح هذا التفسير عقلي المضطرب والمشوّش. فقد كان يخيل إليّ أن هؤلاء الصوفيين مجانين، مجموعة متباينة يمكنها أن تفعل كلّ الأشياء الغريبة.

الآن، جاء دور الرومي لينحني ويسأل بنفس النبرة من الهمس: «هل من الصفاقة إن سألتك عن سبب وجود تلك الندبة على وجهك؟».

فقلت: «إنها ليست قصّة مثيرة، فقد كنت عائداً إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، واعترض طريقي ذلك الحارس وأوسعني ضرباً».

«لكن لماذا؟»، سأل الرومي، وقد بدت على وجهه أمارات القلق.

«لأني شربت الخمر»، قلت، مشيراً إلى القنينة التي وضعها خريستوس للتو أمام الرومي.

هزّ الرومي رأسه. في البداية بدا مشوّشاً تماماً، وكأنه لم يصدق أن أشياء كهذه قد تحدث، لكنه سرعان ما لوى شفتيه بابتسامة ودّية. وبهذه الطريقة واصلنا حديثنا. وبينما كنا نتناول الخبز وجبن الماعز، تحدّثنا عن الإيمان والصداقة، وعن أشياء أخرى في الحياة خيّل إليّ أنني نسيتها منذ أمد بعيد، لكنني سعدت الآن لأنها انبعثت ثانية من قلبي.

بعد الغروب بقليل، نهض الرومي متهيئاً للمغادرة. ونهض جميع من في الحانة لوداعه. كان مشهداً مؤثراً، فقلت: «لا يمكنك أن تغادر من دون أن تخبرنا لماذا حُرِّمت الخمر؟».

هرع خريستوس إلى جانبي متجهّم الوجه، وبدا قلقاً من أن يزعج سؤالي زبونه المحترم، وقال: «اسكت يا سليمان. لماذا تسأل عن هذه الأشياء؟».

«لا، بجد»، قلت مصرّاً، محدّقاً في الرومي، «لقد رأيتنا. إننا لسنا أشراراً، لكن هذا ما يقولونه عنا طوال الوقت. قل لي ما الضير في احتساء الخمر، شريطة أن نحسن التصرف، وألا يؤذي أحدنا الآخر؟».

على الرغم من أن النافذة عند الزاوية كانت مفتوحة، أصبح الهواء داخل الحانة عفناً، مليئاً بالدخان، ومثقلاً بالتوقع. كان الجميع متلهفين لسماع الجواب. اقترب الرومي مني، مستغرقاً في التفكير، لطيفاً، صاحياً، وقال ما يلي:

«لو كان في شارب الخمر
رقة ولطف عميقان،
لبان ذلك عليه،
عندما يكون سكراناً.
لكن لو كان يخفي غضباً وغطرسة،
لظهر عليه ذلك أيضاً،
ولمّا كان معظم الناس يفعلون ذلك،
فقد حُرّمت الخمر على الجميع».

ساد الهدوء لفترة قصيرة بينما رحنا نفكّر في هذه الكلمات.

«أصدقائي، إن الخمر ليست شراباً بريئاً»، خاطبنا الرومي بصوت

حيوي، آمراً، رزيناً، وصلباً، «لأنها تُخرج أسوأ ما فينا. وأعتقد بأن من الأفضل لنا جميعاً الامتناع عن شربها. لذلك لا يمكننا أن نلوم الكحول على ما نحن مسؤولون عن فعله. والأهم من ذلك يجب أن نكبح غطرستنا وغضبنا. وفي نهاية الأمر، ليشرب من أراد، وليمتنع عن الشراب من أراد، فلا يحق لنا أن نفرض أساليبنا على الآخرين. ولا إكراه في الدين».

تبعت ذلك إيماءات مرحبة من بعض الزبائن، أما أنا، فقد فضّلت أن أرفع كأسي لأنني أعتقد أنه يجب ألاّ تمر حكمة من دون أن أشرب نخبها.

فقلت: «إنك رجل طيب تحمل قلباً عظيماً مهما قال الناس عما فعلته اليوم، لأني واثق من أنهم سيقولون الكثير عنك. ولمّا كنت خطيباً، فإن مجيئك إلى الحانة والتحدث إلينا من دون أن تطلق علينا أحكاماً، شجاعة كبيرة».

نظر إليّ الرومي نظرة ودّية، ثمّ حمل قنينتي النبيذ اللتين لم يلمسهما، وخرج ليستقبل نسيم المساء.

علاء الدين

قونية، شباط (فبراير) ١٢٤٦

أنتظر بلهفة منذ ثلاثة أسابيع اللحظة المناسبة لأسأل أبي أن يطلب يد كيميا للزواج مني. وقد أمضيت عدة ساعات وأنا أحدّثه في مخيلتي، وأعيد صوغ الجمل نفسها مرات ومرات، باحثاً عن أفضل وسيلة لأعبّر فيها عن نفسي. كان لديّ جواب جاهز من كلّ اعتراض محتمل قد يثيره. فإذا قال إنني، أنا وكيميا، أخ وأخت، فإني سأذكّره بأنه لا توجد رابطة دم بيننا. ولمّا كنت أعرف مقدار محبّة أبي لكيميا، فقد قررت أن أقول له أيضاً إننا إذا تزوجنا، فإنها تستطيع أن تقيم معنا في البيت طوال حياتها. فقد حسبت حساباً لكلّ شيء في عقلي، لكنني لم أتمكن من الانفراد بأبي لحظة واحدة.

لكنني رأيته في أسوأ حالاته مساء هذا اليوم. فقد كنت أتهيأ لمغادرة البيت لزيارة بعض أصدقائي، عندما فتح الباب ودخل أبي حاملاً قنينة خمر في كلّ يد.

وجمت واقفاً، مشدوهاً، وسألته: «أبتي، ما الذي تحمله بيديك؟».

«آه، هذا!»، ردّ أبي من دون أي حرج، وقال: «إنها خمرة يا بني».

«حقاً؟»، صحت، «أهكذا أصبح مولانا العظيم؟ رجل عجوز يشرب الخمر؟».

«انتبه لما تقوله»، سمعت صوتاً غاضباً من ورائي.

كان شمس يحدّق في وجهي من دون أن يرمش له جفن، وقال: «لا يمكنك أن تكلّم والدك بهذه الطريقة. فأنا الذي طلبت منه أن يذهب إلى الحانة».

«لا عجب»، قلت وظهرت ابتسامة متكلّفة على وجهي.

ولئن كان شمس قد أهين من كلماتي، فلم يظهر عليه ذلك، وقال: «علاء الدين، يمكننا أن نتحدّث عن ذلك، إذا لم تدع غضبك يشوّه بصيرتك».

ثمّ أمال رأسه وقال يجب أن أليّن قلبي.

وقال: «هذه إحدى القواعد الأربعين: *إذا أردت أن تقوّي إيمانك، فيجب أن تكون ليناً في داخلك. لأنه لكي يشتد إيمانك، ويصبح صلباً كالصخرة، يجب أن يكون قلبك خفيفاً كالريشة. فإذا أصبنا بمرض، أو وقعت لنا حادثة، أو تعرضنا لخسارة، أو أصابنا خوف، بطريقة أو بأخرى، فإننا نواجه جميعاً الحوادث التي تعلّمنا كيف نصبح أقل أنانية وأكثر حكمة، وأكثر عطفاً، وأكثر كرماً. ومع أن بعضنا يتعلّم الدرس ويزداد رقة واعتدالاً، يزداد آخرون قسوة. إن الوسيلة التي تمكنك من الاقتراب من الحقيقة أكثر تكمن في أن يتسع قلبك لاستيعاب البشرية كلها، وأن يظل فيه متسع لمزيد من الحبّ*».

فقلت: «كفّ عن هذا، فأنا لا أتلقى أوامري من دراويش سكارى، إلا من أبي. هذا كل ما في الأمر».

فتدخّل أبي قائلاً: «علاء الدين، إن ما تقوله عيباً».

أحسست بذنب شديد، لكن الإحساس جاء متأخراً، وغمرني شعور بالاستياء والغضب ظننت أني نسيته منذ زمن بعيد.

فقال شمس: «لا أشكّ في أنك تكرهني بقدر ما تقول وما تفعل، لكني لا أظن أنك لم تعد تحبّ والدك حتى للحظة. ألا ترى أنك تجرحه في الصميم؟».

فأجبته: «ألا ترى أنك تدمّر حياتنا؟».

كان ذلك عندما انحنى أبي، زامّاً فمه، ورفع يده اليمنى فوق رأسه. خلت أنه سيصفعني، لكنه عندما لم يفعل ذلك، اعتراني مزيد من الاضطراب.

«إنك تجلب العار عليّ»، قال أبي من دون أن ينظر إلى وجهي.

اغرورقت عيناي بالدموع. أشحت بوجهي عنه فأصبحت فجأة وجهاً لوجه مع كيميا. منذ متى كانت تقف هناك تراقبنا من زاوية الغرفة بعينين مليئتين بالخوف؟ ما مقدار ما سمعته من الشجار بيننا؟

إن خجلي لأن أبي أهانني أمام الفتاة التي أريد أن أتزوّجها أثار ألماً في معدتي، وترك طعماً سيئاً في فمي. أحسست بالغرفة تدور حولي، وبأنني على وشك الانهيار.

لم أعد قادراً على البقاء هناك لحظة أخرى، فتناولت معطفي، ودفعت شمساً جانباً، وهرعت خارج البيت، بعيداً عن كيميا، بعيداً عنهم جميعاً.

شمس

قونية، شباط (فبراير) ١٢٤٦

كانت قناني الخمر تنتصب بيننا، مفعمة بروائح التراب الحار، والأعشاب البرّية، والتوت الأسود. وبعد أن غادر علاء الدين البيت، غمر الرومي حزن شديد فلم ينبس ببنت شفة لوهلة. خرجنا معاً إلى الفناء المغطى بالثلج. كان ذلك في مساء أحد أيام شباط (فبراير) الكئيبة عندما يهب هواء ثقيل ويحلّ سكون غريب. وقفنا نراقب الغيوم وهي تتحرك، ننصت إلى عالم لا يقدم لنا شيئاً سوى الصمت، وحملت إلينا الريح نفحة من الغابات من بعيد، عبق المسك، وللحظة، أحسسنا بالرغبة في مغادرة هذه المدينة إلى الأبد.

ثمّ تناولتُ قنينة، وجثوت إلى جانب شجيرة ورد تنتصب عارية منبثقة من الأشواك في الثلج، وسكبت النبيذ على التراب تحتها. شعّ وجه الرومي بالبهجة، وابتسم ابتسامته التي تمتزج بالحماسة والرصانة.

بدأت الحياة تعود ببطء في شجرة الورد العارية، وأصبح لحاؤها طرياً ليناً مثل بشرة إنسان، ونبتت وردة أمام أعيننا. وعندما واصلت صبّ النبيذ تحت الشجيرة، أظهرت الوردة ظلّ لون برتقالي دافئ جميل.

ثم تناولتُ القنينة الثانية وصببت منها النبيذ بالطريقة ذاتها، فتحوّل

لون الوردة البرتقالي إلى قرمزي براق، يتوهّج بالحياة. وعندما بقي ملء كأس من النبيذ في قعر القنينة، صببته في كأس، وتجرّعت نصفه، وقدمت النصف المتبقي إلى الرومي.

أمسك الكأس بيدين مرتعشتين، مستجيباً لإيماءتي بابتسامة مشعّة مفعمة باللطف والرصانة، هذا الرجل الذي لم يلمس خمرة في حياته.

وقال: «إن المبادئ والقيود الدينية مهمة، لكنها يجب ألاّ تتحول إلى محرّمات. بهذا الفهم أجرع الخمر التي تعطيني إياها اليوم، مؤمناً من كلّ قلبي بأنه توجد رجاحة عقل ورزانة بعد ثمالة الحبّ».

وبينما كان الرومي يدني الكأس من شفتيه، انتزعتها منه ورميتها على الأرض، فانسكب النبيذ على الثلج، مثل قطرات الدم.

فقلت: «لا تشربه. إذا لم تكن ترغب في مواصلة هذه التجربة».

«إن كنت ستطلب مني ألاّ أحتسي هذه الخمر، فلماذا أرسلتني إلى الحانة أصلاً؟»، سألني الرومي، بنبرة لم تكن فضولية بقدر ما كانت حنونة.

فقلت مبتسماً: *«إنك تعرف السبب. فالنمو الروحي يكمن في وعينا، لا بتوجّسنا من أمور معينة. وفي ما يلي القاعدة الثانية والثلاثون: يجب ألاّ يحول شيء بين نفسك وبين الله؛ لا أئمّة، ولا قساوسة، ولا أحبار، ولا أيّ وصي آخر على الزعامة الأخلاقية أو الدينية، ولا السادة الروحيون، ولا حتى إيمانك. آمن بقيمك ومبادئك، لكن لا تفرضها على الآخرين، وإذا كنت تحطّم قلوب الآخرين، فمهما كانت العقيدة الدينية التي تعتنقها، فهي ليست عقيدة جيدة»*.

«ابتعد عن عبادة الأصنام بجميع أنواعها، لأنها تشوّه رؤيتك. ليكن الله، والله وحده دليلك. تعلّم الحقيقة، يا صديقي، لكن احرص على ألاّ تصنع من الحقائق التي تتكون لديك أوثاناً».

بالرغم من إعجابي الشديد بشخصية الرومي، ومعرفتي بالعطف الذي يمتاز به والذي أفتقر إليه في الحياة، فقد ازداد إعجابي به كثيراً.

يمتلئ هذا العالم بأشخاص مهووسين بالثروة أو الشهرة أو السلطة. فكلما اكتسبوا المزيد من النجاح، شعروا بأنهم بحاجة إليها. وبجشع وطمع شديدين، جعلوا الممتلكات الدنيوية قبلتهم، ولم يعودوا ينظرون إلا في ذلك الاتجاه، غير مدركين أنهم سيصبحون عبيداً للأشياء التي يسعون إليها بشره. إن هذا نمط مشترك، يحدث دائماً. ومن النادر، ندرة الياقوت، أن ترى رجلاً شقّ طريقه إلى الأعلى، أو رجلاً يمتلك قدراً كبيراً من الذهب، والشهرة، والسلطة، يتخلى عنها فجأة ويعرّض سمعته للخطر وينطلق في رحلة داخلية، لا يمكن لأحد أن يعرف أين أو كيف ستنتهي. والرومي هو تلك الياقوتة النادرة.

قلت: «يريدنا الله أن نكون معتدلين ومتواضعين».

وأضاف الرومي برقة «وهو يريد أن يُعرف. إنه يريدنا أن نعرفه بكل ذرة من وجودنا، لذلك يجب أن نكون يقظين وصاحين، وألاّ نكون سكارى وعقولنا مشوشة».

وافقت. جلسنا في الفناء لا تفصلنا سوى وردة حمراء حتى حلّ الظلام واشتدّ البرد. وتحت برودة المساء، كنت تحسّ بشذى شيء نضر جميل. فقد جعل نبيذ الحبّ رأسينا يدوران بلطف، وأدركت ببهجة وامتنان أن الريح لم تعد تهمس باليأس.

إيلا

نورثامبتون، ٢٤ حزيران (يونيه) ٢٠٠٨

«حبيبتي، افتُتح مطعم تايلاندي جديد في البلدة»، قال ديفيد، «يقولون إنه مطعم جيد. لماذا لا نذهب إليه الليلة؟ أنا وأنت فقط».

كان آخر شيء تريد إيلا أن تفعله في يوم الثلاثاء هو أن تخرج لتناول طعام العشاء مع زوجها، لكن ديفيد أصرّ فلم يسعها أن ترفض.

كان مطعم «القمر الفضي» مطعماً صغيراً تزيّنه مصابيح جميلة، فيه مقصورات مزودة بمقاعد جلدية ومناديل سود، وقد علّقت على جدرانه مرايا عديدة منخفضة كي يشعر الزبائن بأنهم يتناولون طعامهم بصحبة خيالاتهم المنعكسة في المرايا. وسرعان ما اعترى إيلا شعور بالضيق، لم يكن المطعم هو الذي جعلها تشعر هكذا، بل زوجها. فقد رأت في عينيّ ديفيد ألقاً غير عادي. كان فيهما شيء غير عادي، وكان يبدو أنه يفكّر في شيء ما، بل حتى إنه كان قلقاً. وما أزعجها حقاً هو أنه تلعثم مرات عدة. كانت تعرف أنه عندما تظهر أثناء كلام ديفيد تلك التأتأة التي كان يعاني منها في طفولته، فإن ذلك يعني أنه يعاني اكتئاباً شديداً.

تقدمت نادلة شابة ترتدي زيّاً تقليدياً لتأخذ طلبيهما. فطلب ديفيد سرطان البحر بالريحان والفلفل الحار، وطلبت إيلا خضراوات وتوفو في صلصة جوزة الهند، التزاماً منها بالقرار الذي اتخذته في عيد ميلادها الأربعين والذي تعهدت فيه بالامتناع عن تناول اللحم، كما طلبا كأسين من النبيذ.

تحدّثا عن أناقة الديكور في المطعم لبضع دقائق، ثم ناقشا تأثير المناديل السود إزاء المناديل البيض، ثمّ ساد بينهما صمت مطبق. عشرون سنة من الزواج، عشرون سنة من النوم في الفراش نفسه، والمشاركة في الحمّام ذاته، وتناول الطعام عينه، وتربية ثلاثة أطفال... فإن كلّ ما نجم عن ذلك الصمت، أو هكذا قالت إيلا في نفسها.

«أرى أنكِ تقرأين الرومي»، قال ديفيد.

هزّت إيلا رأسها، بشيء من الدهشة. لم تعرف ما الذي أدهشها أكثر: سماعها أن ديفيد يعرف عن الرومي أم أنه يهتم بما تقرأه.

«بدأت أقرأ قصائده لمساعدتي في كتابة تقريري حول رواية «الكفر الحلو»، لكنني بدأت أهتم بها، فبدأت أقرأها لنفسي»، قالت إيلا مبررة.

سرح ديفيد وهو يحدّق في بقعة من النبيذ على مفرش المائدة، ثمّ ندت عنه أنّة، وقال: «إيلا، إني أعرف ماذا يجري. أعرف كلّ شيء».

«عمَّ تتحدّث؟»، سألته إيلا، مع أنها لم تكن واثقة من أنها تريد أن تسمع الجواب.

«عن... عن علاقتك الغرامية...»، قال ديفيد متلعثماً، «إني أعرف».

نظرت إيلا إلى زوجها بدهشة. وفي وهج الشمعة التي أشعلتها لهما النادلة، بدا وجه ديفيد في حالة من اليأس الشديد.

«علاقتي الغرامية؟»، قالت إيلا، بسرعة وبصوت أعلى مما كانت تنوي. ولاحظت أن الرجل والمرأة الجالسين إلى الطاولة بجانبهما قد التفتا نحوهما. شعرت بالحرج وخفضت صوتها ليغدو همساً، وكرّرت سؤالها: «أيّ علاقة غرامية؟».

«أنا لست غبياً»، قال ديفيد، «لقد فتحت بريدك الإلكتروني وقرأت رسائلك مع ذلك الرجل».

«ماذا فعلت؟»، صاحت إيلا.

متجاهلاً السؤال، تلوّى وجه ديفيد مثقلاً بما كان على وشك أن يقوله: «لا ألومك يا إيلا. فأنا أستحق ذلك. فقد أهملتك، وبدأت تبحثين عن العاطفة في مكان آخر».

خفضت إيلا عينيها ونظرت إلى كأسها. كان للنبيذ لون ساحر - ياقوتي عميق داكن. وخيّل إليها لوهلة أنها ترى على سطحه نقاطاً ذات ألوان قزحية متلألئة، مثل أثر من الأضواء يوجّهها. لعله كان هناك أثر. بدا كلّ ذلك سريالياً.

توقّف ديفيد الآن، وهو يفكّر بأفضل وسيلة، أم عليه أن يكشف ما يدور في خلده، وقال أخيراً: «إني مستعد لأن أسامحك وننسى ما حدث».

ثمة أمور عدة كانت إيلا تريد أن تقولها في تلك اللحظة. كانت حادة وهازئة، متوترة ودراماتيكية، لكنها اختارت الأسهل. وبعينين لامعتين، سألته: «وماذا عن علاقاتك الغرامية؟ هل ستنساها أيضاً ونخلّفها وراءنا؟».

أحضرت النادلة طلبيهما. صمتت إيلا وديفيد وراحا يراقبانها وهي تضع الأطباق على المائدة وتعيد ملء كأسيهما بكياسة مبالغ فيها؛ وعندما تركتهما، نظر ديفيد إلى إيلا، وسألها: «هكذا إذاً؟ هل هذا انتقام؟».

«لا»، قالت إيلا، وهزّت رأسها محبطة، «إنه ليس انتقاماً، ولم يكن كذلك على الإطلاق».

«إذاً ما هو؟».

عقدت إيلا يديها، وانتابها شعور بأن كلّ شيء وكلّ من في المطعم ـ الزبائن والندل والطهاة، بل حتى السمك الاستوائي في حوض السمك ـ قد توقّف لسماع ما ستقوله.

«للأمر علاقة بالحبّ»، قالت أخيراً، «فأنا أحبّ عزيز».

توقّعت إيلا أن يضحك زوجها، لكنها عندما استجمعت أخيراً شجاعتها لتنظر في عينيه، لم تر في وجهه سوى رعب، تحوّل بسرعة إلى تعابير شخص يحاول أن يحلّ مشكلة بأقل قدر ممكن من الضرر. وفجأة اعترتها لحظة من الوضوح، فقد كانت كلمة «حبّ» بالنسبة لها، جدّية، مشحونة، وليست عادية، امرأة اعتادت على التفوه بأمور سلبية كثيرة عن الحبّ في الماضي.

«لدينا ثلاثة أطفال»، قال ديفيد، وقد بدأ صوته يرتعش.

«نعم، وأنا أحبّهم كثيراً»، قالت إيلا، وهي تهزّ كتفيها، «لكني أحبّ عزيز أيضاً».

«كفّي عن ترديد هذه الكلمة»، قاطعها ديفيد، وتناول جرعة كبيرة من كأسه قبل أن يستأنف كلامه، فقال: «لقد ارتكبت أخطاء كبيرة،

لكني لم أكفّ عن حبّك يا إيلا، ولم أحبّ أحداً غيرك. نستطيع أن نتعلّم كلانا من أخطائنا. ومن ناحيتي أعدك بأن هذا الأمر لن يتكرر، ولستِ بحاجة للخروج والبحث عن الحبّ الآن».

«أنا لم أخرج لأبحث عن الحبّ»، همهمت إيلا محدّثة نفسها أكثر مما تحدّثه، «يقول الرومي إننا لسنا بحاجة للبحث عن الحبّ خارج أنفسنا، بل كلّ ما علينا عمله هو أن نتمكن من إزالة العقبات التي تبعدنا عن الحبّ في داخلنا».

فقال ديفيد: «يا إلهي! ماذا دهاك؟ هذا ليس أنتِ! ألن تكفّي عن أن تكوني شديدة الرومانسية؟ عودي إلى نفسك القديمة»، ثمّ أضاف: «أرجوك».

قطّبت إيلا حاجبيها ونظرت إلى أظافرها كما لو كان أمراً يثير قلقها. وفي الواقع، فقد تذكرت لحظة أخرى من الزمن، عندما كانت هي نفسها تقول الكلمات ذاتها لابنتها، وشعرت بأن الدائرة قد اكتملت. هزت رأسها ببطء وهي تضع منديل الطاولة جانباً.

ثمّ قالت: «هل يمكننا أن نذهب الآن من فضلك؟ فأنا لست جائعة».

في تلك الليلة، ناما في سريرين منفصلين. وفي الصباح الباكر، كان أول شيء فعلته إيلا هو أنها كتبت رسالة إلى عزيز.

المتعصب

قونية، شباط (فبراير) ١٢٤٦

«تهيأ للأسوأ! شيخ ياسين! شيخ ياسين! هل سمعت الفضيحة؟».

صاح عبد الله، والد أحد تلاميذي، وهو يقترب مني في الشارع: «لقد شوهد الرومي البارحة في حانة في الحيّ اليهودي».

فقلت: «نعم، سمعت ذلك، لكني لم أفاجأ. فزوجة هذا الرجل مسيحية، وأقرب أصدقائه زنديق، فماذا تتوقّع منه؟».

هزّ عبد الله رأسه بجدية، وقال: «أظنّك على حقّ. كان يجب أن نتوقع ذلك».

تحلّق عدد من عابري السبيل حولنا، وراحوا ينصتون إلى حديثنا. واقترح أحدهم عدم السماح للرومي بإلقاء خطبة في الجامع الكبير، حتى لو اعتذر على الملأ عما فعله. ولمّا كنت قد تأخرت على تلاميذي في المدرسة، فقد تركتهم يتحدثون وابتعدت مسرعاً.

طالما شككت بأن للرومي جانباً مظلماً سيتكشّف ذات يوم، لكنني لم أتوقّع قط أن يحتسي الخمر، لأن ذلك مثير للقرف. ويقول الناس إن شمساً هو السبب الرئيسي لسقوط الرومي، ولو لم يكن لا يزال

بصحبته، لعاد الرومي إلى حياته الطبيعية، لكن لديّ رأي مختلف. وهو أنني لا أشكّ في أن شمساً رجلاً شرّيراً ـ وهو كذلك ـ أو أنه لا تأثير سيئاً له على الرومي ـ فله تأثير سيئ ـ لكن الأمر هو لماذا لا يضلل شمس علماء آخرين، مثلي؟ ففي نهاية الأمر، يتشابه هذان الرجلان في مجالات كثيرة لا يعترف بها الناس.

فهناك من سمع شمساً يقول: «يعيش عالم الدين على علامات القلم، أما الصوفي فإنه يحبّ ويعيش على آثار الأقدام. ماذا يعني ذلك؟ من الواضح أن شمساً يعتبر أن العلماء يختبئون في أبراج عاجيّة، بينما ينغمس الصوفي في الحياة الحقيقية. لكن أليس الرومي عالم دين أيضاً، أم أنه لم يعد يعتبر نفسه واحداً منا؟

وإذا دخل شمس القاعة التي أدرّس فيها تلاميذي، فإني سأطرده مثل ذبابة، ولن أمنحه الفرصة ليتحدث عن ذلك الهراء أثناء حضوري. لماذا لا يفعل الرومي الشيء نفسه؟ لا بدّ أن علة فيه. فبادئ ذي بدء، لقد تزوج الرجل امرأة مسيحية، ولا يهمني هل اعتنقت الإسلام أم لا، لأن المسيحية تجري في دمها وفي دم طفلتها. لكن أهالي المدينة، لسوء الحظ، لا يأخذون التهديد الذي تشكله المسيحية بجدية كافية، ويقولون إننا نستطيع أن نعيش معاً. وأنا أقول دائماً لهؤلاء السذّج الذين يظنون ذلك: «هل يمكن أن يمتزج الماء والزيت؟ هذا هو المدى الذي يستطيع أن يمضي إليه المسلمون والمسيحيون».

ولمّا كان الرومي متزوجاً من امرأة مسيحية، ولمّا كان شديد الطيبة والتسامح مع الأقلّيات، فهو رجل لا يمكن الوثوق به في نظري، فعندما أقام شمس التبريزي في بيته، انحرف تماماً عن الطريق

المستقيم. وكما أقول لتلاميذي كلّ يوم، يجب أن يتيقظوا من أحابيل الشيطان. لأن شمساً هو الشيطان بعينه. إني واثق من أن الرومي ذهب إلى الحانة بتشجيع منه؛ والله يعلم كيف تمكّن من إقناعه. لكن أليس خداع الأتقياء وجعلهم ينتهكون المحرمات من الأمور التي يبرع فيها الشيطان؟

لقد فهمت الجانب الشرّير في شمس منذ البدء، فكيف له أن يجرؤ على مقارنة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بالبسطامي، ذلك الصوفي الكافر؟ أفلم يقل البسطامي: «انظروا إليّ! كم عظيم هو مجدي!»، وأليس هو القائل: «لقد رأيت الكعبة تطوف حولي؟». بل ذهب شأواً بعيداً إلى حدّ القول: «أنا خالق نفسي». فإذا لم يكن هذا كفراً، فماذا يكون؟ هذا هو مستوى الرجل الذي يقتبس منه شمس باحترام، وشأن البسطامي فهو زنديق أيضاً.

إن الأمر الوحيد الجيد الآن هو أن أهالي المدينة قد بدأوا يفيقون على الحقيقة، وبدأ عدد منتقدي شمس يزداد يوماً بعد يوم، وبدأت أخاف كثيراً أحياناً من الأشياء التي كانوا يقولونها في الحمامات والمقاهي، وفي حقول القمح والبساتين، بأنهم سيمزّقونه إرباً إرباً.

* * *

وصلت إلى المدرسة متأخراً أكثر من المعتاد، وكان رأسي مثقلاً بهذه الأفكار. وما إن فتحت باب غرفة الدرس، حتى اعتراني شعور بأن شيئاً غير عادي يحدث. فقد كان تلاميذي يجلسون في صف مستقيم، شاحبين وصامتين على نحو غريب، كما لو رأوا شبحاً.

ثمّ فهمت السبب. فلم يكن الرجل الجالس بالقرب من النافذة

المشرّعة، مسنداً ظهره إلى الحائط، ووجهه الأمرد يشع بابتسامة متعالية، سوى شمس التبريزي.

«السلام عليكم، يا شيخ ياسين»، قال، وهو يحدّق بي.

تردّدت، لأنني لم أعرف هل كان عليّ أن أرد التحية أم لا، فقرّرت ألا أردّها، بل التفت إلى تلاميذي وسألتهم: «ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟ لماذا سمحتم له بالدخول؟».

بذهول واضطراب، لم يجرؤ أي تلميذ على الإجابة. لكن شمساً كسر الصمت.

بنبرته الصفيقة، ونظرته الثابتة، قال لي: «لا توبّخهم، يا شيخ ياسين. إنها فكرتي أنا. فقد كنت ماراً بالقرب من هنا وقلت لنفسي لماذا لا أتوقّف عند المدرسة وأزور أشدّ الأشخاص كرهاً لي في هذه المدينة؟».

حسام التلميذ

قونية، شباط (فبراير) ١٢٤٦

كنا جالسين جميعاً على الأرض في غرفة الدرس، عيوننا لامعة، متراصين بجانب بعضنا بعضاً، عندما فتح شمس التبريزي الباب ودخل. تملكنا شعور بالذهول. وبعد أن سمعت أموراً سيئة وغريبة كثيرة عنه، معظمها من معلّمنا، فقد أحسست بالانكماش أنا أيضاً عندما رأيته بلحمه ودمه في غرفة دروسنا، أما هو فقد بدا مسترخياً ودوداً. وبعد أن حيّانا جميعاً، قال إنه جاء ليتحدّث إلى الشيخ ياسين.

«معلّمنا لا يحبّ قدوم غرباء لزيارته في المدرسة. ربما كان عليك أن تراه في وقت آخر»، قلت له بأمل تفادي حدوث لقاء غير محمود بينهما.

«شكراً لاهتمامك أيها الشابّ، لكن اللقاءات السيئة ليست حتمية فقط في بعض الأحيان، بل ضرورية»، أجاب شمس وكأنه قرأ أفكاري، وأضاف: «ومع ذلك لا تقلق، فلن يستغرق لقاؤنا وقتاً طويلاً».

تمتم إرشاد، الجالس إلى جانبي، بين أسنانه المطبقة، وقال: «انظر إلى أعصابه! إنه الشيطان بعينه».

هززت رأسي، مع أنني لم أر أن شمساً يشبه الشيطان. وبالرغم من نفسي، أعجبت بصراحته وجرأته.

بعد بضع دقائق، دخل الشيخ ياسين، مقطّب الجبين متأملاً. وما إن خطا بضع خطوات حتى توقّف ورمش بعينيه نحو الزائر المتطفّل.

«ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟ لماذا سمحتم له بالدخول؟».

تبادلنا أنا وأصدقائي نظرات ملؤها الدهشة، وهمسات خائفة. لكن قبل أن يستجمع أحد منا شجاعته ليقول شيئاً، قال شمس إنه كان ماراً بالقرب من المدرسة وأراد أن يزور أشدّ الأشخاص كرهاً له في قونية.

سعل عدد من التلاميذ بصوت منخفض ورأيت إرشاداً يأخذ نفساً عميقاً. كان التوتّر بين الرجلين كثيفاً إلى درجة يمكن قطع الهواء بسكين.

«لا أعرف ماذا تفعل هنا، لكن لديّ أشياء أريد أن أفعلها أفضل من التحدث إليك»، قال الشيخ ياسين موبّخاً، وأضاف: «الآن، لماذا لا تغادر حتى نواصل دروسنا؟».

فقال شمس: «تقول إنك لن تتكلّم معي، لكنك تتكلّم عني. ولم تكفّ عن التكلم عني وعن الرومي بالسوء، وعن جميع الصوفيين، وكذلك عن الطريقة الصوفية».

تنفّس الشيخ ياسين من أنفه العظمي الكبير، وضيّق فمه مبرطماً، كأن شيئاً مرّاً على لسانه، «كما قلت، ليس لديّ شيء يمكنني أن أتحدث عنه معك. إني أعرف ما أريد أن أعرفه، فلديّ آرائي الخاصة بي».

التفت شمس نحونا، ونظر إلينا نظرة تهكمية سريعة، وقال: «رجل لديه الكثير من الآراء لكن ليس لديه أسئلة! ثمة خطأ في ذلك».

«حقاً؟»، قال الشيخ ياسين وقد استردّ حيويته، «إذاً لماذا لا نسأل الطلاب أياً من الاثنين يفضّلون أن يكونوا: الحكيم الذي يعرف الأجوبة، أم الرجل الحائر الذي لا يملك شيئاً سوى الأسئلة؟».

أيّد أصدقائي جميعاً الشيخ ياسين، لكنني شعرت بأن الكثيرين منهم لم يفعلوا ذلك عن طيب خاطر، بل لكسب رضا معلّمهم واستحسانه، فآثرت الصمت.

«إن المرء الذي يعتقد بأن لديه جميع الأجوبة هو أكثر الناس جهلاً»، قال شمس، والتفت إلى معلّمنا، «لكن بما أنك تجيد الإجابات، فهل لي أن أطرح عليك سؤالاً؟».

هنا بدأ ينتابني القلق إلى أين سيتوجه هذا الحديث، لكن لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً للحيلولة دون تصاعد حدة التوتر.

«بما أنك تدّعي أنني خادم الشيطان، فهل تتفضل وتخبرنا ما هي فكرتك عن الشيطان؟»، سأل شمس.

«بالتأكيد»، قال الشيخ ياسين، الذي لا يضيّع فرصة تسنح له للوعظ، «إن ديننا، الذي هو آخر الأديان الإبراهيمية وأهمها، يقول لنا إن الشيطان هو الذي تسبب في طرد آدم وحواء من الجنة، ولمّا كنا أبناء الأبوين المطرودين، فيجب أن نكون يقظين، لأن الشيطان يتبدّى في أشكال عدة، فهو يأتي أحياناً في شكل مقامر يدعونا للمقامرة، وفي أحيان أخرى، يأتي في هيئة شابّة جميلة تحاول إغواءنا. . . وقد يأتي الشيطان في أقلّ الأشكال توقّعاً، مثل درويش متجوّل».

وكما لو كان شمس يتوقّع هذه الملاحظة، ابتسم ابتسامة العارف، وقال: «أفهم قصدك. لا بد أن فكرة أن الشيطان يقبع خارجنا تمنحنا إحساساً كبيراً بالراحة، ومخرجاً سهلاً».

«ماذا تقصد؟»، سأل الشيخ ياسين.

«حسناً، إن كان الشيطان شرّيراً ولا يمكن قهره كما تقول، فلا داعي لنا، نحن البشر أن نلوم أنفسنا على الأخطاء التي نرتكبها. إذ إننا نعزو كلّ شيء جيد يحدث إلى الله، ونعزو كلّ شيء سيئ في الحياة إلى الشيطان. وفي كلتا الحالتين، لن نكون معفيين من انتقاد الذات وفحصها. ما أسهل ذلك».

أثناء حديثه أخذ شمس يذرع الغرفة، وكان صوته يعلو مع كلّ كلمة يقولها: «لكن لنتخيّل للحظة واحدة أن الشيطان غير موجود، وأنه لا توجد شياطين بانتظار أن تحرقنا في قدور تغلي. فقد وضعت كلّ هذه الصور المرعبة لترينا شيئاً، لكنها تحولت إلى كليشيهات مكرورة وفقدت رسالتها الأصلية».

«وماذا يمكن أن تكون هذه الرسالة؟»، سأل الشيخ ياسين بضجر، وعقد ذراعيه على صدره.

فقال شمس: «إذاً لديك أسئلة»، وأضاف: «والرسالة هي أن العذاب الذي قد يوقعه المرء على نفسه لا نهاية له. إن الجحيم يقبع في داخلنا، وكذلك الجنة. إذ يقول القرآن إن الإنسان هو أكثر الكائنات تبجيلاً، فنحن أعلى من أعلى الكائنات، لكننا كذلك أدنى من أدناها. فلو تمكّنا من إدراك هذا المعنى جيداً، لكففنا عن التفكير بأن الشيطان يقبع في خارجنا، ونعترف بأنه موجود في أنفسنا. إن ما نحتاج إليه هو أن نبحث في أنفسنا بصدق، لا أن نترصّد عيوب الآخرين ونتصيّدها».

«اذهب وامتحن نفسك، وإن شاء الله تكفّر عن ذنوبك»، أجاب

الشيخ ياسين، «لكن رجل الدين الحقيقي هو الذي يحرص على مجتمعه».

«إذاً اسمح لي أن أحكي لك قصّة»، قال شمس، بتلك الرقة التي لم نستطع أن نتأكد أكانت قصة حقيقية أم إنها للسخرية. وهذا ما حكاه لنا:

كان أربعة تجار يصلّون في مسجد عندما رأوا المؤذّن يدخل. فأوقف التاجر الأول صلاته وسأل: «أيها المؤذّن! هل نودي على الصلاة؟ أم لا يزال يوجد وقت؟».

وتوقّف التاجر الثاني عن الصلاة والتفت إلى صديقه، وقال: «يا صاح، لقد تكلّمت وأنت تصلّي. فقد بطلت صلاتك، ويجب أن تبدأ من جديد». عندما سمع التاجر الثالث ذلك، تدخّل قائلاً: «لماذا تلومه أيها الأحمق؟ يجب أن تركّز على صلاتك. لقد بطلت صلاتك أنت أيضاً». أما التاجر الرابع فابتسم وقال بصوت مرتفع: «انظر إليهم! لقد أخطأوا ثلاثتهم. أما أنا فأحمد الله على أنني لم أضلّ السبيل».

بعد أن حكى شمس هذه القصّة، وقف أمام التلاميذ وسأل: «إذاً ماذا تظنون؟ صلاة أي من هؤلاء التجار، في رأيكم، غير جائزة؟».

حدثت جلبة قصيرة في القاعة عندما رحنا نناقش الجواب في ما بيننا، وأخيراً قال أحدهم في المؤخرة: «إن صلاة التاجر الثاني والثالث والرابع باطلة، أما صلاة التاجر الأول فهي جائزة، لأن كلّ ما أراد أن يفعله هو أن يسأل المؤذّن».

«نعم، لكن ما كان عليه أن يترك صلاته هكذا»، قال إرشاد معترضاً،

«فمن الواضح أن هؤلاء التجار جميعاً كانوا مخطئين، ما عدا التاجر الرابع الذي كلّم نفسه فقط».

أشحت بنظري، غير موافق على الجوابين كليهما، لكنني عزمت على ألا أفتح فمي، لأني أحسست بأنهم لن يكترثوا لرأيي. لكن في اللحظة التي خطرت هذه الفكرة في بالي التفت شمس التبريزي نحوي وسأل: «وأنت هناك! ما رأيك؟».

ابتلعت ريقي بصعوبة قبل أن أجد صوتي، ثم قلت: «لو ارتكب هؤلاء التجار خطأً، فليس لأنهم تكلّموا أثناء الصلاة، بل لأنهم يبدون اهتماماً بما يجري حولهم، بدلاً من الاستغراق في الصلاة والاتصال بالله. لكن إذا كان علينا أن نطلق عليهم حكماً، فإني أخشى أننا سنرتكب الخطأ الأساسي نفسه».

«إذاً ما هو جوابك؟» سأل الشيخ ياسين، الذي أبدى اهتماماً مفاجئاً بالحديث الدائر.

«إن ردي هو أن التجار الأربعة جميعاً أخطأوا لسبب متشابه، لكن مع ذلك لا يمكن القول إن أحداً منهم قد أخطأ، لأننا في نهاية الأمر، لا يحق لنا أن نطلق أحكاماً عليهم».

تقدّم شمس التبريزي خطوة نحوي ونظر إليّ بمودّة وعطف، فشعرت كأنني فتى صغير يحظى بحبّ أبيه المتدفق، وسألني عن اسمي، وعندما أخبرته بذلك، قال: «إن لصديقكم حسام قلب صوفي».

عندما سمعت ذلك، تضرّج وجهي خجلاً. فلا شكّ أن الشيخ ياسين سيوبّخني بعد انتهاء الدرس، وسيسخر مني رفاقي، لكن سرعان ما تلاشى قلقي. فاستويت في جلستي وابتسمت لشمس. غمزني وهو لا يزال يبتسم، وتابع تفسيره.

«يقول الصوفي: يجب أن أركّز على علاقتي الداخلية مع الله، بدلاً من أن أطلق أحكاماً على الآخرين. إذ إن رجل الدين المتعصب يتسقّط أخطاء الآخرين على الدوام. لكن لا تنسوا، أيها التلاميذ، أن الشخص الذي يتذمر من الآخرين في معظم الأحيان، يكون مخطئاً هو نفسه».

«توقف عن تشويش أفكار تلاميذي»، قال الشيخ ياسين مقاطعاً، «أما نحن، رجال الدين، فيجب أن نهتم بما يفعله الآخرون. إذ يسألنا الناس أسئلة كثيرة وينتظرون منا الإجابة عليها، لكي يتمكنوا من ممارسة تعاليم دينهم بصورة كاملة وصحيحة. فهم يسألوننا هل يتعين عليهم إعادة الوضوء إذا رعفوا، أم عليهم الصوم أثناء سفرهم، وما إلى ذلك. وتختلف تعاليم المذاهب الشافعية والحنفية والحنبلية والمالكية حول هذه الأمور. فقد وضع كلّ مذهب من هذه المذاهب مجموعة من الإجابات الدقيقة الخاصة به التي يجب دراستها وتعلّمها».

«هذا جيد، لكن لا تتمسك بالفروق الشكلية»، قال شمس متنهداً، «إن كلمة الله كاملة، لا تبحث عن التفاصيل على حساب الكلّ».

«تفاصيل؟»، ردّد الشيخ ياسين بنبرة مفعمة بالشك، وأضاف، «يأخذ المؤمنون هذه القواعد والمبادئ بجدية. ونقوم نحن العلماء بتوجيههم في مسعاهم».

فقال شمس: «تابع عملية التوجيه، أي ما دمت لا تنسى أن يكون توجيهك محدداً، وألاّ توجد كلمة فوق كلمة الله»، ثم أضاف: «لكن لا تحاول أن تعظ من بلغوا مرحلة التنوير، فهم يستمدون متعة مختلفة من الآيات القرآنية، وليسوا بحاجة إلى توجيه أو إرشاد من شيخ».

عندما سمع الشيخ ياسين ذلك، استشاط غضباً إلى حد أن خدّيه الذابلين بدآ يرتعشان بموجات قرمزية، وبرزت تفاحة آدم لديه بقوة، وقال: «لا يوجد شيء موقت في التوجيه الذي نقدّمه. فالشريعة هي التي تقدم القواعد والأنظمة التي يجب على كلّ مسلم أن يتبعها ويلتزم بها من المهد إلى اللحد».

«ما الشريعة إلا مركب يبحر في محيط الحقيقة. وإن الباحث الحقيقي عن الله سيغادر المركب إن عاجلاً أم آجلاً، ويغوص في البحر».

«لكي تأكله أسماك القرش»، ردّ الشيخ ياسين، بضحكة مكتومة، «وهذا ما يحدث لكل من يرفض التوجيه».

شاركه عدد قليل من التلاميذ في الضحك، وجلس ما تبقى منا بهدوء، منزعجين. كان الدرس على وشك أن ينتهي، ولم أتمكن من رؤية كيف يمكن لهذا الحديث أن ينتهي بصورة إيجابية.

لا بد أن شمس التبريزي قد اعتراه نفس الشعور بالحزن، لأنه بدا مستغرقاً في التفكير، بل يكاد أن يكون يائساً. أغمض عينيه وكأنه تعب فجأة من الكلام، وتحرّك حركة خفيفة لا تكاد تكون ملحوظة.

«خلال رحلاتي، تعرّفت على الكثير من المشايخ»، قال شمس، «ففي حين كان البعض رجالاً مخلصين، وكان بعضهم الآخر متعالياً، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الإسلام، وأنا لست مستعداً لأن أبادل ذرة غبار على حذاء قديم لعاشق حقيقي لله برؤوس مشايخ اليوم. إن لاعبي خيال الظّل الذين يعرضون خيالات وراء الستائر أفضل منهم، لأنهم يعترفون، على الأقل، بأن ما يقدمونه مجرّد وهم».

فقال الشيخ ياسين: «هذا يكفي! أظن أننا سمعنا ما يكفي من لسانك المتشعّب. الآن، اخرج من هنا».

«لا تقلق، كنت على وشك المغادرة»، قال شمس بخبث، ثم التفت نحونا وقال: «إن ما رأيتموه هنا اليوم ما هو إلا جدال قديم منذ عهد الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام. لكن هذا الجدال لا يرتبط بتاريخ الإسلام، بل يقبع في قلب جميع الأديان الإبراهيمية. إنه الصراع بين رجل الدين والصوفي، بين العقل والقلب».

صمت شمس قليلاً ليدعنا نشعر بالتأثير الكامل لكلماته. شعرت بنظراته تحطّ عليّ، وكان ذلك بمثابة تبادل سرّي للدخول في أخوّية غير معلنة، غير مدوّنة.

ثمّ أضاف: «في النهاية، لا يستطيع معلّمكم ولا أنا أستطيع أن نعرف أكثر مما يسمح الله لنا بمعرفته. فكلّ منا يؤدي دوره. لكن المهم هو ألا يغمر ضوء الشمس عين الجاحد العمياء، المرء الذي يرفض أن يرى».

بذلك، وضع شمس التبريزي يده اليمنى على قلبه وودّعنا جميعاً، حتى الشيخ ياسين، الذي تنحى جانباً، والذي تجهّم وجهه، لم يرد على تحيته. خرج الدرويش وأغلق الباب وراءه، وتركنا غارقين في صمت عميق، ولم يعد بإمكاننا أن نتكلّم أو نتحرك لفترة طويلة.

كان إرشاد هو الذي أخرجني من ذهولي، فقد لاحظت أنه كان يحدّق بي بطريقة تشي بالاستهجان. عندها أدركت أن يدي اليمنى مسترخية فوق قلبي تحية للحقيقة التي أدركتها.

بيبرس المحارب

قونية، أيار (مايو) ١٢٤٦

لم أصدّق أذنيّ عندما تناهى إليّ أن شمساً قد تجرأ على مواجهة عمي أمام تلامذته. ألا يكنّ الرجل أي اعتبار لأحد؟ لشدّ ما كنت أتمنى لو كنت في المدرسة عندما جاء إليه، لطردته قبل أن يتمكن من فتح فمه اللعين؛ لكني، وللأسف، لم أكن هناك، ويبدو أن حديثاً طويلاً قد دار بينه وبين عمّي، ولم يكفّ التلاميذ عن الحديث عنه منذئذ، ويخيّل إليّ أن رواياتهم ليست صحيحة لأنها متناقضة وتعطي مصداقية كبيرة لذلك الدرويش الفاسد.

يبدو أنني شديد التوتر هذه الليلة، بسبب تلك البغي، وردة الصحراء، التي لا يسعني إلا أن أفكر فيها. فهي تذكّرني بصناديق المجوهرات التي توجد فيها مخابئ سرية، والتي يخيّل إليك أنك تمتلكها، لكن إذا لم تكن لديك مفاتيحها، فإنها تظل مغلقة وبعيدة المنال حتى عندما تضمها بين ذراعيك.

أكثر ما يزعجني فيها هو استسلامها. فلا أزال أتساءل لماذا لم تقاوم نوبات جنوني. كيف استلقت على الأرض على بساط قديم وسخ

تحت قدميّ، هامدة لا تأتي بحركة؟ ليتها ضربتني رداً على ضربي لها، أو ليتها صرخت طالبة النجدة، لكففت عن ضربها. لكنها استلقت ساكنة، لا تأتي بأي حركة، عيناها منتفختان جاحظتان، وفمها مطبق، كأنها تريد أن تتقبّل الأمر بشكل سلبي، وليكن ما يكون. أحقاً لم يكن يهمها أقتلتها أم لم أقتلها؟

كنت قد بذلت كلّ ما بوسعي كيلا أرتاد المبغى مرة أخرى، لكن استبدت بي اليوم رغبة شديدة في رؤيتها. وفي طريقي إلى المبغى، رحت أتساءل كيف ستكون ردة فعلها عندما تقع عيناها عليّ. وإن اشتكت مني وساءت الأمور، فإني سأرشي صاحبة المبغى البدينة أو أهدّدها. لقد خططت لكلّ شيء في رأسي، وكنت مهيأ لكل احتمال، إلا احتمال أن تكون قد هربت.

انفجرت قائلاً: «ماذا تقصدين، وردة الصحراء ليست هنا؟ أين هي؟».

«انسَ تلك العاهرة»، قالت صاحبة المبغى، ووضعت قطعة من راحة الحلقوم في فمها وراحت تلعق العصير الحلو من إصبعها. وعندما رأت شدة انزعاجي، أضافت بصوت أرقّ: «لمَ لا تلقي نظرة على الفتيات الأخريات يا بيبرس؟».

«لا أريد عاهراتك الرخيصات أيتها العجوز الشمطاء البدينة. أريد وردة الصحراء، أريد أن أراها الآن».

رفعت الخنثى حاجبيها المدبّبين الأسودين عندما قلت لها ذلك، من دون أن تجسر على مجادلتي. وانخفض صوتها ليصبح همساً، كما لو كانت خجلة مما ستقوله: «لقد ذهبت. من الواضح أنها هربت عندما كان الجميع يغطون في النوم.

بدا الأمر سخيفاً، بل مضحكاً. سألتها: «منذ متى تخرج العاهرات من المبغى؟ يجب أن تجديها الآن».

رمقتني صاحبة المبغى وكأنها تراني للمرة الأولى، وقالت تهسهس: «من أنت حتى تعطيني أوامر؟»، والتمعت عيناها المتحدّيتان الصغيرتان، بخلاف عيني وردة الصحراء، وراحت ترمقني بحدّة.

«أنا حارس وعمي يشغل منصباً مهماً، وباستطاعتي أن أغلق هذا الوكر وألقي بكنّ جميعكن إلى الشارع»، قلت ومددت يدي إلى الزبدية التي تضعها في حضنها، وتناولت قطعة من راحة الحلقوم. كانت طرية وناعمة.

مسحت أصابعي الدبقة بوشاحها الحريري. اشتعل وجهها غضباً، لكنّها لم تجرؤ على مواجهتي.

فقالت: «لماذا تلومني؟ يجب أن تلوم ذلك الدرويش، الذي أقنع وردة الصحراء بمغادرة المبغى بحثاً عن الله».

لوهلة لم أفهم عمن تتكلم، ولكني سرعان ما عرفت أنها تقصد شمس التبريزي.

في البداية سخر من عمّي أمام تلامذته، والآن هذه. لا بد أن هذا الزنديق لا يعرف حدوده.

إيلا

نورثامبتون، ٢٦ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

المحبوب عزيز،

قرّرت أن أخطّ إليك رسالة في هذا الوقت، بالأسلوب القديم، بقلم حبر، وورقة معطّرة، ومغلف مماثل، وطابع بريدي. وإني سأرسلها إلى آمستردام بعد ظهر اليوم. أريد أن أفعل ذلك فوراً، لأنني إذا تأخرت في إرسالها، فقد لا أتمكن من إرسالها بعد ذلك.

في البداية تلتقي بشخص ـ شخص يختلف اختلافاً تاماً عن جميع من حولك من الأشخاص. شخص يرى كلّ شيء بمنظار مختلف، ويجعلك تغيّر منظورك، وتلاحظ كلّ شيء من جديد، من الداخل ومن الخارج؛ ويخيّل إليك أن بإمكانك الإبقاء على مسافة آمنة بينك وبينه؛ ويخيّل إليك أنك تستطيع أن تبحر وتشق طريقك في خضم هذه العاصفة الجميلة، حتى تدرك، بغتة، أنه ألقي بك إلى العراء، ولا يمكنك أن تتحكم بذلك.

لا أعرف تماماً متى بدأت كلماتك تأسرني، بل إن كلّ ما أعرفه هو أن الرسائل التي نتبادلها أخذت تغيّرني؛ منذ البداية. قد أندم على قول

ذلك، لكني بعد أن أمضيت حياتي كلها نادمة على الأمور التي لم أتمكن من القيام بها، فإني لا أرى ضيراً الآن في أن أفعل شيئاً بدافع التغيير.

منذ أن «التقيت بك» من خلال روايتك ورسائلك الإلكترونية، هيمنتَ على تفكيري. وكلما كنت أقرأ رسالة إلكترونية تبعثها لي، كان ينتابني شيء في داخلي ويجعلني أدور في دوامة، وكنت أدرك أنه لم تنتبني منذ زمن بعيد مثل هذه المشاعر، ولم تكن هذه المشاعر تفارقني طوال اليوم. أتحدّث إليك بصمت، أتساءل كيف سترتدّ على حياتي اليومية. عندما ترتاد مطعماً جيداً، أريد أن أرافقك، وعندما أرى شيئاً يثير الاهتمام، يغمرني الحزن لأنني لا أستطيع أن أريه لك. ومنذ عدة أيام، سألتني ابنتي الصغيرة هل فعلت شيئاً بشعري، لأنني لا أغيّر تسريحة شعري أبداً! فقد أصبحت أبدو امرأة مختلفة، لأنني بدأت أشعر بأنني مختلفة.

ثمّ أعود لأذكّر نفسي بأننا لم نلتق بعد، وهذا يعيدني إلى الواقع. والحقيقة أنني لا أعرف ماذا أفعل تجاهك، فقد أنهيت قراءة روايتك وأعددت تقريري. (آه، نعم، كنت أكتب تقريراً عنها. كانت تمرّ أوقات أريد فيها أن أشاطرك آرائي، أو على الأقل أن أرسل إليك التقرير الذي أرسلته إلى الوكيل الأدبي، لكنّي قلت لنفسي إن هذا ليس لائقاً، ومع أنني لا أستطيع أن أخبرك عن تفاصيل تقريري، يجب أن تعرف أنني أحببت كتابك كثيراً، وإني أشكرك على المتعة التي أتحتها لي. وستبقى كلماتك معي على الدوام).

في جميع الأحوال، ليس لرواية «الكفر الحلو» علاقة بقراري كتابة

هذه الرسالة، أو لعل لها علاقة بكلّ شيء. فهي التي أفضت إلى ما نما بيننا، وكان تأثيرها الطاغي عليّ يجعلني لا أتمالك نفسي، وأصبح تأثيرها عليّ أكثر مما أتحمله. في البدء، أحببت مخيلتك وقصصك، ثم أدركت أنني بدأت أحبّ الرجل القابع وراء تلك القصص.

الآن لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل تجاهك.

كما قلت، يجب أن أرسل هذه الرسالة فوراً، وإلا مزّقتها إلى قصاصات صغيرة. سأتصرّف وكأنه لم يطرأ شيء جديد على حياتي، شيء غير عادي.

نعم، يمكنني أن أفعل ما أفعله دائماً، وأتظاهر بأن كلّ شيء عادي وطبيعي.

يمكنني أن أدّعي أنه إذا لم يكن ذلك من أجل هذا الوجع الحلو في قلبي، فمن أجل ماذا يكون؟

مع كلّ الحبّ،

إيلا

كيرا

قونية، أيار (مايو) ١٢٤٦

بداية المحنة. لا أعرف كيف يمكنني معالجة هذا الأمر.

ففي هذا الصباح، ومن حيث لا أدري، جاءت امرأة تسأل عن شمس التبريزي. طلبت منها أن تعود في وقت لاحق، لأنه غير موجود في البيت، فقالت إنه ليس لها مكان تذهب إليه، وأنها تفضّل أن تنتظره في الفناء. فساورتني شكوك، وبدأت أتساءل من هي هذه المرأة ومن أين جاءت. جثت على ركبتيها وأزاحت برقعها، فكشفت عن وجه مثخن بالجروح، ومتورّم من ضرب مبرح. وعلى الرغم من تلك الكدمات والجروح، كانت في غاية الجمال والرشاقة. وفي غمرة الدموع والبكاء، أكدت بطريقة شديدة اللباقة الشكوك التي ساورتني. فقد كانت عاهرة قادمة من المبغى.

وقالت: «لكنني هجرت ذلك المكان الفظيع، وتوجهت إلى الحمّام العمومي، واغتسلت أربعين مرة، وصلّيت أربعين مرة، وأقسمت أن أعتزل الرجال. ومن الآن فصاعداً، سأكرّس حياتي لله».

لم أعرف ما أقوله لها، فحدّقت في عينيها المجروحتين، وتساءلت

كيف أنها، هي الشابة والهشّة، قد وجدت الشجاعة لتهجر الحياة الوحيدة التي تعرفها. فلم أكن أريد أن أرى امرأة تسقط بالقرب من بيتي، لكن، فيها شيء حطم فؤادي، نوع من بساطة تكاد تكون بريئة، لم يسبق لي أن رأيتها في أي شخص. وذكّرتني عيناها البنيتان بعيني الأم ماري؛ لذلك لم تطاوعني نفسي على طردها، فتركتها تنتظر في الفناء. كان ذلك أقصى ما بوسعي أن أفعله. وتركتها جالسة هناك مسندة ظهرها إلى الحائط، وهي تحدّق في الفضاء، مسمّرة مثل تمثال من الرخام.

بعد حوالى ساعة، عاد شمس والرومي من نزهتهما، فهرعت لأخبرهما بوجود الزائرة غير المتوقعة.

«هل قلتِ إن في فناء بيتنا عاهرة؟»، سأل الرومي، وقد بدت الحيرة في صوته.

«نعم، وهي تقول إنها هجرت المبغى بحثاً عن الله».

«آه، لا بد أنها وردة الصحراء»، صاح شمس. كانت نبرته تشي بالسرور أكثر مما تشي بأنه فوجئ بها، فقال: «لماذا أبقيتيها في الخارج؟ دعيها تدخل».

«لكن ماذا سيقول جيراننا لو عرفوا أن فتاة سيئة السمعة تحت سقف بيتنا؟»، قلت معترضة وصوتي يتصدّع بالتوتّر.

«ألسنا نعيش جميعاً تحت سقف واحد في جميع الأحوال؟»، قال شمس، وأشار إلى السماء في الأعلى، «فالملوك والشحاذون والعذارى والعاهرات، كلهم يعيشون تحت سماء واحدة».

كيف يمكنني أن أجادل شمساً، فلديه دائماً ردود جاهزة على كلّ شيء.

دعوت وردة الصحراء إلى الدخول إلى البيت، راجية ألاّ ترانا عيون الجيران الفضولية. وما إن دخلت الغرفة حتى جرت وقبّلت يد شمس وأخذت تنشج.

«إني سعيد بمجيئك»، قال شمس مبتسماً وكأنه يتكلم مع صديق قديم، «ولن تعودي إلى ذلك المكان. لقد انتهت تلك المرحلة من حياتك تماماً، وليجعل الله رحلتك إلى الحقيقة مثمرة».

اشتدّ بكاء وردة الصحراء، وقالت: «لكن صاحبة المبغى لن تتركني أعيش بسلام، لأنها سترسل رأس الواوي في إثري. إنك لا تعرف كيف...».

فقاطعها شمس قائلاً: «ليكن عقلك صافياً يا طفلتي»، وأضاف، «تذكّري قاعدة أخرى: *على الرغم من أن المرء في هذا العالم يجاهد ليحقق شيئاً ويصبح شخصاً مهماً، فإنه سيخلّف كل شيء بعد موته. إنك تهدفين إلى بلوغ المرحلة العليا من العدم. عيشي هذه الحياة خفيفة وفارغة مثل الرقم صفر. إننا لا نختلف عن أصيص الزرع. فليست الزينة في الخارج، بل الفراغ في داخلنا هو الذي يجعلنا نقف منتصبي القامة. مثل هذا تماماً، فالوعي بالعدم وليس ما نتطلّع إلى تحقيقه، هو الذي يبقينا نواصل الحياة*».

* * *

في وقت متأخر من المساء، أريت وردة الصحراء السرير الذي ستنام عليه؛ وعندما غطّت في النوم على الفور، عدت إلى الغرفة الرئيسية، حيث كان الرومي وشمس يتحدثان.

«يجب أن تحضري الرقصة التي سنقدمها»، قال شمس عندما رآني قادمة.

فسألته، «أيّ رقصة؟».

«رقصة روحية يا كيرا، لم يسبق لك أن رأيت مثلها من قبل».

نظرت إلى زوجي بعينين مندهشتين. ماذا يحدث هنا؟ عن أيّ رقصة يتكلمان؟

«مولانا، إنك عالم مبجّل، ولست شخصاً عادياً. ماذا سيظن الناس بك؟»، سألته، وقد أحسست بالحرارة تشتعل في وجهي.

«لا تقلقي»، قال الرومي، «لقد تحدّثنا أنا وشمس عن هذا الأمر منذ فترة من الزمن. نريد أن نقدم رقصة الدراويش. إنها تدعى «سما» وإننا نرحب بأن ينضم إلينا جميع الذين يتوقون إلى الحبّ الإلهي».

بدأ رأسي يؤلمني بشدة، لكن الألم كان طفيفاً بالمقارنة مع العذاب في قلبي.

«وماذا لو لم يحبّها الناس؟ فليس جميع الناس يحترمون الرقص»، قلت لشمس، راجية أن يكون لما قلته تأثير على ما سيقوله بعد ذلك، «على الأقل تأجيل أداء هذه الرقصة لفترة من الوقت».

«وليس جميع الناس يحترمون الله كثيراً»، قال شمس، «فهل نضع الإيمان به جانباً أيضاً؟».

كانت عبارته هذه نهاية المناقشة. فلم تعد توجد كلمات أخرى، وملأ البيت صوت الريح التي كانت تتسلل من خلال شقوق الجدران، وتهدر في أذني.

سلطان ولد

قونية، حزيران (يونيو) ١٢٤٦

«الجمال في عين ناظره» تابع شمس قوله، «إذ سيرى الجميع الرقصة نفسها، لكن كلّ شخص يراها بطريقة مختلفة. إذاً لماذا القلق؟ فالبعض سيحبّها، والبعض الآخر لن يحبّها».

ومع ذلك، ففي أمسية «سما»، قلت لشمس إني أخشى ألا يحضر أحد الرقصة.

فأجاب بحدّة: «لا تقلق. فقد لا يكون أهالي البلدة يحبونني، حتى إنهم لم يعودوا يحبّون والدك، لكن لا يمكنهم تجاهلنا. إن فضولهم سيدفعهم إلى الحضور».

وهكذا، في الأمسية التي ستُجرى فيها الرقصة، اكتظت القاعة بأناس من مختلف المشارب والمهن، منهم التجار، والحدادون، والنجارون، والفلاحون، والحجّارون، والصبّاغون، وبائعو الأعشاب الطبية، وزعماء الطوائف الحرفية، والكتّاب، والخبازون، والندّابون، والعرّافون، وصائدو الجرذان، والعطارون ـ حتى الشيخ ياسين جاء برفقة عدد من تلامذته ـ. وجلست النساء في الخلف.

شعرت بالارتياح عندما رأيت الملك كاي خسرو جالساً مع مستشاريه في الصف الأمامي. فرجل بهذه المكانة الرفيعة يدعم أبي، سيخرس جميع الألسنة.

احتاج الحضور لبعض الوقت لأخذ أماكنهم، وحتى بعد أن استقر بهم المقام، لم يهدأ الضجيج في الداخل تماماً، وكانت لا تزال تسمع همهمات مناقشات لاهبة. ولمّا كنت أرغب في الجلوس بجانب شخص لم يشتم شمساً ولم يتحدث عنه بسوء قط، فقد جلست بجانب سليمان السكران، الذي كانت تفوح منه رائحة الخمر، لكني لم أكترث لذلك.

كانت ساقاي ترتعشان، وراحتاي تنضحان عرقاً، ومع أن الهواء كان دافئاً إلى حد يكفي لجعلنا نخلع عباءاتنا، بدأت أسناني تصطك. فقد كانت هذه الرقصة مهمة للغاية من أجل سمعة أبي التي بدأت تتهاوى. ابتهلت إلى الله، لكن لمّا كنت لا أعرف ماذا أريد أن أطلب منه تماماً، سوى أن تمرّ الأمور بخير، فقد بدت ابتهالاتي ضعيفة.

سرعان ما تناهي إليّ صوت، من بعيد في البداية، ثم أخذ يقترب. كان صوتاً آسراً ومؤثراً فحبس الجميع أنفاسهم، وأرهفوا السمع.

«ما نوع هذه الآلة الموسيقية؟»، همس سليمان بمزيج من الوجل والبهجة.

«إنه يدعى الناي»، قلت، متذكّراً حديثاً دار بين أبي وشمس، «ويشبه صوته تنهيدة العاشق تجاه محبوبته».

عندما خفت صوت الناي، تقدم أبي إلى المنصة، وبخطوات مدروسة، متأنية، رقيقة، اقترب وحيّا الحاضرين. ثم تبعه ستة

دراويش، كلهمّ من مريدي أبي، وكانوا يرتدون أثواباً بيضاً طويلة واسعة من الأسفل، وقد عقدوا أيديهم على صدورهم، ثمّ انحنوا أمام أبي لنيل بركته؛ ثمّ عزفت الموسيقى، وبدأ الدراويش، الواحد تلو الآخر، يدورون حول أنفسهم، ببطء في البدء، ثمّ بسرعة أكبر، وتفتحت أذيال أثوابهم مثل أزهار اللوتس.

كان مشهداً رائعاً، ولم أتمالك نفسي عن الابتسام بفخر وبهجة. ومن طرف عيني، رحت أراقب تجاوب الحضور، حتى أكثر الثرثارين منهم، فرأيت أنهم يشاهدون الرقص بإعجاب واضح.

أخذ الدراويش يدورون ويدورون حول أنفسهم إلى ما بدا الخلود؛ ثمّ علا صوت موسيقى، صوت ربابة من خلف ستارة برفقة صوت الناي والدفوف. ثم صعد شمس التبريزي إلى المنصة مثل ريح صحراوية عاصفة. كان يرتدي عباءة بلون أغمق من الأثواب التي يرتديها الآخرون، وكان يبدو أطول قامة منهم، كما كان يدور بسرعة أكبر. كانت راحتا يديه مبسوطتين نحو السماء، كما كان وجهه، مثل نبات عبّاد شمس يبحث عن الشمس.

سمعت بعض الحاضرين يلهثون بوجل. حتى الأشخاص الذين يكرهون شمس التبريزي، بدا كأنهم قد وقعوا تحت سحر الرقص والموسيقى. نظرت إلى أبي، فبينما كان شمس يدور بسرعة كبيرة، بدأ مريدوه، كلّ في مداره، يدورون ببطء أكبر، بينما لبث أبي في مكانه مثل شجرة بلوط قديمة، حكيماً وهادئاً، لا تني شفتاه تتحركان بالدعاء والابتهال.

ثم بدأت الموسيقى تتباطأ، وفجأة توقّف الدراويش عن الدوران،

وانغلقت كلّ زهرة لوتس على نفسها. وبتحية رقيقة، بارك أبي جميع الراقصين على المنصة وجميع الحاضرين، ولوهلة أحسست كأننا مرتبطون جميعاً بحالة من الانسجام التام؛ وأعقب ذلك صمت مفاجئ كثيف، ولم يعرف أحد منهم كيف يتصرف، لأن أحداً لم ير شيئاً كهذا من قبل.

اخترق صوت أبي السكون وقال: «أصدقائي، تدعى هذه الرقصة سما، أي رقصة الدراويش. ومن الآن فصاعداً، سيرقصها الدراويش في جميع الأزمنة. يد متجهة إلى السماء، واليد الأخرى متجهة إلى الأسفل نحو الأرض، فكلّ نقطة حبّ ننالها من الله، نتعهّد بتوزيعها على الناس جميعاً».

ابتسم الحاضرون وغمغموا موافقين. سرى اضطراب ودّي دافئ في القاعة. تأثرت كثيراً برؤية هذا التجاوب الإيجابي واغرورقت عيناي بالدموع. وأخيراً، بدأ أبي وشمس يتلقيان التحيات، والحبّ والاحترام اللذين يستحقانهما.

كان من الممكن أن تنتهي الأمسية بذلك الدفء، وكان من الممكن أن أعود إلى البيت مفعماً بالسعادة، واثقاً من أن الأمور أخذت تتحسّن، لو لم يحدث ما حدث في ما بعد، الأمر الذي دمر كلّ شيء.

سليمان السكران

قونية، حزيران (يونيو) ١٢٤٦

الدم والرعد! يا لها من أمسية لا تنسى! فلم أزل لم أشف من تأثيرها، فمن بين كلّ ما رأيته هذه الليلة، كانت الخاتمة أكثرها إثارة.

فبعد انتهاء رقصة *سما*، استوى كاي خسرو الثاني العظيم واقفاً، وراحت عيناه تجولان في أرجاء الغرفة بغطرسة وكبرياء. وبعجرفة شديدة اقترب من المنصة، وبعد أن أطلق ضحكة عالية، قال: «أهنئكم أيها الدراويش! لقد أعجبتني رقصتكم كثيراً».

شكره الرومي بلطف شديد، وكذلك فعل الدراويش الواقفون على المنصة؛ ثمّ نهض الموسيقيون وقدموا للملك تحية احترام أخيرة. ثمّ أشار كاي خسرو، الذي كان وجهه مفعماً بالارتياح، إلى أحد حرّاسه الذي ناوله كيساً مخملياً. وراح كاي خسرو يهزّ الكيس في راحة يده ليرى كم هو ثقيل ومليء بالنقود الذهبية، ثم ألقى به إلى المنصة. أطلق الأشخاص المتحلقون حولي تنهيدة، وصفّقوا. فقد تأثرنا كثيراً بكرم حاكمنا.

استدار كاي خسرو، مفعماً بالرضا والثقة، للمغادرة. لكن ما إن

خطا نحو الباب حتى أُلقي عليه الكيس الذي كان قد ألقاه على المنصة، فتناثرت النقود تحت قدميه، مصدرة رنيناً وخشخشة مثل خشخشة أساور عروس جديدة. لقد حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة إلى درجة أننا تسمّرنا في مكاننا للحظات كاملة مذهولين، غير قادرين على فهم ما يجري حولنا. لكن مما لا ريب فيه أن الشخص الذي صعق حقاً بما جرى كان كاي خسرو نفسه. فقد كانت الإهانة بادية للعيان، ومن المؤكد أنها كانت موجّهة إليه شخصياً، وهو أمر لا يمكن غفرانه. نظر إلى الوراء بعينين غير مصدقتين ليرى من الذي تجاسر على هذا التصرف الأرعن.

إنه شمس التبريزي. فقد استدارت جميع الرؤوس نحوه، بينما كان يقف في وسط المنصة، يضع يديه على خصره، عيناه المحمرتان تحدّقان.

وقال بصوت عميق: «إننا لا نرقص من أجل المال. إن سما رقصة روحية نؤديها من أجل الحبّ، الحبّ وحده. لذلك خذ ذهبك يا صاحب الجلالة! نقودك لا تنفع هنا».

خيّم صمت مرعب على القاعة. كان ابن الرومي يرتجف كما لو كان الدم قد جفّ من وجهه الصغير؛ ولم يجرؤ أحد على إصدار صوت، فحبسنا أنفاسنا جميعاً. وكأن السماء كانت تنتظر هذه الإشارة، فبدأ المطر ينهمر بغزارة، وأغرقت قطرات المطر كلّ شيء، وكلّ شخص.

«هيا بنا»، قال كاي خسرو لرجاله.

اتجه الملك نحو الباب، وكان خداه يرتعشان من الإهانة، وشفتاه ترتجفان، وقد تهدّل كتفاه.

انطلق حرّاسه وخدمه وراءه، الواحد تلو الآخر، يطأون النقود المعدنية المتناثرة على الأرض بأحذيتهم الثقيلة؛ فتدافع الناس لالتقاطها.

ما إن غادر الملك، حتى علت همهمة تشي بعدم الرضا والإحباط في صفوف الحاضرين.

«من يظن نفسه»، دمدم البعض.

«كيف يجرؤ على إهانة حاكمنا؟»، صاح آخرون، «لماذا يدفع بكاي خسرو إلى تحميل البلدة كلها الثمن الآن؟».

وقف عدد من الأشخاص، يهزّون رؤوسهم غير مصدقين، ثم توجهوا نحو الباب وقد ارتسمت على وجوههم أمارات الاحتجاج. وكان على رأس المحتجّين الشيخ ياسين ومريدوه. ولمفاجأتي، رأيت من بينهم مريدين اثنين من مريدي الرومي، وابنه علاء الدين.

علاء الدين

قونية، حزيران (يونيو) ١٢٤٦

أقسم بالله أنني لم أشعر بالحرج في حياتي كما شعرت الآن. كانت رؤية أبي ورفيقه الزنديق مخزية، وأحسست بالإهانة عندما رأيته يؤدي هذه الرقصة. فكيف يمكنه أن يجلب العار على نفسه بهذه الطريقة أمام أهالي البلدة؟ والأهم من كل ذلك، فقد ذعرت عندما سمعت أن بين الحاضرين عاهرة من المبغى. وبينما جلست هناك وأنا أتساءل عن الجنون والدمار الذي سيجلبه علينا حبّ أبي لشمس التبريزي، تمنّيت، لأول مرة في حياتي، لو كنت ابن رجل آخر.

إني أعتبر الرقص تدنيساً للمقدسات، لكن ما حدث بعد ذلك، كان بعيداً عن التصور. فكيف تجاسر هذا الرجل الوقح على ازدراء حاكمنا؟ إنه محظوظ لأن كاي خسرو لم يلق القبض عليه فوراً ويعدمه.

عندما رأيت الشيخ ياسين يخرج وراء كاي خسرو، عرفت أنني يجب أن أحذو حذوه. فآخر شيء أريده هو أن يظن أهالي المدينة بأني أقف إلى جانب زنديق، ويجب أن يرى الجميع ذلك، ما عدا أخي، فأنا لست ألعوبة في يد أبي.

في تلك الليلة لم أذهب إلى البيت، بل مكثت في بيت إرشاد مع عدد من الأصدقاء، وتحدّثنا بحماسة عن أحداث اليوم، وناقشنا مطولاً ما الذي علينا فعله.

«لهذا الرجل تأثير كبير على أبيك»، قال إرشاد بحزم، «فقد جلب الآن مومساً إلى بيتكم. يجب أن تطهّر اسم عائلتك يا علاء الدين».

بينما وقفت استمع إلى ما يقولونه، كان وجهي يلتهب بخزي حارق، وكان يوجد شيء واحد جلي بالنسبة لي وهو أن شمساً لم يجلب لنا سوى التعاسة.

وخلصنا جميعاً إلى ضرورة أن يغادر شمس هذه البلدة، إن لم يغادر طوعاً، فبالقوة.

* * *

في اليوم التالي عدت إلى البيت وقد عزمت على أن أتكلّم مع شمس التبريزي، رجلاً لرجل. كان وحده في فناء البيت، يعزف الناي. كان رأسه محنياً، وعيناه مغمضتين، مولياً ظهره لي. ولمّا كان مستغرقاً في موسيقاه، لم ينتبه لوجودي. اقتربت بهدوء كالفأر، منتهزاً الفرصة لمراقبته والتعرّف على عدوي بشكل أفضل.

بعد عدّة دقائق، توقّف شمس عن العزف، ورفع رأسه قليلاً. ومن دون أن ينظر نحوي، همهم كلمات كأنه يكلّم نفسه، وقال: «السلام عليك يا علاء الدين، هل تبحث عني؟».

لم أنبس ببنت شفة. فقد كنت أعرف مقدرته على الرؤية من خلال الأبواب المغلقة، ولم أفاجأ بأن لديه عيوناً في مؤخرة رأسه.

«إذاً هل استمتعت بمشاهدة الرقصة البارحة؟»، سأل شمس، وأدار وجهه نحوي.

فأجبت على الفور: «أظن أنها كانت مخزية. لنتحدّث بصراحة. فأنا لا أحبّك. ولم أحبّك قط، ولن أدعك تدمّر سمعة أبي أكثر مما فعلت».

ومضت شرارة في عيني شمس. وضع الناي جانباً، وقال: «هكذا إذاً؟ فلو أنا دمّرت سمعة الرومي فلن يعود الناس ينظرون إليك باعتبارك رجلاً مرموقاً. هل هذا ما يخيفك؟».

عازماً على ألا أدعه يثير حفيظتي، تجاهلت ملاحظاته الجارحة. ومضت لحظات قليلة قبل أن أتمكن من قول شيء.

ثم أجبته: «لماذا لا تغادرنا وتتركنا بسلام؟ فقد كنّا نعيش بهدوء وكنا في أفضل حال قبل مجيئك. كان أبي عالماً محترماً وربّ أسرة رائعاً. فلا شيء يجمع بينكما».

مطّ شمس عنقه إلى الأمام، وقطّب حاجبيه بتركيز شديد، وأخذ نَفَساً عميقاً. وفجأة بدا عجوزاً ضعيفاً. لمعت في رأسي فكرة بأنني أستطيع أن أضربه، أن أوسعه ضرباً، قبل أن يتمكن أحد من إنقاذه. كانت الفكرة مخيفة وخبيثة، لكنها مغرية على نحو مخيف، وكان عليّ أن أشيح بوجهي عنه.

عندما عدت أحدّق به، رأيته يرمقني ويتفحصني. كانت نظرته نافذة، نهمة. أمن الممكن أنه يقرأ أفكاري؟ تملّكني شعور مخيف سرى من يديَّ إلى قدميَّ، كأن ألف أبرة تثقبني، وأحسست بركبتيّ واهنتين، غير قادرتين على حملي. لا بد أنه يمارس السحر الأسود. لم يكن يساورني أدنى شكّ في أن شمساً يبرع في أشدّ أشكال السحر الأسود ظلمة.

بعد قليل قال شمس: «إنك تخاف مني يا علاء الدين. أتعرف بمن تذكّرني؟ بالأجير الأحول».

«عمن تتحدّث؟»، سألته.

«إنها قصّة. هل تحبّ سماع القصص؟».

هززت كتفي وقلت: «لا وقت لديَّ لسماعها».

ارتعشت شفتا شمس، وقال: «إن الرجل الذي لا وقت لديه لسماع القصص لا وقت لديه من أجل الله»، وأضاف: «ألا تعرف أن الله أفضل حكواتي؟».

من دون أن ينتظر رداً مني، حكى هذه القصّة:

في أحد الأيام، كان يوجد حرفيّ عنده أجير ساخر، شديد الحول. وكان هذا الأجير يرى الأشياء بصورة مزدوجة على الدوام. وذات يوم، طلب الحرفيّ من الأجير أن يحضر جرّة العسل من المخزن. فعاد الأجير خاوي اليدين، وقال متذمراً: «لكن يا سيّدي، توجد جرتا عسل»، ثم أضاف، «أي الجرتين تريدني أن أُحضر؟» وبما أن الحرفيّ يعرف أجيره جيداً، فقال: «لماذا لا تكسر إحدى الجرتين وتحضر لي الجرة الأخرى؟».

للأسف، لم يفهم الأجير الحكمة الكامنة وراء هذه الكلمات، ففعل كما طلب منه، وكسر إحدى الجرتين ودهش عندما رأى الجرة الأخرى تنكسر أيضاً».

«ماذا تريد أن تخبرني؟»، سألته، لكي أبدي أن مزاجي لم يكن على ما يرام أمام شمس، لكنني لم أستطع ذلك. «اللعنة عليك أنت وقصصك. ألا تستطيع أن تقول ما تريد قوله بشكل مباشر؟».

«لكنها شديدة الوضوح يا علاء الدين. فأنا أريد أن أقول لك إنك مثل الأجير الأحول لأنك ترى أشياء مزدوجة في كل مكان»، قال شمس: «فأنا ووالدك واحد. فإذا كسرتني، كسرته أيضاً».

فرددت: «لا يجمع بينك وبين أبي أي شيء مشترك. فإذا كسرت الجرّة الثانية، فإني سأحرر الجرة الأولى».

استشطت غضباً واعتراني استياء شديد فلم أعد أفكّر بعواقب كلماتي. لا وقتها، ولا لاحقاً.

لم يكن الآوان قد فات.

شمس

قونية، حزيران (يونيو) ١٢٤٦

يقول المتعصبون وضيّقو الأفق إن الرقص حرام.

لا أظن أن الله «عز وجل» منحنا الموسيقى ـ لا الموسيقى التي نصنعها بأصواتنا وآلاتنا فحسب، بل الموسيقى التي تغلّف كلّ أشكال الحياة، ثم حرّم علينا أن نسمعها. ألا يرون أن الطبيعة برمتها تغنّي؟ فكلّ شيء في هذا الكون يتحرّك بإيقاع: خفقات القلب، رفرفة أجنحة الطير، هبوب الريح في ليلة عاصفة، طرقات الحداد وهو يطرق الحديد، أو الأصوات التي تغلف الجنين داخل الرحم... كلّ شيء يشارك في انبعاثها، بحماسة وتلقائية، في نغم واحد رائع. وما رقصة الدراويش إلا حلقة في تلك السلسلة الدائمة. وكما يحمل ماء البحر في داخله المحيط برمته، فإن رقصتنا تعكس أسرار الكون وتغلّفها.

قبل أن يحين موعد أداء الرقصة بعدة ساعات، لجأنا أنا والرومي إلى غرفة هادئة لممارسة التأمّل. ثم انضم إلينا الدراويش الستة الذين سيؤدون رقصة الدراويش هذا المساء. توضأنا وصلّينا جميعاً، ثمّ ارتدينا أثوابنا. كنا قد بحثنا بالتفصيل عما يجب أن يكون طول

الثوب، واخترنا نوعاً بسيطاً من القماش يمثّل ألوان الأرض. إذ يمثّل الطرطور العسلي اللون شاهدة القبر، في حين تمثّل التنورة البيضاء الطويلة الكفن، بينما تمثّل العباءة السوداء القبر. وترمز رقصتنا إلى كيف ينبذ الصوفيون النفس كلها، كما ينزعون قطعة من الجلد القديم.

وقبل أن نغادر القاعة ونتوجه إلى المنصة، قرأ الرومي قصيدة وهي:

«لقد تجاوز الصوفي الحواس الخمس

والاتجاهات الستة وأصبح يدرك ما يقبع وراءها».

بهذه المشاعر كنّا مستعدين. في البداية، انطلق صوت الناي، ثمّ تقدم الرومي من باحة الرقص باعتباره السما باشي، ثم تبعه الدراويش، الواحد تلو الآخر، رؤوسهم مطرقة بتواضع، وكان الشيخ هو آخر من ظهر. وأصرّ الرومي على أن أؤدي الرقصة في تلك الليلة، رغم مقاومتي بإصرار.

وتلا الحافظ سورة من القرآن: «وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون».

ثمّ انطلق صوت «الدف» بمرافقة صوت الناي الثاقب والربابة.

أَنْصتْ إلى القصبة (المزمار) وإلى الحكاية التي تحكيها،

كيف أنها تصدح بالفراق:

فمنذ أن اقتلعت من حقل القصب،

لا يزال عويلي يبكي الرجال والنساء.

مستسلماً ومسلماً نفسه بين يدي الله، بدأ الدرويش الأول يدور،

وبدأت حواشي ثوبه تحفّ برقة في حياة منفصلة بحد ذاتها، ثم انضممنا جميعاً إليه، ورحنا ندور حتى لم يبق حولنا شيء سوى «الواحد». وكنا ننقل كلّ ما نتلقاه من السماء، إلى الأرض، من الله إلى الناس. وأصبح كلّ واحد منا حلقة تربط بين الحبيب والمحبوب. وعندما توقّفت الموسيقى، انحنينا لقوى الكون الأساسية: النار والريح والتراب والماء والعنصر الخامس الخواء.

* * *

لم آسف على ما حدث بيني وبين كاي خسرو عندما انتهت الرقصة، لكني أسفت لأنني وضعت الرومي في موقف حرج. فقد كان رجلاً يتمتّع بالامتيازات والحماية على الدوام، وكان جميع الولاة والحكام يحبونه ولا يجافونه. أما الآن فقد أصبح يعرف قليلاً عن حياة الناس العاديين، الهوة الواسعة بين النخبة الحاكمة وبين عامة الناس ـ.

وبهذا بدأ يخيّل إليّ أنني أقترب من نهاية زمني في قونية.

فكلّ حبّ وصداقة حقيقيين هما قصّة تحول غير متوقّع، ولو بقينا ذات الشخص قبل أن نحبّ وبعده، فهذا يعني أن حبّنا لم يكن كافياً.

وبفضل الشعر والموسيقى والرقص، اكتمل قدر كبير من تحوّل الرومي، الذي كان عالماً متشدداً لا يحب الشعر، وخطيباً يستمتع بسماع صوته وهو يلقي خطبته على الآخرين، لكنه بدأ يتحول الآن إلى شاعر، وبدأ يصبح صوت الفراغ الصافي، لكني لا أظن أنه حقق ذلك تماماً. وقد تغيّرت أنا نفسي أيضاً، ولا أزال أتغيّر، وبدأت أتحوّل من كائن إلى عدم؛ من فصل إلى آخر؛ من مرحلة إلى أخرى؛ من الحياة إلى الموت.

كانت صداقتنا مباركة، منحة منحنا إياها الله. فقد نمونا، وابتهجنا، وازدهرنا وتمتع الواحد منا بصحبة الآخر، وتذوقنا الامتلاء والهناء المطلقين.

تذكّرت ما قاله لي بابا زمان ذات يوم، فلكي نستخرج الحرير، يجب أن تموت دودة القز. عندما كنت أجلس وحيداً في قاعة رقص الدراويش، بعد أن غادر الجميع وساد السكون، عرفت أن الفترة التي بقيت لي برفقة الرومي قد قاربت على الانتهاء. فخلال صحبتنا، شهدت أنا والرومي جمالاً مميزاً، وتعلّمت ماذا يعني أن يرى المرء، مثل مصادفة لا نهائية، من خلال مرآتين تعكسان ما لا نهاية. لكن الحكمة القديمة ما زالت سارية: فحيث يوجد حبّ، يوجد حزن.

إيلا

نورثامبتون، ٢٩ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

قال عزيز إن وراء أجمل الأحلام تقبع أشياء غريبة عندما لا يكون الأشخاص مستعدين لاستقبال الأمور غير العادية وغير المتوقّعة. ولم يكن في جسم إيلا شيء مستعد لتقبل الأمر الغريب الذي حدث هذا الأسبوع: فقد قدم عزيز ز. زاهارا إلى بوسطن لرؤيتها.

بعد أن أخذ أفراد أسرة روبنشتاين أماكنهم إلى المائدة مساء يوم الأحد ذاك، لاحظت إيلا وجود رسالة نصّية على هاتفها الخلوي، وظنت أن إحدى السيدات في نادي الطهو قد أرسلتها لها، فلم تسرع إلى قراءتها، بل قدّمت لأسرتها الطبق الخاص الذي أعدّته لهم هذا المساء: بطّة مشوية بالعسل مع البطاطا المقلّية والبصل المقليّ فوق رزّ أسمر. عندما وضعت البطّة على المائدة، أبدى الجميع شيئاً من الانشراح، حتى جانيت، التي كانت تشعر بالاكتئاب لأنها رأت سكوت بصحبة فتاة جديدة، فأدركت أنها لا تزال تحبّه، كانت تشعر بالجوع.

كان عشاء طويلاً، تناولوا خلاله نبيذاً جيداً، ودارت بينهم أحاديث عادية. وشاركت إيلا في جميع الأحاديث التي دارت على المائدة.

فقد ناقشت مع زوجها طلاء الشرفة مرة أخرى بلون أزرق براق، وتحدثت مع جانيت عن برنامجها في الجامعة، وتحدثت مع طفليها التوأمين عن استئجار أفلام فيديو جديدة، منها الفيلم الحديث «قراصنة الكاريبي». وبعد أن وضعت الأطباق الوسخة في غسالة الصحون، وقدمت الكاتو بالشوكولا الأبيض، خطر لها أن تقرأ الرسالة النصّية على هاتفها الخلوي:

مرحباً إيلا، جئت إلى بوسطن في مهمة لمجلة سميثونيان. لقد هبطت الطائرة للتو. هل ترغبين في أن نلتقي؟ لقد نزلت في فندق أونيكس، وأحبّ أن أراك.

عزيز

وضعت إيلا الهاتف جانباً، وأخذت مكانها إلى المائدة لتناول الحلوى، واعتراها إحساس بالدوار.

«هل وصلتك رسالة؟»، سألها ديفيد، بعد أن رفع رأسه عن صحنه.

«نعم، إنها من ميشيل»، أجابت إيلا بلا أدنى تردّد.

أشاح ديفيد بوجهه الحزين، ومسح فمه بمنديله، ثم طوى منديله ببطء وبدقّة مدهشة، إلى شكل مربع. وعندما انتهى قال: «حسناً».

أحسّت إيلا بأن زوجها لم يصدّقها، لكنها مع ذلك أحست بأنها يجب أن تتمسك بروايتها، لا لتقنع زوجها أو لتخدع أطفالها، بل من أجلها هي، حتى تتمكن من اتخاذ تلك الخطوة التي تفصلها بين بيتها وبين الفندق الذي يقيم فيه عزيز. لذلك تابعت كلامها، تدقق في كلّ كلمة، وقالت: «لقد اتصلت لتخبرني بأن اجتماعاً سيعقد غداً صباحاً في الوكالة الأدبية لمناقشة برنامج السنة القادمة، وهي تريد أن أشاركهم الاجتماع».

«حسناً، إذاً يجب أن تذهبي»، قال ديفيد رامشاً عينيه مما يعني أنه يسايرها في اللعبة، وقال: «لماذا لا أوصلك بالسيارة في الصباح، ويمكننا أن نذهب إلى هناك معاً؟ يمكنني أن أؤجل بعض المواعيد».

حدّقت إيلا في زوجها، بذهول. ماذا يحاول أن يفعل؟ هل يريد أن نتشاجر أمام الأطفال؟

«سيكون ذلك رائعاً»، قالت، مرغمة نفسها على الابتسام، وأضافت: «لكننا يجب أن نغادر المنزل قبل الساعة السابعة صباحاً، لأن ميشيل قالت إنها تريد أن تتحدث إليّ على انفراد قبل الاجتماع مع الآخرين».

«إذاً إنسي الموضوع»، تدخلت أورلي التي تعرف أن والدها يكره الاستيقاظ مبكراً، وقالت: «لا يستطيع بابا أن يستيقظ مبكراً».

ونظرت كل من إيلا وديفيد في وجه الآخر. كانا ينظران على مستوى رؤوس أطفالهما، كلّ منهما ينتظر الآخر أن يقدم على الحركة الأولى.

«صحيح»، اعترف ديفيد أخيراً.

هزّت إيلا رأسها بارتياح، وكسا وجهها احمرار طفيف خجلاً، لأنه خطرت لها في تلك اللحظة فكرة أخرى، أكثر جرأة.

فقالت: «نعم، سيكون الوقت مبكراً للغاية. لمَ لا أذهب الآن؟»، إن فكرة ذهابها إلى بوسطن صباح الغد وتناولها الفطور مع عزيز جعلت دقات قلبها تخفق بسرعة. وأحست بأنها أرادت أن ترى عزيز الآن، ولم تعد تستطيع الانتظار حتى الغد، الذي بدا فجأة بعيداً جداً. فالذهاب من بيتها إلى بوسطن يستغرق قرابة ساعتين، لكنها لم تأبه

لذلك. فقد قطع كل هذا الطريق من آمستردام من أجلها. ومن المؤكد أنها تستطيع أن تقود سيارتها لمدة ساعتين.

«أستطيع أن أصل إلى بوسطن قبل الساعة العاشرة هذه الليلة، لأتمكّن من الوصول إلى الشركة قبل الاجتماع لرؤية ميشيل».

عبرت مسحة من الألم وجه ديفيد. بدا أن الوقت قد استمر دهراً قبل أن يقول شيئاً. في تلك اللحظة الطويلة، كانت عيناه تشيان بأنه لم تتبق لديه القوة أو الحماسة ليمنع زوجته من الذهاب لرؤية رجل آخر.

«أستطيع أن أقود السيارة إلى بوسطن الليلة، وأمكث في شقّتنا»، قالت إيلا، في الظاهر لأطفالها، لكنها في الحقيقة كانت توجّه كلامها إلى ديفيد. كان ذلك أسلوبها لطمأنة زوجها بأنه لن يكون هناك اتصال جسدي بينها وبين أي شخص يظن أنها ستلتقي به.

نهض ديفيد من على كرسيه، يحمل بيده كأساً من النبيذ. نظر نحو الباب، وابتسم لإيلا باطمئنان، وأضاف بقليل من الحماسة: «حسناً يا حبيبتي، إذا كان هذا ما تريدينه، فيجب أن تنطلقي الآن».

قال آفي: «لكن ماما، ظننت انك ستساعديني في درس الرياضيات هذا المساء».

أحسّت إيلا بوجهها يشتعل، وقالت: «أعرف يا عزيزي. لماذا لا نفعل ذلك غداً؟».

التفتت أورلي نحو أخيها لإغاظته وقالت: «آه، دعها تذهب. فلن تبقى ماما إلى جانبك طوال الوقت. متى ستكبر؟».

فقطّب آفي جبينه، لكنه لم يحر جواباً. كانت أورلي داعمة، ولم تكترث جانيت للأمر، وهكذا تناولت إيلا هاتفها المحمول، وصعدت

إلى الطابق العلوي. ما إن أغلقت باب غرفة النوم، حتى ألقت بنفسها على السرير، وأرسلت رسالة نصيّة إلى عزيز.

لا أستطيع أن أصدّق أنك هنا. سأكون في أونيكس بعد ساعتين.

أخذت تحدّق في هاتفها برعب متزايد وهي تراقب رسالتها تُرسل. ماذا تفعل؟ لكن لا يوجد المزيد من الوقت للتفكير، فإذا كانت ستندم هذا المساء، فقد تندم لاحقاً. يجب أن تسرع الآن. استغرق الأمر عشرين دقيقة حتى استحمت، وجفّفت شعرها، ونظّفت أسنانها، واختارت فستاناً، فارتدته ثم خلعته، ثم جرّبت فستاناً آخر، ثمّ آخر، ومشّطت شعرها، ووضعت قليلاً من المكياج، وبحثت عن أقراط صغيرة كانت جدتها روث قد أهدتها لها في عيد ميلادها الثامن عشر، وغيّرت فستانها ثانية.

أخذت نفَساً عميقاً، ووضعت قليلاً من عطر «إتيرنتي» من شركة كالفين كلاين. كانت القنينة موضوعة في علبتها منذ فترة طويلة في الحمّام. لم يكن ديفيد يحب العطر كثيراً، وكان يقول إنه يجب أن تتضوع من المرأة رائحة المرأة نفسها، لا روائح مثل الفانيلا أو أعواد القرفة. لكن إيلا قالت في نفسها قد يكون رأي الرجل الأوروبي مختلفاً في هذا الأمر، ثم تساءلت، أليس العطر شيئاً مهماً في أوروبا؟

عندما انتهت، تفحصت المرأة التي بدت لها في المرآة. لماذا لم يخبرها مسبقاً بأنه سيأتي؟ لو عرفت بذلك قبل فترة من الوقت، لذهبت إلى مصفّف للشعر، وشذّبت أظافرها وطلتها، وجمّلت وجهها، وربما كانت قد جربت تصفيفة شعر جديدة. ماذا لو لم

تعجب عزيز؟ ماذا لو لم يحدث بينهما انجذاب، وتندم لأنها قطعت كل تلك المسافة إلى بوسطن؟

وفجأة ثابت إلى رشدها. لماذا كانت تريد أن تغيّر من هيئتها؟ ما الفرق إن حدث انجذاب بينهما أم لا؟ فلا بد لأي مغامرة مع هذا الرجل أن تكون عابرة. فلديها أسرة، ولديها حياتها الخاصة. إن ماضيها هنا، وكذلك مستقبلها. انزعجت من نفسها لأنها بدأت تفكّر بهذه السيناريوات غير المحتملة، وأغلقت عقلها، الأمر الذي ثبت لها دائماً أنه أسهل شيء تفعله.

في الساعة الثامنة إلا ربعاً، قبّلت إيلا أطفالها وتمنّت لهم ليلة سعيدة، وغادرت البيت. لكنها لم تر ديفيد.

عندما توجهت إلى سيارتها، راحت تخشخش بيدها مفاتيح شقتهم في بوسطن. وفي حين كان عقلها لا يزال مشلولاً عن التفكير، كان قلبها يخفق بقوة وبسرعة.

الجزء الخامس

العدم
الأشياء الموجودة من خلال غيابها

سلطان ولد

قونية، تموز (يوليو) ١٢٤٦

عندما دخل أبي إلى غرفتي، كان يتنفّس بصعوبة ولم يكد يقوى على الوقوف على قدميه. كان يبدو مثل ظلّ ذلك الرجل الذي كنت أعرفه. رأيت انتفاخاً داكناً تحت عينيه، كما لو كان قد سهر طوال الليل، لكن أكثر ما فاجأني أن لحيته قد ازدادت بياضاً.

«ساعدني يا بني»، قال بصوت لا يشبه صوته.

هرعت نحوه وأمسكته من ذراعه، وقلت: «أيّ شيء تطلبه يا أبي، اطلب ما تريد».

لبث صامتاً لوهلة، كما لو كان مسحوقاً تحت ثقل ما سيقوله، ثم قال: «لقد ذهب شمس. لقد تركني».

للحظات قصيرة، اعتراني شعور بالاضطراب، وتملكني إحساس غريب بالارتياح، لكنّي لم أقل شيئاً. وبالرغم من حزني وصدمتي، خطر لي أن ذلك قد يكون خيراً أيضاً. ألن تصبح الحياة أسهل وأكثر هدوءاً واطمئناناً؟ فقد أصبح لأبي الكثير من الأعداء بسبب شمس. لشدّ ما كنت أريد أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل قدوم شمس.

هل يمكن أن يكون علاء الدين محقاً؟ ألم نكن جميعاً أفضل حالاً قبل مجيء شمس؟

«لا تنس كم يعني شمس لي»، قال أبي وكأنه قرأ أفكاري، «فأنا وهو واحد. للقمر الواحد جانبان، جانب منير وجانب مظلم. إن شمس هو جانبي المتلألئ».

هززت رأسي، وأحسست بالخجل. غاص قلبي في صدري. لم ينبس أبي بكلمة. لم أر في حياتي هذا القدر من المعاناة في عيني رجل. أحسست بلساني ثقيلاً في فمي. لم أستطع أن أفتح فمي لفترة من الوقت.

«أريدك أن تبحث عن شمس ـ هذا طبعاً إذا كان يريد أن يظهر ـ. أعده لي؛ قل له كم إن قلبي حزين عليه». وانخفض صوت أبي ليمسي همساً: «قل له إن غيابه يقتلني».

وعدته بأن أعيد له شمساً. أمسكني بيدي وضغطها بمودة وامتنان، فأشحت بعينيّ عنه، لأني لم أشأ أن يرى الارتباك في عينيّ.

* * *

أمضيت الأسبوع كله وأنا أجوب شوارع قونية، بأمل أن أقتفي خطوات شمس. كان جميع أهالي البلدة قد سمعوا بخبر اختفاء شمس، وكانت الأحاديث عن المكان الذي ذهب إليه تدور على كل لسان. رأيت رجلاً مجذوماً يحبّ شمساً كثيراً، ودلّني على العديد من الأشخاص البائسين والمنبوذين الذين كان الدرويش المتجول قد ساعدهم. لم أكن أعرف بوجود هذا العدد الكبير من الأشخاص الذين يحبّونه، لكنهم كانوا من تلك الفئة من الناس الذين لم أكن أراهم.

وذات مساء، عدت إلى البيت متعباً مشوشاً. أحضرت لي كيرا زبدية من الأرز بالحليب، المعطّر بماء الورد. جلست إلى جانبي وهي ترمقني وأنا آكل، وتبتسم ابتسامة تغلّفها هالة من الحزن، لاحظت كم كبرت هذه السنة.

سألتني: «سمعت أنك تريد أن تبحث عن شمس. أتعرف إلى أين ذهب؟».

«يقول البعض إنه ربما ذهب إلى دمشق؛ لكنني سمعت أشخاصاً يقولون أيضاً إنه ذهب إلى أصفهان أو إلى القاهرة، بل حتى إلى تبريز، مسقط رأسه. يجب أن نبحث في كلّ هذه المدن. سأذهب إلى دمشق، وسيذهب بعض مريدي أبي إلى المدن الثلاث الأخرى».

اكتسى وجه كيرا قسمات جادة، وهمهمت كأنها تفكّر بصوت مرتفع: «إن مولانا يكتب قصائد جميلة، فقد جعله غياب شمس شاعراً».

ثم أطرقت ونظرت إلى السجادة الفارسية. كان خدّاها نديين، وفمها المستدير مكوراً، وأطلقت تنهيدة، ثم راحت تتلو هذا المقطع:

«رأيت الملك بوجهه المفعم بالمجد
ذاك هو عين السماء وشمسها».

حلّ الآن شيء في الهواء لم يكن موجوداً منذ لحظة. فقد رأيت كيرا ممزقة في أعماقها، وعندما تنظر إلى وجهها، ترى شدّة ألمها وهي ترى زوجها يتألم، وكانت مستعدة لبذل كل ما بوسعها كي تعود الابتسامة إليه، لكنها ارتاحت أيضاً، بل كادت تشعر بالسعادة، لأنها تخلّصت أخيراً من شمس.

«ماذا لو لم أبحث عنه»، سمعت نفسي أسألها.

«عندها لا يوجد الكثير الذي يمكن فعله، وعندها يمكننا مواصلة حياتنا كما كانت من قبل»، قالت، وقد برقت عيناها بشيء من الأمل.

في تلك اللحظة، فهمت بجلاء وبلا ريب ما كانت تلمح إليه، وهو أنه يجب عليّ ألاّ أبحث عن شمس التبريزي، وألاّ أذهب إلى دمشق. كان بإمكاني أن أغادر قونية غداً، وأجوب المنطقة لفترة من الزمن، وأعثر على خان جميل على الطريق فأقيم فيه ثم أعود أدراجي بعد بضعة أسابيع، وأدّعي بأنني بحثت عن شمس في كل مكان. وبما أن أبي يثق بما أقوله، فإنه سينسى الأمر تماماً. ربما كان ذلك أفضل شيء، لا لكيرا وعلاء الدين اللذين كانا يرتابان في شمس فحسب، بل لطلاب أبي ومريديه، ولي أنا أيضاً.

قلت: «كيرا، ماذا أفعل؟».

رمقتني كيرا بنظرة تشي بالألم، ولم تنبس بكلمة. فقد كانت هذه المرأة التي اعتنقت الإسلام لكي تتزوج أبي، امرأة رائعة تجاهي وتجاه أخي، وكانت تحبّ زوجها كثيراً إلى حد أنها حفظت عن ظهر قلب القصائد التي كتبها لشخص غيرها؛ وفجأة نضبت كلماتها.

عليّ أن أجد الجواب بنفسي.

الرومي

قونية، آب (أغسطس) ١٢٤٦

أضحى العالم قاحلاً مجدباً، ولم تعد تشرق فيه شمس، منذ اللحظة التي غادر فيها شمس التبريزي. أمست المدينة مكاناً حزيناً، بارداً، وخوت روحي. ولم يعد يغمض لي جفن في الليل، ولم أعد أفعل شيئاً في النهار سوى التسكع في الشوارع. أنا هنا ولست هنا ـ شبح بين الناس. إني غاضب من الجميع. فكيف يستطيعون مواصلة حياتهم وكأن شيئاً لم يتغير؟ كيف يمكن أن تظل الحياة كما هي من دون شمس التبريزي؟

وفي كلّ يوم، أصبحت أجلس وحيداً في المكتبة منذ غروب الشمس حتى شروقها، لا أفكّر بشيء إلا بشمس. وأتذكّر ما قاله لي ذات يوم، بنبرة فيها بحة: «ذات يوم ستصبح صوت الحبّ».

لا أعرف شيئاً عن ذلك، لكني بدأت أجد الصمت ممضاً، والكلمات تمنحني مجالاً لاختراق الظلام في قلبي. ألم يكن هذا ما يريده شمس؟ أن يجعلني شاعراً.

إن الحياة تعني الكمال، فكلّ حادثة تقع، كبيرة كانت أم صغيرة،

وكلّ مشقّة نكابدها هي جانب من خطة إلهية تحدث حتى النهاية. إن المجاهدة متأصلة في نفوس البشر، لذلك يقول الله في كتابه العزيز ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ ولا مجال لشيء يسمى الصدفة في تدبير الله، لذلك لم تكن صدفة أن يعترض شمس التبريزي طريقي في ذلك اليوم من أيام تشرين الأول (أكتوبر) قبل نحو سنتين.

«لم آت إليك بسبب الريح»، قال شمس، ثمّ روى لي حكاية.

ذات يوم، كان هناك سيّد صوفي متبحّر في العلم إلى درجة أنه أُعطي نَفَسَ المسيح، ولم يكن لديه إلا مريد واحد، وكان سعيداً بما أُعطي. لكن كان لمريده رأي مختلف، إذ كان يريد أن يبدي آخرون إعجابهم بقدرات سيّده، فظلّ يلحّ عليه لقبول عدد أكبر من المريدين.

«حسناً»، قال السيد موافقاً، «إن كان هذا يسعدك، سأنفذ ما تطلبه».

في ذلك اليوم، توجها إلى السوق، وشاهدا في كشك قطعة حلوى مصنوعة على هيئة طير. وما إن نفخ فيها السيّد، حتى دبّت فيها الحياة وطارت مع الريح. وعلى الفور تحلّق حوله أهالي البلدة مبدين دهشتهم، وإعجابهم بما فعل. منذ ذلك اليوم، راح أهالي البلدة يمتدحون السيّد، وسرعان ما أصبح لديه الكثير من المريدين والمعجبين، فلم يعد تلميذه القديم يراه كثيراً.

«آه يا سيدي، كنت مخطئاً. فقد كانت الأمور أفضل بكثير في الماضي»، قال التلميذ يائساً، «افعل شيئاً. اطردهم، أرجوك».

«حسناً. إن كان ذلك يسعدك، فسأطردهم».

وفي اليوم التالي، بينما كان السيّد يلقي خطبته، ضرط فارتاع

تلاميذه؛ واستداروا، الواحد تلو الآخر، وانصرفوا عنه، ولم يبق إلا تلميذه القديم.

«لماذا لم تغادر مع الآخرين؟»، سأله السيّد.

فأجاب التلميذ: «لم آت لأدرس على يديك بسبب الضرطة الأولى، ولن أتركك بسبب الضرطة الأخيرة».

* * *

لقد فعل شمس كلّ ما فعله كي أصل إلى درجة الكمال، لكن أهالي البلدة لم يفهموا ذلك على الإطلاق. فقد تعمّد شمس أن يذكي نار الثرثرة، ويستثير الأعصاب الحسّاسة، ويتفوه بكلمات تبدو للأذن العادية كفراً محضاً، فتصدم الناس وتستفزهم، حتى الذين أحبّوه. فقد ألقى بكتبي في الماء، وأرغمني على نسيان كلّ ما كنت أعرفه. وسمع الجميع أنه كان ينتقد المشايخ والعلماء، ولم يكن يعرف سوى القليل منهم أنه رجل متبحر في علوم التفسير. وكان شمس متبحراً في الكيمياء والتنجيم والفلك واللاهوت والفلسفة والمنطق، لكنّه كان يخفي معرفته عن العيون الجاهلة، وعلى الرغم من أنه كان فقيهاً، فقد كان يتصرّف مثل درويش ناسك.

فقد شرّع أبواب بيتنا لمومس، وجعلها تشاركنا مائدتنا، وطلب مني الذهاب إلى الحانة وشجّعني على الاختلاط بالسكارى. وفي إحدى المرات، جعلني أتسوّل أمام المسجد عندما كنت خطيباً، وأرغمني على أن أحلّ مكان متسوّل مجذوم. في البداية أبعدني عن المعجبين بي، ثمّ عزلني عن النخبة الحاكمة، وجعلني أتواصل مع عامة الشعب. وبفضله تعرّفت على أشخاص ما كنت لألتقي بهم لولاه؛

وبسبب إيمانه بأنه يجب تحطيم جميع الأصنام التي تقف حائلاً بين العبد والله، بما في ذلك الشهرة والثروة والمقام، بل حتى الدين، فكّني شمس من جميع القيود التي كانت تقيدني بالحياة. وكان كلما رأى عائقاً فكرياً أو تحيزاً أو تعصباً، يتنكّب للأمر ويواجهه بحزم.

لقد كنت بحسب اعتقاده أمرّ بمرحلة التجربة والخطأ، وأمرّ بمراحل وحالات، يجعلني كلّ منها أبدو أشدّ اضطراباً وتشوشاً في عيون أتباعي المخلصين. فقد كان لديّ عدد كبير من المعجبين، لكني تخلصت الآن من الإحساس بالحاجة إلى وجود معجبين حولي. وشيئاً فشيئاً، حطّم شمس سمعتي، وبفضله تعلّمت قيمة الجنون، وذقت طعم الوحدة والعجز والافتراء والعزلة، وأخيراً الأسى.

ابتعد عن كل ما تراه مربحاً!

اجرع السمّ وأرق ماء الحياة!

اهجر الأمن وامكث في الأماكن المخيفة!

الق بالسمعة، وتعرّف على الخزي والحقارة!

ففي نهاية المطاف، ألا نُحاكم جميعاً؟ وفي كلّ يوم، وفي كلّ دقيقة تمرّ، يسألنا الله ماذا فعلنا في يومنا ذاك. وفي معظم الأحيان، لا نكون مستعدين للإجابة عن هذه الأسئلة، المخيفة. لكن الله صبور، ولا يني يكرر هذا السؤال.

وإذا كان هذا الحزن كذلك جزءاً من اختبار، فإن أمنيتي الوحيدة هي أن أعثر على شمس. وإني مستعد للتخلي عن كتبي وخطبي وعائلتي

وثروتي، وحتى عن اسمي. إنني مستعد للتخلي عن أيّ شيء، وعن كلّ شيء، مقابل رؤية وجهه مرة أخرى.

منذ أيام قليلة، قالت كيرا إني أصبحت شاعراً رغماً عني. فمع أنني لم أكن أحترم الشعراء كثيراً، لم أفاجأ بسماع ذلك. ولو كان ذلك قد حدث في الماضي، لاعترضت على ما قالته، لكنني لم اعترض الآن.

وبدأت تنثال من فمي أشعار، باستمرار وبتلقائية، أشعار لو سمعها أحد، لتبيّن أنني أصبحت شاعراً حقاً. سلطان اللغة! لكن في الحقيقة يمكنني القول إن هذه القصائد لا تمت لي بصلة. فأنا لست سوى وسيلة لنقل الحروف التي وضعت في فمي؛ ومثل القلم الذي يدوّن الكلمات لأنه يؤمر بكتابتها، أو الناي الذي يعزف من النوطة الموسيقية، فأنا أيضاً أفعل ما يتعين عليّ فعله.

شمس التبريزي الرائع، أين أنت؟

شمس

دمشق، نيسان (أبريل) ١٢٤٧

عندما اكتسى الربيع حلّة قشيبة في دمشق، وبعد أن مضت عشرة أشهر على مغادرتي قونية، وجدني سلطان ولد. كنت ألعب الشطرنج مع ناسك مسيحي يدعى فرانسيس، تحت سماء زرقاء صافية. لم يكن سريع الغضب، بل كان رجلاً يعرف معنى الاستسلام. ولمّا كان الإسلام يعني السلام الداخلي، والكلمة مشتقة من كلمة الاستسلام، فقد كان فرانسيس، في رأيي، مسلماً أكثر من الكثيرين ممن يدّعون الإسلام. إذ تقول إحدى القواعد الأربعين: *لا يعني الاستسلام أن يكون المرء ضعيفاً أو سلبياً، ولا يؤدي إلى الإيمان بالقضاء والقدر أو الاستسلام، بل على العكس تماماً. إذ تكمن القوة الحقيقية في الاستسلام ـ القوة المنبعثة من الداخل. فالذين يستسلمون للجوهر الإلهي في الحياة، يعيشون بطمأنينة وسلام حتى عندما يتعرض العالم برمته إلى اضطراب تلو الاضطراب.*

حرّكت حجر الوزير لأرغم فرانسيس على نقل حجر الملك؛ وبقرار سريع وشجاع، نقل حجر القلعة، فساورني الشكّ في أنني سأخسر هذه المباراة، عندما رفعت رأسي ورأيت عين سلطان ولد.

فقلت له: «تسعدني رؤيتك. هكذا إذاً قرّرت أن تبحث عني».

فابتسم لي ابتسامة حزينة، ثمّ تجهم وجهه، وفوجئ عندما سمع أنني أعرف ما يدور في داخله من صراع. ولماّ كان رجلاً صادقاً، لم ينكر الحقيقة.

«لقد أمضيت بعض الوقت في التسكع قبل أن أبحث عنك، لكن بعد فترة من الزمن، لم يعد بوسعي أن أفعل ذلك. لم أستطع أن أكذب على أبي، لذلك قدمت إلى دمشق بحثاً عنك، لكنني وجدت صعوبة في العثور عليك».

فقلت له: «إنك رجل صادق وولد صالح، وستكون رفيقاً عظيماً لأبيك».

هزّ سلطان ولد رأسه بحزن، وقال: «أنت الرفيق الوحيد الذي يحتاج والدي إلى رفقته، لذلك أريدك أن تعود معي إلى قونية. إن أبي بحاجة إليك».

عندما سمعت هذه الدعوة، دارت في خلدي أفكار شتى. في البدء، لم تكن أي فكرة من هذه الأفكار واضحة. لكن نفسي عافت فكرة العودة إلى مكان لم أعد مرغوباً فيه كثيراً.

لا تنصت إليه. فقد انتهت مهمتك. لا ينبغي لك أن تعود إلى قونية. تذكّر ما قاله لك بابا زمان. إنه كلام في غاية الخطورة، فلو عدت إلى تلك البلدة فلن تخرج منها ثانية.

أريد أن أتابع ترحالي في أرجاء المعمورة، وأن ألتقي بأناس آخرين وأرى مدناً جديدة. لقد أحببت دمشق، وبوسعي المكوث فيها حتى الشتاء القادم. فالانتقال إلى مكان جديد غالباً ما يدخل في روح المرء

إحساساً مخيفاً بالوحدة والحزن، لكن بما أن الله معي فإني أشعر بالرضا والسعادة في خلوتي.

لكني أعرف جيداً أن قلبي لا يزال في قونية، وأني اشتقت كثيراً إلى الرومي إلى حد أن مجرد النطق باسمه كان يؤلمني كثيراً. وفي نهاية المطاف، ماذا يهم في أي مدينة أمكث، ما دام الرومي ليس بجانبي؟ فحيثما يوجد، توجد قبلتي.

حرّكتُ بيدق الملك على رقعة الشطرنج. فتح فرانسيس عينيه على وسعيهما، عندما اكتشف خسارته. لكن في الشطرنج، كما في الحياة، توجد حركات تنفذها لتربح، وحركات تقوم بها لأنها الحركات التي يجب أن تقدم عليها.

«أرجوك تعال معي»، قال سلطان ولد متوسلاً، فقطع سلسلة أفكاري، وأضاف: «إن الذين نشروا الشائعات عنك، والذين أساؤوا إليك نادمون. وفي هذه المرة، سيكون الأمر أفضل، إني أعدك بذلك».

أردت أن أقول له يا بني، لا يمكنك أن تقدّم مثل هذه الوعود، فلا أحد يمكنه ذلك! لكني هززت رأسي وقلت: «أريد أن أشاهد الغروب في دمشق مرة أخرى. ويمكننا أن ننطلق صباح الغد إلى قونية».

«حقاً؟ شكراً»، قال سلطان ولد، وافترّت شفتاه عن ابتسامة تشي بالارتياح، «إنك لا تعرف مدى سعادة والدي بذلك».

ثمّ التفتُّ نحو فرانسيس الذي كان ينتظرني بفارغ الصبر لمواصلة اللعب؛ وعندما ركّزت اهتمامي، ارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة.

وقال بصوت يشي بالانتصار: «انتبه يا صديقي. كش ملك».

كيميا

قونية، أيار (مايو) ١٢٤٧

كانت في عينيه نظرة غامضة، وبُعد في سلوكه لم أرهما من قبل. وقد عاد شمس التبريزي إلى حياتي، وبدا أن تغيّراً كبيراً قد طرأ عليه. فقد أطال شعره وتهدل فوق عينيه، واسمرّت بشرته تحت شمس دمشق، وأصبح يبدو أكثر شباباً وجمالاً. لكن كان فيه شيء آخر تغيّر لم أتمكن من تحديده بدقة. فعلى الرغم من البريق والتهوّر اللذين يشعّان في عينيه السوداوين، فقد ازدادتا ألقاً وإشعاعاً، وعرفت أنه يمتلك عينيّ رجل رأى وخبر كلّ شيء.

لكنني أظن أنه طرأ تحول أعمق على الرومي. فقد خيّل إليّ أن حدّة قلقه ومخاوفه ستخفّ كثيراً بعد عودة شمس، لكن الأمر لم يكن كذلك. ففي يوم عودته، استقبله الرومي خارج أسوار البلدة بالزهور؛ لكن ما إن بدأت بهجة الأيام الأولى تهدأ قليلاً، حتى ازدادت حدة قلق الرومي، وازداد شروداً، ويخيّل إليّ أنني أعرف السبب. فبعد أن فقد شمس مرة، أصبح يخشى أن يفقده مرة أخرى، ويمكنني أن أفهم ذلك كما لا يستطيع أحد أن يفهم، لأنني أخشى أنا أيضاً أن أفقده.

كانت جوهر زوجة الرومي الراحلة هي الشخص الوحيد الذي أفضي إليها بمشاعري. حسناً، إنها ليست شخصاً فعلاً، لكنني لا أدعوها طيفاً أيضاً، لأنها امرأة حالمة وساهمة أقل من معظم الأطياف التي عرفتها، فهي تتحرّك بسهولة مثل مجرى ماء يتدفق ببطء حولي منذ أن قدمت إلى هذا البيت، ومع أننا كنا نتحدّث عن كلّ شيء، فقد بدأ الحديث بيننا يدور حول موضوع واحد وهو شمس.

قلت اليوم لجوهر: «إن الرومي يمرّ في حالة اكتئاب شديد. أرجو أن أتمكّن من مساعدته».

«لعل بوسعك ذلك، فهناك شيء مهم يشغل تفكيره هذه الأيام، لم يقله لأي شخص»، قالت جوهر بغموض.

فسألتها: «ما هو؟».

«يظن الرومي أن شمساً إذا تزوّج وأنشأ عائلة، فلن يكنّ له أهالي المدينة العداء، وسيخفّ حديثهم عنه، ولن يغادر ثانية».

خفق قلبي بقوة. شمس يتزوج! لكن ممن؟

رمقتني جوهر بنظرة جانبية، وقالت: «يتساءل الرومي هل ترغبين في الزواج من شمس».

ذهلت. فلم تكن هذه هي أول مرة تخطر لي فيها فكرة الزواج. أما الآن، وبعد أن بلغت الخامسة عشرة من عمري، عرفت أنني بلغت سن الزواج، مع أنني أعرف أيضاً أن الفتيات اللاتي يتزوّجن يتغيّرن إلى الأبد؛ إذ تغلف عيونهن نظرة جديدة، ويتخذن سلوكاً جديداً، ويبدأ الناس بمعاملتهن معاملة مختلفة. حتى الأطفال الصغار يصبح بإمكانهم معرفة الفرق بين المرأة المتزوجة والفتاة العزباء.

ابتسمت جوهر برقة، وأمسكت يدي. فقد لاحظت أن الزواج هو الذي يقلقني، عدم الزواج من شمس.

* * *

بعد ظهر اليوم التالي، ذهبت لرؤية الرومي فوجدته مستغرقاً في قراءة كتاب بعنوان «تهافت التهافت».

«أخبريني يا كيميا»، قال بمودّة، «ماذا بوسعي أن أفعل لك؟».

«عندما أحضرني أبي إليك، قلت له إن الفتاة لا تصلح للعلم كالفتى، لأن الفتاة مصيرها أن تتزوج وتنجب وتربّي أطفالها، إني أتذكر ذلك جيداً؟».

«طبعاً أتذكّر»، أجاب، وقد امتلأت عيناه البندقيتان بالفضول.

«في ذلك اليوم عاهدت نفسي على ألا أتزوّج أبداً، حتى أبقى تلميذتك إلى الأبد»، قلت، وقد خفت صوتي تحت وطأة ما كنت أزمع قوله لاحقاً: «لكن من الممكن أن أتزوّج وألاّ أغادر هذا البيت. أقصد، إذا تزوّجت بشخص يعيش هنا...».

فسألني الرومي: «هل تريدين القول إنك ترغبين بالزواج من علاء الدين؟».

«علاء الدين؟»، رددت بذهول، لكن ما الذي يجعله يظن أني أرغب في الزواج من علاء الدين؟ فأنا أعدّه أخاً لي.

لا بد أن الرومي كشف ذهولي، وقال: «منذ فترة جاء علاء الدين وطلب يدك مني».

فغرت فمي، فقد كنت أعرف أنه لا يليق بالفتاة أن تطرح أسئلة كثيرة عن هذه الأمور، لكنني كنت أتوق إلى معرفة المزيد، «وماذا قلت له يا سيدي؟».

فقال الرومي: «قلت له إنني يجب أن أسألك أولاً».

«سيدي...»، قلت، وقد انخفض صوتي كثيراً، «لقد جئت الآن لأخبرك بأني أرغب في الزواج من شمس التبريزي».

رمقني الرومي بنظرة تشي بعدم التصديق، وقال: «هل أنت متأكّدة من ذلك؟».

فقلت: «قد يكون ذلك جيداً من نواحٍ عدة»، وعلى الرغم من رغبتي في معرفة المزيد، فقد شعرت أنني قلت الكثير، وأضفت: «سيكون شمس جزءاً من عائلتنا، ويجب ألا يغادرنا مرة أخرى».

«إذاً لماذا ترغبين في الزواج منه؟ حتى تساعديه في أن يبقى معنا؟»، سألني الرومي.

فقلت: «لا، أقصد نعم، لكن هذا ليس كلّ شيء... أظن أن شمس هو قدري».

كان هذا أكثر ما أمكنني الاعتراف به بأنني أحبّ شمس التبريزي.

* * *

كانت كيرا أول من سمع عن الزواج، وبصمت مفعم بالذهول استقبلت النبأ بابتسامة مكسورة، لكن ما إن أصبحنا وحدنا في البيت، حتى بدأت تطرح عليّ أسئلة، فقالت: «هل أنتِ متأكّدة من أن هذا هو حقاً ما تريدينه؟ إنك لا تفعلين ذلك لمساعدة الرومي، أليس كذلك؟ إنك فتاة شابة! ألا تظنين أنك يجب أن تتزوّجي شخصاً يكون قريباً من عمرك؟».

فقلت لها: «إن شمساً يقول إن جميع الحدود تختلط في الحب».

أطلقت كيرا تنهيدة عالية، وقالت: «يا طفلتي، آمل أن تكون الأمور

بهذه البساطة»، ودسّت خصلة من شعرها الرمادي داخل وشاحها، وأضافت: «إن شمساً درويش متجوّل، رجل جموح، والرجال أمثاله غير معتادين على الحياة البيتية، ولا يصبحون أزواجاً جيدين».

«لا بأس، قد يتغيّر»، قلت بحزم، «سأمنحه الكثير من الحبّ وأجعله سعيداً، لذلك يجب أن يتغيّر. سيتعلّم كيف يمكن أن يكون زوجاً صالحاً وأباً صالحاً».

هنا انتهى حديثنا، ومهما كان الشيء الذي قرأته كيرا في وجهي، فلم تعد لديها أي اعتراضات يمكن أن تثيرها.

في تلك الليلة، نمت نوماً هادئاً، واعتراني شعور بالبهجة والتصميم. لم أكن أعرف أنني كنت أرتكب الأخطاء التي ترتكبها النساء عادة على امتداد العصور: الاعتقاد بسذاجة بأنهن يستطعن، بحبّهن، تغيير الرجال الذين يحبّونهم.

كيرا

قونية، أيار (مايو) ١٢٤٧

إن مناقشة موضوع عميق وشديد الحساسية كالحبّ أشبه بمحاولة الإمساك بريح عاصفة. فقد يصيبك الأذى الذي تسببه الريح، لكن ما من وسيلة إلى التخفيف من سرعتها. بعد فترة من الزمن، لم أسأل كيميا المزيد من الأسئلة، لا لأني اقتنعت بردودها، بل لأني رأيت في عينيها امرأة عاشقة. فلم أعد أسألها عن هذا الزواج، وتقبلت الأمر باعتباره من الأمور الغريبة في الحياة التي لا أملك سلطاناً عليها.

مرّ شهر رمضان بسرعة، ولمّا كنت منهمكة في العمل لم يكن لديّ وقت لأفكّر بهذا الأمر ثانية؛ وحلّ عيد الفطر يوم الأحد، وبعد أربعة أيام، عقدنا قران كيميا على شمس.

في الليلة التي سبقت الزفاف، حدث شيء غيّر مزاجي كله. فقد كنت وحدي في المطبخ، أجلس أمام لوح من الخشب المكسو بالطحين وشوبك، أعدّ خبزاً مرقوقاً للضيوف. وفجأة، ومن دون أن أفكّر بما أفعله، بدأت أشكّل صورة لأمّنا مريم من كرة العجين. أمّي مريم. وشكّلت بالسكين عباءتها الطويلة، ووجهها الهادئ الرحيم. وبما أنني كنت مستغرقة في ذلك، لم ألحظ أحداً يقف خلفي.

«ما الذي تفعلينه يا كيرا؟».

قفز قلبي داخل صدري. فعندما التفتُّ رأيتُ شمساً يقف بجانب الباب، ينظر إليّ بعينين فضوليتين. خطر لي أن أخفي العجينة، لكن الأوان كان قد فات. اقترب شمس من الصينية، ونظر إلى الشكل الذي صنعته.

سألني: «هل هذه مريم؟»، وعندما لم أجب، التفت نحوي بوجه مشرق باسم، وقال: «إنها جميلة. هل تشتاقين إلى مريم؟».

«لقد أسلمت منذ زمن بعيد. فأنا امرأة مسلمة»، أجبته باقتضاب.

لكن شمساً تابع كلامه كأنه لم يسمعني، فقال: «لعلك تتساءلين لماذا لا يوجد في الإسلام رمز أنثوي مثل مريم. بالتأكيد توجد لدينا عائشة، وبالتأكيد هناك فاطمة، لكنك ربما تظنين أن الأمر مختلف».

شعرت بالارتباك، ولم أعرف ما أقول.

«هل لي أن أحكي لك قصّة؟»، سألني شمس.

وهذا ما حكاه لي:

ذات مرة كان يوجد أربعة مسافرين، يوناني وعربي وفارسي وتركي. وعندما وصلوا إلى بلدة صغيرة، قرّروا تناول شيء. ولمّا لم يكن لديهم الكثير من النقود، لم يكن لديهم سوى خيار واحد. فقد قال كلّ واحد منهم إن طعامه هو أفضل طعام في العالم، وأنه يريد تناوله. وعندما سُئلوا عنه، أجاب الفارسي: «أنغور»، وقال اليوناني: «ستافاليون»، وقال العربي: «عنب»، وقال التركي: «أوزوم». ولم يتمكن أحد منهم من فهم لغة الآخر، فأخذوا يتجادلون.

ظلوا يتشاجرون، وبدأ شعورهم بالاستياء والمرارة يزداد مع مرور

كلّ دقيقة، حتى مرّ بهم صوفي وقاطعهم. وبالمبلغ الذي جمعوه، اشترى الصوفي عنقود عنب، ثمّ وضع حبات العنب في وعاء وعصره، وطلب منهم أن يشربوا العصير وأن يلقوا القشر جانباً، لأن جلّ اهتمامهم يجب أن يكمن في لب الثمرة، لا في قشرتها.

«فالمسيحيون واليهود والمسلمون يشبهون هؤلاء المسافرين. فبينما يتشاجرون حول الشكل الخارجي، فإن الصوفي يبحث عن الجوهر»، قال شمس، وابتسم ابتسامة تشي بالحماسة.

«ما أريد قوله هو أنه لا يوجد سبب يجعلك تشتاقين إلى الأمّ مريم، لأنك يجب ألاّ تتخلي عنها في المقام الأول، ومع أنك امرأة مسلمة، فبإمكانك أن تظلي مرتبطة بها».

«لا... لا أظن أن هذا الأمر لائق»، تلعثمت قائلة.

«لم لا، فالأديان كالأنهار: تصبّ جميعها في البحر نفسه. إذ ترمز الأمّ مريم إلى الشفقة والرحمة والحبّ غير المشروط. إنها رمز للجميع. وكامرأة مسلمة، فإنك تستطيعين الاستمرار في حبّها، بل حتى يمكنك تسمية ابنتك باسم مريم».

فقلت: «لا توجد لديّ ابنة».

«ستكون لديك ابنة».

«أتظن ذلك؟».

«إني أعرف ذلك».

شعرت بالإثارة عندما سمعت هذه الكلمات، لكن سرعان ما تلاشت الإثارة وحلّ محلها شعور آخر: التضامن. فقد عشنا معًا لحظة غير عادية من الصفاء والانسجام، ونظرنا معاً إلى هيئة الأمّ

مريم. رقّ قلبي لشمس، وللمرة الأولى منذ قدومه إلى بيتنا، رأيت ما يراه فيه الرومي: رجل ذو قلب كبير.

لكنني لا زلت أشكّ في أنه سيكون زوجاً صالحاً لكيميا.

إيلا

بوسطن، ٢٩ حزيران (يونيو) ٢٠٠٨

عندما وصلت إيلا إلى الفندق، كان يعتريها توتر شديد، ولم يكن عقلها صافياً. وفي بهو الفندق، كانت توجد مجموعة من السيّاح اليابانيين الذين كانوا جميعاً في السبعينات من أعمارهم، وتتشابه قَصَّةُ شعرهم حتى تكاد أن تكون واحدة. اجتازت إيلا البهو، وجالت بعينيها على اللوحات المعلقة على الجدران لكي لا تنظر في عيون الناس من حولها. لكن سرعان ما تغلّب فضولها على خجلها، فما إن توجهت نظرتها نحو قاعة الاجتماعات، حتى رأته ينظر إليها.

كان يرتدي قميصاً كاكي اللون وبنطالاً قصيراً داكناً، وبدا لها أنه لم يحلق ذقنه منذ يومين، مما جعله جذّاباً، وقد تهدل شعره الكستنائي المجعّد فوق عينيه الخضراوين، فمنحه قدراً من الثقة والمكر في الآن ذاته. كان نحيلاً وطويلاً، خفيفاً ورقيقاً؛ كان مختلفاً تماماً عن ديفيد الذي يرتدي عادة بدلات غالية الثمن تُفصَّل له خصيصاً. كان يتكلّم بلكنة اسكتلندية رأت فيها سحراً، ويبتسم برقة وسهولة، وبدا سعيداً لرؤيتها. قالت إيلا لنفسها ما الضير في احتساء فنجان قهوة معه.

ثم لم تعد تتذكّر كيف أصبح فنجان القهوة عدة فناجين، أو كيف بدأ الحديث بينهما يكتسب نبرة حميمية، أو كيف أنه، في لحظة ما، طبع قبلة على طرف إصبعها، ولم تعرف لماذا لم تفعل شيئاً لتوقفه عن عمل ذلك. لم تعد تبالي بشيء ما دام يتكلم هو، وما دامت عيناها تستطيعان أن تركزا على الغمازة الصغيرة القابعة في طرف فمه، وتساءلت كيف سيكون شعورها إذا قبّلته فوق تلك الغمازة. كانت الساعة العاشرة والنصف ليلاً. وكانت في فندق برفقة رجل لا تعرف عنه شيئاً، لا تجمعهما إلا بعض الرسائل الإلكترونية والمكالمات الهاتفية المتبادلة، بالإضافة إلى الرواية التي كتبها.

سألته إيلا: «إذاً أتيت إلى هنا من أجل مجلة سميثونيان؟».

فأجاب عزيز، «في الحقيقة، لقد أتيت كرمى لك. فبعد أن قرأت رسالتك، أردت أن آتي لرؤيتك».

كانت هناك سبل عدة ممكنة للخروج من هذا الطريق السريع الذي يتحرك بسرعة. فحتى لحظة معيّنة، كان من الممكن الادّعاء بأن كلّ شيء يسير على نحو ودّي، الرسائل الإلكترونية، المكالمات الهاتفية، بل حتى النظرات. لعل روحاً من الغزل والمرح كانت تتملكها، لكن لا شيء أكثر من ذلك. كان بوسعها أن تضع حداً، حتى سألها: «إيلا، هل تريدين أن تأتي إلى غرفتي؟».

إن كانت تلك لعبة يلعبانها كلاهما، فسرعان ما تحولت إلى أمر جدّي. فقد جعل سؤاله هذا كلّ شيء يبدو حقيقياً، كأن ستارة قد أزيحت، وظهرت الحقيقة، الحقيقة الناصعة، وأخذت تنظر إليهما الآن في عينيهما مباشرة. أحست إيلا بشيء يتحرك في معدتها،

إحساس بضيق شديد يشبه الرعب، لكنها لم ترفضه. كان هذا القرار من أشدّ القرارات التي اتخذتها في حياتها تهوراً، ومع ذلك، فقد أحسّت كأن القرار قد اتّخذ بالنيابة عنها، وكان كلّ ما عليها هو أن تقبله.

* * *

كانت الغرفة ٦٠٨ مزدانة بصورة جميلة ملوّة بالأسود والأحمر والرمادي والبيج. كانت دافئة وواسعة. حاولت إيلا أن تستعيد إلى ذاكرتها آخر مرة مكثت فيها في فندق، فتذكرت الرحلة التي قامت بها مع زوجها وأطفالها إلى مونتريال منذ فترة طويلة. ثم أمضوا العطلة في بيتهم في رود آيلاند، لأنها لم تكن ترى سبباً للبقاء في مكان يقوم آخرون فيه بتغيير المناشف وتقديم الفطور الجاهز يومياً. إذ إن وجودها في غرفة فندق يشبه وجودها في بلد آخر، وربما كان الأمر كذلك. وبدأت تشعر بالحرية التي يستمتع بها المرء عندما يحلّ بمدينة يكون فيها غريباً تماماً.

ما إن دخلت الغرفة، حتى اعتراها ثانية الشعور بالتوتر. فعلى الرغم من ديكور الغرفة الجميل واتساعها، والسرير الواسع القابع في وسط الغرفة، فإن وقوفها بجانب السرير جعلها تشعر بشيء من الحرج والذنب. احتدمت في داخلها أسئلة كثيرة، لكنها لم تتوصل إلى جواب شاف. هل سيمارسان الجنس الآن؟ هل ينبغي لهما أن يفعلا ذلك؟ وإذا فعلا ذلك، فكيف يمكنها أن تنظر في عيني زوجها بعدئذ؟ لكن ديفيد لم يكن يجد صعوبة في النظر في عينيها على الرغم من علاقاته الغرامية المتعددة، أليس كذلك؟ وماذا سيكون رأي عزيز

بجسمها؟ ماذا لو لم يعجبه؟ ألا ينبغي لها أن تفكر بأطفالها الآن؟ هل هم نائمون أم مستيقظون يشاهدون التلفزيون في هذه الساعة؟ وإذا علموا بما ستفعله، فهل سيغفرون لها؟

أحسّ عزيز بقلقها، فأمسك يدها وقادها نحو كرسي عريض ذي مسند يقبع في الزاوية، بعيداً عن السرير.

وهمس قائلاً: «اصمتي. إن عقلك يعجّ بالأفكار. وتتعالى فيه أصوات كثيرة».

«ليتنا التقينا منذ فترة مبكرة»، سمعت إيلا نفسها تقول.

فقال عزيز: «ليس في الحياة شيء يدعى فترة مبكرة أو متأخرة، فكلّ شيء يحدث في حينه».

«هل تظن ذلك حقاً؟».

ابتسم عزيز وأبعد خصلة من شعره عن عينيه، ثمّ فتح حقيبة وأخرج منها البساط الذي اشتراه من غواتيمالا وعلبة صغيرة فيها قلادة فضية مرصّعة بخرز الفيروز والمرجان الأحمر نقشت عليها صورة درويش يدور حول نفسه.

تركته إيلا يضع القلادة حول رقبتها، وأحست بدفء يسري في البقعة التي لمستها أصابعه، وسألته: «هل أبدو كما كنت تتوقع؟».

«لقد أحببتك»، قال عزيز مبتسماً.

«لكنك لا تعرفني بعد».

«ليس من الضروري أن أعرف حتى أحبّ».

تنهّدت إيلا وقالت: «هذا جنون».

مدّ عزيز يده وأزال الدبّوس الذي يمسك شعرها في شكل كعكة،

فانفلت مفترشاً كتفيها. ثمّ قادها برفق نحو السرير. وببطء، وبرقة، راح يحرك راحتيَ يديه في دوائر متواصلة ومتتابعة، من قدميها حتى كاحليها، ومن جبينها حتى بطنها، ولم تتوقف شفتاه عن الهمس بكلمات بدت لإيلا مثل شيفرة قديمة سرية. فجأة فهمت ما يفعله. فقد كان يبتهل ويداه تجوسان كلّ بقعة من جسمها، وظلت عيناه مغمضتين، وشفتاه تدمدمان بصلوات من أجلها. كانت تلك أعظم تجربة روحية خبرتها في حياتها. وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال ترتدي ثيابها، وهو كذلك، وعلى الرغم من أنه لم يكن بينهما أي شيء جسدي، فقد غمرتها أشدّ المشاعر جنسية في حياتها.

وفجأة بدأت تشعر بوخز خفيف يسري في راحتيها وكتفيها، ثم أخذت تسري في كامل جسدها ويبعث فيه طاقة غريبة. اعترتها رغبة لذيذة فشعرت بأنها تعوم فوق مياه متموّجة دافئة وكان كلّ ما بوسعها فعله هو الاستسلام والابتسام، وأحسّت بوجود شيء حيّ حوله، ثمّ حولها، كأن رذاذاً من النور قد انهمر عليهما وغمرهما.

أغمضت إيلا عينيها أيضاً، وتركت نفسها تنجرف مع تيار نهر هائج من دون أن تتمسّك بشيء. فقد يكون هناك شلال في النهاية، لكنها حتى لو تمكنت من أن تتوقّف، فلم تكن واثقة من أنها كانت تريد ذلك حقاً.

شعرت إيلا بلهيب يستعر بين ساقيها عندما وصلت يداه إلى بطنها وراح يرسم فوقها دائرة. أحسّت بعدم الأمان إزاء جسدها، ردفاها وفخذاها وثدياها، الذي فقد جماله وجاذبيته بعد إنجاب ثلاثة أطفال، وبعد مرور كلّ هذه السنوات، لكن إحساسها بالقلق هذا، كان يخفت

ويشتد. غمرها شعور بالبهجة، شعور بأنها محمية، ثم انجرفت إلى حالة من النعيم. عندها أدركت أنها قد تحبّ هذا الرجل، قد تغرم به.

بهذا الإحساس طوقت عزيز بذراعيها، وشدّته نحوها، وأحسّت بأنها على استعداد للمضي أبعد من ذلك. لكنه فتح عينيه، وقبّلها على أرنبة أنفها، وابتعد عنها.

«إنك لا ترغب بي؟»، سألته إيلا، مندهشة لهشاشة صوتها.

«لا أريد أن أفعل شيئاً يجعلك حزينة في ما بعد».

كان نصف جسدها حزيناً، والنصف الآخر مبتهجاً. غمرها إحساس غريب بالخفّة. كانت شديدة الاضطراب، لكن لمفاجأتها، أحست بالارتياح.

في الساعة الواحدة والنصف صباحاً، فتحت إيلا باب شقّتها في بوسطن. استلقت على الأريكة الجلدية، غير راغبة في النوم في السرير. لا لأنها تعرف أن زوجها كان ينام فيه مع نساء أخريات، بل لأنها شعرت بأن من الأفضل لها أن تفعل ذلك، كأن هذا البيت لم يعد يخصها ولم يعد أكثر من غرفة في فندق، كما لو كانت زائرة هنا، في حين أن نفسها الحقيقية كانت تنتظر في مكان آخر.

شمس

قونية، أيار (مايو) ١٢٤٧

لا تبكي يا عروستي الجميلة،

ودّعي أمّك، ودّعي أباك

ستسمعين الطيور تغرّد غداً

مع أنها لن تكون هي نفسها....

في ليلة زفافنا، انسللت وخرجت إلى الفناء، وجلست هناك قليلاً، أستمع إلى أغنية أناضولية قديمة تنبعث من البيت وسط أصوات أخرى، أصوات ضحكات وموسيقى وثرثرة. كانت العازفات تعزفن في قسم الحرملك. وقفت هناك أفكّر وأنشد، وسرى في جسدي خدر. تمعّنت في كلمات الأغنية. لماذا تغني النساء دائماً أغاني حزينة في ليلة الزفاف؟ إذ يربط الصوفيون الموت بحفلات الزفاف، ويحتفلون باليوم الذي يموتون فيه، ويعتبرون أنه اليوم الذي يتّحدون فيه مع الله. كما تربط النساء الزفاف بالموت، لكن لأسباب مختلفة تماماً. فحتى عندما يكن سعيدات بعقد قرانهن، تنتابهن مسحة من الحزن. ففي كلّ حفلة زفاف، يسود حزن على العذراء التي سرعان ما ستصبح قريباً زوجة وأمّاً.

بعد أن غادر جميع المدعوين، عدت إلى البيت وجلست في ركن هادئ وبدأت أتأمّل، ثمّ توجهت إلى الغرفة حيث تنتظرني كيميا. كانت جالسة على السرير، مرتدية عباءة بيضاء موشّاة بخيوط ذهبية، وكان شعرها مضفوراً في ضفائر عدة، زيّنت كلاً منها بعدد من الخرزات. لم أتمكن من رؤية قسمات وجهها لأنه كان مغطى بنسيج حريري أحمر سميك. كانت تنتصب شمعة بجانب النافذة، تضيء الغرفة. وكانت تغطي المرآة المعلقة على الحائط بقماش مخملي، لأن ثمة اعتقاداً يقول إن رؤية العروس الشابة صورتها المنعكسة في المرآة فأل سيئ. وبجانب سريرنا، كانت هناك رمانة وسكين، لكي نأكل الرمانة ونجلب أطفالاً بعدد الحبات فيها.

كانت كيرا قد حدثتني عن جميع التقاليد المحليّة، وذكّرتني بأن أقدم للعروس قلادة من قطع نقدية ذهبية عندما أرفع حجابها، لكني لم أملك في حياتي نقوداً ذهبية، ولم أشأ أن أحيّي عروسي بتقديم نقود ذهبية أستدينها من شخص آخر. لذلك عندما رفعتُ الحجاب عن وجه كيميا، كان كلّ ما فعلته هو أني قدمتُ لها مشطاً مصنوعاً من قوقعة سلحفاة، وطبعت قبلة صغيرة على شفتيها. افترّت شفتاها عن ابتسامة، ولثانية اعتراني شعور بالخجل مثل فتى صغير ضائع.

قلت لها: «إنك جميلة».

تضرّج وجهها خجلاً، ثمّ أرخت كتفيها، وبذلت ما بوسعها لتبدو أكثر هدوءاً ونضجاً.

«قالت: أنا زوجتك الآن».

ثمّ أشارت نحو السجادة الجميلة المدودة على الأرض، التي صنعتها

بدقة شديدة كجزء من مهرها. ألوان براقة، تتفاوت في شدتها. ما إن رأيتها حتى عرفت أنّ كلّ شكل ورسم في السجادة يمثّلني. كانت كيميا تنسج أحلامها.

قبّلتها ثانية. دفء شفتيها بعث موجات من الرغبة في أنحاء جسمي، وتضوّعت منها رائحة ياسمين وأزهار برية. وعندما تمددت إلى جانبها، تنشّقت رائحتها، ولمست ثدييها الصغيرين الصلبين. كان كلّ ما أريد فعله هو أن ألجها. وقدمت لي نفسها مثل برعم وردة تتفتح لاستقبال حبات المطر.

انسللت مبتعداً عنها، وقلت: «أنا آسف يا كيميا. لا أستطيع فعل ذلك».

نظرت إليّ، بهدوء وذهول، وبدت كأنها نسيت أن تتنفّس. كان الإحباط البادي في عينيها شديداً إلى حد أني لم أتمكن من تحمّله. وثبت واقفاً، وقلت: «يجب أن أذهب».

«لا يمكنك أن تذهب الآن»، قالت كيميا بصوت بدا غريباً عليها، «ماذا سيقول الناس إن غادرت الغرفة الآن؟ سيعرفون أن هذا الزواج لم يكتمل، وسيخيّل إليهم أنني أنا السبب».

«ماذا تقصدين؟»، همهمت، لأنني أعرف ما تقصده.

أشاحت ببصرها، ودمدمت شيئاً لم أفهمه، ثم قالت بهدوء: «سيظنون أني لست عذراء، وسأمضي حياتي في الخزي والعار».

إن فكرة فرض المجتمع هذه القواعد السخيفة على أبنائه جعلت دمي يغلي، إذ لا تتماشى قواعد الشرف التي فرضها الله مع القواعد التي فرضها البشر على أنفسهم.

«هذا هراء. يجب أن يهتم الناس بشؤونهم»، قلت معترضاً، لكنني كنت أعرف أن كيميا على حقّ.

وبحركة سريعة، أمسكت السكين الملقاة بجانب الرمانة. رأيت مسحة من الرعب على وجه كيميا، ثم حلّت محلها، شيئاً فشيئاً، تعابير شخص أدرك وجود أمر حزين وتقبله؛ وبلا تردد جرحت راحة يدي اليسرى، فسقطت قطرات من دمي على ملاءة السرير، وخلّفت بقعاً قرمزية داكنة.

«أريهم هذه الملاءة ـ فإنها ستغلق أفواههم، وسيظل اسمك نقياً نظيفاً، كما هو في الحقيقة».

«انتظر أرجوك، ! لا تذهب أرجوك»، قالت كيميا متوسلة. نهضت، ولم تعرف ما الخطوة التالية التي ستفعلها، وكرّرت قائلة: «لقد أصبحت زوجتك الآن».

في تلك اللحظة أدركت الخطأ الفظيع الذي ارتكبته بزواجي منها. وعصف ألم شديد في رأسي، فخرجت من الغرفة إلى عتمة الليل. لم يكن يتعين على رجل مثلي أن يتزوج، فأنا لم أخلق لأعيش حياة مستقرة. كنت أرى ذلك بوضوح شديد، لكن ما أحزنني كثيراً هو ثمن هذه المعرفة.

اعترتني رغبة شديدة في الهرب من كلّ شيء. لا من هذا البيت، ولا من هذا الزواج، ولا من هذه البلدة فقط، بل من هذا الجسد الذي مُنحت إياه أيضاً. لكن رؤية الرومي في صباح اليوم التالي جعلتني أبقى لأنه لم يكن بإمكاني أن أهجره مرة أخرى.

لقد وقعت في شباك المصيدة.

علاء الدين

قونية، أيار(مايو) ١٢٤٧

بعد أن اضطررت لاتخاذ قرار كنت أعرف أنني سأندم عليه أشد الندم، لبثت صامتاً، ولم أعترض على هذا الزواج علناً. لكن في يوم عقد قران كيميا على شمس، استيقظت وقد ألمّ برأسي وجع لم أعهده من قبل. فاستويت جالساً في السرير ورحت أتنفس بصعوبة مثل رجل يغرق، ولطمت خدي لانغماسي في رثاء ذاتي. وتسللت تنهيدة مخنوقة من بين شفتيّ. كان ذلك الصوت هو الذي جعلني أدرك أنني لم أعد ابن أبي.

فليس لي أمّ، ولا أب، ولا أخ، ولا حتى كيميا. أصبحت وحيداً في هذا العالم؛ وبين ليلة وضحاها، تلاشى كلّ ما تبقى من احترام كنت أكنّه لأبي. فقد كانت كيميا في مقام ابنته، وكنت أخال أنه كان يحيطها بعنايته ويغمرها باهتمامه، لكن يبدو أن الشخص الوحيد الذي كان يغمرها باهتمامه حقاً هو شمس التبريزي. فكيف يقبل أن يزوّج كينيا من رجل مثله؟ لأن أي شخص يستطيع أن يرى أن شمساً لا يصلح للزواج. وكلما فكّرت في الأمر، تبيّن لي أن أبي ضحّى بسعادة كيميا ـ ومعها بسعادتي، حتى يجعل شمس يشعر بالأمان.

أمضيت طوال اليوم وأنا أصارع هذه الأفكار مرغماً على رؤية التحضيرات الجارية أمامي. فقد نُظِّف البيت وأصبح براقاً، وغُسلت غرفة النوم التي سينام فيها العروسان بماء الورد لطرد الأرواح الشريرة. لكنهم نسوا الشيطان الأكبر! فكيف سيتمكّنون من طرد شمس؟

بعد الظهر، لم أعد أقوى على احتمال ذلك، فقرّرت ألاّ أكون جزءاً من هذا الاحتفال الذي يعني عذاباً حقيقياً لي، فتوجّهت نحو الباب.

«علاء الدين، انتظر! إلى أين أنت ذاهب؟»، لاحقني صوت أخي من خلفي، عالياً وحاداً.

«سأمكث في بيت إرشاد هذه الليلة»، قلت مشيحاً بوجهي عنه.

«هل جننت؟ ألن تمكث لحضور حفل الزفاف؟ لو سمع أبوك ذلك لتحطم قلبه».

أحسست بغضب شديد يندلع من معدتي، وقلت: «وماذا عن القلوب التي يحطّمها؟».

«عمَّ تتحدّث؟».

«ألم تعرف؟ فقد رتّب أبونا هذا الزواج لإرضاء شمس لكي لا يهرب ثانية! فقد قدم له كيميا على طبق من فضة».

زمّ أخي شفتيه، وبدا أن ذلك قد جرح مشاعره، وقال: «أعرف بماذا تفكر، لكنك مخطئ. إنك تظن أن هذا الزواج قد تم بالإكراه، بينما الحقيقة هي أن كيميا هي التي كانت تريد الزواج من شمس».

«وكأن الأمر في يدها»، قلت غاضباً.

«يا إلهي! ألا تفهم؟» صاح أخي، ورفع راحتيه إلى السماء كما لو كان يطلب مساعدة من الله، ثم قال: «إنها تحبّ شمس».

«لا تقل ذلك مرة أخرى. لأن هذا غير صحيح»، تكسّر صوتي مثل ثلج يذوب.

فقال سلطان ولد: «يا أخي، أرجوك لا تدع مشاعرك تعميك عن رؤية الواقع. إنك تغار منه، لكن حتى الغيرة يمكننا استغلالها بطريقة بناءة وبخدمة هدف سام. وقد يكون عدم التصديق إيجابياً أحياناً، وهذه إحدى القواعد، وهي القاعدة الخامسة والثلاثون: *في هذا العالم، ليست الأشياء المتشابهة أو المنتظمة، بل المتناقضات الصارخة، هي ما يجعلنا نتقدم خطوة إلى الأمام. ففي داخل كل منا توجد جميع المتناقضات في الكون، لذلك يجب على المؤمن أن يلتقي بالكافر القابع في داخله؛ وعلى الشخص الكافر أن يتعرف على المؤمن الصامت في داخله. وإلى أن نصل إلى اليوم الذي يبلغ فيه المرء مرحلة الكمال، مرحلة الإنسان المثالي، فإن الإيمان ليس إلا عملية تدريجية، ويستلزم وجود نظيره: الكفر.*

كانت هذه بمثابة القشّة الأخيرة بالنسبة لي.

«انظر، لقد سئمت من هذا الكلام الصوفي المعسول. بالإضافة إلى ذلك، ما الذي يجعلني أنصت إليك؟ إنه خطأك! كان عليك أن تترك شمس في دمشق. لماذا أحضرته؟ فإذا ساءت الأمور، وإني واثق من أنها ستزداد سوءاً، فستكون أنت المسؤول».

أطلق أخي زفرة، ورماني بنظرة تقارب الخوف. في تلك اللحظة أدركت للمرة الأولى في حياتنا، أنه يخشاني، ويخشى الأشياء التي أقدر على القيام بها. كان شعوراً غريباً، لكنه مريح على نحو غريب.

سرت صوب بيت إرشاد، وسلكت أزقة فرعية تفوح منها روائح

كريهة حتى لا يراني أحد وأنا أبكي. وكان الشيء الوحيد الذي يدور في خلدي هو أن شمساً وكيميا نائمان في سرير واحد. وأثارت الفكرة بأنه ينزع عنها فستان الزفاف، ويلمس بشرتها الحليبية بيديه الفظتين القبيحتين، اشمئزازي. وانقبضت معدتي.

كنت أعرف أن خطأ قد تم تجاوزه، وعلى أحدهم أن يفعل شيئاً.

كيميا

قونية، كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٧

العروس والعريس ـ كان يفترض بنا أن نكون عروسين. لقد مضى على زواجنا نحو سبعة أشهر، لم ينم فيها معي كزوج ولا مرة واحدة. وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته لإخفاء الحقيقة عن الآخرين، كنت أظن أنهم يعرفون ذلك. وكنت أخشى أحياناً أن يكون إحساسي بالخجل بادياً على وجهي، كما لو كان مكتوباً على جبيني، لأنه لا بد أنه أول شيء يلاحظه المرء عندما ينظر إليّ. عندما كنت أتحدّث مع جاراتي، أو عندما أعمل في البساتين، أو أقايض السلع مع الباعة في السوق، لا يحتاج الآخرون، حتى الغرباء منهم، إلا نظرة واحدة ليروا أنني امرأة متزوجة، لكنني لا أزال عذراء.

ليس صحيحاً أن شمساً لم يكن يزورني في غرفتي. وكان في كلّ مرة، يريد أن يأتي لزيارتي في المساء، كان يستأذنني ليعرف هل لديّ مانع، وكنت أردّ عليه في كلّ مرة، الردّ نفسه، «طبعاً تستطيع ذلك، فأنت زوجي».

وكنت أنتظره طوال اليوم بفارغ الصبر، راجية من الله أن يكتمل

زواجنا في هذه الزيارة. لكن ما إن كان يقرع باب غرفتي، حتى أتبين أن كلّ ما يريد أن يفعله هو أن يجلس ويتحدث إليّ. وكان يجد متعة كبيرة عندما نقرأ معاً. فقد قرأنا قيس وليلى، وفرهاد وشيرين، ويوسف وزليخا، والوردة والعندليب ـ وقصص أشخاص عشقوا بعضهم بعضًا على الرغم من المشاق التي كابدوها. وعلى الرغم من قوة الشخصيات الرئيسية في هذه القصص، كانت تجعلني أشعر بالكآبة، ربما لأنني كنت أعرف في أعماقي أني لن أعرف طعم الحبّ مثلهم.

وعندما لم نكن نقرأ قصصاً، كان شمس يتحدّث عن القواعد الأربعين للصوفيين المتجوّلين المسلمين ـ المبادئ الأساسية لدين العشق.

وفي إحدى المرات أرخى رأسه على حضني وهو يفسّر لي إحدى تلك القواعد. وأغمض عينيه ببطء، وبينما انخفض صوته ليصبح همساً، غطّ في النوم. فرحت أمشّط شعره الطويل بأصابعي، وقبّلت جبهته بشفتيّ، وبدا أن دهراً قد انقضى قبل أن يفتح عينيه، فشدّني إليه، وقبّلني برقة. كانت أروع وأسعد لحظة أمضيناها معاً. لكن كان هذا كلّ شيء، وحتى يومنا هذا لا يزال جسمه بالنسبة لي مثل قارة مجهولة، كما هو جسدي بالنسبة له.

وخلال الأشهر السبعة تلك، ذهبت أنا أيضاً إلى غرفته عدّة مرات. وفي كلّ مرة أباغته بزيارتي، كان قلبي ينقبض قلقاً، لأنني لم أكن أعرف كيف سيستقبلني. إذ يستحيل التنبؤ بمزاج شمس المتقلّب. إذ يكون دافئاً ومحباً أحياناً فأنسى جميع أحزاني، وقد يكون فظاً أحياناً

أخرى. وفي إحدى المرات، صفق باب غرفته في وجهي، وصاح بأنه يريد أن يبقى وحده، وقد تعلمت ألاّ أشعر بالإهانة، كما تعلمت ألاّ أضايقه، عندما يكون مستغرقاً في تأملاته.

وبعد مضي شهور على زفافنا، بدأت أتظاهر بأنني راضية، ربما مع الآخرين، أكثر مما كنت أتظاهر مع نفسي. وأرغمت نفسي على ألاّ أعتبر شمساً زوجاً، بل صديقاً، خليلاً، سيّداً، رفيقاً، بل حتى ابناً. كانت نظرتي إليه بهذه الطريقة تعتمد على اليوم الذي نلتقي فيه، وعلى مزاجه، وكنت ألبسه دائماً ثوباً مختلفاً في مخيلتي.

نجحت في ذلك لفترة من الوقت، ومن دون توقّعات كثيرة، بدأت أترقب الأحاديث التي تدور بيننا. وكنت أشعر بالسعادة عندما كان يقدّر أفكاري، ويشجّعني على توسيع مداركي. تعلّمت منه أموراً كثيرة، ومع مرور الوقت، أدركت أنني أستطيع أن أعلّمه أموراً أخرى مثل متعة الحياة الأسرية التي لم يذق طعمها من قبل. وحتى يومنا هذا، كان باستطاعتي أن أضحكه كما لم يستطع أحد.

لكن ذلك لم يكن كافياً، فمهما فعلت، لم أتمكن من التخلص من فكرة أنه لا يحبّني. مع أنني كنت واثقة من أنه لم يكن يودني ولم يكن يقصد الإساءة إليّ، لكن ذلك لم يكن شيئاً قريباً من الحبّ. كانت تلك الفكرة مروعة إلى حد أنها بدأت تنهشني من داخلي، وتنهش جسمي وروحي، فابتعدت عن جميع من حولي، الصديقات والجارات، وأصبحت أفضّل المكوث في غرفتي والتحدّث مع الموتى. لأن الموتى، بخلاف الأحياء، لا يطلقون عليك أحكاماً.

باستثناء الموتى، كانت وردة الصحراء صديقتي الوحيدة.

فقد كانت توحّدنا الرغبة في أن نبتعد عن عيون الآخرين، وأصبحنا صديقتين حميمتين، بعد أن أصبحت صوفية، وبدأت تعيش حياة منعزلة، بعد أن غادرت المبغى. وذات يوم قلت لها إنني أحسدها على شجاعتها وعلى تصميمها على بدء حياة جديدة.

فهزّت رأسها، وقالت: «لكنني لم أبدأ حياة جديدة. فالشيء الوحيد الذي فعلته هو أنني مت قبل أن يأتيني الموت».

* * *

ذهبت اليوم لزيارة وردة الصحراء لسبب مختلف تماماً، فقد قررت أن أحافظ على رباطة جأشي، وأن أحدثها بهدوء، لكن ما إن دخلت إليها، حتى أجهشت في البكاء.

سألتني: «كيميا، هل أنتِ على ما يرام؟».

فقلت: «أشعر بشيء من التوعك»، أظن أنني بحاجة إلى مساعدتك».

فقالت: «بالتأكيد. بماذا يمكنني مساعدتك؟».

«إن الأمر يتعلق بشمس... إنه لا يقربني... أقصد، ليس بتلك الطريقة»، تأتأتُ في وسط كلامي، لكني أنهيت جملتي بقولي: «أريد أن أجعل نفسي جذّابة له؛ أريدك أن تعلّميني كيف أفعل ذلك».

أطلقت وردة الصحراء تنهيدة، وقالت: «لقد أقسمت يا كيميا»، وبدت في صوتها نبرة مرهقة، «فقد وعدت الله أن أظل نقيّة، وألاّ أفكّر بالسبل التي تمنح فيها المرأة متعة للرجل».

«لكنك لن تحنثي بقسمك، لإنك ستساعديني فقط»، قلت متوسلة، «يجب أن أتعلّم كيف أدخل السعادة إلى قلب شمس».

فقالت وردة الصحراء: «إن شمساً رجل متنوّر»، وقد خفضت صوتها قليلاً، كما لو كانت تخشى أن يسمعها أحد، وأضافت: «لا أظن أن هذه هي الطريقة الصحيحة للتقرّب منه».

فقلت لها: «لكنه رجل، أليس كذلك؟ أليس الرجال جميعاً أبناء آدم ويتعلّقون بالجسد؟ سواء أكانوا متنوّرين أم لا، فقد مُنح الجميع الجسد. حتى شمس يملك جسداً، أليس كذلك؟».

«نعم، لكن. . .»، قالت وردة الصحراء وأمسكت مسبحتها وراحت تسبّح بها، خرزة خرزة، وأطرقت برأسها متأملة.

«أرجوك»، قلت متوسلة، «أنت الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أفضي إليه بأسراري وأبوح له بمكنونات صدري. لقد مضى على زواجنا سبعة أشهر، أستيقظ صباح كلّ يوم وأنا أشعر بنفس الثقل في صدري، وأنام كلّ ليلة وأنا أبكي. لا يمكن أن تستمر الأمور على هذا المنوال؛ يجب أن أتعلّم كيف يمكنني أن أغوي زوجي».

لم تنبس وردة الصحراء بكلمة. خلعت وشاحي، وأمسكت رأسها، وجعلتها تنظر إليّ، وقلت: «أصدقيني القول، هل أنا قبيحة إلى هذه الدرجة؟».

«طبعًا لا يا كيميا. إنك شابّة جميلة».

«إذاً ساعديني. علّميني كيف أتمكّن من ولوج قلب الرجل»، قلت بإلحاح.

إن الطريق إلى قلب الرجل قد يجرف المرأة بعيداً عن نفسها أحياناً يا عزيزتي»، قالت وردة الصحراء بيأس.

فقلت: «لا يهمني، فأنا مستعدة للذهاب إلى أبعد حدّ».

وردة الصحراء

قونية، كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٧

ظلت تتوسل إليّ وهي تجهش في البكاء لمساعدتها، وقد تورّم وجهها، وأخذ صدرها يعلو ويهبط بقوة وبسرعة، حتى وافقت أخيراً على مساعدتها. وبالرغم من أنني استطعت أن أهدئ من روعها، كنت أعرف في أعماقي أن لا فائدة ترجى من كلّ ذلك، وكنت أعرف أنه كان عليّ أن استسلم لرغبتها. وتساءلت كيف لم أتوقع حدوث هذه المأساة؟ ومزقني الإحساس بالذنب، وتساءلت كم كنت ساذجة ولم أكن أتصور أن الأمور ستأخذ هذا المنعطف الفظيع؟

لكن عندما جاءت إليّ وطلبت مساعدتي، لم أتمكن من رفض طلبها.

«علّميني، أرجوك»، قالت متوسلة، عاقدة يديها فوق حضنها بحشمة ورزانة، كأي فتاة مهذبة، وكان في صوتها نبرة تشي بأنه لم يعد ثمة سبب يدعوها للتفاؤل.

ما الضير في ذلك؟ قلت لنفسي بينما كان قلبي يرتجف شفقة عليها، لأنها تريد أن تصبح جذابة في عيني زوجها، لا في عينيْ شخص

غريب! وكان دافعها الوحيد الحبّ، لذلك لا عيب في عمل ذلك.،
فقد تكون عواطفها لاهبة، لكن بالحلال لا بالحرام، أليس كذلك؟
مشاعر حبّ بالحلال.

شيء في داخلي أشعرني بوجود فخّ، لكن بما أن الله هو الذي خلق فينا هذه العاطفة، فلم أجد ضيراً في مساعدة كيميا، هذه الفتاة القروية البسيطة التي تنحصر فكرتها عن الجمال في تزيين يديها بالحنّاء.

علّمتها كيف تجعل نفسها جذابة وجميلة. كانت تلميذة نجيبة، متلهّفة إلى التعلّم. وأريتها كيف تأخذ حمّاماً معطّراً طويلاً، وكيف يمكنها أن تطرّي بشرتها بالزيوت والمراهم المعطّرة، وكيف تصنع قناعاً من الحليب والعسل. وأعطيتها حبات من خرز الكهرمان لتضفر شعرها بها حتى تفوح من شعرها رائحة جميلة دائمة: الخزامى، والبابونج، وإكليل الجبل، والزعتر، والزنبق، والسمسق، وزيت الزيتون ـ وعلّمتها كيف تستخدم كل واحدة منها، وأي نوع من البخور يجب أن تحرقه في الليل؛ ثمّ أريتها كيف تبيّض أسنانها، وتصبغ أظافر يديها وقدميها بالحنّاء، وكيف تكحّل عينيها وتزجج حاجبيها، وكيف تحمّر شفتيها وخدّيها، وكيف تجعل شعرها يبدو جميلاً وحريري الملمس، وكيف تجعل ثدييها يبدوان أكبر حجماً وأكثر استدارة. وذهبنا معاً إلى دكان في السوق كنت أرتاده في الماضي. واشترينا لها أثواباً من الحرير، وألبسة تحتية حريرية، أشياء لم ترها أو تلمسها في حياتها قط.

ثمّ علّمتها كيف ترقص أمام زوجها، وكيف تستخدم هذا الجسد الذي حباها الله به. وبعد أسبوعين من تعليمها، أصبحت جاهزة.

في عصر ذلك اليوم، أعددت كيميا لشمس التبريزي، كما يعدّ الراعي حملاً لذبحه. في البداية، أخذت حمّاماً دافئاً، وفركت بشرتها بالصابون بقطعة من القماش، ودهنتْ شعرها بالزيوت، ثمّ ساعدتها في ارتداء ثياب لا ترتديها المرأة إلا لزوجها. ثم اخترت لها غلالة بلون الكرز، وعباءة وردية موشّاة بأزهار ياقوتية مذهّبة، من النوع الذي يبرز تكويرة ثدييها. وأخيراً زيّنت وجهها بطبقة من الطلاء، وأضاف عقد من اللؤلؤ وضعته حول جبهتها، لمسة أخيرة، وبدت في غاية الجمال حتى إنني لم أتمكن من إبعاد عيني عنها.

عندما انتهينا، لم تعد كيميا تلك الفتاة الخجولة العديمة الخبرة، بل امرأة تضطرم حبّاً وشوقاً، امرأة مستعدة للإقدام على أي عمل جريء تجاه الرجل الذي تحبّه، وإذا دعت الضرورة، أن تدفع ثمن ذلك. وبينما وقفت أتفحصها، خطرت لي السورة التي تتحدث عن يوسف وزليخا في القرآن الكريم.

ومثل كيميا، تملكت زليخا أيضاً رغبة جامحة تجاه رجل لم يستجب لحبها. ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

من يستطيع أن يلوم زليخا على شدة رغبتها بيوسف؟ «كيف أبدو؟»، سألتني كيميا بقلق قبل أن تضع حجابها، قبل أن تذهب.

فقلت: «تبدين رائعة، فلن يضاجعك زوجك هذه الليلة فقط، بل سيفعل ذلك غداً، ويطلب منك المزيد».

تضرّج وجه كيميا خجلاً، واحمرّت وجنتاها. ضحكتُ، ثم شاركتني في ضحكتها التي أدفأتني مثل شمس مشرقة.

كنت جادة في ما أقول، لأني كنت واثقة من أنها ستجذب شمساً، كما تجذب زهرة مفعمة بالرحيق نحلة. وعندما التقت عيوننا قبل أن تفتح الباب، رأيت مسحة من الشكّ تزحف إلى نظرتها، وفجأة أحسست بتلبك في معدتي، لعله كان هاجساً بأن شيئاً فظيعاً سيحدث.

لكني لم أوقفها. كان حرياً أن أعرف ما سيحدث. كان يجب أن أتوقع حدوث ذلك، ولن أغفر لنفسي طوال حياتي.

كيميا

قونية، كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٧

كان شمس التبريزي، الجريء، الذكي، المفعم بالحيوية، يعرف الكثير عن الحبّ، لكن الشيء الذي لم يكن يعرفه هو: ألم الحبّ غير المتبادل. ففي مساء اليوم الذي زينتني فيه وردة الصحراء، كنت أضجّ بالإثارة والجرأة لم أكن أتصوّر أنهما في داخلي. فقد جعلني حفيف الرداء الحريري الناعم على جسدي، ورائحة العطر التي تتضوع مني، وطعم بتلات الورد على لساني، أبدو امرأة خرقاء، لكنها جعلتني كذلك أشعر بشجاعة غير عادية. عندما عدت إلى البيت رأيت انعكاس صورتي في لوح الزجاج. لم يكن جسمي مكوراً ولا حليبياً، ولم يكن ثدياي عامرين كما كنت أشتهي، لكنني بالرغم من ذلك كنت أبدو جميلة.

انتظرت حتى تأكدت من أن جميع من في البيت قد خلدوا إلى النوم، ثمّ تدثّرت بشال طويل سميك، وسرت على أطراف أصابعي نحو غرفة شمس.

«كيميا، لم أكن أتوقّع مجيئك»، قال شمس عندما فتح باب غرفته.

فقلت: «أريد أن أراك»، ودخلت قبل أن يدعوني إلى الدخول، وأضفت: «أغلق الباب من فضلك».

بدا الاضطراب على وجه شمس، لكنه نفّذ ما طلبته منه.

عندما أصبحنا وحدنا في الغرفة، احتجت إلى بضع ثوان حتى أستجمع شجاعتي. أوليته ظهري، وأخذتُ نَفَساً عميقاً؛ وبحركة سريعة، خلعت شالي وغلالتي. وعلى الفور أحسست بثقل عينيَ زوجي المندهشتين على ظهري، من عنقي حتى أخمص قدميّ، وأحسست بدفء يسري في الأماكن التي كان ينظر إليها. لكن سرعان ما حلّ محل ذلك الإحساس بالدفء، سواء أكان حقيقياً أم متخيّلاً، صمت بارد على الغرفة. وبينما كان صدري يعلو ويهبط من الترقب، وقفت أمام شمس عارية مثل حورية من حوريات الجنة التي يتكلمون عنهن.

في ظلّ ذلك الصمت، وقفنا ورحنا ننصت إلى الريح تعوي، وتثور، وتنوح في المدينة.

«ماذا تظنين أنك فاعلة؟»، سألني ببرود.

بذلت جهداً كبيراً حتى أجد صوتي الذي اختفى، لكنني تمكنت أخيراً من القول: «إني أريدك».

دار شمس حولي في شكل نصف دائري، ثم وقف أمامي مباشرة، وجعلني أنظر إلى عينيه مباشرة. شعرت بوهن في ركبتيّ، لكني لم أتزحزح، بل خطوت نحوه، وضغطت بجسدي على جسده، وتلوّيت قليلاً، أمنحه الدفء المنبعث من جسدي، كما علّمتني وردة الصحراء. داعبت صدره وهمست في أذنه كلمات حبّ رقيقة، وتنشّقت عطره وأنا أمرر أصابعي إلى أعلى وأسفل ظهره القوي.

وكما لو أنه قد لمس موقداً مشتعلاً، ابتعد شمس فجأة، وقال: «يخيّل إليّ أنك ترغبين بي، لكن ما تريدينه هو إرضاء غرورك».

طوقت رقبته بذراعيّ وقبّلته بحرارة. دفعت لساني في فمه ورحت أدفعه فيه وأستله، كما قالت لي وردة الصحراء: «يحبُّ الرجال أن يمتصوا ألسنة زوجاتهم، يا كيميا. جميعهم يفعلون ذلك».

كان مذاق شفتيه بطعم التوت، حلواً وحامضاً، لكن ما إن أحسست بأن دوّامة المتعة قد بدأت تشدّ أحدنا إلى الآخر، حتى أوقفني شمس ودفعني جانباً؛ وقال: «لقد خاب أملي فيك يا كيميا»، ثم أضاف: «أرجو أن تتركيني وحدي الآن».

وبالرغم من قسوة كلماته، لم يبد على وجهه أي أثر لأي مشاعر غضب، ولم أعرف أيّهما جرح مشاعري أكثر: كلماته الفظة، أم خلو وجهه من أي تعابير.

كان ذلك أشدّ شعور بالمهانة اعتراني في حياتي. فانحنيت لأتناول غلالتي، لكن يديّ كانتا ترتعشان ولم أتمكن من الإمساك بالقماش الرهيف الزلق، بل تناولت شالي وتدثرت به. وبينما كنت لا أزال أنشج وألهث، وأنا لا أزال شبه عارية، ركضت خارجة من الغرفة، مبتعدة عن هذا الحبّ الذي أدركت الآن أن لا وجود له إلا في مخيلتي.

* * *

لم أر شمساً بعد ذلك قط، ولم أغادر غرفتي بعد ذلك اليوم؛ وأمضيت كلّ وقتي وأنا مستلقية في سريري، تعوزني الطاقة والإرادة لمغادرة الغرفة. مرّ أسبوع، ثمّ أسبوع آخر، وبعدها توقّفت عن عدّ

الأيام. وتلاشت جميع قواي، وبدأت أتهاوى شيئاً فشيئاً، ولم تعد الحياة تدبّ إلا في راحتي يديّ اللتين ما فتئتا تتذكّران ملمس يدي شمس ودفء بشرته.

لم أكن أعرف أن للموت رائحة، رائحة نفاذة، مثل رائحة الزنجبيل المخلّل، وإبر الصنوبر المكسورة، رائحة لاذعة ومرّة، لكنها ليست سيئة بالضرورة. ولم أعرفها إلا عندما بدأت تفوح في غرفتي، تغلّفني مثل ضباب كثيف رطب. وألمّت بي حمّى شديدة، وبدأت أنزلق إلى هاوية الهذيان، وأخذ الناس يأتون لزيارتي، الجارات والصديقات. كانت كيرا تقف إلى أحد جانبي سريري، عيناها متورمتان، ووجهها شاحب، وكانت جوهر تقف إلى الجانب الآخر، وهي تبتسم ابتسامتها الرقيقة بغمازتها الجميلة.

قالت صفية: «لعن الله ذلك الزنديق. فقد مرضت هذه الفتاة المسكينة من الحسرة والأسى. إن ذلك كلّه بسببه».

حاولت أن أرغم نفسي على الكلام، لكن صوتي لم يكد يتجاوز حنجرتي.

«كيف يمكنك أن تقولي ذلك؟ هل هو الله؟»، قالت كيرا، «كيف يمكنك أن تنسبي هذه القوى إلى إنسان فان؟».

لكنهن لم ينصتن إلى كيرا، ولم أكن في وضع يمكنني من إقناع أي شخص بأي شيء. وسرعان ما أدركت أنني سواء أقلت أم لم أقل، فلن يغيّر ذلك شيئاً، فقد كان الأشخاص الذين لا يحبّون شمساً يجدون سبباً آخر لمرضي ليكرهوه، لكنني لم أستطع أن أكرهه حتى لو أردت ذلك.

وسرعان ما انجرفت إلى العدم، حيث تلاشت جميع الألوان واستحالت بيضاء وتلاشت جميع الأصوات لتصبح صوت طنين متواصل. ولم أعد أميّز وجوه الناس، ولم أعد أسمع الكلمات التي تقال إلا دندنة تأتي من بعيد.

لا أعرف هل زارني شمس في غرفتي؛ لعله لم يأت لزيارتي قط. لعله أراد أن يراني، لكن النساء في الغرفة منعنه من الدخول لرؤيتي، أو لعله جاء، وجلس بجانب سريري، وعزف لي بالناي لساعات وساعات، وأمسك يدي، وصلّى من أجل روحي. أريد أن أصدّق ذلك.

لكن لم يعد شيء يهم، فلم أعد غاضبة منه، أو حانقة عليه. كيف يمكنني أن أكون كذلك، وأنا أتدفّق في جدول من الوعي التام؟

إن الله رحمن رحيم، ويوجد تفسير لكلّ شيء، ويقبع وراء كل ذلك نظام مثالي. فبعد عشرة أيام من زيارتي لغرفة شمس، وأنا أرتدي غلالة حريرية معطّرة، مرضت، وغصت في نهر من العدم التام، رحت أسبح فيه كما أشتهي، وأدركت أخيراً أن هذا الإحساس ينتاب المرء من تلاوة القرآن بعمق ـ الغوص في اللانهائي.

وكانت المياه المتدفقة هي التي نقلتني من الحياة إلى الموت.

إيلا

بوسطن، ٣ تموز (يوليو) ٢٠٠٨

لم تكن بوسطن غنية بالألوان ونابضة بالحيوية كما هي اليوم، قالت إيلا لنفسها. هل كنت عمياء لا أرى جمال المدينة كلّ هذه الفترة؟ فقد أمضى عزيز خمسة أيام في بوسطن، وفي كلّ يوم كانت إيلا تذهب من نورثامبتون إلى بوسطن لرؤيته. وكانا يتناولان غداء بسيطاً لذيذاً في حي «إيطاليا الصغيرة»، ويزوران متحف الفنون الجميلة، ثم يتمشّيان في حديقة بوسطن العامة على ضفة النهر، ويشاهدان الحيتان في حوض الأسماك، ويحتسيان القهوة فنجاناً في إثر فنجان في المقاهي الصغيرة التي تضج بالحركة في ساحة هارفرد؛ وكانا يتحدّثان عن مواضيع متنوّعة مثل المأكولات المحلية، وطرائق التأمل المختلفة، والفنون لدى قبائل الهنود الحمر، والروايات القوطية، ومراقبة الطيور، والبستنة، وزراعة البندورة (الطماطم)، وتفسير الأحلام. كان أحدهما يقاطع الآخر ثم يكمّل ما بدأه الآخر. ولا تتذكّر إيلا أنها تحدّثت بهذا القدر مع أي شخص طوال حياتها.

عندما يخرجان إلى الشارع، يحرصان على ألا يلمس أحدهما

الآخر، لكن تبيّن لهما أن ذلك بدأ يزداد صعوبة، وأصبحت الهفوات الصغيرة مثيرة، وبدأت إيلا تتوق لأن تتلامس أيديهما. وكانت تتملكها شجاعة غريبة لم تكن تعرف أنها تمتلكها، لإمساك يد عزيز وتقبيل شفتيه، وهما في المطعم أو في الشارع. ولم تعد تبالي بأن يراها أحد فحسب، بل بدأت تشعر بأن جزءاً منها يتوق لأن تُرى. وكانا يعودان عدة مرات إلى الفندق معاً، وكانا في كلّ مرة يقتربان من ممارسة الحب، لكنهما لم يفعلا ذلك قط.

في صباح اليوم الذي سيسافر فيه عزيز بالطائرة إلى آمستردام، كانا في غرفته، وكانت حقيبته تنتصب بينهما مثل فأل سيئ يذكّرهما باقتراب فراقهما.

قالت له إيلا: «أريد أن أخبرك شيئاً كنت أفكّر به منذ فترة طويلة».

رفع عزيز أحد حاجبيه، بعد أن أدرك التغيير المفاجئ في نبرة إيلا، ثمّ قال بحرص: «أريد أن أخبرك شيئاً أيضاً».

«حسناً، قل أنت أولاً».

«لا، قولي أنتِ أولاً».

أطرقت إيلا وهي لا تزال تبتسم نصف ابتسامتها، تتمعن في ما ستقوله، وكيف ستقوله، وأخيراً بدأت تقول: «قبل قدومك إلى بوسطن، خرجنا أنا وديفيد ذات مساء وتحدثنا مطولاً. وقد سألني عنك. إذ يبدو أنه قرأ رسائلنا من دون علمي. وقد غضبت منه كثيراً لأنه فعل ذلك، لكنني لم أنكر الحقيقة. أقصد عنّا».

رفعت الآن إيلا عينيها لترى ردة فعل عزيز على ما ستبوح له به، وقالت: «باختصار، قلت لزوجي إنني أحبّ رجلاً آخر».

في الخارج، كسرت الصمتَ الأبواقُ التي تطلقها سيارات إطفاء عدة

في أرجاء المدينة. سرحت إيلا في تفكيرها قليلاً، لكنها أكملت ما كانت تزمع أن تقوله: «أعرف أن الأمر قد يبدو جنونياً، لكني فكّرت في الأمر بإمعان. أريد أن أرافقكَ إلى آمستردام».

خطا عزيز نحو النافذة وراح ينظر إلى الحركة النشطة والسريعة في الشارع. رأى دخاناً ينبعث من إحدى البنايات البعيدة ـ سحابة سوداء كثيفة تتشكل في الهواء، فأخذ يصلّي بصمت لسكان تلك البنايات. وعندما بدأ يتكلم، بدا وكأنه يخاطب المدينة كلها.

«أريد أن أرافقكَ إلى آمستردام، لكن لا يمكنني أن أعدك بمستقبل هناك».

«ماذا تقصد؟»، سألت إيلا بعصبية.

عند ذاك، عاد عزيز إلى مكانه، وجلس إلى جانبها، وأرخى يده على يدها. وبينما راح يداعبها وهو شارد الذهن، قال: «عندما كتبت لي في البداية، كنت أمرّ في أوقات غريبة في حياتي».

«أتقصد أنه يوجد شخص آخر في حياتك...؟».

«لا، يا حبيبتي، لا»، ابتسم عزيز قليلاً، ثم خفتت ابتسامته وأضاف: «لا شيء من ذلك. لقد كتبت لك ذات يوم عن المراحل الثلاث في حياتي، أتذكرين؟ وكانت الحروف الأولى الثلاثة في كلمة «صوفي». ولم تسأليني عن المرحلة الرابعة، ومهما حاولتِ، فلن أخبرك. لقائي بالحرف «ي». هل ترغبين في الاستماع إليها الآن؟».

«نعم»، قالت إيلا، مع أنها كانت تخشى أي شيء قد يعكر صفو هذه اللحظة».

«نعم، أريد».

* * *

في غرفة في أحد الفنادق في أحد أيام شهر تموز (يوليو)، قبل بضع ساعات من عودته بالطائرة إلى آمستردام، حكى عزيز لإيلا كيف أصبح صوفياً في سنة ١٩٧٧، واتخذ لنفسه اسماً جديداً، وكذلك، كما كان يأمل، قَدَراً جديداً. ومنذ ذلك الحين، تنقل في طول البلاد وعرضها مصوراً محترفاً، درويشاً متجولاً في الصميم. وأقام صداقات وثيقة في ست قارات، مع أشخاص اعتبروه فرداً من أفراد أسرتهم. ومع أنه لم يتزوّج ثانية، فقد تبنّى طفلين يتيمين في أوروبا الشرقية. وعاش عزيز، الذي لم ينزع القلادة المحفور عليها صورة الشمس حول عنقه لتذكّره بشمس التبريزي، حياة مليئة بالسفر والقراءة والسير على خطى الدراويش الصوفيين، والالتقاء بالإشارات والعلامات التي تشير إلى الله في كل مكان، وفي كلّ شيء.

ثمّ علم بمرضه منذ سنتين.

فقد بدأ المرض بظهور كتلة تحت إبطه، يبدو أنه تأخر في ملاحظتها، ثمّ أظهرت الفحوصات أن الكتلة هي ميلانوما خبيثة، شكل مميت من سرطان الجلد. وقال الأطباء إن حالته لا تبدو جيدة، لكن عليهم إجراء المزيد من الاختبارات قبل إبلاغه بالتشخيص النهائي. وعادوا إليه بعد أسبوع بأخبار سيئة: لقد انتشر الورم إلى أعضائه الداخلية وغزا رئتيه.

وعندما بلغ الثانية والخمسين، أخبروه أنه لن يبلغ الخامسة والخمسين من العمر.

حرّكت إيلا شفتيها لتقول شيئاً، لكن الكلمات لم تخرج من فمها وأحست بجفاف شديد في فمها. سقطت دمعتان على خديها، فمسحتهما بسرعة.

وتابع عزيز كلامه، بنبرة قوية وحازمة، وقال إنه بدأ طوراً جديداً من حياته، وبشكل من الأشكال أكثر إنتاجًا. فلا تزال توجد أماكن يريد أن يراها، ويبحث عن وسيلة لزيارتها جميعاً. فأنشأ مؤسسة صوفية في آمستردام لها فروع وارتباطات دولية. ولمّا كان عازف ناي هاوياً، فقد أقام حفلات موسيقية مع موسيقيين صوفيين في إندونيسيا وباكستان ومصر، وأعدّ ألبوماً لمجموعة من الصوفيين اليهود والمسلمين في قرطبة بإسبانيا.

ثمّ عاد عزيز إلى المغرب وزار التكيّة التي كان قد التقى فيها بعدد من الصوفيين الحقيقيين لأول مرة في حياته، وكانت قد مضت على وفاة السيد ساميد فترة طويلة، وصلّى ومارس التأمّل بجانب قبره، متأمّلاً المسيرة التي اتبعها في حياته.

«ثمّ اعتزلت لكتابة الرواية التي طالما حلمت بكتابتها، والتي طالما أجّلت كتابتها لكسلي أو عدم توفر الشجاعة لديّ»، قال عزيز غامزاً، «وكما تعرفين، كان ذلك أحد الأمور التي أردت أن أفعلها منذ زمن بعيد، ووضعت عنواناً للرواية «الكفر الحلو» وأرسلتها إلى وكالة أدبية في أمريكا. لم أتوقّع الكثير، وكنت كذلك مستعداً لجميع الاحتمالات. وبعد أسبوع، وصلتني رسالة مثيرة بالبريد الإلكتروني من امرأة لا أعرفها من بوسطن».

ابتسمت إيلا ابتسامة ضعيفة تشي بالعطف والاحترام، والرقة والألم.

وقال عزيز لقد تغيّر كل شيء منذ تلك اللحظة. فقد تحوّل من رجل يستعد للموت، إلى رجل هام في الحبّ في وقت غير متوقع. وفجأة،

تعين عليه تحريك جميع القطع التي كان قد خيّل إليه أنه وضعها في مكانها الملائم منذ أمد بعيد. الروحانية والحياة والأسرة والفناء والإيمان والحبّ. وجد نفسه يفكّر مجدّداً بمعانيها ولم يعد يرغب في الموت.

أطلق على هذه المرحلة الجديدة والنهائية من حياته اسم لقائه بالحرف «ي» في كلمة «صوفي»، وقال إنه وجد هذه المرحلة أشدّ المراحل السابقة صعوبة، لأنها جاءت في وقت، اعتقد فيه أنه تغلب على معظم، إن لم يكن كلّ، صراعاته الداخلية، في وقت خيّل فيه إليه أنه بلغ مرحلة النضوج الروحي.

«تتعلّمين في الصوفية كيف تموتين قبل الموت. فقد خبرتُ كلّ تلك المراحل، خطوة خطوة. وعندما بدأت أفكّر بأنني تمكنت من حلّ كلّ شيء بمهارة، خرجت لي هذه المرأة بغتة. وراحت تكتب لي، ورحت أجيبها. وبعد كلّ رسالة، بدأت أنتظر ردها بلهفة، وبدأت الكلمات تصبح ثمينة أكثر من أي وقت مضى. واستحال العالم كلّه إلى شاشة بيضاء فارغة، بانتظار الكتابة عليها، وأصبحت أرغب في التعرّف على هذه المرأة، وقضاء مزيد من الوقت معها. وفجأة، لم تعد حياتي تكفيني. وأدركت أنني كنت أخشى الموت، وكان جزء مني مستعد للتمرد على الله الذي كنت أبجّله وأستسلم له».

«سيكون أمامنا وقت...»، قالت إيلا عندما عثرت على صوتها.

«أخبرني الأطباء أن أمامي ستة عشر شهراً»، قال عزيز، بصوت خفيض، لكن بحزم، «ربما كانوا مخطئين، أو ربما كانوا مصيبين. لا يمكنني أن أعرف، وكما ترين يا إيلا، كلّ ما يمكنني أن أمنحك إياه

هو اللحظة الراهنة؛ هذا كلّ ما أملكه. وفي الحقيقة، لا أحد يملك أكثر من ذلك. إننا نحبّ أن ندّعي أننا نملك أكثر مما نملكه حقاً».

نظرت إيلا إلى قدميها، ومالت إلى جانبها كأن جزءاً منها على وشك أن ينهار، وجزءاً آخر يقاوم. وأجهشت في البكاء.

«لا، أرجوك. أريد أن ترافقيني إلى آمستردام، وأريد أن نسافر معاً في أرجاء العالم حتى نرى بلاداً بعيدة، ونتعرف على شعوب أخرى ونحترم ما خلقه الله».

«سيكون ذلك رائعاً»، قالت إيلا مثل طفلة قُدمت لها لعبة بألوان براقة، وراحت تبكي.

تجهّم وجه عزيز، وأشاح بعينيه عنها ونظر إلى النافذة.

«لكنني كنت أخاف أن أطلب منك، حتى إنني كنت أخاف أن ألمسك، ناهيك عن أن أمارس الحب معك، فكيف يمكنني أن أطلب منك أن ترافقيني وأن تهجري أسرتك، بينما أنا لا أملك مستقبلاً يمكنني أن أقدّمه لك؟».

فردت إيلا على سؤاله وقالت: «لمَ هذا التشاؤم؟ يمكنك أن تحارب المرض. يمكنك أن تحاربه من أجلي».

«لماذا يتعيّن علينا أن نحارب كلّ شيء؟»، تساءل عزيز، «إذ نتحدّث على الدوام عن محاربة التضخّم ومحاربة الأيدز ومحاربة السرطان ومحاربة الفساد ومحاربة الإرهاب، حتى محاربة الوزن الزائد. . . ألا توجد لدينا طريقة أخرى لتناول الأمور؟».

«أنا لست صوفية»، قالت إيلا وقد نفد صبرها. كان صوتها يشبه صوت شخص آخر، صوت شخص أكبر سنّاً.

في تلك اللحظة، برقت في رأسها أفكار كثيرة: وفاة والدها، ألم فقدان حبيب انتحر، وما أعقبه من اكتئاب وندم لسنوات عدة، وتمعنت في كلّ جزء من ذاكرتها، على صغره، للشخص المتوفى، وتساءلت هل ستختلف الأمور لو امتزجت التفاصيل بطريقة مختلفة في مكان ما.

ابتسم عزيز وقال: «أعرف أنك لست صوفية، ولا ينبغي أن تكوني صوفية. كوني الرومي فقط، هذا كلّ ما أطلبه منك».

فسألته: «ماذا تقصد؟».

«في وقت سابق سألتيني إن كنت أشبه شمس التبريزي، أتذكرين؟ قلتِ إنني أذكّرك به؛ وبقدر ما كنت سعيداً لسماع ذلك، فإنني لا أستطيع أن أكون شمساً، لأني أعتقد أنه يفوقني كثيراً. أما أنتِ فيمكنكِ أن تكوني الرومي، إذا تركتِ الحبّ يغمركِ ويغيّرك، في البداية من خلال وجوده، ثمّ من خلال غيابه».

فقالت إيلا: «لكنني لست شاعرة».

«والرومي لم يكن شاعراً أيضاً، لكنه أصبح شاعراً».

«ألا تفهم؟ فما أنا سوى ربّة منزل، بحق الله، أمّ لثلاثة أطفال»، صاحت إيلا، وأخذت نفساً عميقاً.

«إننا جميعنا ما نحن»، غمغم عزيز، «وجميعنا معرضون للتغيير. إنها رحلة من هنا إلى هناك، ويمكنك القيام بهذه الرحلة، ولو كنت تمتلكين الشجاعة الكافية، ولو كنت أمتلك شجاعة كافية، لذهبنا إلى قونية معاً في النهاية، حيث أريد أن أموت».

فقالت إيلا: «لا تتحدث هكذا».

نظر إليها عزيز للحظة، ثم أطرق عينيه. برز تعبيرٍ جديد على وجهه الآن، وظهر بعد في نبرته، كأنه ينجرف بسرعة، مثل ورقة شجرة جافّة وقعت في مهبّ الريح.

وقال ببطء: «وإلاّ عودي إلى بيتك يا إيلا. عودي إلى أطفالك وإلى بيتك. قرّري يا حبيبتي. ومهما كان اختيارك، فإني أحترم قرارك».

سليمان السكران

قونية، آذار (مارس) ١٢٤٨

دم وعرق ودموع. يظنّ الغرباء أن الذين يحتسون الخمر أشخاص كسالى ليس لديهم ما يفعلونه، ولكنهم لا يعلمون أن احتساء الخمر كلّ يوم يحتاج إلى جهد جهيد. إننا نحمل ثقل العالم على كاهلنا.

كنت متعباً فأسندت رأسي إلى المنضدة وغفوت، وحلمت حلماً سيئاً. فقد رأيت ثوراً أسود كبيراً، هائجاً كالجحيم، يطاردني في شوارع غريبة. ورحت أجري هارباً من الثور من دون أن أعرف ما الخطأ الذي ارتكبته حتى يثور عليّ بهذا الشكل، ويحطّم المحلات، ويدوس على كل شيء، مما أثار حنق جميع الباعة في السوق. وظللت أركض، ثم دلفت زقاقاً تبيّن لي أنه زقاق مسدود، حيث ارتطمت ببيضة ضخمة، يزيد حجمها على حجم بيت. وفجأة فقست البيضة، وانبثق منها طير صغير جداً شديد القبح، ندياً يصدر ضجيجاً. وعندما حاولت الخروج من الزقاق، ظهرت الطير الأمّ في السماء، وراحت تحدّق بي إلى الأسفل كما لو كنت المسؤول عن قباحة فرخها. وعندما بدأت تهبط من السماء، كان منقارها الحادّ ومخالبها الحادة متجهة نحوي، استيقظت.

فتحت عينيّ وأدركت أنني غططت في النوم على الطاولة القريبة من النافذة. ومع أن طعم فمي كان يشبه طعم مسامير صدئة، وكنت أشعر بحاجة شديدة إلى احتساء شيء، اعتراني تعب شديد ولم أعد أستطيع التحرّك، فأبقيت رأسي الثقيل مسترخياً على الطاولة، أغوص في سباتي، مستمتعاً بالأصوات المعتادة في الحانة. ثم تناهى إليّ صوت جدال حاد يعلو ويهبط مثل طنين سرب من النحل. كان الصوت ينبعث من الرجال الجالسين إلى الطاولة بجانب طاولتي، ومع أنه خطر لي لوهلة أن ألتفت قليلاً لأرى من هم هؤلاء الرجال، لم أتحرّك، إلا بعد أن سمعت تلك الكلمة المشؤومة: جريمة قتل.

في البدء، تجاهلت ما كانوا يقولونه واعتبرته هذيان سكارى؛ فالمرء يسمع أموراً كثيرة في الحانة، ومع مرور الزمن، يتعلّم ألاّ يأخذ كلّ كلمة تقال على محمل الجد. لكن كان ثمة شيء في نبرة كلامهم تشي بالتهديد ولم يعد بإمكاني تجاهلها، لذلك شنّفت أذنيّ، ورحت أنصت. ارتخى حنكي عندما تحققت من أنهم جادّون في ما يقولونه. لكن صدمتي ازدادت عندما عرفت الشخص الذي يريدون قتله، إنه شمس التبريزي.

وما إن غادروا، حتى توقّفت عن التظاهر بالنوم ووثبت على قدميّ.

«خريستوس، تعال بسرعة»، صرخت برعب.

«ماذا في الأمر هذه المرة؟»، قال خريستوس وهرع نحوي، «لماذا أنت حزين هكذا؟».

لكنني لم أستطع أن أخبر أحداً. حتى خريستوس، وفجأة، بدا الجميع في حالة من الشك والريبة. ماذا لو كان هناك عدد أكبر من

الأشخاص المشاركين في هذه المؤامرة على شمس؟ لذلك كان يجب أن أصمت وأن أبقى متيقظاً.

فقلت: «لا شيء! إني جائع، هذا كلّ ما في الأمر. أرجو أن تحضر لي حساء؟ أضف إليه كمية كبيرة من الثوم، فيجب أن أظل يقظاً».

حدّق خريستوس بي مندهشاً، لكنه لم يسألني سؤالاً آخر لأنه كان معتاداً على تقلب مزاجي. وبعد لحظات، أحضر لي زبدية من حساء أمعاء الماعز، فيها توابل حارة. تناولتها بسرعة، فحرقت لساني. وبعد أن صحوت بما يكفي، اندفعت إلى الشارع لأحذّر شمس التبريزي.

في البداية توجهت إلى بيت الرومي، فلم أجد شمساً. ثمّ بحثت عنه في الجامع، ثمّ في المدرسة، والمقهى، والمخبز، ثمّ في الحمّام... بحثت عنه في كلّ المخازن والأقبية في شارع الحرفيين، حتى إنني بحثت عنه في خيمة الغجرية العجوز بين الخرائب، فلعله ذهب إلى هناك ليقلع ضرساً يؤلمه أو ليتخلص من رقية سيئة. بحثت عنه في كل مكان، وكان قلقي يزداد مع مرور كلّ دقيقة. بدأ الخوف يتملكني. ماذا لو فات الأوان؟ ماذا لو كانوا قد قتلوه؟

بعد بضع ساعات، عندما لم أعد أعرف أين يمكنني أن أبحث عنه، عدت إلى الحانة، مكتئباً ومنهكاً. لكن كالسحر، رأيته واقفاً على مسافة بضع خطوات من باب الحانة.

«مرحباً يا سليمان. يبدو أنك مشغول البال»، قال شمس، مبتسماً.

«يا إلهي! إنك لا تزال على قيد الحياة!»، صحت، وجريت لأضمه بين ذراعي.

عندما عانقت شمساً، حدّق بي، وقد بدا مبتهجاً، وقال: «طبعاً أنا حيّ! هل أبدو لك طيفاً؟».

ابتسمت، لكن ليس طويلاً. كان رأسي يؤلمني كثيراً وكنت أسكّنه بجرع بضع زجاجات حتى أسكر بسرعة وأغفو.

«ما الأمر، يا صديقي؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟»، سأل شمس بريبة.

ابتلعت ريقي بصعوبة. ماذا لو لم يصدقني إذا حدّثته عن المؤامرة؟ ماذا لو ظنّ أنني أهلوس بتأثير الخمر؟ وربما كنت كذلك، ولا يمكنني أن أكون متأكّداً من ذلك.

فقلت له: «إنهم يزمعون قتلك. لا أعرف من هم. لم أتمكّن من رؤية وجوههم. فقد كنت نائماً... لكنني لم أكن أحلم. أقصد، كنت أحلم، لكن ليس حلماً كهذا. لم أشرب كثيراً. حسناً، لقد شربت بضعة أقداح، لكني لم أسكر».

أرخى شمس يده على كتفي، وقال: «هدّئ من روعك يا صديقي. فهمت».

«صحيح؟».

«نعم. عد إلى الحانة الآن، ولا تقلق عليّ».

«لا، لا! لن أذهب إلى أيّ مكان، ولا أنت أيضاً»، قلت معترضاً، «فهؤلاء الناس جادّون في ما سيفعلونه. يجب أن تكون حذراً؛ لا يمكنك أن تعود إلى بيت الرومي، لأنه أول مكان سيبحثون فيه عنك».

غير مكترث لفزعي، لبث شمس صامتاً.

«اسمع أيها الدرويش، إن بيتي صغير وفيه أشياء كثيرة. لكن إذا لم يكن يهمك ذلك، يمكنك أن تمكث في بيتي كما تشاء».

«أشكرك على قلقك عليّ»، همهم شمس، «لكن لا يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا. وهذه قاعدة أخرى: *«لقد خُلق هذا العالم على مبدأ التبادل؛ فكلّ امرئ يكافأ على كلّ ذرة خير يفعلها، ويعاقب على كلّ ذرة شرّ يفعلها. لا تخف من المؤامرات، أو المكر، أو المكائد التي يحيكها الآخرون؛ وتذكّر أنه إذا نصب لك أحدهم شركاً، فإن الله يكون قد فعل ذلك. فهو المخطط الأكبر. إذ لا تتحرك ورقة شجرة من دون علمه. آمن بذلك ببساطة وبصورة تامة. فكلّ ما يفعله الله، يفعله بشكل جميل»*.

بعد أن قال شمس ذلك، غمزني ولوّح لي مودعاً. رحت أرقبه وهو يشقّ طريقه بسرعة عبر الزقاق الموحل باتجاه بيت الرومي، على الرغم من تحذيري له.

القاتل

قونية، آذار (مارس) ١٢٤٨

الأوغاد! البلهاء! لقد طلبت منهم ألاّ يأتوا معي. أوضحت لهم أنني أعمل وحدي دائماً وأكره رؤية الزبائن يتدخّلون في أموري، لكنّهم أصرّوا، لأنهم يعتقدون بأن الدرويش يمتلك قوى خارقة، ولا بد من أن يروه ميتاً بأمّ أعينهم.

«حسنًا»، استسلمت في النهاية، «لكن لا تقتربوا مني حتى ينتهي كلّ شيء».

وافقوا. جاء ثلاثة رجال الآن. الرجلان اللذان عرفتهما من اللقاء السابق، ورجل جديد معهما بدا شاباً ومتوتراً كالآخرين؛ وكانوا جميعهم قد لفّوا وجوههم بأوشحة سود، كما لو أنني كنت أبالي حقاً بمعرفة من هم.

بعد منتصف الليل، كنت أقف خارج بيت الرومي. قفزت من فوق الجدار الحجري إلى الفناء واختبأت وراء أجمة؛ فقد أكدّ لي زبائني أن شمس التبريزي يمضي عادة فترة من الوقت كلّ ليلة في الفناء وهو يتأمل، قبل أو بعد أن يتوضأ. وكان كلّ ما عليّ فعله هو الانتظار.

كانت ليلة عاصفة، باردة على نحو غير معتاد في هذا الوقت من السنة. كان السيف ثقيلاً وبارداً في راحة يدي، وكنت أشعر تحت أصابعي بالخرزتين المرجانيتين اللتين تزيّنان مقبضه القاسي. تمنيت لو أني أحضرت معي كذلك خنجراً صغيراً في غمده.

كانت تحيط بالقمر هالة زرقاء شاحبة، وكنت أسمع عواء حيوانات ليلية كثيرة من بعيد؛ وهبّت عليّ نفحة رائعة من رائحة الورود نقلتها الريح من بين الأشجار. وعلى نحو غريب، جعلتني هذه الرائحة أشعر بالاضطراب. وقبل وصولي إلى هذا المكان، لم يكن مزاجي رائقاً، لكنه ازداد سوءاً الآن. وعندما كنت واقفاً هناك، تغمرني تلك الرائحة الرائعة، اعترتني رغبة شديدة في أن أتخلى عن الخطة وأغادر هذا المكان المخيف في الحال.

لكني ظللت وفياً للوعد الذي ضربته. لم أعرف كم مرّ من الوقت، وأحسست بأن جفنيّ ثقيلان، ورحت أتثاءب رغماً عني. وعندما اشتدّ غضب الريح، لسبب لا أعرفه، استمرّ عقلي يستحضر ذكريات، مظلمة ومتعبة، عن جميع الرجال الذين قتلتهم. فقد فاجأتني مخاوفي. لم أكن أشعر بالتوتر عادة عندما أتذكر الماضي. فربما كنت أستغرق في التفكير، وأنزوي على نفسي، بل إنني كنت أتجهّم بين الحين والآخر، لكني لم أشعر بالتوتر قط.

ولرفع معنوياتي، رحت أصفّر ألحان عدد من الأغاني. وعندما لم ينفعني ذلك، ركّزت نظراتي على باب المنزل الخلفي وهمست، «هيا يا شمس. لا تجعلني أنتظر كثيراً. هيا أخرج إلى الفناء».

لا صوت. لا حركة. لا شيء.

وفجأة، بدأ المطر يهطل، ومن المكان الذي كنت أقف فيه، كنت أستطيع الرؤية من فوق جدران الفناء المائلة. وسرعان ما بدأ المطر ينهمر بقوة، وتحوّلت الشوارع إلى أنهار جارفة، وتبللت حتى العظم.

قلت: «لعنه الله. اللعنة! اللعنة».

كنت قد بدأت أفكر بالتخلي عن الخطة في هذه الليلة، عندما سمعت صوتاً حاداً بينما كانت قطرات المطر تتساقط فوق الأسطح والأزقة. كان هناك أحد في الفناء.

إنه شمس التبريزي. كان يحمل فانوساً بيده. سار نحوي وتوقّف على بعد بضع خطوات من الأجمة التي كنت أختبئ وراءها.

«إنها ليلة رائعة، أليس كذلك؟»، سأل.

لم أتمكن من احتواء اضطرابي، فرحت ألهث. هل معه شخص آخر، أم أنه يكلّم نفسه؟ هل يعرف أنني موجود هنا؟ ترى هل يعلم بوجودي؟ أخذ رأسي يضطرم بالأسئلة.

ثمّ خطرت لي فكرة أخرى، فكيف يمكن أن يظل الفانوس الذي يحمله بيده مشتعلاً على الرغم من الرياح العاصفة والأمطار الغزيرة الهاطلة؟ وما إن خطر لي هذا السؤال، حتى سرت في جسدي رعشة قوية.

تذكّرت الإشاعات المنتشرة عن شمس. فهم يقولون إنه يجيد ممارسة السحر الأسود، حتى إنه يستطيع أن يحوّل أي شخص إلى حمار ينهق، أو إلى خفاش أعمى، ويمكنه أن يربط خيطاً من ثوب ذلك الشخص وهو يردد تمائم شريرة. وبالرغم من أنني لم أكن أؤمن بهذا الهراء، ولم أكن أريد أن أؤمن به الآن، بينما وقفت أراقب

الفانوس الذي يحمله شمس، والذي كان لهيبه يرتعش تحت المطر الغزير، رحت أرتجف.

«منذ عدة سنوات كان عندي أستاذ في تبريز»، قال شمس بعد أن وضع الفانوس على الأرض، فلم أعد أراه، «علّمني أن لكلّ شيء وقتاً. إنها قاعدة من القواعد».

عن أي قاعدة يتحدّث؟ أي كلام غامض هذا؟ لا بد أن أقرّر بسرعة إن كان عليّ أن أخرج من وراء الأجمة الآن، أم أنتظر حتى يدير لي ظهره، لكنه لم يفعل ذلك قط. وإن كان يعرف بوجودي، فلا داعي للاختباء، وإذا لم يكن يعرف فعليّ أن أستجمع شجاعتي عندما أخرج.

بعد ذلك، كأن ذلك ليزيد اضطرابي، لاحظت ملامح الرجال الثلاثة الذين كانوا يقبعون تحت غطاء خارج جدار الحديقة قلقين. لا بد أنهم يتساءلون لماذا لم أتحرّك لقتل الدرويش.

ثم تابع شمس قوله: «تقول القاعدة السابعة والثلاثون، «*إن الله ميقاتيٌّ دقيق. إنه دقيق إلى حد أن ترتيبه وتنظيمه يجعلان كلّ شيء على وجه الأرض يتم في حينه، لا قبل دقيقة ولا بعد دقيقة. والساعة تمشي بدقّة شديدة بالنسبة للجميع بلا استثناء. فلكلّ شخص وقت للحبّ ووقت للموت*».

في تلك اللحظة فهمت أنه كان يكلّمني. فقد كان يعرف أنني هنا؛ كان يعرف ذلك حتى قبل أن يخرج إلى الفناء. بدأ قلبي يخفق بقوة، وأحسست بأن الهواء قد نفد من حولي، ولم يعد مجدياً أن أظل مختبئاً، فنهضت وخرجت من وراء الأجمة. توقّف المطر عن الهطول

فجأة، كما كان قد بدأ، وخيّم صمت مطبق. وقفنا وجهاً لوجه، القاتل والضحية. وعلى الرغم من غرابة الوضع، بدا أن كلّ شيء طبيعي، يكاد أن يكون هادئاً.

استللت سيفي ووجهت إليه ضربة. تفادى الدرويش الضربة بسرعة كبيرة لم أتوقّعها من رجل في حجمه. كنت على وشك أن أوجه إليه ضربة ثانية عندما حدثت فجأة حركة سريعة في الظلام وظهر ستة رجال وهاجموا الدرويش بالعصي والرماح. يبدو أن الرجال الثلاثة قد أحضروا أصدقاءهم. كانت المعركة حامية وسقط الرجال جميعهم على الأرض. كانوا يتدحرجون، ثم يقفون، ويسقطون ثانية، وتكسر رمح إثر رمح إلى قطع صغيرة.

وقفت أراقب المعركة، بدهشة وغضب. لم يحدث قط أن تحوّلت إلى شاهد، ليس إلاّ، على جريمة قتل كُلفت بارتكابها. غضبت من الشبان الثلاثة لوقاحتهم حتى إنني رغبت في أن أترك الدرويش وأقاتلهم هم.

لكن لم تمض فترة طويلة، حتى بدأ أحد الرجال يصرخ بشكل هستيري، «النجدة! انجدنا، يا رأس الواوي! إنه سيقتلنا».

بسرعة البرق، وضعت سيفي جانباً، وسحبت خنجري من حزامي واندفعت إلى الأمام. وألقينا نحن السبعة الدرويش على الأرض، وبحركة سريعة واحدة طعنته في قلبه. انطلقت من فمه صيحة غليظة. لم يتحرك ثانية، ولم يعد يتنفس.

حملنا جسده الذي كان خفيفاً على نحو غريب، وألقينا به في البئر. ورحنا نلهث بصوت مرتفع طلباً لمزيد من الهواء. خطونا إلى الوراء وانتظرنا حتى سمعنا صوت ارتطام جسده في الماء.

لكننا لم نسمعه.

«بحقّ الجحيم ماذا يجري هنا؟»، قال أحد الرجال، «ألم يسقط بعد؟».

«بالطبع سقط»، قال آخر، «كيف لم يسقط؟».

اعتراهم خوف شديد، وكذلك أنا.

«لعله علق بخطّاف على الحائط»، اقترح الرجل الثالث.

كان الاقتراح معقولاً. فقد أحلّنا من عبء إيجاد تفسير، وصدقناه بسعادة، مع أننا كنا نعرف تماماً أنه لا توجد خطاطيف على جدران الآبار.

لا أعرف كم انتظرنا هناك، فكلٌّ منا يتحاشى النظر في عيني الآخرين. هبّ نسيم بارد في الفناء، وتناثرت بعض أوراق شجرة الصفصاف البنيّة حول أقدامنا. أما في أعالي السماء، فقد كان الصباح الأزرق الداكن قد بدأ يستحيل قرمزياً. لعلنا كنا مكثنا هنا طويلاً، لو لم يفتح باب البيت الخلفي ويخرج منه رجل، عرفته في الحال. إنه مولانا.

«أين أنت؟»، صرخ، بصوت مشحون بالقلق، «هل أنت هنا يا شمس؟».

ما إن ذكر اسمه، حتى ولّينا، نحن السبعة، الأدبار. وتسلّق الرجال الستة جدار الحديقة واختفوا في ظلمة الليل. ظللت واقفاً، أبحث عن خنجري الذي عثرت عليه أخيراً تحت أجمة، مكسواً بالطين. كنت أعرف أنني يجب ألا أبقى هنا ولا ثانية، لكنني لم أستطع مقاومة إغراء النظر إلى الوراء.

عندما فعلت ذلك، رأيت الرومي يمشي مترنّحاً إلى الفناء ثم بدأ يترنّح فجأة إلى يساره، نحو البئر، كأن حدسه يوجّهه.

انحنى إلى الأمام، ونظر إلى الأسفل، ووقف هكذا للحظة، كي يعتاد نظره على العتمة الخفيفة في البئر. ثمّ رجع، وجثا على ركبتيه، وضرب صدره، وأطلق صيحة مرعبة.

«لقد قتلوه! لقد قتلوا شمسي».

قفزت وتسلقت الجدار، وتركت خنجري ملوثاً بدم الدرويش، وركضت كما لم أركض من قبل.

إيلا

نورثامبتون، ١٢ آب (أغسطس) ٢٠٠٨

كان يوماً عادياً من أيام شهر آب (أغسطس)، معتدلاً ومشمساً. كان يوماً مثل بقية الأيام. استيقظت إيلا في الصباح الباكر، وأعدّت طعام الفطور لزوجها وأطفالها، وراقبتهم وهم يتوجّهون إلى العمل وإلى نادي التنس والشطرنج، ثم عادت إلى مطبخها، وفتحت كتاب الطهو، واختارت من القائمة طبق اليوم:

حساء سبانخ مع هريسة الفطر

محار مع مايونيز الخردل

محارات صدفية مشوية مع زبدة الطرخون

سلطة مع التوت البري

غراتان الكوسا بالرزّ

فطيرة راوند مع كريما الفانيلا.

بقيت فترة بعد الظهر كلها لطهو هذه الأطباق. وعندما أنهت عملها، أخرجت أفضل الأواني الخزفية لديها، ورتّبت المائدة، وطوت المناديل، ورتّبت الزهور، وعيّرت الفرن لمدة أربعين دقيقة، لكي

يكون الغراتان ساخناً في الساعة السابعة. وأعدّت قطعاً من الخبز المحمّص، ووضعت الصلصة في السلطة، دسمة، كما يفضلها آفي. وخطر لها أن تشعل الشموع، لكنها غيّرت رأيها. رأت أن من الأفضل أن تترك المائدة هكذا، مثل صورة نقية، من دون تأثيرات إضافية.

ثمّ حملت الحقيبة التي كانت قد جهزتها سابقاً وغادرت البيت. عندما خرجت، دمدمت قاعدة من قواعد شمس: *ليس من المتأخر مطلقاً أن تسأل نفسك، هل أنا مستعد لتغيير الحياة التي أحياها؟ هل أنا مستعد لتغيير نفسي من الداخل؟*

«وحتى لو كان قد تبقى من حياتك يوم واحد يشبه اليوم الذي سبقه، فإن ذلك يدعو للرثاء. ففي كلّ لحظة، ومع كلّ نَفَس جديد، يجب على المرء أن يتجدّد ويتجدّد ثانية. ولا توجد إلا وسيلة واحدة حتى يولد المرء في حياة جديدة وهي أن يموت قبل الموت».

علاء الدين

قونية، نيسان (أبريل) ١٢٤٨

مع مرور كلّ دقيقة، لم أعد أعرف كيف يتعيّن عليّ أن أتصرّف مع الآخرين، بعد مرور ثلاثة أسابيع على موت شمس، استجمعت شجاعتي أخيراً وذهبت لأحدّث أبي، الذي كان جالساً في غرفة المكتبة، وحيداً، مسمّراً في مكانه مثل تمثال من المرمر، وكانت الظلال تتقافز على وجهه.

سألته: «أبي، هل يمكنني أن أحدّثك؟».

ببطء وبغموض، كما لو أنه عاد سباحة إلى الشاطئ من بحر أحلام يقظته، نظر إليّ، ولم ينبس ببنت شفة.

«أبي، أعرف أنك تظن أنني متورط في موت شمس، لكن دعني أطمئنك».

فجأة، رفع أبي إصبعه، مقاطعاً كلماتي، وقال: «لقد نضبت الكلمات بينك وبيني يا بني. فلا أريد أن أسمع منك شيئاً، ولا يوجد ما يمكنني أن أقوله لك رداً على ذلك».

«أرجوك لا تقل ذلك. دعني أوضّح لك»، قلت متوسلاً، وصوتي

يرتعش، «أقسم بالله. لست أنا. إني أعرف من فعل ذلك، لكن لست أنا».

«يا بني»، قاطعني أبي ثانية، وهو يقطر حزناً، ثم حلّ محله هدوء مخيف لشخص قبل أخيراً حقيقة فظيعة، «تقول إنك لم تفعل ذلك مع أنه توجد بقع دم على حاشية ثوبك».

أجفلت ونظرت مدققاً في حاشية ثوبي على الفور. هل هذا صحيح؟ هل ما زالت توجد بقع دم منذ ذلك المساء؟ دققت النظر في حاشية ثوبي، ثم فتشت في كمّي، وعلى يديّ وأظافري. كانت جميعها نظيفة. عندما رفعت رأسي ثانية، وقعت عيناي على عيني أبي، عندها فقط فهمت الفخّ الذي نصبه لي.

عندما فتشت في حاشية ثوبي، اعترفت بما اقترفته يداي.

* * *

نعم، كنت قد انضممت إليهم في الحانة في ذلك المساء؛ وأنا من أخبر القاتل أن شمس يجلس في الفناء ويتأمل في كلّ ليلة. وفي تلك الليلة، عندما تحدّث شمس مع قاتله تحت المطر الهاطل، كنت واحداً من الرجال الستة الذين كنا ننصت إليه بجانب حائط الحديقة. وعندما قرّرنا مهاجمته، لأنه لم يعد بإمكاننا التراجع، عندما كان القاتل المأجور يتباطأ في تنفيذ ما اتفقنا عليه، دللتهم على الطريق إلى فناء بيتنا. لكن هذا كل ما في الأمر، فقد توقّفت هناك، ولم أشاركهم في العراك. فقد هاجمه بيبرس، وساعده إرشاد والآخرون. وعندما تملكهم الرعب، نفّذ رأس الواوي ما تبقى من المهمة.

لقد عشت تلك اللحظة مرات ومرات في عقلي، ولم أعد أعرف أين

تكمن الحقيقة وأين يكمن الخيال. ومرّة أو مرّتان، استحضرت إلى ذاكرتي صورة شمس وهو يتملّص من بين أيدينا ثم يهرب ليغوص في عتمة الليل الأسود القاتم. كانت الصورة شديدة الوضوح إلى حد أنني كدت أن أصدقها.

وعلى الرغم من ذهابه، فلا تزال آثاره ماثلة في كل مكان. فقد بقي الرقص والشعر والموسيقى وجميع الأشياء التي خلتُ أنها ستتلاشى عندما يختفي، وظلت كلها راسخة بقوة في حياتنا، وأصبح أبي شاعراً. كان شمس محقاً، فعندما تكسر إحدى الجرتين، فإن الجرّة الأخرى تنكسر أيضاً.

كان أبي رجلاً مفعماً بالحبّ، يحتضن أشخاصاً من جميع المذاهب والأديان. فلم يكن رقيقاً تجاه المسلمين فحسب، بل تجاه المسيحيين واليهود أيضاً، بل وحتى تجاه الوثنيين. وبعد أن دخل شمس في حياته، اتسعت دائرة الحبّ لديه وشملت الأشخاص الأكثر سقوطاً في المجتمع، المومسات والسكارى والمتسولين، أي حثالة الحثالة.

ويخيّل إليّ أنه من الممكن أن يحبّ الأشخاص الذين قتلوا شمس. لكن، هناك شخص لا يمكن أن يحبه: وهو ابنه.

سلطان ولد

قونية، أيلول (سبتمبر) ١٢٤٨

المتسولون والسكارى والمومسات والأيتام، واللصوص... إنه يوزّع كلّ ما يملكه من ذهب وفضة على المجرمين. فمنذ تلك الليلة المشؤومة، لم يعد أبي كما كان. وبدأ الجميع يقولون إن الحزن قد تملّك عقله. وعندما يسأله أحدهم ماذا يفعل، يحكي له قصّة امرئ القيس، ملك العرب، الذي كان رجلاً محبوباً، غنياً ووسيماً، لكنه خرج ذات يوم، بغتة وعلى نحو غير متوقع، من حياته المثالية تلك، فلبس ثوب درويش، وتخلّى عن ثروته كلها، وراح يطوف من مكان إلى آخر.

«هذا ما يسببه لك فقدان المحبوب»، يقول أبي، «إذ إنك تذيب نفسك كملك لتستحيل تراباً وتُظهر نفسك كدرويش. لكن بعد أن رحل شمس إلى الأبد، رحلتُ أنا أيضاً، ولم أعد عالماً ولا خطيباً. إنني أجسّد العدم. ها هنا فنائي، ها هنا بقائي».

منذ عدة أيام، قرع باب بيتنا تاجر أحمر الشعر، بدا أنه أسوأ كذاب على وجه الأرض. فقد قال إنه يعرف شمس التبريزي منذ سنوات

عندما كان في بغداد، ثمّ انخفض صوته واستحال همساً سرياً، وأقسم أن شمس حيّ وبصحة جيدة، وقال إنه يقيم في مكان بعيد عن الأعين ويمارس التأمّل في أشرم بالهند، وأنه ينتظر الوقت الملائم حتى يظهر.

وعندما كان يقول ذلك، لم يبد على وجهه أي أثر للصدق، لكن أبي أخذ يهذي، وسأل الرجل ماذا يريد لقاء هذا النبأ العظيم. ومن دون أي إحساس بالخجل، قال التاجر إنه عندما كان صبياً صغيراً كان يرغب في أن يصبح درويشاً، لكن بما أن الحياة جرفته باتجاه آخر، فهو يرغب في أن يحصل، على الأقل، على قفطان رجل دين مشهور كالرومي. عندها، خلع أبي قفطانه المخملي وقدمه له.

«لكن يا أبي، لماذا أعطيت قفطانك الثمين إلى هذا الرجل وأنت تعلم أنه يكذب؟»، سألته عندما غادر الرجل.

فقال أبي: «أتظن أن ثمن القفطان يساوي ثمن أكذوبته؟ لكن يا ولدي العزيز، تخيّل، لو كان صادقاً في قوله، لو كان شمس لا يزال حياً، لكنت مستعداً لتقديم حياتي من أجله».

الرومي

قونية، ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٦٠

مع الزمن، يتحوّل الألم إلى حزن، ويتحوّل الحزن إلى صمت، ويتحوّل الصمت إلى وحدة ضخمة وشاسعة كالمحيطات المظلمة. يصادف اليوم الذكرى السادسة عشرة للقائي بشمس أمام خان تجار السكر. لقد أصبحت أخلو إلى نفسي التي بدأت تزداد ثقلاً يوماً بعد يوم، أخلو إليها في آخر يوم من شهر تشرين الأول (أكتوبر) في كلّ سنة لمدة أربعين يوماً، وأتمعّن في القواعد الأربعين. أتذكّر كل قاعدة وأراجعها، لكن لا يوجد في حواف عقلي البعيدة إلا شمس التبريزي، متألقاً.

يخيّل إليك أنه لم يعد بوسعك مواصلة الحياة؛ يخيّل إليك أن نور روحك قد انطفأ، وأنك ستعيش في الظلام إلى الأبد، لكن عندما يبتلعك هذا الظلام الدامس، عندما تطبق عيناك على العالم، تُفتح عين ثالثة في قلبك. عندها فقط تدرك أن البصر يتناقض مع المعرفة الداخلية، فلا يمكن لعين أن ترى بوضوح وبحدة مثل عين العشق. وبعد الحزن يأتي فصل آخر، واد آخر، أنت آخر. وتبدأ برؤية الحبيب الذي لا يمكن أن تجده في أي مكان، تراه في كل مكان.

تراه في قطرة الماء التي تسقط في المحيط، في المدّ الذي يلي ظهور القمر، أو في نسيم الصباح الذي ينشر رائحته النقية الطازجة؛ تراه في الرموز والأشكال التي تتشكل في الرمل، وفي الجزيئات الصغيرة لصخرة تتألّق تحت أشعة الشمس، في ابتسامة رضيع حديث الولادة، أو في أحد عروقك النابضة. كيف يمكنك القول إن شمس قد ذهب وهو موجود في كل مكان وفي كلّ شيء؟

وفي عمق ثنايا الحزن والشوق اللذين يدوران ببطء، أكون برفقة شمس في كلّ يوم، في كلّ دقيقة. إن صدري كهف يقبع فيه شمس مرتاحاً، وكما يحتفظ الجبل بالصدى في داخله، يقبع صوت شمس في داخلي. ولم يبق فيّ، من العالم والخطيب الذي كنته، ولا حتى أصغر نقطة. فقد جرف العشق كلّ ممارساتي وعاداتي، وملأني بدلاً من ذلك بالشِّعر. ومع أنني أعرف أنه لا توجد كلمات قد تعبّر عن رحلتي الداخلية تلك، فإني أؤمن بالكلمات. أنا مؤمن بالكلمات.

لقد ساعدني شخصان في أيامي العصيبة: بكر أولادي ووليّ يدعى صلاح الدين، طارق الذهب. فعندما كنت أستمع إليه وهو يعمل في دكانه الصغير، يطرق أوراق الذهب إلى درجة الكمال، أتاني أروع إلهام لوضع اللمسات الأخيرة على رقصة الدراويش، فقد كان الإيقاع المنبعث من دكان صلاح الدين يشبه نبض الكون، الإيقاع الإلهي الذي تحدّث عنه شمس، والذي اهتممت به كثيراً.

ومع مرور الوقت، تزوّج ابني الأكبر فاطمة، ابنة صلاح الدين، التي كانت تذكّرني بكيميا، بذكائها وحبها للمعرفة. فعلّمتها القرآن، وأصبحت عزيزة عليّ إلى حد أنني بدأت أشير إليها بعيني اليمنى،

وإلى أختها هدية بعيني اليسرى. هذا ما أثبتته لي غاليتي كيميا منذ زمن بعيد: بأن الفتيات تلميذات نجيبات كما هم الفتيان، إن لم يكنّ أفضل منهم؛ وبدأت أرتّب جلسات الرقصة الصوفية «السما» للنساء، وأنصح أخواتي الصوفيات أن يواصلن ممارستها.

وقبل أربع سنوات بدأت أنظم «المثنوي»، فقد خطر ببالي السطر الأول منه في فجر أحد الأيام من لا شيء، بينما كنت أراقب نور الشمس وهو يقسّم الظلام إلى شرائح. ومنذ ذلك الحين، بدأت القصائد تتدفق من بين شفتيّ من تلقاء نفسها. ولم أكتبها، وتجشّم صلاح الدين عناء كتابة تلك القصائد المبكّرة، ونسخها ابني كلها. وبفضله عاشت هذه القصائد، لأنه لو طلب مني أن أتذكر أي قصيدة منها اليوم، فلن أتمكن من تذكرها. وسواء أكانت نثراً أم شعراً، فقد كانت الكلمات تنثال عليّ أسراباً ثم تغادرني بالسرعة التي تأتي بها، كالطيور المهاجرة. فما أنا سوى سرير الماء الذي تتوقف عليه وتستريح وهي في طريقها إلى المناطق الأكثر دفئاً.

وعندما كنت أبدأ قصيدة، لم أكن أعرف ما سأقوله سلفاً، ولم أكن أخطط هل ستكون القصيدة طويلة أم قصيرة. وعندما تنتهي القصيدة، كان يتملكني الهدوء مرة أخرى، فأعيش بصمت. وكانت كلمة صمت، أو «خاموش»، أحد التوقيعين اللذين أوقع بهما الغزليات، أما التوقيع الآخر فكان اسم شمس التبريزي.

إن العالم يتحرّك ويتغيّر بسرعة لا نستطيع نحن البشر التحكم بها أو فهمها. فقد سقطت بغداد بيد المغول في العام ١٢٥٨. لقد منيت المدينة التي كانت تفتخر بصمودها وشجاعتها وسحرها وروعتها،

والتي كانت مركز العالم بالهزيمة، ومات صلاح الدين في تلك السنة، وأقمت أنا ودراويشي احتفالاً ضخماً، وجبنا الشوارع نقرع الطبول ونعزف المزامير، ونرقص ونغني مبتهجين، لأن الأولياء يدفنون هكذا.

في العام ١٢٦٠ هُزم المغول على يد المماليك المصريين، وأصبح منتصرو الأمس المهزومين اليوم، فكلّ منتصر ينحو للاعتقاد بأنه سيكون منتصراً إلى الأبد، وكلّ مهزوم يميل إلى الاعتقاد بأنه سيكون مهزوماً إلى الأبد، لكن كلاهما مخطئ للسبب ذاته: فكلّ شيء يتغيّر إلا الله.

وبعد موت صلاح الدين، ساعدني حسام، المريد الذي نضج بسرعة وسار على الدرب الروحي، والذي أصبح يناديه الجميع حسام شلبي، في تدوين أشعاري، وهو الذي أمليت عليه كتاب «المثنوي» كله. كان متواضعاً وكريماً، وكان إذا سئل من هو أو ماذا يفعل، يجيب بلا تردد: «أنا مريد متواضع من مريدي شمس التبريزي. هذا أنا».

وشيئاً فشيئاً، يبلغ المرء الأربعين، ثم الخمسين، ثم الستين من العمر، ومع مرور كلّ عقد، يبدو أنه ازداد اكتمالاً، ويتعين عليه مواصلة السير، مع أنه لا توجد نقطة معينة يمكن بلوغها. فالكون يدور، بثبات واستمرار، وكذلك الأرض والقمر، لكن ما يجعله يتحرك هو سرّ يكمن في داخلنا نحن البشر. وبهذه المعرفة، سنرقص نحن الدراويش بطريقتنا من خلال الحبّ والأسى حتى لو لم يفهم أحد ما نفعله. سنرقص في خضم القلاقل أو في وسط الحرب.

سنرقص في جراحنا وحزننا، ببهجة وانتشاء، وحدنا ومعاً، ببطء وبسرعة، مثل تدفق الماء. سنرقص في دمنا. يوجد انسجام كامل وتوازن دقيق في كلّ ما في الكون وكلّ ما فيه. وتتغيّر النقاط باستمرار، وتحلّ إحداها محل الأخرى، لكن الدائرة تظل كما هي.

وها هي القاعدة التاسعة والثلاثون: *مع أن الأجزاء تتغيّر، فإن الكلّ يظل ذاته، لأنه عندما يغادر لصّ هذا العالم، يولد لصّ جديد، وعندما يموت شخص شريف، يحلّ مكانه شخص شريف آخر. وبهذه الطريقة لا يبقى شيء من دون تغيير، بل لا يتغيّر شيء أبداً أيضاً.*

لأنه مقابل كلّ صوفي يموت، يولد صوفي آخر في مكان ما في العالم.

إن ديننا هو دين العشق، وجميع البشر مرتبطون بسلسلة من القلوب. فإذا انفصلت حلقة منها، حلّت محلها حلقة أخرى في مكان آخر، ومع موت كلّ شمس تبريزي، يظهر شمس جديد في عصر مختلف، باسم مختلف.

إن الأسماء تتغيّر، تأتي وتذهب، لكن الجوهر يبقى ذاته.

إيلا

قونية، ٧ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٩

كانت إيلا نائمة على كرسي بلاستيك بجانب سريره، عندما فتحت عينيها فجأة وراحت تسمع صوتاً غير متوقع. فقد كان أحد يتفوه بكلمات لم تسمعها من قبل في الظلام، ثم أدركت أن صوت الأذان الذي يدعو إلى صلاة الفجر آت من الخارج. كان يوماً جديداً على وشك أن يبدأ، لكن اعتراها إحساس بأنه سيكون أيضاً نهاية شيء ما.

اسأل أي شخص سمع صوت الأذان الداعي إلى صلاة الصبح لأول مرة، وسيقول لك الشيء ذاته. يا له من إحساس غامض غني جميل. ويعتريك في الوقت نفسه، إحساس غريب، يكاد يكون مخيفاً. كالعشق تماماً.

في هدأة الليل، أفاقت إيلا على هذا الصوت. رمشت بعينيها عدة مرات في العتمة حتى تمكّنت من إدراك الصوت الذكوري الذي ملأ الغرفة من النوافذ المفتوحة. استغرقت دقيقة كاملة لتتذكر أنها لم تعد في ماساشوستس. ولم يكن هذا هو البيت الواسع الذي تعيش فيه مع زوجها وأطفالها الثلاثة. كان كلّ ذلك يعود إلى زمن آخر ـ زمن

سحيق، وشديد الغموض إلى حد أنها أحست بأنها تعيش في إحدى قصص الجنيات، ليس مثل ماضيها.

لا، إنها ليست في ماساشوستس، بل في بقعة أخرى من بقاع هذا العالم، في مستشفى في مدينة قونية بتركيا، والرجل الذي يتنفّس بانتظام وبعمق الذي سمعته الآن يدعو بصوت خفيض رقيق إلى صلاة الصبح ليس زوجها الذي تزوجته منذ عشرين سنة، بل العشيق الذي تركت زوجها من أجله ذات يوم مشمس في الصيف الماضي.

«هل ستتركين زوجك من أجل رجل لا مستقبل له؟»، لم يتوقف أصدقاؤها وجيرانها عن سؤالها: «وماذا عن أطفالك؟ هل تظنين أنهم سيغفرون لك؟».

هكذا فهمت إيلا أنه إذا كان هناك شيء في نظر المجتمع أسوأ من أن تهجر امرأة زوجها إلى رجل آخر، فهو أنها امرأة تهجر مستقبلها من أجل الحاضر.

أضاءت مصباح المنضدة وراحت تتفحص وهجها العنبري الناعم، كأنها تريد أن تتأكد من أن شيئاً لم يتغيّر منذ أن غطت في النوم منذ سويعات. كانت أصغر غرفة في مستشفى رأتها في حياتها، مع أنها لم تر مستشفيات كثيرة في حياتها. فقد شغل السرير معظم مساحة الغرفة، ورتب كلّ شيء آخر بحسب وضعية السرير ـ خزانة خشب، ومنضدة صغيرة مربّعة، وكرسي إضافي، ومزهرية فارغة، وصينية فيها حبوب بألوان مختلفة، وإلى جانبها الكتاب الذي كان عزيز يقرأه منذ بداية هذه الرحلة: «أنا والرومي».

مضى على وصولهما إلى قونية أربعة أيام، وأمضيا الأيام الأولى في

المدينة مثل جميع السيّاح الذين يزورون المدينة ـ المناطق الأثرية، والمتاحف، والمواقع الأثرية ـ وتناولا الأطباق المحلية، وأخذا صوراً لكلّ شيء جديد، مهما كان عادياً أو سخيفاً. كان كلّ شيء يسير على ما يرام، حتى البارحة، عندما نُقل عزيز إلى أقرب مستشفى، بعد أن انهار وسقط على الأرض عندما كانا يتناولان الغداء في أحد المطاعم.
ومنذ ذلك الحين، راحت تنتظر بجانب سريره، لا تعرف ماذا سيحدث، تأمل عكس الأمل، وفي نفس الوقت، تتشاجر بصمت مع الله لأنه استردّ بسرعة العشيق الذي منحها إياه في وقت متأخر من حياتها.

«عزيزي، هل أنت نائم؟»، سألته إيلا. لم تكن تنوي إزعاجه، لكنها كانت تريد أن يكون مستيقظاً.

لم يأتها أي ردّ سوى فترة هدوء عابرة في إيقاع تنفّسه، نبرة مفقودة في السلسلة.

«هل أنت مستيقظ؟»، سألته همساً، ثم رفعت صوتها.

«استيقظت الآن»، قال عزيز ببطء، «ماذا في الأمر، ألم تنمي؟».

«صلاة الصبح. . .»، قالت إيلا، وتوقفت كما لو أنّ ذلك يفسر كلّ شيء: صحته المتدهورة، خوفها المتزايد من أن تفقده، والحماقة المطلقة التي ينطوي عليها العشق ـ كلّ شيء يغلّف هذه الكلمات الثلاث.

استوى عزيز جالساً، عيناه الخضراوان من دون أن ترمش عيناه. وتحت ضوء المصباح الناعم، محاطاً بالشراشف البيض، بدا وجهه الجميل شاحباً على نحوٍ محزن، لكن كان يوجد كذلك شيء قوي، بل حتى خالد فيه.

«إن صلاة الصبح خاصة»، همهم قائلاً، «هل تعرفين أن من بين الصلوات الخمس المفروضة على المسلم كلّ يوم، يقال إن صلاة الصبح أكثرها قداسة، لكنها أيضاً أكثرها اختباراً؟».

«ولِمَ ذلك؟».

«أظن لأنها توقظنا من أحلامنا، ونحن لا نحبّ ذلك، بل نفضّل أن نتابع نومنا، لذلك توجد عبارة في أذان الصبح لا توجد في أذان أوقات الصلاة الأخرى وهي: الصلاة خير من النوم».

لكن ربما كان النوم خيراً لكلينا، قالت إيلا لنفسها. لشدّ ما كنت أتمنى أن ننام معاً. كانت تشتاق إلى نوم هادئ، سهل، لا يقلّ سحراً عن نوم الحسناء النائمة، نوم هادئ لمائة سنة حتى تخفف من حدة هذا الألم.

وبعد قليل، توقف الأذان، وابتعدت أصداؤه كالموجات. وبعد أن تلاشى الصوت الأخير، بدا العالم هادئاً على نحو غريب، لكنه كان صامتاً على نحو لا يطاق. لقد مضى عام على لقائهما، سنة من الحبّ والإدراك. وفي معظم تلك الفترة، مكنت صحة عزيز الجيدة من مواصلة السفر برفقة إيلا، لكن صحته بدأت تتدهور في الأسبوعين الماضيين.

راحت إيلا تراقبه وهو ينام ثانية. كان وجهه هادئاً وعزيزاً. امتلأ عقلها بالهواجس. تنهّدت بعمق وخرجت من الغرفة. مشت في الممرات التي طليت جدرانها بظلال من اللون الأخضر، وزارت عدة أجنحة رأت فيها مرضى، من المسنين والشباب، من الرجال والنساء، بعضهم أخذ يتماثل للشفاء، بينما أخذ المرض يشتد على بعضهم

الآخر. حاولت ألا تبالي بنظرات الناس الفضولية، لكن شعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين جعلت غربتها متألقة، فلم تشعر أنها في المكان غير الملائم. مع أن إيلا لم تكن كثيرة السفر والترحال.

بعد عدة دقائق، وجدت نفسها تجلس بالقرب من بركة في حديقة المستشفى الصغيرة اللطيفة، حيث ينتصب في وسط البركة تمثال لملاك صغير، والتمعت في قعر البركة بضع قطع نقدية فضّية، تحمل كلّ منها أمنية سرية لأحدهم. تلمّست في جيوبها وبحثت عن قطعة معدنية، لكنها لم تجد شيئاً سوى قصاصات خربشت عليها بعض الكلمات وبعض الخطوط؛ وما إن وقعت عيناها على الحديقة، حتى رأت بعض الحصى، ناعمة، سوداء، براقة. التقطت إحداها، وأغمضت عينيها، وألقت بها في البركة، ودمدمت شفتاها أمنية تعرف أنها لن تتحقق. ارتطمت الحصى بحائط البركة وارتفعت ثم سقطت في حضن الملاك المصنوع من الحجر.

لو كان عزيز هنا، قالت إيلا لنفسها، لرأى فيها علامة.

عندما عادت بعد قرابة نصف ساعة، وجدت طبيباً وممرضة شابة تغطي رأسها بمنديل في الغرفة، وقد غطت ملاءة السرير وجه عزيز.

لقد مات.

* * *

دفن عزيز في قونية، اقتداء بمحبوبه الرومي.

قامت إيلا بجميع التحضيرات، وحاولت أن تنفذ جميع التفاصيل الصغيرة، لكنها كانت تثق أيضاً بأن الله سيساعدها في الأمور التي لا تستطيع عملها. ففي البداية، أعدّت قطعة الأرض التي سيدفن فيها،

تحت شجرة مانوليا ضخمة في مقبرة إسلامية قديمة؛ ثمّ وجدت عازفين صوفيين وافقوا على عزف الناي خلال مراسم الدفن، وبعثت رسائل إلكترونية إلى أصدقاء عزيز في كل مكان، ووجهت إليهم الدعوة لحضور الجنازة. وسعدت كثيراً، لأن عدداً كبيراً منهم حضروا من أماكن بعيدة، من كيب تاون، ومن سان بطرسبورغ، ومن مرشد آباد، ومن ساو باولو. وكان بينهم مصورون مثله، وعلماء، وصحافيون، وكتّاب، وراقصون، ونحّاتون، ورجال أعمال، ومزارعون، وربّات بيوت، والأطفال الذين تبناهم عزيز.

تمت مراسم دفن دافئة حضرها أشخاص من جميع المعتقدات. وقد احتفلوا بموته، كما كان يرغب، ولعب الأطفال بسعادة، ووزّع شاعر مكسيكي «خبز الموتى»، ونثر أحد أصدقاء عزيز القدامى وهو شخص اسكتلندي بتلات ورد على الجميع، تناثرت فوق رؤوسهم، كانت كلّ بتلةٍ شهادةً ملوّنة بأن الموت شيء يجب ألا يخشاه الإنسان. وقال أحد أهالي قونية، وهو شيخ مسلم محني الظهر، كان يراقب المشهد كله بابتسامة عريضة وعينين ثاقبتين، إنه لم ير جنازة كهذه في تاريخ قونية، فضلاً عن جنازة مولانا منذ قرون خلت.

وبعد مضي يومين على الجنازة، بعد أن عادت إيلا أخيراً إلى وحدتها، راحت تطوف في أرجاء المدينة، تراقب الأسر التي تمر بجانبها، والتجار في محلاتهم، والباعة الجوالين الذي كانوا يلحون عليها لشراء أيّ شيء. كان الناس يحدّقون في هذه المرأة الأمريكية التي تمشي في وسطهم، بعينيها المتورمتين من البكاء. كانت غريبة تماماً هنا، غريبة في كل مكان.

عادت إيلا إلى الفندق، وقبل أن تسدد حسابها وتغادر إلى المطار، خلعت سترتها وارتدت بلوزة من صوف أنقرة بلون الخوخ، لون وديع ورقيق بالنسبة لامرأة تحاول ألاّ تكون كذلك، قالت لنفسها؛ ثمّ اتصلت بجانيت، التي دعمتها، من بين أطفالها الثلاثة، في قرارها باتباع قلبها، وأصرت أورلي وآفي على ألاّ يتكلّما مع أمّهما.

«ماما! كيف حالك؟»، سألتها جانيت، بصوتها المفعم بالدفء.

مالت إيلا إلى الأمام في المكان الفارغ، وابتسمت كما لو كانت ابنتها تقف أمامها، ثمّ قالت بصوت يكاد يكون مسموعاً، «لقد مات عزيز».

«آه يا أمي، البقية في حياتك».

سادت لحظات من السكون عندما راحتا تتأمّلان ما تريدان قوله بعد ذلك. وكانت جانيت هي أول من خرجت عن صمتها، وقالت: «ماما، هل ستعودين إلى البيت الآن؟».

أحنت إيلا رأسها، وراحت تفكر. فقد سمعت في سؤال ابنتها سؤالاً آخر لم يخطر لها. هل ستعود إلى زوجها في نورثامبتون، وتوقف عملية الطلاق، التي تحوّلت إلى متاهة من الاستياء المتبادل والاتهامات؟ ماذا ستفعل الآن؟ فهي لا تملك نقوداً، ولا يوجد لديها عمل، لكن بإمكانها أن تعطي دروساً خصوصية باللغة الإنكليزية، أو أن تعمل في إحدى المجلات، أو من يعرف، فقد تصبح ذات يوم محرّرة جيدة لأعمال أدبية مهمة.

أغمضت إيلا عينيها للحظة، وتنبّأت لنفسها بثقة وبسعادة ما ستحمل لها الأيام القادمة. وبالرغم من أنها لم تكن وحيدة هكذا من قبل، فلم تشعر بالوحدة حقاً.

قالت: «لقد اشتقت إليك يا حبيبتي، واشتقت إلى أخيك وأختك أيضاً. هل ستأتون لزيارتي؟».

«طبعاً يا أمي ـ سنأتي ـ لكن ماذا ستفعلين الآن؟ هل أنت متأكّدة من أنك لن تعودي؟».

فقالت إيلا: «سأذهب إلى آمستردام، حيث توجد شقق صغيرة جميلة تطل على القنوات. يمكنني أن أستأجر واحدة. يجب أن أتعلم ركوب الدراجة الهوائية. لا أعرف... لن أضع خططاً، يا حبيبتي. سأحاول أن أعيش يوماً، وسأرى ما سيقوله لي قلبي، فهذه قاعدة من القواعد، أليس كذلك؟».

«أي قواعد يا أمّي؟ عمَّ تتحدّثين؟».

اقتربت إيلا من النافذة ونظرت إلى السماء الزرقاء في كلّ الجهات، ودارت بسرعة من تلقاء ذاتها، وتلاشت وذابت في العدم، وواجهت احتمالات كثيرة، مثل درويش يدور حول نفسه.

ثم قالت ببطء: «تقول القاعدة الأربعون: لا قيمة للحياة من دون عشق. *لا تسأل نفسك ما نوع العشق الذي تريده، روحي أم مادي، إلهي أم دنيوي، غربي أم شرقي... فالانقسامات لا تؤدّي إلاّ إلى مزيد من الانقسامات. ليس للعشق تسميات ولا علامات ولا تعاريف. إنه كما هو، نقي وبسيط.*

«العشق ماء الحياة. والعشيق هو روح من النار!

«يصبح الكون مختلفاً عندما تعشق النار الماء».

شكر

تعني كلمة دوستات «صديق» باللغة التركية. أود أن أوجه الشكر الجزيل إلى الأصدقاء في جميع الأماكن: اسطنبول وآمستردام وبرلين ولندن. فقد ألهمني الكثيرون في هذه الرواية بقصصهم وصمتهم. وإني أشعر بامتنان كبير لمارلي روسوف، وكيلتي الأدبية، التي آمنت بي منذ اليوم الأول، ولم تتوقف عن الرؤية من خلالي بتلك العين الثالثة. وأشكر العزيز مايكل رادوليسكو على دعمه المستمر لي وإيمانه بي، وعلى استعداده المستمر لتقديم المساعدة. كما أدين لمحرّري، سلوفاكي بول، لمساهماته الثمينة العديدة وحكمته الداخلية، بالإضافة إلى مقترحاته الرئيسية المفيدة بينما كان المخطوط يتنقل بين اسطنبول ونيويورك.

وأدين بشكر خاص للصوفيين في كلّ أنحاء العالم، الذين التقيت بهم في الماضي، والذين لم ألتق بهم بعد؛ الذين ربما يحملون أسماء وجوازات سفر مختلفة، لكن لديهم على الدوام القدرة المدهشة ذاتها على رؤية الأشياء من وجهتي نظر، وجهة نظرهم، ووجهة نظر الآخر. وأشكر أعزائي زينب وأمير وهند وبيزا، على الوقت الذي منحوني إياه، وعلى صبرهم وصداقتهم والمساهمات الثمينة التي

قدموها لي؛ وأتوجه بالشكر الخالص إلى ميركان ديد على رحابة صدره وصداقته الفريدة.

وأخيراً، فإني أتوجه بالشكر إلى أيوب وإلى أطفالي، لأنكم أظهرتم لي، أنا الروح البدوية، أن من الممكن أن أستقرّ في مكان واحد وأن أظل حرة. إن هذا الكتاب مدين لكم بأكثر مما يمكنني أن أعبّر عنه لكم.

المحتويات

الجزء الثاني

الماء : الأشياء السائلة تتغير ولا يمكن التنبؤ بها

الجزء الثالث

الريح الأشياء التي تتحرك، تتطوّر، وتتحدى

الجزء الرابع

النار : الأشياء التي تدمّر وتحطّم

الجزء الخامس

العدم: الأشياء الموجودة من خلال غيابها



هذا الكتاب

تمسك قطعة من الحجر بين أصابعك، ترفعها ثم تلقيها في مياه دافقة. قد لا يكون من السهل رؤية ذلك. إذ ستتشكل مويجة على سطح الماء الذي سقط فيه الحجر، ويتناثر رذاذ الماء، لكن ماء النهر المتدفق يكبحها. هذا كلّ ما في الأمر.

ارم حجراً في بحيرة، ولن يكون تأثيرها مرئياً فقط، بل سيدوم فترة أطول بكثير. إذ سيعكّر الحجر صفو المياه الراكدة، وسيشكّل دائرة في البقعة التي سقط فيها، وبلمح البصر، ستتسع تلك الدائرة، وتشكّل دائرة إثر دائرة. وسرعان ما تتوسع المويجات التي أحدثها صوت سقوط الحجر حتى تظهر على سطح الماء الذي يشبه المرآة، ولن تتوقف هذه الدائرة وتتلاشى، إلا عندما تبلغ الدوائر الشاطئ.

إذا ألقيت حجراً في النهر، فإن النهر سيعتبره مجرد حركة أخرى من الفوضى في مجراه الصاخب المضطرب. لا شيء غير عادي. لا شيء لا يمكن السيطرة عليه.

أما إذا سقط الحجر في بحيرة، فلن تعود البحيرة ذاتها مرة أخرى.

